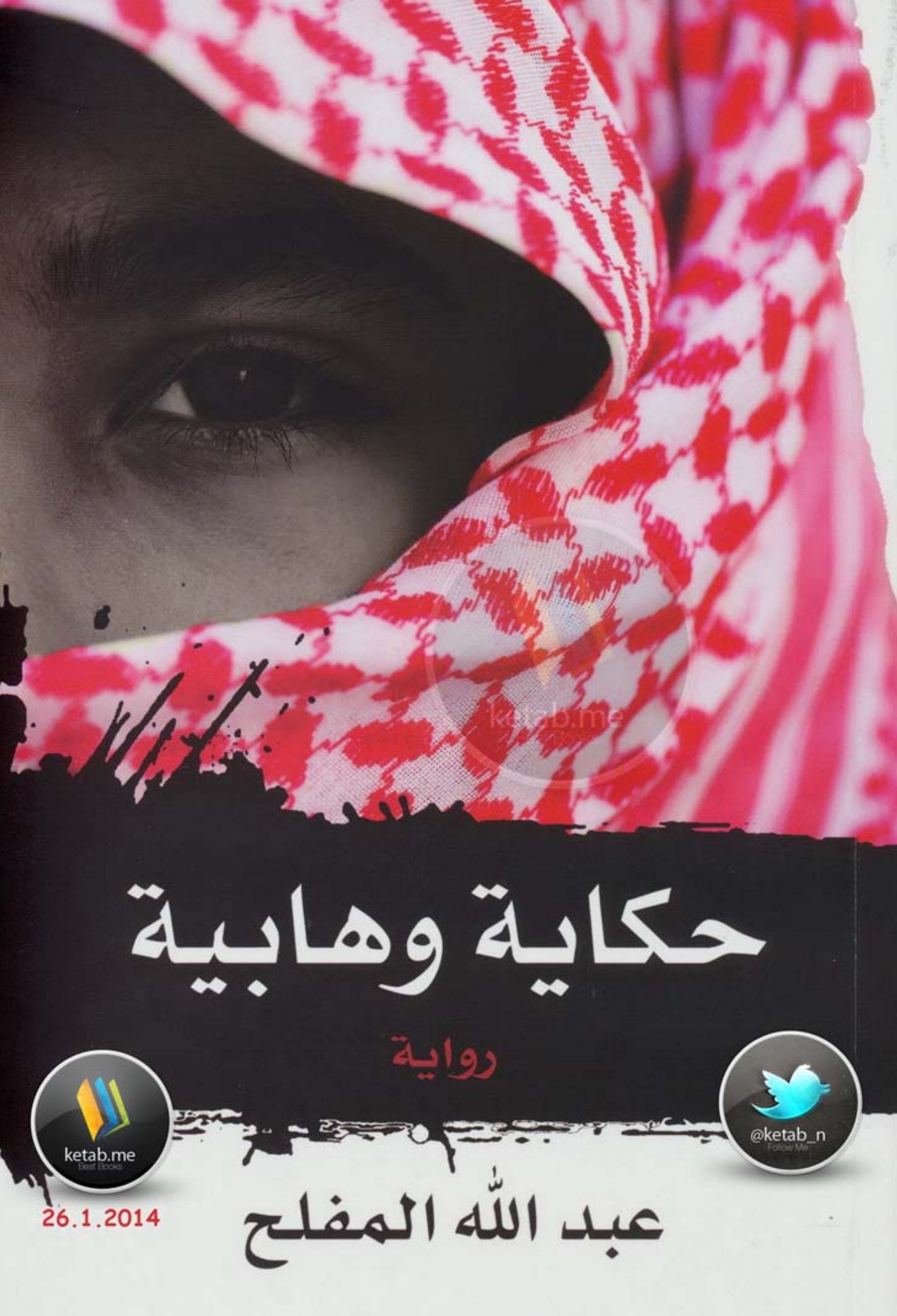


حكاية وهابية

رواية

عبد الله المفلح

المركز الثقافي العربي

عبد اللّه المفلح

حكاية وهابية

رواية



الكتاب
حكاية وهابية
تأليف
عبد الله المفلح
الطبعة
الأولى، 2013
عدد الصفحات: 448
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-586-1

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 ـ 352826 01
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

الإهداء

إلى شخصيات هذه الرواية التي صنعت ما أنا عليه اليوم، فإن كان خيراً فليحمدوا الله، وإن كان شراً فلا يلومنَّ إلا أنفسهم، ثم إلى الأعين الصغيرة المتلصصة، «أهب» حكايتي الصغيرة هذه.

تنبيه: أي تشابه بين أحداث هذه الرواية وشخصياتها مع أحداث وشخصيات من الواقع هو تشابه متعمد يجب أن يقع اللوم فيه على الواقع!

متعب

هكذا وصلني الإهداء، أنشره من دون تعديل...

عبد الله

مرقص الشيخ بخيت

تشعر أنك دخلت مغارة. أول ما تفعله هو أن تحجب بيديك أنوار المرقص الفاقعة التي تتدلى أسلاك بكراتها المعدنية غير المخفية تحت ديكور ساتر عن أن تعشي بصرك فتضل طريقك لتقع في حضن أحد الجالسين أو تلمس يداك ما لا يجوز لهما لمسه. لا ستر اليوم، فمن يأتي إلى هذا المكان يعلم مسبقاً أن الديكورات ستكون كاشفة بالقدر الذي تسمح به قوانين السياحة والصياعة وقانون آدم سميث.

كان المرقص صغيراً. لا غرابة، فالفندق من فئة النجمتين.

خمس، ست، سبع، ثمان، تسع، عشر طاولات صغيرة هو كل ما استوعبته تلك المساحة الضيقة المواجهة للمسرح. مسارح ذوي الدخل المحدود على هذه الشاكلة دائماً. طاولتان في الواجهة للأشخاص ذوي الجيوب المنتفخة. حتى في مكان رخيص مثل هذا ليس الناس سواسية. يجب أن تبرز الطبقية، فهي وحدها التي تسمح لمثل هذه الفنادق بالعمل، لأن أصحاب الأدوار الثانوية في فنادق الخمسة نجوم يجدون التعويض المناسب في لعب أدوار البطولة هنا. حول الطاولتين الصغيرتين كراسي لُفَّت ظهورها بقماش أبيض برَّاق. لا بد أنَّ من اختار هذا اللون أحمقٌ، فمن مكاني أستطيع رؤية اللطخ التي لكثرتها لم تستطع إخفائها الأيدي التي لفَّت رغم مهارتها.

تشعر من الوهلة الأولى لدخولك أنَّك في مكان غاية في الوساخة. لا شك في أن الكل يجمع على تجاهل ذلك لأن أي اتهام لهذا المكان بالوساخة سينسحب على الجميع، على الرغم من أنني أشك في أن أحداً سيعبأ برد اتهام كهذا أو اتخاذ موقف شخصي ما منه...

الطاولات الثماني الأخرى متناثرة بتساوٍ على الجانبين. أربع طاولات في كل جهة وكأنَّها طاولات أفراد الحماية الخاصة بالجالسين على طاولتي الواجهة. قل لي حول أي طاولة في المرقص تجلس أنت أقل لك من أنت، وماذا تعمل، وكم راتبك؟

أرضية مكسوة بموكيت أحمر باهت جداً مطرز بحروق السجائر.

خلفنا نحن الجالسين قبالة المسرح يوجد جدار ينتصفه ديكور خشبي بارز قليلاً تآكلت حوافه بفعل الرطوبة وتدني الجودة. حين تجلس وتسند ظهرك إلى الجدار يرتطم رأسك بهذا الديكور. توجد كتابة بقلم رصاص على الديكور: «إلا القحبة أعيت من يداويها»!

النصف العلوي من الجدار غُطّي بزجاج رخيص كي يُضفي على المشهد بُعداً جمالياً، وكي يسمح للفتيات الراقصات بالحكم على رقصاتهنَّ الجديدة المرتجلة في حينها، فهنَّ لا يجدن الوقت الكافي للتدريب بسبب لياليهنَّ الحمراء التي لا تنتهي إلا مع تباشير الصباح....

أربع فتيات من بلاد شمال أفريقيا يتمايلن على المسرح، إضافة إلى الطبَّال وعازف الأورج.

يقودك مدير الصالة، ذلك هو اسمه الرسمي، «القوَّاد» باللفظة الصريحة، والذي يبدو بجسمه الضخم كفرس النهر وبتقاطيع وجهه

الممسوحة والجافة على الرغم من محاولته ترطيبها بافتعال الابتسام. يقودك محاولاً إحراجك للقبول بالجلوس على إحدى الطاولتين القريبتين. مردداً: «سدأني (صدقني) حأزبطك!»، إن قبلتْ دعوته تلك تصبح خروف تلك الليلة.

الكل يجس نبضك في زيارتك الأولى. يغمز القوَّاد للفتيات بعينيه، فيأتين ليسلمن عليك ما إنْ تجلس، وكل منهنَّ تتغنج تمني نفسها بالفوز بك. الأصغر سناً تبذل جهدها مع الزبون الأصغر سناً، والأكبر مع الأكبر. ليس فقط من أجل ما ستدفعه في هذا المرقص، بل ومن أجل الحصول على رفيق سرير مقارب في السن.

كل ما يفعلنه من تجاهل تام أو استلطاف تام هو تكنيك لتعليقك في حبالهنَّ. تلك تتعمد أن تلقي عليك نظرة عجلى ومتجاهلة. قد تكون من ذلك الصنف الذي يأبى التجاهل فتغضبْ وتعزم على أن تدوس أنفها في الأرض أو في السرير، فتقرر أن تدفع ثمن مضاجعتها تلك الليلة. أخرى تتعمد أن تتوجه إليك بالابتسامات والبوسات والتحنن عليك. إنها تخاطب الطفل الذي في داخلك، فتقرر أن تدفع ثمن تلك الليلة. تنويعات تبدو سخيفة، لكن لأنها تخاطب الرغبة فإنها تنجح تسويقياً، وهو المهم.

إذا جلست في المكان الذي اختاره لك مدير الصالة تكون أقرب إلى المسرح، إلى البنات، إلى تلبية كل طلباتك، وستكون يدك أكثر تردداً إلى جيبك بطبيعة الحال.

لدقائق ستشعر أنك واحدٌ من ولاة الأمر المهمين الذين يُجبِرون الآخرين على الالتفات إليهم. ستقبض على هذا الشعور كما تقبض على جمر. ستكون مركز تلك السهرة فأنت، لأنك مهم جداً، ستدع للآخرين فرصة التفرج عليك. خصوصاً أولئك الذي يفضلون أن

يجلسوا ملاصقين للجدار ليتمتعوا بمساحة أكبر للرؤية والحسد. أنت لا تهتم ولا تنظر إلى الخلف. أنت عريس الليلة.

سيُغنين واحدة بعد الأخرى. على الرغم من أنهن لا يملكن أدنى مؤهلات الطرب: لا الصوت ولا الطبقة ولا الإحساس. كل ما هنالك جسمٌ مثير فقط. طرب بصري بكل المقاييس. الكل يدرك ذلك حتى المطربة/ الراقصة/ العاهرة نفسها.

في السابق كنَّ يرتدين ملابس مثيرة جداً، حتى صدرت أوامر وزارة السياحة بمنع ذلك النوع من الملابس. النظر إلى ملابسهنَّ الحالية يجعلك تدرك أن تعريف الإثارة مختلفٌ فيه. أفكر أحياناً في الذي كنَّ يلبسنه قبل صدور الأوامر. لا أتخيل إثارة أكثر من هذه الملابس! ماذا أكثر من أنك تستطيع أن ترى خيوط ملابسهنَّ الداخلية من شقوق فساتينهنَّ؟!

مؤخرات كبيرة. وصدور نافرة لا حوامل لها. وشعور طويلة وناعمة.

في الغالب تكون فتيات المراقص من بلاد شمال أفريقيا. هنَّ الأرخص ثمناً. سمِعت أن نسبة كبيرة منهنَّ يأتين من دول أوروبا بعد شح الطلب عليهنَّ لتجاوز أعمارهن منتصف العشرينيات. يسميهن الشباب «ستوكات» تحويراً للفظة الغربية stock التي تعني مخزوناً، أو مخزوناً بائتاً كما هو المقصود.

في الفترة الأخيرة وبعد احتلال العراق دخل البرتقال سوق الرقص والأشياء الأخرى.

فضَّلت مكاناً قصياً رغم إلحاح مدير الصالة على أفضلية طاولات «البست» القريبة من المسرح. كنتُ أريد أن أرى صاحبي من دون أن يشعر بوجودي. وفَّر لي أحد الأعمدة الذي اختبأت خلفَه مكاناً

مناسباً. جعلت بيني وبين العمود حوالي المترين بزاوية أستطيع منها رؤية الجميع وقتما أحب من دون أن يستطيعوا فعل الشيء نفسه. زد على ذلك أنني وضعت نظارتي الشمسية على عيني. ليست حركة مستغربة في مكان مثل هذا. كثيرون يتخفون في هذه الأماكن حتى لتبدو أحياناً وكأنَّك وسط حفلة تنكرية. في بعض المراقص الأخرى لا تعود في حاجة إلى وضع نظَّارتك الشمسية على عينيك، لأن الإضاءة تكون خافتة جداً لزوم السرية والعمل المشبوه!

خلفي على بعد مترين من جهة اليمين توجد غرفة صغيرة مثل المطبخ يقبع فيها عامل يمني مسؤول عن توفير الشيشة للزبائن، كان شخصاً قليل الكلام. في المرات القليلة التي طلبت منه مزيداً من الجمر، كان يجيب باقتضاب شديد عن أسئلتي التي كنت أطرحها من أجل التواصل لا أكثر. يبدو لي أن التودد أو التلطف للزبائن كان خاصاً بالبنات اللواتي على المسرح، ولأن تودداً من عامل بسيط قد يمثل إهانة للزبون الذي يبيض ذهباً...

وجود هذه الغرفة إضافة إلى الأعمدة الإسمنتية الكثيرة والدرج الضيق الذي يقودك إلى الصالة والذي لا يفصله عن الحمام سوى رائحة حامضة جداً، يدلك على أن هذا المرقص ربما كان في الأصل مقهى لشرب الشيشة.

قدم رجلٌ في الخمسين من عمره، سلَّم عليه مدير الصالة بحرارة تؤكد عمق العلاقة التي تربطهما. قاده إلى إحدى طاولتي البست. ما إنْ جلس حتى جاءَت الفتيات يسلمنَ عليه. قبلة على الخد الأيمن، أخرى على الأيسر. ذهبن وبقيت واحدة تمازحه.

الطبَّال يرحب بالضيف: هلا بأهل السعودية. نرحب بالشيخ أبو فلان. وينفح هذا الترحيب بابتسامة عريضة باتجاه الشيخ أبو فلان.

إذا تكرمت محظيته فقامت تُغنّي، توجهت إليه بكليتها، بغمزاتها، وتلميحاتها، وإشاراتها، وقبلاتها الهوائية، فلا يجد إلا عقود الورد والتيجان. يشير إلى العاملة الفلبينية المسؤولة عن توفير عقود الورد والتيجان التي تُختار في العادة وفق صفات معينة على رأسها الأمانة والنزاهة والحرص. تبقى الأمانة مهمة جداً في مكان مثل هذا! منذ أن ترى العاملة الفلبينية الإشارة تأتي حاملة بضاعتها. يأخذ بيده عقداً أو اثنين ويقلدهما محظيته. عقد الورد بـ100 ريال. التاج بـ500 ريال. تسجل العاملة الفلبينية في ورقة صغيرة منتزعة من دفتر رخيص مبلغ الورد والتاج المباع، ثم تضع هذه الورقة على طاولة الزبون. وكلما طلب المزيد من الورد أو التيجان جاءته بها وأضافت المبلغ في الورقة.

الطبَّال الملسون يصرخ بينما الأغنية تدور: عاش أبو فلان. أبو الغمال والحلاوة. عاش أهل السعودية.

زجاجات الشمبانيا على الطاولة، في السطل الصغير الذي يمتلئ بالثلج. يفتح النادل إحداها لأبي فلان بحركة فنية، يجعلها تفور. منظر مغرٍ...

يكرع كأسه الأول ثم الذي يليه ثم الذي يليه. وتبدأ عقود الورد والتيجان في التوالد، كما لو أنَّه ماكينة دبَّ الزيت في أوصالها بعد توقف. في السابق كانت «النقوط» تنثر على رؤوس الراقصات مباشرة، حتى صدرت الأوامر بمنع ذلك، فاستُعيض عنها بعقود الورد والتيجان. صدرت الأوامر في ما بعد بمنع عقود الورد والتيجان أيضاً. يبدو أنَّ لا وازع يمكن أن يحقق المطلوب في مثل هذه الأمكنة.

بحركة فنية رخيصة ومبتذلة تشبه غمزة خمسينية مترهلة، تدخل فجأة وفي منتصف الحفلة مطربة خامسة تلبس العباءة والنقاب! ليست

سعودية، لكن العباءة والنقاب مهمتان وباعثتان على إغراء الجمهور السعودي الساذج أو الجديد على كار المراقص. العضو الجديد مهم جداً في أمكنة كهذه. تُغني لطلال مداح ومحمد عبده لتأكيد سعوديتها؛ ذلك التأكيد الذي ينحلّ بمجرد أن تطلبها للجلوس معك. في دقيقة تكتشف أنها ليست سعودية وأنَّ القوم إنَّما يلعبون على الرغبة في مضاجعة سعودية أو من تشبه السعودية!

لكل مرقص طريقته في ضمان أمنه وسلامته من هجمات وزارة السياحة لمراقبة تطبيق القوانين بخصوص الورد والتيجان وملابس الراقصات. بعض المراقص تضع حارساً خاصاً في ردهة الفندق للتحذير من وصول مسؤول السياحة من خلال خط ساخن أو من خلال الهاتف الجوال.

بعض المراقص ومنها هذا المرقص يضع لدى موظف الاستقبال زراً مرتبطاً بأنوار المرقص، الحمراء منها فقط. وحين يشك في أن الشخص القادم قد يكون أحد مسؤولي السياحة، فإنَّه يضغط الزر مرتين أو ثلاث فتومض الأنوار الحمراء بشكل متقطع في المرقص، ويفهم الكل أن هناك خطراً قادماً. تهب العاملة الفلبينية لجمع الورد المتحلق حول أعناق الراقصات فتخفيه في الغرفة الصغيرة الخاصة بالشيشة، وتختفي من المشهد بعض الراقصات اللواتي يلبسن لباساً فاضحاً، نسبياً.

يأتي مسؤول السياحة، ويجلس. يقابله مدير الصالة بترحاب شديد. يطلب له كأساً من العصير على حساب المرقص. يقضي دقائق ثم يخرج بعد أن تأكد أن كل شيء على ما يرام. وأن الناس لا تصرف أموالها في ما لا ينفع!

من مكاني أشاهد كل شيء. إحداهنَّ تنظر إليَّ. تغلف نظرتها

بشيء من إثارة. تضغط على شفتيها بأسنانها. أتظاهر بأنني لا أراها. النظارة تخفي عيني.

لم يصل حتى الآن. أشك في أنه سيأتي بعد هذا الوقت. إنها الواحدة صباحاً. المرقص يفتح أبوابه في التاسعة ولا يقفلها حتى الثانية فجراً.

أسمع أحد الزبائن من مكاني يفاوض إحدى الفتيات الأربع. تنادي مدير الصالة الذي يأخذ الزبون إلى طاولة خارج المرقص للتفاوض. في العادة تكون أسعار هؤلاء الفتيات أعلى من العاهرات لقلة الورود عليهنَّ، ولأنّه يجري التعامل معهنَّ بصفتهن فنَّانات، وأن تقضي ليلتك مع فنَّانة ليس كمثل قضائها مع «قحبة»!

وصل قبل أن أهم بالخروج وفي معيته شابٌ يافع! لقد سمعتُ أنه يصاحب شباباً صغاراً وأدهشني ذلك، لكنني أتفهمه، فبخيت لا يريد أن يصاحب أحداً يعرف ماضيه، ولأن كل مجايليه لا ينطبق عليهم هذا الشرط، فهو لا يجد أفضل من رفقة الشباب الصغار «الخام»، فهو من الأشخاص الذين يهتمون بصورتهم لدى الآخرين. ليس لوطياً ولم يكن يوماً كذلك.

في أيام تدينه كان يخالط الجميع بمَن فيهم الشباب اليافعين، وهو أمرٌ كنتُ أجده طبيعياً من ناحية حرصه، بوصفه داعية مؤثراً في استقطاب الشباب المقبل على الله، لكنني لم أتخيل ولو لوهلة أن يصادق بعد تركه التدين شباباً يافعين تصل علاقته معهم إلى هذا الحد من الخلطة.

يرفض دعوة مدير الصالة للجلوس على إحدى طاولات البست، ويأخذ مكاناً في الجهة اليسرى من المسرح على الرغم من إلحاح مدير الصالة الغث.

مازحه مدير الصالة على نحو يبدو منه أنّ بخيتاً زبونٌ دائم. بخيت يحب المزاح كثيراً. أتت الفتيات للسلام عليه، وقام ليقبلهن واحدة واحدة... لا أحتمل المنظر. بلمحة بصر أتذكر بخيت الملتحي الناصح الأمين...

شيء ما يتحرك في مكان ما داخلي. كرة بولينغ ثقيلة جداً تتمطى في حنجرتي.

شيء مني انتُزِع كما لو أنَّه درع. وشيءٌ جديد اخترمني في مكانه. شيءٌ له رائحة الإحباط ولون وثِقل كرة البولينغ.

فوضى الدوافع تربكني كالعادة. الأسئلة إياها تخترمني. لماذا وكيف وأين ومتى حصل كل هذا؟

أشعر باختناق. أسحب نفساً لأملأ رئتي بالهواء وكأنني أُحضِّر نفسي لغطسة طويلة.

يعاودني الهدوء.

ما الذي يجعلني أرتبك على هذا النحو، وأنا أفعل ما هو أسوأ من بخيت بمراحل؟

من أخدع بهرائي هذا؟

يجيل بخيت بصره في المرقص. أختفي خلف العمود. يمد عنقه ليرى إن كان ثمة أحد هناك. لا ألتفت ناحيته. صاحبه يركز كرسيه على قوائمه الخلفية، ويمد عنقه هو الآخر ليرى إن كان ثمة من يختفي هناك.

ما الذي يخيفهما؟

تدور الموسيقى. تُغنَّى الأغنية المفضلة لبخيت. هكذا قال الطبَّال: «عشان خاطر عيون الشيخ بخيت!»

الشيخ بخيت!

شعرت بالاختناق. كرة البولينغ تخرج من ضيق حنجرتي لتستقر فوق رئتي لتسد مجرى الهواء، ثم تنحط على أضلاعي فتهشمها.

وجودي كان خطأً، لقد ضغط عليَّ كثيراً. عزمت على الخروج. رفعتُ ياقة قميصي لأغطي بها فمي. لا أريده أن يكتشف أنَّه أنا. أشعر ببرودة تسري في جسدي بسبب كرة البولينغ الباردة جداً.

كنت مجبراً أن أنكشف للكل في طريق خروجي، فالمخرج أقرب للجهة اليسرى، القريبة من طاولة بخيت. لا يفصل بينهما إلا أمتار قليلة.

أمشي بدون أن ألتفت. فقط عيناي تتحركان، تخبئهما النظارة. ألمح بخيت بشكل جيد. كان ينظر إليَّ وأنا أهم بالخروج. يمعن النظر. وقبل أن أصبح في الخارج سمعته ينادي اسمي، خرجت من دون تلكؤ...

خلعت نظارتي وجلست في سيارتي لبضع دقائق أستنشق بعض الهواء. أنظر إلى شريط حسين الجسمي في مسجلة السيارة. كانت أغنيته «أنا الشاكي» تصدح في المرقص: «أنا الشاكي أنا الباكي أنا الحسَّاس»، كانت مغنية المرقص تستبدل العبارة الأخيرة بـ«أنا الحشَّاش». كانت تقولها وهي تضحك وتضع أصبعين على شفتيها كمن يدخن. شعرتُ حينها بعدائية ضد حسين، ضد الطرب، ضد كل ما يتعلق بالطرب.

لا أدري هل بسبب بخيت أو بسبب الرجل الأشيب أو بسببي. لا أدري بالضبط. أشعر أن مكاناً كهذا يفضح العدائية المختفية، يعترف بوجودها، ويوجهها. كل ما كان في ذلك المرقص كان عدائياً على نحو أعجز عن وصفه.

أفكر في أن وجود الأجهزة الشرعية بأنواعها هو الذي يمنع وجود أمثال هذه المراقص في بلدي. أشعر بالامتنان لهم، لكنني أشعر أيضاً بالخيبة لأن رقابتهم لا تنجح في منع الناس من قصدها. أفكر في ألوف المراقص التي على شاكلة هذا المرقص، في الناس الذين يرتادونها، فيَّ أنا.. في معنى أن يذهب الواحد إلى مكان يحتوي كل ما هو مُحرَّم عليه شربه أو فعله، وفي سهولة ذلك بإزاء تعقيدات التفسيرات والتبريرات. أتذكر مقولة دوستويفسكي في «الإنسان الصرصار»: «هل يستطيع إنسان يتمتع بالإدراك أن يحترم نفسه؟». يزداد تشوشي أكثر! لعلها تصدق في حق بخيت أكثر مما تصدق في حقي.

يختلط عليَّ الأمر، يختفي بخيت فجأة بينما يبقى المرقص بأسئلته المرَّة في الواجهة. كان الأمر أكبر من بخيت. أنا مشوش جداً. لا أدري لماذا جئت، وماذا كنت أتوقع أن أجد، وماذا سأفعل الآن.

حين تخرج من كهف غرائزي كهذا تشعر أنك عُجنت، كما لو أنَّك صلصال في يد طفل عابث. عجينة.

عجينة بشرية هي قصتي، قصته، قصة الرجل الأشيب، في انتظار الخميرة.

المنتكس

هل هناك طريق ثالث؟

هل تستطيع أن تعيش حكايتك الفردية الخالصة النشاز على المتن؟ هذا على اعتبار أنَّك تدرك على نحو مقبول حدود كل من «ذاتك» و«المتن» و«الهامش». بل وتدرك ما هو أهم، «النشاز» الذي يربط بين كل هذه، إنْ أمكن بأي كيفية اعتبار النشاز رابطاً.

الحقيقة الأكيدة اليوم هي أنَّ الحدود قد سقطت. وأنَّ الألوان قد تداخلت، وأنَّ الخط الفاصل بين المتن والهامش قد اختفى. وأننا، أبناء جيل الصحوة الذين انتكسوا، بتنا كأبناء المُطلَّقة الذين لا معيل لهم وتتمنى والدتهم لو كفاها والدهم شر إعالتهم.

أي الطريقين أودى بي، المثالية أو «الضبط»؟ هل هما الشيء نفسه؟ لماذا أنا هنا، وعلى هذه الحال؟ ولماذا هم هناك، وعلى تلك الحال؟ لماذا لا يكونون ما يجب عليهم أن يكونوه؟ ولماذا يجب عليهم هذا، ويسقط عني؟

عالم المنتكِس هو عالم الأسئلة التي كما هي الفيروسات تعيد تحصين نفسها، وعالم الإجابات التي كما هي المضادات تقليدية جداً!

عالم المنتكس منتكسٌ هو الآخر، يشبه حياة الضحايا الذين

ينتظرون الإعدام. يفقدون إحساسهم بالمعنى المفتوح للوقت ولا يبقى مفهوماً لديهم سوى بدائية الأرقام الصماء. يكرهون هذا، لكنهم لا يستطيعون فعل شيء بشأنه فلقد سُلِبوا كل شيء، ولو لم يكن مهماً أن يكونوا عبرة لما كانت هناك حاجة من وجودهم.

نحن المنتكسون مساكين، فنحن يتامى عصر مضى وموؤودو زمن حاضر، فأين المفر وكل طريق ثالث يبدو كثالثة الأثافي التي توقد عليها أقدار ذواتنا الشريرة وأرواحنا البائسة.

لا تدري عن شيء. ولا تريد أن تدري. لم تعد العودة ممكنة، ولا التقدم آمن. كلاهما مغامرة خطيرة في ما لا ينبغي «المقامرة» فيه. كان يجب أن تذوب في مكانك كقطعة ثلج، أيها العدَّاء السريع.

يُطلق سراحك، فالصيَّاد يريد أن يتمتع بملاحقتك ولا نستطيع إبقاءه عاطلاً لوقت أطول. تجري بأمانة وصدق وإخلاص شديد بحثاً عن مخرج. تشعر أنها فرصة عمرك، وأن الله قد أذِن أخيراً بخلاصك مما وقع عليك من ظلم. تسقط، فتقوم بسرعة كمن يلحقه كلب سلوقي. تجري كصاحب تولستوي الذي ضمنوا له أن يملك ما يريد من الأرض شرط أن يقطعها على قدميه وأن لا تغرب الشمس قبل عودته. وصل إلى خط البداية أو النهاية بعد الغروب بلحظة، لكنه لم يستطع الاحتمال فسقط صريع اليأس أو الإعياء أو الأمل، لن يدري أحد على وجه الدقة أيها صرعه. لم يتبق له من كل تلك الأرض الشاسعة التي قطعها سوى مترين دُفِن فيهما بملابسه، ولم يُصلَّ عليه، ربما لأنَّه شهيد أو لأنَّه قاتل النفس التي حرَّم الله.

أنت تركض مثله. تبحث عن حلم مماثل، عن أمل مشابه.

تصاب بالخيبة مع ألم في المعدة وفزع في عينيك حين تعلم أنك عُدت إلى المكان نفسه الذي هربت منه. هذا مستحيل! لكنها أرض

جرداء يا صاحبي وليس ثمة أعلام. وأنت تجري لا تدري أين يجب أن تكون عيناك: أفي موضع قدميك أم في ما حولك. إن اخترت أن تبقيهما في موضع قدميك تهت، وإنْ أبقيتهما في ما حولك سقطت على وجهك. وكما أن خير الأمور الوسط، فشرُّها أيضاً الوسط!

أرأيت كيف أنَّك أسوأ ما يمكن أن يحدث لك. من يضمن لك أنَّك لم تكن تجري في دائرة! لعلها دائرة سيرك. لعلك قرد صغير مربوط عنقه إلى حبل يمسك بطرفه السيد. من أنت، وماذا تريد، ولماذا تركض هكذا، ولـِمَ أنت تعِب، ومن هذا الذي يقف بعيداً يدخن سيجارته ويُصوِّب بندقيته نحوك؟

آه إنها الأسئلة القبيحة إيَّاها!

اركُض يا هذا. اركض يا ابن الحسين. ستقاتل صديقاً خائناً، يطلق عليك النار بدمٍ بارد...

تركض هذه المرة وأنت تنظر حولك تتأكد من أنَّك لا تدور في دائرة، بينما كان من الواجب عليك أن تنظر إلى الذي يُصوِّب بندقيته نحوك. لن يصبر طويلاً هذه المرة. طرااااااااخ. طلقة واحدة صغيرة تخترق حجاب عالمك الخاص فيخرج هواء رئتيك مع الفتحة الصغيرة التي صنعتها الطلقة. لست في حاجة لكرة بولينغ توضَع على قلبك فتقتلك. ليس لك حق على الإطلاق إلا في أن تكون ضحية. لا أحد يناقش أخطاء الصيّادين واشتراطاتهم، لا يفيدك هذا. كان يجب عليك أن تحتاط، وأن تحسب خطواتك، وأن تحمل بوصلتك ليس لكي تحدد بها وجهتك، بل كي تحدد بدقة مكان الصيَّاد فتتفادى وضع نفسك في مرمى بندقيته، هو ماهر جداً. لقد رهنوا حياته مقابل حياتك من خلال طلقة واحدة فقط! إذا أخطأك لن يصيبك مرة أخرى. إذا أخطأك باتت كل الأماكن مناسبة. هذا لا يعني أنَّك ستنجو

إن أخطأك، بل يعني فقط أنَّك تجاوزت المرحلة الأولى وأنَّك خصم مناسب، يحتاج إلى صيّاد أكثر دقة في المرحلة التالية. إنَّه يعني أنَّه ليست لديك أدنى فكرة عمَّا ينتظرك...

يُقال إن البرزخ هو منطقة وسط بين الحياة والموت، لكنك لا تستطيع الوصول إليها قبل أن تحيا فتعرف معنى أن تحيا، ثم تموت فتعرف معنى أن تموت. الذين يرفضون الموت ثم لا يعرفون كيف يقبلون الحياة، والعكس هم في الأصل لم يعرفوا أياً منهما. وهم بالتأكيد لن يعرفوا ما أعنيه بكلمة «برزخ».

الحياة ضرورة للشعور بالبرزخ وفهمه، والموت هو اللغز الذي يحل معنى البرزخ. أنت في الحياة تستطيع أن تتخيل البرزخ، أما في الموت فأنت تعيشه.

كثيرون هم الذي ينتقلون من معسكر الأحياء إلى معسكر الأموات. لم يقرر أحد قبلي أن يفعل العكس. فعلتُ العكس. كنتُ الوحيد الذي تمرد على عالم الأموات فانتقل للعيش وسط الأحياء المغرورين المتكبرين!

تستطيع أن تتخيل حياتك من دون التدين. أن تنتكس يعني أن تعيش ذلك عملياً. هناك بون شاسع جداً، خصوصاً في السعودية، حيث تعيش وسط مجتمع لا تعرفه بدقة. مجتمع قادر على أن يخترع لك حياة أخرى في ثانية واحدة.

حين تنتكس فأنت تفهم معنى أن تكون متديناً بأثر رجعي. لا شيء يوفر لك هذا الفهم سوى الانتكاس، لا التدين ولا العلمنة ولا الإلحاد ولا الذكاء ولا الفكر ولا الحشيش، فقط الانتكاس، بشرط أن تعي معنى أن تنتكس. الانتكاس الحقيقي الذي يقوم على وعي الذات والخارج هو وحده ما يعطي صاحبه حقاً حصرياً في فهم ذلك

الماضي. الانتكاس الذي لا يستطيع صاحبه - رغم محاولاته الكثيرة - أن يترك كل شيء وراءه.

حين تتدين في السعودية تغدو مقدساً أكثر مما تتصور. إذا تغيرت أو «انتكست» بعد ذلك، فهذا يعني أنَّك كنت في الأصل شيطاناً، لكنك لعبت بخبث شديد لعبة «الطهارة» المربحة. ولذا ستدفع الثمن مضاعفاً، ثمن خداع هؤلاء الناس الأتقياء، وثمن الانضمام إلى هذا المحفل الشيطاني.

حين تتدين فأنت تُديِّن كل ما حولك بطريقة لا إرادية. تهجس باللحى وبالثياب القصيرة وبالحجاب الساتر وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالجهاد وبالمقاومة والشهادة والتضحية والفردوس الأعلى. منذ تدينك يبدأ ألمك وكمدك إن كنت مثلي بطبيعة الحال عاطفياً تتمنى الخير لأهلك وناسك ومجتمعك ووطنك وأمتك والعالم، ذلك النوع من العاطفة الذي يتحول ليصبح «ضبطاً». تصبح أحد خرفان المسيح «أصبحت خروفاً، ولكن ذئباً يكمن داخلك، وهذا الذئب سينهشك»، كما قال كانتزاكيس.

التدين ليس لعبة، ولذا فلا بد أن يكون حرباً، لأننا لا نحسن سوى هذه أو تلك. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾. ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾. في كل الأحوال ستعاني، لكن المعاناة الأشد ألماً تكمن في أنَّك لا تدري إن كان ما تعانيه جهاداً أم ضنكاً، لأنك لا تدري إن كنت طائعاً أو عاصياً، وليس من سبيل بيِّن للقطع. ستجد مبرراتك الخاصة لهذا التشوش، قطعاً. وستجعل من هذا التشوش نفسه عذراً لك أمام الجميع، بل حتى أمام الله.

التخلي عن التدين هو بمثابة تركك لهُويتك التي قضيت سنوات

طوال تشتغل بأمانة على تجذيرها وتكريسها واستكمال فضائلها، انتحار حقيقي. شيء يشبه الانقلاب على قيم القبيلة في عالم شديد القبليّة.

إنه شيء يشبه بالضبط ما واجهه المسيحيون حين انقلبوا على الدين الإقطاعي فهزمتهم جحافل الأسئلة الوجودية الكبرى.

انقلابي غريب بعض الشيء، لأنني على الرغم من تداعيات هذا الانقلاب، ما زلت أحتفظ ببعض الحقائق الخاصة التي لم تمس، ويعجبني أنَّها لم تمس! لعلها هي سر وعيي بالانتكاس. ما زلت لم أتحرر من سيطرة «الوجودية الإسلامية» وإجاباتها التي هي على خلاف كل الإجابات المتنوعة التي صاولتها «ممكنة» و«قريبة» و«معقولة»، هذا إن كان أحد يفهم ما أعنيه بالوجودية الإسلامية التي يبدو أن لا وجود لها سوى في مخيلتي!

لم يكن أمامي إلا البحث عن طريق آخر. لم تكن لدي الكثير من الخيارات، بالضبط كما لم يكن لدى المسيحيين الكثير منها. لكنني، وعلى الرغم من أنني على خلافهم لم أكن في عجلةٍ من أمري، إلا أنني كنت قد مللت انتظار اللحظة المناسبة والفرصة السانحة، بل وكرهت أن أتعامل مع ما سأختاره بذهنية «النفعية» و«السياسة» و«الانتهاب». لقد تركت كل شيء للوقت الذي كما أنَّه يأتي بالفرص المناسبة يأتي أيضاً بالصدف القاتلة.

لم يكن من السهل عليَّ ترك التدين، أو انتزاعه من داخلي. كان وجوده إسمنتياً، وكأنه وُجِد ليعيش في أعمق مكان من كهفي السري الذي أقبع فيه عارياً بارداً ضعيفاً ومنبوذاً.

لم أستطع، بل ولم أرد أن أتقيأ ذلك التدين الذي تدينته، بالطريقة ذاتها التي تقيأ فيها أبو حامد الغزالي الفلسفة وعلم الكلام.

لستُ نادماً لأنني لم أستطع التخلص من ذلك التدين، ولم يكن ذلك هدفي في أي لحظة من لحظات حياتي، لكنني واجهت مأزقاً جديداً لم يطف في مخيلتي يوماً، على الرغم من إيماني العميق بالقدر، وعلى الرغم من أنني من أولئك الناس الذين يحسبون حساب الأشياء مضاعفة.

إنه شيء يشبه حالة الطوارئ المفاجئة التي باتت بفعل ما نتج عنها من نتائج مأساوية هي الأصل. تماماً مثل الحوادث التي تتسبب بفقدان اليد أو الرجل أو الشلل؛ تحكم الباقي من حياتك. هل كان اختباراً لهذا الإيمان العميق بالقدر؟ هل كان امتحاناً من أجل إثبات ضعف قدرتي على «الضبط» في حساب الأشياء مضاعفة؟

لا أدري.

لا أريد أن أتخلص منه بالكامل. على الرغم من أن التدين في جوهره هو نوع من التسليم المطلق الذي يُخدِّر عقلي المتردد جداً، إلا أنني أدرك جيداً أن الحل قد يكون في هذا النوع من التدين والتسليم العميق والبسيط والذي لا يثير الكثير من الأسئلة والتشوشات. الإيمان العميق قد لا يجيب عن كل الأسئلة لكنه يُعرِّفك حجمك وحدود معرفتك ومداها بطريقة «عقلانية»، فيريحك. الشك إدمان. وأنا لا أهتم كثيراً بهرطقات من يتكلمون بطوباوية عن فضيلة الشك ووجوب الاستمرار في طرح الأسئلة التي لم تزل غير مجاب عنها منذ زمن سقراط.

من عساه يستلذ بالعيش كعلامة استفهام كبيرة وبائسة؟

لا أريد أن أبدأ مراجعتي بأي انطباعات أو افتراضات سابقة. أنا أدرك جيداً أن كل شيء ممكن وأن الحلول «المتنوعة» و«النسبية» موجودة، وأنَّها قد لا تكون بالضرورة «عقلانية» أو «إنسانية» أو حتى

«دينية». ما أرغب فيه هو أن أكتشف هذا بنفسي. وأرجو ألا أخون هذه الرغبة، على الرغم من عدم وجود ضمانة.

في السعودية تكتشف أنَّ كل شيء مرتبط بالدين. حتى الخروج منه!

بدأتُ أشعر أنني في خضم حكاية تشبه حكايات المرتدين عن الدين. أولئك المجرمين الذين ينتهي بهم الأمر إلى التواقح على الله وعلى دينه.

تصبح نهباً وأسيراً للألغاز. الألغاز المؤذنة بالهرطقة.

الخطير في أمر الانتكاس أنَّك تلجه شيئاً فشيئاً كما هي خطوات الشيطان. حتى لا تعود تعرف خطواتك من خطوات الشيطان. وعلى الرغم من قدرتك التبريرية الرائعة، فإنَّك لا تجرؤ على اتهام الشيطان، فليس ثمة آثار أقدام سوى آثار قدميك، وأنت تعرف هذا جيداً.

إنه شيء يشبه السرطان، حيث تضعف قواك وينحل جسمك وتبدأ مقاومتك الجسدية والنفسية تتهاوى. يصيبك اليأس، فلا شيء قادر على إيقاف ما يجري. أنت لوحدك. في مواجهة مارد، أقوى ما تواجهه به هو معرفتك بضعفك وغموضه، معرفة لا تفيد كثيراً وسط هذا العالم «القاطع» في اختياراته ومواقفه، الزاخر بمشانقه الجاهزة لأولئك الذين لم يحسموا خياراتهم.

إلى ماذا تنحاز وبِمَ تلوذ وماذا ستفعل لتبقى ذاكرتك، ليبقى أملك أو حلمك في أن تعيش كالآخرين؟ لا شيء. أنت تفقد كل علاقة مع ما حولك. قلاعك تتهاوى ومدنك تسقط، أيها المغامر...

أنت تعبر القنطرة بين العالمين. لا تجرؤ على عبورها وأنت لا تحمل مؤونتك النقية على ظهرك. ولا تجرؤ أن تعبرها عارياً وبارداً ومنبوذاً، لكنك تُفاجأ بسرَّين صغيرين: لم يكن ثمة قنطرة، هذا هو

الأول، ثم إنَّك عبرت وأنت تحمل «فايروساتك» الصغيرة بين طيات مؤونتك النقيّة إلى عالمك الجديد، وهذا هو الثاني! بؤسٌ لا يمكن تجنبه، وسيكون عليك أن تتحمله كما لو أنَّه جنينك السفاح الذي تجاوز وجوده في رحمك الأربعة أشهر. ستطير حياتك منذ اليوم على جناحي التجنب والاحتمال مثلما طارت في السابق على جناحي الخوف والرجاء.

أنت كمن يريد أن يُعرِّف الأشياء والأفكار والأشخاص من جديد. وللأسف، لن يكون الأمر سهلاً. هذا العالم ليس بيتك الذي تستطيع إن أحببت، فقط لمجرد التغيير، أن تدخله من النافذة.

أنت لوحدك. ولا تملك وعياً كافياً. أنت مشوش. هارب من كوخك الصغير الذي ترى من بعيد الغزاة وهم يشعلون فيه النار. ما أمامك مخيف ومجهول...

انتبه فالكل ينتظر حركتك الأولى. احم صدرك من تلك الطلقة الصغيرة، ودع ظهرك يوفر لك سلوى التبرير الأخير.

لم تعد تستطيع الانتحار، فلقد كشف لك التدين، لسوء حظك، ما ينتظرك إن فعلت. هذه هي ضريبة المعرفة. النقش الأمين على حجر الكهوف السرية. نار المعرفة المسروقة قد أضاءت، ومات بروميثيوس الذي يملك وحده القدرة على إعادتها إلى مكانها.

لم تعد تستطيع تجاهل كل ما حصل. ما حصل قد حصل، وأنت الآن شخص آخر بهوية أخرى مجهولة.

لا تستطيع أن تمسك العصا من المنتصف، لأنك لا تستطيع أن تستغبي الآخرين. ثق أنَّهم في ما يخص هذه المواضيع واعون وحازمون ومراقبون على درجة عالية من المهارة.

لا تستطيع أن تتوقف وسط هذا اللجة الغريبة. خصوصاً والجميع

يدركون أنَّه رغم أنَّك سبَّاح ماهر، إلا أنَّك ما زلت تواجه صعوبة في التوقف في مكانك، تلك المشكلة التي اضطرّت مدرب السباحة في الجامعة لأن يطلب منك كي تنجح في مادته أن تقفز من السلم الصلب الذي يرتفع عشرة أمتار عن الأرض، وفعلتها!

يعرف الناس جيداً أنَّك لست أهلاً للثقة، ككل المغامرين. من عساه يثق بشخص يعرف كيف يموت غريقاً أكثر مما يعرف كيف يتوقف كي يلتقط أنفاسه؟!

أنت في فوضى، في انقلاب.

يقصر الوقت في زمن الانقلابات، وتمتد نتائجه. لقد خرج الضابط المغمور في غفلة، لبس لأمة الحرب، وتأكد من وجود درعه على صدره وها هو يحضر نفسه للحكم كديكتاتور جديد.

أين كان الجميع حين حصل كل هذا؟

كانوا مشغولين باختياراتهم التافهة.

أنت أيضاً اخترت، لكنك لا تدري ما الذي اخترته بالضبط. ولا تدري نتيجة لذلك ما الذي تنازلت عنه بالضبط. أنت لست «بالضبط»، أنت خارج عن الضبط. أخيراً وقع المحظور وفسد ضابط الأخلاق المسؤول عن «الضبط».

ليست لديك أدنى فكرة عما ستفعله حيال نفسك. تتمنى لو كنتَ قدرياً أو جبرياً؛ في حل من الجاذبية، ومن الافتراس، ومن الاستقطاب، ومن الخوف مما حرم الله.

ما الذي يبقى من هذا العالم «المؤثر» إذاً؟

لن يستطيع أحد أن يفهم على وجه الدقة ما الذي أقصده، لطالما كان الأمر كذلك. قبل التدين، في التدين، وبعده. أنا كمن يلثغ في

كلامه جازماً أنَّه لا يشكو قصوراً في لسانه لكن «اللغة» التي يلثغ بها لثغاء بطبيعتها.

من يستطع تأكيد هذا أو نفيه لمتأتئ بنصف لسان وهابي؟

أنا لستُ حاقداً على الكل. ولا أريد أن أشعر بالشفقة على أحد، ولا بالحب. أريد أن يتركونني وشأني، فأنا أطرى عوداً مما يتصور الكثيرون!

هذا هو الوجود. ولك الحق كاملاً في البحث عن حقيقته، وفي طرح الأسئلة عليه، لكنه لا يكشف لك شيئاً. أنت من يجب أن يقوم بكل الشغل. لكنني كنت قد فقدت موهبة السؤال، وأعطيتُ بدلاً منها مفاتح الشك، من دون أن أفهم كيف يستطيع الشك من لا يُحسن السؤال.

كيف يستطيع ربيب البيت الصاخب أن ينزوي في كوخ صغير ناءٍ ومظلم يقف على إحدى نوافذه غراب البين وهو يظن أنَّه سيتمكن من رمي ماضيه من تلك النافذة بطريقة تدفع غراب البين إلى الهرب. اثنان في واحد.

توقفت قبل مدة طويلة عن التعليق على ما يجري، أنا الناطق الرسمي الموكول بالنفي وبإقناع الآخرين بجدوى النفي. لقد استُنزفت حتى آخر قطرة. طوال سنوات لم أكن أكثر من كتلة من اللحم مبهَّرة بالنفي والإقناع.

لم أزل موالياً، مؤيداً، ومناصراً، لكن على مضض. عمَّا قريب سأشعر أنني بحاجة إلى «انتحار مؤجل»، غفوة من تلك «الصحوة»، فقدان للوعي، «غيبة»، سمِّها، لكن دعها تبتلع كل ذلك العالم السجالي لفترة طويلة. أريد أن أصحو على عالم هوسرلي جديد لا أرتبط معه بأي علاقة سابقة. أريد أن أحيِّد هذا الخارج كي أبدأ بفهم

أشياءه ودراستها بوعي وعلى مهل وبلا حاجة ملحة للنفي والإقناع، والأهم بلا ضجيج. سأفترض بطبيعة الحال أن الضجيجيين الموجودين اليوم لا يتناسلون. سأفترض وسأُصدِّق هذا الافتراض لأنني سأجنُّ إن لم أفعل.

لا أريد أن أعبأ كثيراً بالمتدينين، ولا بالمتكسين الصاخبين، ولا بالعالَم الذئب الذي يعيش عليهما وعلى الذين بينهما بوحشية كبيرة...

أشك في أن أحداً سيفهم الذي أقصده بالضبط، لأنني أتكلم على برزخ، لن يفهمه أحدٌ حتى يعيشه.

بندر

نظر إلى صورته في المرآة. تحسس عارضيه اللذين باتا ناعمين بعد أن حلق شعرهما.

نفعه كثيراً أن صورته في جواز سفره كانت قبل التدين.

صديقه لم يكن في حاجة إلى حلق شيء. كان أمرداً.

كان قلب الأمرد يدق بشدة. قلب صديقه يدق بدرجة أقل. كان رابط الجأش أكثر من صاحبه. لعله اكتسب هذه العادة من والده، خالي، العميد السابق.

في مطار الكويت سار كل شيء بهدوء تام. بطاقة صعود الطائرة اضطرتهما للجلوس متباعدين. أشعرهما ذلك الهدوء والانسيابية بوجود العناية الإلهية إلى جانبهما. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

كانا قد استعدا لكل طارئ. حتى أن الأمرد نزع جسر البلاتين عن أسنانه. كانا يعلمان أن رنين جرس الإنذار للباب الذي عليهما أن يعبراه قبل الخروج من المطار السوري يعني أنهما متهمان على الفور. خصوصاً وأن السوريين كانوا يواجهون الكثير من المشاكل الأمنية والضغوطات الخارجية وخصوصاً من الولايات المتحدة، حول أداء الأجهزة العسكرية السورية الضعيف في ما يخص منع التسلل إلى الحدود العراقية.

بندر كان وسيماً. كان سيغدو أوسم كثيراً لولا هذه اللزمة التي تجبره على الرمش بعينيه بشكل سريع جداً.

وصلا إلى سوريا. كان شيئاً شبيهاً بوصول محمد عطا وزياد الجراح إلى المطار الذي انطلقت منه طائرتهما في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر.

حرصاً على أن يبدوا عابثين.

وقفا في الصف. كانا قد اتفقا على أن يبقيا معاً حتى لا يثيرا الشبهة. قليلون هم العابثون الذي يأتون إلى سوريا فرادى!

كان القبض عليهما يعني أنهما سيكونا كبشي فداء، فالحكومة السورية قد تسلمهما للأمريكيين دليلاً على حسن النوايا الذي قد ينتهي بهما في غوانتانامو، وقد تحتفظ بهما لديها في محاولة منها لانتزاع معلومات عن الأفغان العرب، السوريين منهم على وجه خاص. من الممكن أيضاً أن تسلمهما للحكومة العراقية، مما يعني أنهما حتماً سينتهيان مقتولين في سجن الجادرية أو أبو غريب، حيث التعذيب حتى الموت. سيكونان محظوظين جداً إذا سلمتهما الحكومة السورية للكويتية على الرغم من أنهما يشكان في قبول الحكومة الكويتية تسلُّمهما في حال أرادت الحكومة السورية ذلك. سبب شك بندر على وجه الخصوص هو أنَّه لا يزال يذكر تلك القصة التي أخبره بها والده والتي حدثت لشابين كويتيين يافعين في أمريكا منتصف الثمانينيات الميلادية وقبل احتلال العراق للكويت بسنوات قليلة. لم يُخبر بندر بها صاحبه. لم يظن أن هناك داعٍ لفعل ذلك.

كانت القصة تتحدث عن شابين كويتيين يدرسان في إحدى جامعات أميركا، يواجهان مأزقاً يومياً يتمثل في التحرش المستمر من

لدن بعض البيض الأمريكان العاطلين عن العمل في الشارع المؤدي إلى الجامعة.

كانا يتجاهلان شتائم القوم وسبابهم والتعريض المستمر لدينهما ولونهما وعرقهما وتهديدهما بالقتل. قال أحدهما لصاحبه في أحد الأيام، بعد أن تمادى الأمريكان بالأمس وكادوا يضربونهما: علينا أن نحمل سلاحاً ما.

- أمجنون أنت؟ أتريدهم أن يقتلونا؟

- هم سيقتلوننا على كل حال. ألا تسمع تهديداتهم بالقتل؟

- هم فقط يخوفوننا. دعنا نذهب إلى السفارة، فنحرر شكوى بذلك.

- وأين هم شهودك؟ اسمع: أمامنا خياران لا ثالث لهما؛ إما أن نتعلم كيف نحمي أنفسنا فنحمل معنا سلاحاً ما، والأمريكان كما تعلم جبناء للغاية، أو أن نعود إلى الكويت وكفى الله المؤمنين القتال.

- لن أعود إلى الكويت. دعنا نجرب جامعة أخرى في ولاية أخرى.

- طيب، قالها على مضض وأردف: في الغد نذهب إلى السفارة لنسألهم عن إمكانية تغيير الولاية، لكن ماذا عن اليوم؟

- لا نذهب إلى الجامعة.

- لدي اختبار اليوم، وسأذهب، وسأحمل معي سكيناً.

بعد تردد ونقاش طويل وافق صاحبه هو الآخر على الذهاب، وحملا معهما سكينتيهما.

في الطريق إلى الجامعة هجم الرجال الأمريكان على الشابين ولم يكتفوا بالسباب والشتائم هذه المرة، فما كان من الشابين سوى أن أخرجا سكينتيهما التي بدا أن الأمريكيين لا يلقون لها بالاً مما

اضطرهما إلى استخدامها، فأعملا بها طعناً في خصومهما، وهربا تاركين ثلاثة من الأمريكيين غارقين في دمائهم!

- أين نذهب الآن، إنها مشورتك الخائبة. قالها وهو ينحني ملتقطاً أنفاسه، والفزع يملأ عينيه.

- اهدأ. دعنا نفكر بهدوء. بعد برهة قال: لنذهب الآن إلى سفارتنا. ستحمينا.

ذهبا إلى السفارة مباشرة وطلبا مقابلة السفير، وحين أخبراه بما جرى صرخ بهما: ماذا فعلتما أيها المجانين؟ لعنكما الله. ستتسببان لنا بأزمة دبلوماسية مع الحكومة الأمريكية.

نظر إلى صاحبه، ثم استغلا انشغال السفير الذي رفع سماعة الهاتف يريد الاتصال بوكيل وزارة الخارجية، فخرجا من دون أن يلتفت السفير إليهما. همس رابط الجأش في أذن صاحبه: اسمع. سيسلمنا هذا العفِن إلى الحكومة الأمريكية. حكومتنا لا تستطيع أن تقامر بعلاقتها مع الأمريكان. ثم إننا لسنا من الأسرة الحاكمة. سيجري تسليمنا لهم اليوم.

- ماذا نفعل إذاً؟

- سنخرج من هنا، ونذهب إلى السفارة العراقية!

- السفارة العراقية! وما دخلها؟ أتظن أن السفارة العراقية ستساعدنا بينما لم تساعدنا سفارة بلادنا؟

- دعنا نحاول، فلا خيار أمامنا.

خرجا على عجل وقلبيهما في أكفهما خشية أن يوقفهما رجال الأمن في السفارة، لكن خروجهما مرَّ بهدوء.

وصلا إلى السفارة العراقية، وطلبا مقابلة السفير، فأدخلوهما.

وحين أخبراه بالذي جرى، قام من مقعده واحتضنهما قائلاً: رجال، رجال، عفية على الرجال.

على عجل قام السفير العراقي بتسهيل خروجهما من البلاد باستخراج جوازي سفر عراقيين وتذكرتي سفر على الدرجة الأولى. وخلال ساعات قليلة كانا على متن طائرة متجهة إلى العراق. ومن هناك توجها إلى الكويت.

كان بندر وصاحبه على وعي كامل بخطورة ما يفعلانه، لكنهما كانا قد سلَّما أمرهما إلى الله.

مرَّ كل شيء بسلام، وعبرا باب جهاز الإنذار بهدوء.

وصل عمر إلى سوريا هارباً على متن الطائرة نفسها التي ركبها بندر وصديقه. رآهما في الطائرة، وعرف بحدسه الذي قلما يخيب أنَّهما جهاديان مبتدئان. عرف ذلك من ارتباكهما وتبادلهما النظرات والابتسامات المطمئنة.

كان عمر قد دخل إلى طاجسكتان أولاً، ومنها سافر إلى بلجيكا، ثم إلى الكويت. وها هو اليوم في سوريا. كان المسؤولون السوريون يستبعدون ذهاب الشباب الكويتي إلى العراق على خلفية الغزو العراقي للكويت. ولم يدركوا أن خلفية العداء لأمريكا أقوى شأناً.

حين خرج عمر من مطار دمشق كان في انتظاره أحد الأصدقاء، وكانت بجانبه امرأة سافرة جميلة.

مازح عمر الصديق الذي احتضنه بقوة، ثم صافح المرأة، وركب السيارة. قضى ليلته في أحد الملاهي الليلية.

بعد يومين كان عمر في العراق.

كان سماسرة التهريب ينتظرون الخليجيين خارج مطار دمشق.

وجودهم المكشوف يخيف راغبي الدخول إلى العراق. كانت الحكومة تعلم بوجود هؤلاء المهربين قرب المطار. لم يكن أحد يجزم بالسبب الذي من أجله لم تحرك الحكومة ساكناً. أشار بندر إلى صاحبه أن لا يستجيب لأي منهم، فقد تكون تلك بالونة اختبار لهما، وقد تكون الحكومة هي من يسمح لهؤلاء السماسرة بتهريب المقاومين من أجل إفشال المشروع الأمريكي في العراق، وإغراق الثور الأمريكي في المستنقع العراقي حتى لا يفكر في اجتراح الخطأ نفسه مرة أخرى. «نريد أن تكون نوايانا خالصة لله دفاعاً عن المسلمين، لا أن نكون أداة في يد أيٍّ كان»، قال بندر لصاحبه.

ظلا في سوريا أسبوعين كاملين لم يستطيعا فيهما تدبير دليل نظيفٍ. اتصلا بأحد جهاديي الكويت الذي، وما إن بدا له أنهما سيتحدثان في ذلك الأمر الخطير، حتى أمرهما بأن يغلقا السماعة، وأن ينتظرا مكالمته.

استطاع هذا الجهادي بعد أيام قليلة تدبير دليل مناسبٍ لهما.

دخلا إلى العراق.

ما إن وطأت رجل بندر ثرى العراق حتى اختلطت مشاعر الحزن على ابن عمته المقتول بأيدٍ عراقية حين غزا العراق الكويت، ذلك الشاب الذي أوصل أهله إلى السعودية وعاد بعد شهر كي ينضم إلى المقاومة. اختلطت مشاعر بندر الحزينة تلك مع مشاعر الفرح بقرب الجهاد في سبيل الله ضد المحتل الأمريكي.

السيرلانكي

كان من القلائل الذي تدينوا قبل مجيء الصحوة. كان بمثابة النبي في تلك البيئة غير المتدينة. يزيد الطين بلة بشرته السمراء - التي كانت تدفعنا للتندر عليه بتسميته بالسيرلانكي - وكره أبيه المعروف بالجشع والبخل.

كان ذا نفسٍ مرحة وأسلوب أخّاذ. موهوبٌ جداً في الذكاء الاجتماعي. كانت هذه موهبته الكبرى، بالإضافة إلى موهبة سوء الحظ!

ابتسامته الجميلة بصف أسنانه البيضاء أول ما يصادفك منه. مقالبه في الأصدقاء مضرب المثل. تدفع الأصدقاء للحذر من أن يكونوا إحدى ضحاياه.

في أحد الأيام بينما كان يدرس في الجامعة اتفق مع أحد أصدقائه للقاء في غرفة ذلك الصديق. حضر، ولم يجد الصديق بل وجد رفيق غرفته والذي أدخله وضيَّفه، ثم استأذن منه للذهاب إلى محاضراته. جلس صاحبنا ينتظر صديقه الذي تأخر.

بعد أن طال به الوقت، عزم على أن يؤدب هذا الصديق بمقلب محترم، إن جاز للمقالب أن تكون محترمة.

كان في زاوية الغرفة ما يشبه الشرفة المطلة على الشارع، لكنها

كانت مغطاة بدواليب الملابس مما يحجب رؤية منْ في الخارج. يستخدمها الطلاب عادة كمخزن يضعون فيها كل شيء بدءاً من الأدراج القديمة وحتى الملابس مروراً بالكتب والأوراق.

عند الدولاب الكبير للملابس خلع صاحبنا فانيلته فأبقى جزءه العلوي عارياً بينما غطَّى النصف السفلي ببنطال رياضي كحلي وجده ملقى في أحد الأدراج.

لصاحبنا شعرٌ كثّ جداً، قام بنفشه بأصابعه. لم يُرِدْ استخدام مشط الصديق خشية تكسير أسنانه! قال هذا متندراً في ما بعد.

من سوء حظ الصديق المتأخر أن تلك الشرفة كانت بلا إضاءة.

اختبأ صاحبنا داخل الدولاب منتظراً قدوم صديقه. بعد نصف ساعة تقريباً وبعد أن تعرَّق جسمه بالكامل، سمع وقع دخول صديقه إلى الغرفة. كان يراه من خلال فتحة باب الدولاب.

بعد دقائق بدأ يمرر أظافره على الخشب الداخلي للدولاب، ويرى ردة فعل الصديق. التفت الصديق باتجاه الشرفة متوجساً. كان الصوت يزداد، وكذلك دقات قلب صديقه. اقترب الصديق على وجل من الشرفة. ولج إليها وحين مرَّ من أمام الدولاب وتقدم خطوتين خرج صاحبنا من مكانه بهدوء ومن دون أن يحدث أي جلبة، ومن دون أن يشعر الصديق به، وقف خلفه تماماً.

مكان معتم ليس فيه سوى خيط من نور يتسلل من الشارع، جنيٌّ أسود بصدرٍ عارٍ وبنطالٍ كحليٍ. شعر الصديق بأنفاسٍ على رقبته، فالتفت إلى الخلف، ورأى ذلك الجني أمامه، فخرَّ مغشياً عليه!

أصيب صاحبنا، الجني السيرلانكي، بفزعٍ شديدٍ على صديقه، وانقلب السحر على الساحر. بدأ الصديق يخرج من فمه زبداً أبيض. شعر الجني بخوفٍ شديد فبدأ يقرأ عليه آيات من القرآن يرقيه بها من

دون طائل فلم توقف تعويذاته الزبد. خرج مسرعاً من الغرفة إلى الردهة يصرخ بأصحاب الغرف كي يستدعوا الإسعاف. وكلما رآه طالبٌ من الساكنين، ظنَّه جنياً فتعوَّذ بالله من الشيطان، وهرب!

إلى أن تعرف إليه أحدهم، واستدعى الإسعاف.

تبين لبخيت في ما بعد أن ذلك الصديق عاثر الحظ كان آتياً من عيادة الجامعة لأنه كان مصاباً بوعكة صحية! تعافى صديقه ذلك اليوم وظل يؤكد لصاحبنا، الجني السيرلانكي، أنه لن يسامحه ليوم الدين.

مقالبه حلوة جداً، بريئة وطاهرة ونقية.

كان بخيت ماهراً في التأثير على الشباب وتقريبهم للتدين. تشهد له بذلك جماعة التوعية التي أسسها في المدرسة الثانوية.

بعض الناس خُلِقت مهارتهم لتُستخدم من أجل الدين فقط. لهذا يفشلون فشلاً ذريعاً في استخدامها في ما عدا ذلك. يفشلون بدرجة أكبر حين يستخدمونها في نقيض ذلك.

ما زلت أذكر رحلتي الأولى مع هؤلاء «المطاوعة» قبل أن تُفرِّقهم الجامية. ما زلت أذكر أنَّ بخيتاً كان يُحدِّثنا عن مواقفه الطريفة مع القصمان مقلداً لهجتهم بطريقة لافتة، خصوصاً حين يقول: «وراووو» (التي تعني لماذا).

لم يكن حبي لهم وفرحي بوجودي بينهم ورغبتي في «التدين» ذا علاقة بالانبهار أو باكتشاف بساطة التدين أو المتدينين «المطاوعة»، أو بافتضاح صورتهم النمطية المغلوطة. كان هناك ما هو خارج على هذا كله. شيء ما لم أستطع لليوم تفسيره. شيء يشبه الرضى والخشوع والطمأنينة، يشبه أن تحفك الملائكة. بخيت كان مُضيِّف الملائكة تلك الأيام.

لا أتخيل بخيت قادراً على النجاح في شيء بعيداً عن الدين.

على الرغم من تباهيه المفضوح بأنه يقرأ في الفكر، ويدرك في الثقافة، ويفهم في السياسة. كنت قادراً على أن أرى أن بضاعته في كل هذه الأشياء ضعيفة.

كان ذا طاقة دؤوبة جداً. الطاقة لا تفنى ولا تستحدث مع العدم، لكنها تتحول. تحولت معي وتحولت مع بخيت. لكن، بفعل ماذا، وتحولت لأي شيء؟ لست واثقاً من الإجابة.

أنا أبني حكمي على حدسي فقط. أنظر من زاويتي فقط ملقياً الفروق الفردية الاجتماعية جانباً.

رأيته في حفل زواج. كان قد خفَّفَ من لحيته وكنتُ أنا حينها ملتحياً. برَّر ذلك، على الرغم من أني لم أسأله بأن لديه مشكلة في إحدى الغدد. صدَّقته، فأنا لا أتصور رجلاً مثله «ينتكس» بعد 20 عاماً من التدين الكامل!

ليست المرة الأولى التي أُصدِّق فيها أحداً ثم تظهر لي سذاجتي. في أحيان كثيرة تكون المعطيات التي أمامي تُناقض بوضوح الدفوعات والتبريرات المُقدمة، ومع هذا كنتُ أُصدِّق ما يقولونه. كما حدث مع حسين.

حسين أحد أصدقائي في ما مضى. ما عدت أراه كثيراً اليوم، لقد انتقل إلى مدينة أخرى. تديَّنا سوياً، والتحينا معاً. بعد ثلاث سنوات من التدين أُصبنا في أحد الأيام، نحن أصدقاؤه، بصدمة فلم يبقَ من لحية حسين الكثة إلا عارضاً! برَّر هذا بأن مجموعة من الشباب أوقفوه في أحد الطرق في مدينته بسبب خلاف مروري، فأخرجوا مقصاً وقصَّوا لحيته!

صدَّقته حينها فالأشرار كُثُر في هذا العالم، على الرغم من أنَّ بقية أصدقائي قالوا إنَّه يكذب، وأنَّ ما قاله بعيد الحدوث. لطالما

شوَّشني هذا الأمر، أعني الحكم على مدى صدق الناس. كنتُ أُحسن الظن ولا أدري لـمَ لا يفعل الآخرون الشيء نفسه خصوصاً حين لا يوجد دليل قاطع على الكذب أو الخداع؟

تبين في ما بعد أن كل ما قاله حسين لم يكن صحيحاً.

أتساءل أحياناً: لماذا يكذبون، ويُبرِّرون، ويتحججون؟ أشعر في أحيان كثيرة أنهم يفعلون هذا لأنهم أناسٌ طبيعيون، يفهمون مجتمعهم بشكل سليم، بالعكس مني أنا.

لماذا لم أفعل مثلهم؟ لماذا لم أُبرِّر انتكاستي، وحلقي للحيتي؟ بصدق، لا أدري. ربما يكون السبب أنني بطبيعتي أهوى «الضبط»!

بخيت كان بالنسبة إليَّ شخصاً سياسياً على المستوى العملي، لا يثور بسهولة، يحرص كثيراً على انتقاء عباراته، يعرف متى يجعل اللغة كالسكين، ومتى يجعلها كالمبرد، ليست له المهارة نفسها حين يصل الأمر إلى موقفه من الحكومة. لم يكن قادراً على إخفاء كرهه وضيقه وتبرمه.

الكره هو الشيء الوحيد الذي يبقى مع المتدينين السابقين.

أفكر كثيراً في موقف بخيت الحالي من الحكومة.

ما زلتُ على مواقفي من الحكومة قبل التدين وفي أثناء التدين وبعد تركه. ولا أدري ما السبب؟!

أتمنى لو أمكنني معرفة رأي بخيت.

يبدو لي بخيت في أحيان كثيرة يائس وعيِيٌّ وخائر. لا يريد أن يهتم لكنه لا يستطيع.

بالنسبة إلي كان بخيت مبرر صغير توقف عن أن يكون كذلك حين لم يعد لوجوده أي مبرر!

أشعر أنني كذلك في بعض الأحيان. مبرر صغير منذور لحروب كثيرة. وقود نقي جداً.

أشعر أن بعض المتدينين كذلك، خصوصاً أولئك الخراف الذين تنهشهم الذئاب الكامنة في داخلهم.

سمعتُ لاحقاً أنه قد أصيب بمرضٍ نفسيٍ ما. الإصابة بمرض نفسيٍّ هي عذر الباقين على التدين حين يُسألون عن الذين تركوه. . .

بدأ كثيرون يتحاشون الحديث عنه. السبب مفهوم. بخيت من أقدم شباب الصحوة، وأكثرهم حماساً وعملاً ووعياً. يجب محاصرة خبر انتكاسته حتى لا يوصِل الخبرُ رسالةً سلبيةً إلى المتدينين الجُدد بأنهم مهددون بدرجة أكبر.

أؤمن بأن للتربية والأسرة والظروف الاجتماعية والنفسية دورها في تشكيل شخصية الفرد، وأن الشخص المتدين لا يستطيع الانفكاك من هذا كله، مثله مثل الشخص غير المتدين.

أؤمن كذلك بأن «العين» و«السحر» و«التأثير الشيطاني» و«المرض النفسي» حق، وأن بخيت قد واجه حياةً صعبةً جداً وأنَّ ما يجري له الآن قد يكون نتيجة لمعاناته الشخصية أو الوجودية.

أؤمن أيضاً بأنَّ الحياة في منتصف الطريق بين المظلومية والعجز هي حياة قاتلة، يحتاج صاحبها إلى روح القدس كي يستمر.

إنَّ أسوأ ما في العجز هو أنَّه يمنع صاحبه من الحكم على أداء مقاومته ونواياه، بينما توفر المظلومية المبرر للاستمرار في هذا العجز.

بخيت النبي الأول الذي تخلى عن دعوته، وجعل الأشياء تمر. . .

مع الملائكة الكرام البررة

لا أذكر أنني مررت بالمرحلة الابتدائية التي مرَّ بها نظرائي!

نار التأتأة أنضجتني مبكراً، ودفعتني إلى المرحلة الإعدادية عمرياً وأنا للتو في سنيني الابتدائية الأولى.

لقد تعلمت من جدول الضرب الوعي بالألم والظلم. أليس هذا هو ما يُنضج الضحايا بشكل أسرع؟

تعلمت في الابتدائية الألم مع صفعة الأستاذ مرسي التي وجهها لي حين تلعثمت وتأتأت ولم أستطع الرد على سؤاله: ماذا كنت تفعل يا طالب الصف الرابع في غرفة الفصل الأول الابتدائي بينما الطلاَّب خارج الفصل؟ لم تسمح لي تأتأتي بالقول: لقد جئت لأعطي أخي الصغير فسحته فلم أجده فوضعتها في شنطته كما أوصتني والدتي!

كما تعلمت الألم ذلك اليوم تعلمت أيضاً رد الظلم. كمنت لسيارة الأستاذ مرسي بعد خروجي من المدرسة، وأخذت حجراً، وحين مرّت سيارته قريباً من مكمني خرجت ورميت حجري، ومضيت من دون أن ألتفت!

رحم الله الأستاذ مرسي الذي أكسبني هذه العادة التي لم أخلفها حتى اليوم، عادة رمي حجري ضد الظلم والمضي من دون أن ألتفت.

لم أشعر إلا وقد انقضت المرحلة الابتدائية، فلقد كنت أكبر منها. لا أذكر شيئاً من تلك المرحلة لأنها كانت بمثابة فترة غضب وحنق موجه ضد القدر والعالم. لم أكن لأُصدِّق أن القدر قد يفرض على آبائنا إنجابنا ثم تسلمينا طواعية لهذه الحياة البائسة! لم يكن أمامي خيارات كثيرة سوى الصمت الذي أحسنت التأتأة تدريبي عليه.

وجَّهت غضبي وحنقي تجاه القدر والعالم بالتفوق دراسياً! كنت كمن يريد أن يُثبت للقدر والعالم تفاهتهما، حيث لم يستطيعا منع متأتئ من التربع على كرسي التفوق في مواجهة ممثليْهما الفصحاء!

هذا المدرس المقيم الذي أمسك بتلابيبي وهزَّني هزاً شديداً وهو يشرح للطلاَّب كيف كان كفَّار قريش يفعلون بالمسلمين، بينما الأمر في حقيقته أنَّه يُنفِّس من غيظه بسبب تفوقي على ولده الذي جاء في المرتبة الثانية، لم يكن بالنسبة إليَّ سوى يد القدر التي عجزت عن تأديبي، والتي لمست خوفها وعجزها عن قرب!

انقضت المرحلة الابتدائية وقد تمرس كلٌّ منا، أنا والثنائي القدر والعالم، على ضرب خصمه في الأماكن الموجعة. هما من خلال فرض تأتأة أشد، وأنا من خلال تفوق أكبر!

استمرت العلاقة المتوترة في المرحلة الإعدادية. لكن ممثلي خصومي، من زملاء الدراسة الصغار، كانوا ينضجون أكثر، ويفتحون أعينهم واسعاً، وليس هذا في صالح المتأتئين أمثالي. سأصبح الفاكهة الغريبة التي توفر قدراً مناسباً من الدهشة للزملاء ذوي الأعين الواسعة.

في هذه المرحلة يبدأ الشاب بالتعرف إلى أعضائه التناسلية، ويفهم كيف أن مؤخرته كمؤخرة الراقصة هي أثمن ما لديه، وأنَّه قبل

أن يتعلم أي شيء آخر يجب أن يتعلم الخروج من حقل المراهقة المُلغَّم سليماً من كل أنواع الخدوش. . .

الشباب الأشرار كانوا قلة، والمستضعفون الذين يقعون تحت أيديهم هم أيضاً قلة، لكن من يقع تحت أيديهم يتلقفونه من يدٍ ليد كالقنبلة التي توشك أن تنفجر.

ومن كانت له بنيتي الضعيفة ووسامتي كان يجب أن يخشى على نفسه. لكن وجود أخي الذي يكبرني بسنتين في المدرسة نفسها، كان السبب في خشيتهم وخجلهم وعدم خوفي. لم يكن ملاكاً حافظاً، بل لعلي لا أجانب الصواب إن قلت إنَّه محسوب في زمرة الشياطين أكثر منه في زمرة الملائكة. . .

كان القوم يستطيعون التحرش بصديقي لؤي الذي لم يحمِه تفوقه ونبوغه من التحرش به!

كان التحرش هو السمة الظاهرة لشباب لا يجدون شيئاً آخر يفعلونه.

كانت أشد الأيام بغضاً لي هي أشدها إحراجاً بسبب التأتأة، وهذا يعني بطبيعة الحال اليوم الأول في الدراسة حين يطلب كل مدرس من تلاميذه التعريف بأسمائهم. سبع حصص، سبع مواقف محرجة. . . أقف أمام اسمي وكأنني أمام شاهد قبر لمناضل مهيب. في الابتدائية كنت بالكاد أنطقه. يحمر وجهي، ويحتقن، ويزرقّ، وأبدأ بتحريك يدي اليمنى بطريقة سرية ومموهة لا يدرك الآخرون أنَّها جزء من طقس التأتأة. تغصُّ حنجرتي بالكلام، رغم كل محاولاتي. في البيت أضرب بيدي على فخذي لعدم حاجتي إلى الطقوس السرية. افتح يا سمسم.

أما اليوم، في الإعدادية، فحين تبدو بوادر الاحتقان أحرن فينطق

باسمي ممثليَّ الرسميين، زملائي في الصف عن شمالي أو يميني...

كانت حصص القرآن الكريم على الرغم من حبي له من أصعب الحصص وأكثرها رُعباً، فلقد كان على الطلاب أن يقرأوا واحداً بعد الآخر. كنت أخفي وجهي. أدس رأسي بعيداً. أدعو الله بإخلاص أن ينهي الحصة قبل أن يصلني الدور. وحتى اليوم أحلم بأنني في صف دراسي وسيأتيني الدور لأقرأ!

أذكر أنني بكيت مرة حين وصلني الدور في الامتحان النهائي لمادة القرآن الكريم في السنة الثانية الإعدادية. كانت المرة الأولى، والأخيرة التي بكيت فيها في المدرسة بسبب التأتأة. أفكر أحياناً أن بكائي كان طريقة للهروب من القراءة ذلك اليوم. خرجت فرشَشْت الماء على وجهي ثم عدت. طلب مني المدرس- والذي كان مناوباً عن المدرس الأصلي الذي طال مرضه - في نهاية اليوم الدراسي أن أمُرَّ عليه في غرفة المدرسين. أخبرني أنه أعطاني نتيجة قريبة من العلامة الكاملة لأنَّه يعرف أني من المتفوقين بشهادة الجميع، ولأن الحديث النبوي يذكر أن من يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه يكون مع الملائكة الكرام البررة!

تؤلمني الشفقة بأشد مما تؤلمني السخرية، وتؤلمني الشفقة المبرهن لها بالكتاب والسنَّة بشكل مضاعف.

كانت هذه التأتأة هاجساً، والالتفاف عليها موهبة حقيقية. كنت أحلم باليوم الذي أتخلص منها فيه، أدفنها للأبد.

لقد كانت الطبيعة من خلال هذه المكابدة تعلمني أبجديات الصراع والصبر والرشد.

في أحد الأيام، وأظنها في المرحلة الثانوية، أخذني والدي إلى شيخ شيعي في منطقة القطيف، ولا أدري من أقنع الوالد بأن هذا

الشيخ قد يكون راقياً جيداً. دخلنا عليه، وإذا هو في الخمسين من عمره، جفناه غائران، عظام جمجمته بارزة، قليل من الشعيرات التي يمكن اعتبارها شارباً. يبدو قصره وضعف بنيته واضحين، على الرغم من أن الفرصة لرؤيته واقفاً لم تُتح لنا. لا يرفع رأسه. فقط يستمع. يلبس غترة بيضاء. تبدو عليه سيماء الهيبة والإجلال. حين يتكلم لا يطيل الكلام. أزعم أنه من ذلك الصنف من الناس الذين يعتمدون على ظن الآخرين، وعلى الغموض والصمت الذي يكسب كل أحدٍ هيبة وإجلالاً اصطناعيين. قال له أبي: ولدي ضعيف البنية جداً. في ذلك الحين لم أفكر في بنيتي، كان همِّي ينصب على أن يُعالجني الشيخ من التأتأة، فتلك مصيبتي الوحيدة التي لو تعافيت منها لتعافى بدني وكبُر عظمي... همستُ لوالدي حين كان الشيخ يُقلِّب طرفه في الأدوية والعلاجات التي بين يديه: «يبه كلِّمه عن التأتأة»، «أصصص» وحدجني بنظره. أذكر اليوم أنَّه أعطاني شيئاً يمكن أخذه من الصيدلية، أظنه كان شراباً قريباً من الجنسنج!

لم ينفع في شيء علاجه أو علاجات أمي التي تراوحت بين «العشرق» و«الخروع»!

الأكيد أن هذه التأتأة كرَّست لدي الرهاب الاجتماعي وعمَّقته بطريقة غير مسبوقة أو مهزومة.

عمر

لم أصدق عيني، إنه هو. أقابله في مكان لم يخطر لي على بال. قد لا أُدهش لو قابلت بن لادن في حي السفارات في الرياض، لكن صديقي هذا، وهنا في البحرين!

لم نكن لوحدنا، كان أخوه عابد معنا.

كانت زيارة عابد لي قبل أيام من ذلك اللقاء مفاجئة. لم يستخدم الهاتف للاتصال بي. في العادة تراقب المباحث هواتف عوائل المجاهدين بدقة آلة كومبيوترية عملاقة.

عابد، شاب ملتزم دينياً لكنه من ذلك النوع التقليدي في تدينه. كان من أشهر لاعبي الكرة في مدينتنا. هو الآن في أوائل الأربعينات.

ذاكرتي هي ذاكرة رياضية. في البلاد التي يُختزل فيها الإبداع والتفكير فينحصران في القيام بأعمال جسدية بحتة، تتحول ذاكرة الناس إلى ذاكرة ذاتية تتمحور حول اهتماماتهم الشخصية.

لطالما أحببت عابد، ليس بسبب تدينه. لا أذكر أنني أحببت شخصاً فقط بسبب تدينه. لكن الأمر مع عابد كان غريباً، إذ لم يكن هناك سبب واضح لهذا الحب. بعد مضي بعض الوقت سيذبل هذا الحب، كالعادة، وسيحل محله بعض النفور. كثيراً ما أسائل نفسي: هل أشعر بهذا النفور لأنني قد تركت التدين، أو لأنهم قد تغيروا فعلاً، أو لأنني كنتُ أعطيهم أكثر مما يستحقون ابتداءً؟

تدين عابد بعد زيارات «الأخوة» في جماعة الدعوة والتبليغ له، والذين أخذوا على عاتقهم «إخراجه» معهم. من اعتقادات جماعة التبليغ ذات الجذور الهندية أن الله سبحانه وتعالى قد هدى أهل مكة بعد «خروج» النبي ﷺ واستقراره في المدينة! ويقولون إنك إن أردت هداية أهل بيتك وأقربائك فلا بد من «خروج» مشابه لهذا. ليس الخروج فقط، بل واستحضار الهم والحسرة والألم من أجلهم.

تخرج الجماعة خروجاً قصيراً لثلاثة أيام، وطويلاً لأربعين يوماً. يُقال إن اختيار الأربعين لأن الجنين لا يثبت في رحم أمه إلا بعد أربعين يوماً، والشأن نفسه لجنين الإيمان في قلب «الخارج» معهم في سبيل الله. للثلاثة أيام مبررات أخرى. هذا ما يُشاع على الرغم من أنني لم أجد إقراراً صريحاً منهم بوجود مثل هذه الاعتقادات. أظن أنها موجودة لكن في النسخة الهندية والباكستانية من الجماعة.

شباب جماعة الدعوة والتبليغ ذوو جهد طيب في هداية الناس بأساليب محببة، فلم يتعودوا قط على إنكار المنكر، بل إنهم يحاربون الإنكار محاربة شديدة، ويرون أن الحل في محاربة المنكر هو ليس في إيقافه ومحاسبة المتسبب به، بل في منع حصوله ابتداءً، وهنا يأتي الأمر بالمعروف. وذلك من خلال هداية القائمين عليه بالموعظة الحسنة وسرد القصص والحكايات.

لذا كانت دعوتهم مؤثرة جداً في أوساط الشباب، حيث يجد الشاب نفسه وسط بيئة إيمانية غاية في الخشوع والطمأنينة والحب في الله. حب غير مصطنع على الإطلاق، على الرغم من التبشير الذي يحكم طبيعة الجماعة، وهذا في ظني مكمن قوتها.

الكثير من الأساتذة الجامعيين والمهندسين والأطباء والضباط الكبار، تدينوا من خلال شباب جماعة الدعوة والتبليغ. أو كما كُنَّا

نسميهم نحن أبناء لكع تندراً «الأحباب»، تلك الكلمة التي كثيراً ما كانوا ينادون بعضهم بعضاً بها.

كثيراً ما حاولوا «إخراجي» معهم، لكنني كنتُ أعتذر بطريقة لبقة. كنتُ أحبهم. كان الجميع يحبهم. لكنني لم أكن حينها مهيأ لأن أقبل لعبة الانخراط في الحب!

فوجئوا في ما بعد بحملة شرسة من الجامية، تضعهم في مصاف المبتدعة من زاوية تحديد عدد أيام الخروج. على الرغم من أن الكل يعلم أن الحكم الذي يجري على القادة المؤسسين لا ينبغي أن يتسلسل بإطلاق فيجري على الصف الثاني أو الثالث من القادة، ولا على الأتباع بالضرورة. الجامية التي اعتادت الحديث حول إقامة الحجة تضرب صفحاً عن هذا، وتصدر حكماً قطعياً!

نعم كانت هناك أخطاء لا يمكن السكوت عنها. كان أحد أكبر مشايخهم في مدينتنا يقول كلاماً غير مقبولٍ في الشيخ الضرير ابن باز رحمه الله، حيث ينكر عليه عدم «الخروج» للدعوة!

لا يستطيع كائنٌ من كان من منتسبي جماعة الدعوة والتبليغ أن ينكر تأثر الجماعة في نسختها السعودية أو الخليجية بالجماعة الأم.

بل إنني جالست أحدهم مرَّة، وكان من إحدى القبائل البدوية، يتكلم بطريقة الهنود الذين يتكلمون العربية!

وعلى الرغم من هذا كله فقد وقع عليهم ظلم فادح لا يمكن بأي حال من الأحوال تبريره.

مثلهم يصلح لعابد. تأثر بهم وتدين.

بالمناسبة هناك شيء آخر يجمعني بعابد، إنه التأتأة. لكن تأتأة عابد ليست كتأتأتي.

مشكلة عابد ليست في أنه قد يضطر مثلي للتوقف والصرَّ على الحروف حد الاختناق ليتمكن من قول ما يريد، بل في عدم نطقه للحروف بشكل سليم. «أتوللك» هي «أقول لك» بلغة عابد، «تيف» هي «ضيف»، «سيالة» هي «سيارة»، وهكذا.

لكن عابد أقوى مني كثيراً. إنه لا يخجل منها على الإطلاق. ظللت لفترة أشك في أنه يتظاهر بعدم الخجل منها، لكنني لاحظت بعد ذلك أنه يجاهر بها بشكل فاقع، وبطريقة تدفعك للشك في أنه يعي وجود مشكلة في لسانه!

اتفقنا على اللقاء في البحرين بعد أسبوع.

في السنتين الأخيرتين بتُّ مجبراً على زيارة البحرين وقضاء أسبوع من كل شهر بسبب دراستي للماجستير في الإدارة.

سأكون هناك هذا الأسبوع على كل حال.

وصلنا إليه. لم أعرف هل أبدأ بمصافحته. لم يمد يده بل احتضنني بقوة وربت على ظهري طويلاً، ثم احتضن عابد ثم جلسنا. شعرت بأنني تافه، قزم، خائن، لكنني كعادتي أتظاهر بأن لا شيء يحدث داخلي.

- كيف حالك؟

- الحمد لله بخير ونعمة. أنت كيف حالك؟

- الحمد لله بخير. زمنٌ طويلٌ يا عمر.

ابتسم وهو يرد: هو كذلك.

- أتذكر كم سنة مضت على آخر لقاء بيننا؟

- لا أذكر.

- أنا أذكر ذلك جيداً. كان قبل قرابة التسع سنوات. قابلتك بجوار المغسلة السريعة.

لم يتغير عمر إذا استثنينا الهالات السوداء حول عينيه. قبل تسع سنوات، كان شاباً يافعاً. تجاذبنا أنا وإياه أطراف الحديث كثيراً في تلك الأيام. في إحدى المرات أسرَّ لي برغبته في الذهاب للجهاد في سبيل الله. لم آخذه على محمل الجد. من يستطيع أن يأخذ قولاً كهذا من شابٍّ بالكاد يدرج في أحراش الحياة على محمل الجد؟ ثم إن عمر لا يستطيع أن يأخذ قراراً مثل هذا لوحده من دون صديقه ورفيق دربه بدر.

بدر، الهولي الذي تشعر بأنه قصيمي أكثر منه هولي لحبه الشديد للقصيم ومشايخها. إمام وخطيب مفوه. من أبرز شباب الصحوة في مدينتي.

هو تاجر عقارات جيد. كثيراً ما أخشى أن يأخذه إدمان «العقار» بعيداً. بدر ذو صوت شجي. يمتلئ مسجده عن آخره في رمضان.

هو أيضاً مثير للصداع. شجاع لدرجة التهور. أذكر أنَّه خطب مرة في الجمعة وكانت خطبته بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر قائلاً: «سأحدثكم اليوم، عن بطل من أبطال الإسلام، عن مجاهد نعرفه كلنا، شوهوا صورته، وأثاروا حوله اللغط، وأكالوا له الاتهامات، لكنه ظل صابراً محتسباً جهاده في سبيل الله. إننا اليوم أمام مجاهد ترك الغنى والثراء وهو شاب في كامل عنفوانه، وفضَّل غبار الجهاد في سبيل الله. آثر أن يقود الأمة ويرد عنها كيد الكفار والملاحدة والمغتصبين حتى مرَّغ أنوفهم في التراب. إننا اليوم أمام البطل أسامة!...»، بدأ الناس ينظرون إلى بعضهم، فأي جنون هو ذاك الذي يدفع خطيباً لمدح أسامة بن لادن هنا في السعودية وعلى بعد أمتار من أكبر سجون المباحث، لكن بدر أكمل كلامه: «إننا اليوم أمام البطل أسامة بن زيد رضي الله عنه»...

عُدتُ لعمر الذي كان يبتسم.

ما زالت لحية عمر كما هي، صغيرة كعينيه. أكثر ما يُميز عمر بالإضافة إلى عينيه الصغيرتين شبه حركاته بالحركات العسكرية. مشيته عسكرية. التفاتته عسكرية. حركة يديه كذلك. أنت أمام عسكري بالفطرة، لكنه عسكري رقيق القلب جداً.

طريقته في الكلام لم تتغير. يتكلم من دون أن يضع عينيه في عينيك. يتكلم وهو يبتسم. ما زال محافظاً في داخله على عمر«ي» الصغير. بالإضافة إلى أمه أشعر أنني الوحيد الذي لن يشعر بأن عمر قد كبُر!

تظاهرت بأنني لم ألحظ اندهاشته الأولى حين لم يجد لحيتي. تعودت على تجاهل مثل هذا الاندهاش. أتذكر الآن أنني كنتُ أشعر بحراجة موقف بعض من سبقوني بحلق لحاهم حين يجمعنا بهم، نحن الملتحين، مناسبة أو وليمة. اليوم أنا أختبرها عملياً.

كنت أعلم أنه يريد أن يتحدث معي عما تسبب في حلق لحيتي. وكنتُ أخشى أن يتسبب حلقها في عدم شعوره بالارتياح ناحيتي. هو محتاج للتحدث إلى شخص متدين يثق به يفقه فضاء الجهاد ومبررات شبابه. شخص لا ينصحه بالعودة إلى البلاد، من أجل والدته العجوز، ومن أجل مستقبل أكثر أمناً واطمئناناً. يريد أن يستمع إلى من يؤيده ويشد على يده ويسانده. لم يتوفر هذا كلهِ في عابد، فاختارني. لا أدري لمَ قد يحتاج جهاديٌّ إلى شخص مثلي غير ملتحٍ! لا بد أن في الأمر «إنّ». لا أدري من منهما اختارني هو أو عابد، وإن كنت أُرجِّح أن ذلك كان باختياره هو، فعابد لم يكن يعي حجم صداقتنا.

لم أتخيل ولو لوهلة أن باكورة لقائي الأول به ستكون حواراً عاصفاً من دون مقدمات!!

بعد دقيقة صمت، بدت كما لو أنَّها كانت حداداً على ماضيًّ، سألته:

- كيف هم الأخوة في أرض الجهاد؟

- الحمد لله طيبون.

- أين أنت الآن يا عمر؟ في العراق أم في الشيشان، فلقد كان آخر ما بلغني عنك هو ذهابك إلى الشيشان؟

- أنا الآن في العراق.

- مع أي جماعة؟! كان سؤالاً غبياً لم يكن له داع. تداركت - ولا أدري إن كانت قد انطلت عليه حيلة التدارك هذه -، فلقد سمعنا أن الشباب السعوديين يذهبون إلى جماعات معينة يكون اللحاق بها آمناً، على عكس بعض الجماعات التي قد يتسبب اللحاق بها إلى القبض على أفرادها وتسليمهم إلى القوات العراقية أو الأمريكية.

- مع جيش المجاهدين. قالها وأنا على ريبة من تصديقه لي، ومن ازدراده لسؤالي البائخ.

- الحمد لله. وكيف هي الأحوال هناك؟

- طيبة.

على أعصابي. أشعر أني في حاجة لمقراض كي أنتزع منه الكلام بسرعة. كيف سيكون الحال حين نصل إلى الحديث عن شأنه الخاص. أتحدث كمن يريد أن يمشي على بيض من دون أن يكسره، أو في حقل ألغام من دون أن يفجر لغماً. أبادر بحذر كلص مبتدئ.

- ولماذا تركت الشيشان؟

- لم أترك الشيشان.

- إذاً؟

- الوضع العراقي هو وضع أشد خطراً من الوضع الشيشاني، فالشيشانيون تجاوزوا الصدمة الأولى، وبدأوا حرب الاستنزاف، أما العراقيون فلم يتمكنوا من بناء قاعدتهم الجهادية.

- هل تقصد من بناء «قاعدتهم الجهادية» تنظيم القاعدة؟

- لا. بدا أنَّه لا يريد الكلام.

- ماذا تقصد إذاً؟

- قصدت حشد الشباب وترتيبهم وبناء المعسكرات.

- وهو الشيء نفسه الذي يفعله تنظيم القاعدة.

ردَّ وكان واضحاً أنني استفزيته:

- قل لي ما هو تنظيم القاعدة هذا؟ هل تصدق هراءات الأمريكان حول «القاعدة» وأنَّها تنظيم عالمي أخطبوطي، وأن كل هذه العمليات التي تجري في شرق العالم وغربه هي من تدبير تنظيم القاعدة أو خلاياه؟

- إذاً هي من تدبير منْ؟

- هل أصبحت القاعدة مجبرة اليوم عن البحث عمن وراء هذه العمليات كي تنفي التهمة عن نفسها؟ ثم هب أنَّها فعلت من سيُصدِّقها؟ يا متعب القوم يريدون «قاعدة»، ولو لم توجد لاخترعوها.

- أولاً لماذا تتكلم وكأنَّك قاعديٌّ؟ ثانياً أنا لم أسمع رأيك حول هذه العمليات الإرهابية، ثالثاً أنت تتكلم بثقة شديدة مع أن ما نعرفه أنا وأنت هو أن التنظيمات من نوع القاعدة تحيط نفسها بسرية شديدة تجعل المنتمي الذي لا يدري بوجود تنظيم سري يبايع ويقسم على الموت بحماس شديد بدون أن يبايع أو يقسم عملياً.

- أولاً هذه العمليات ليست إرهابية ثم إنـ. .

- لحظة لحظة، كيف ليست إرهابية وقتلاها من الضحايا المدنيين؟

- وماذا عن قتلانا في فلسطين والشيشان والعراق؟ أليسوا من الضحايا المدنيين؟ أليس قتلهم إرهاباً؟ لماذا لا يوصف قاتلوهم بالإرهابيين؟ ثم دعني أوضح لك أمراً يبدو أنك تغفل عنه وسط هذا السيل الجارف من الإعلام المُضلِّل...

- وضَّح يا سيدي، قلتها وأنا أرجو الله أن لا يدخل في معزوفة ردح حول نظرية المؤامرة.

- الجهاديون لا يهمّهم كثيراً توصيف الإعلام؛ يسميهم إرهابيين، انتحاريين، متمردين، انفصاليين... لا يغير هذا من قناعاتهم. صحيح أنَّه يؤثر في حجم التعاطف الشعبي، لكن هناك ما هو أهم وأكثر نفعاً من هذا التعاطف الشعبي، إنَّه التأييد الرباني من الله سبحانه وتعالى.

ثم أكمل: هل تظن أن الاستشهادي سيهمه أن يوصف بالاستشهادي بدلاً من الوصف بالانتحاري؟

ابتسم ثم قال: المصطفى ﷺ لم يسلم من الوصف بالجنون والسحر وطلب السلطة، فهل نسلم نحن؟

- من تقصد بـ«نحن»؟

- الجهاديون.

- هل تقصد «القاعدة»؟

- أجيبك إن أجبتني أنت أولاً عن سؤالي.

- وما هو؟

- عرِّف لي ما هو تنظيم القاعدة، وما هي أفكاره، حتى أرى إن

كنتُ من أعضائه أو لا. قالها ونفحني بابتسامته المعهودة التي لم تغيرها جراحات الجهاد وفقد الأحبة.

- تنظيم القاعدة هو تنظيم إرهابي أنشأه أسامة بن لادن وأيمن الظواهري يريدان منه بحسب زعمهما، رفع الظلم والضيم عن أهل الإسلام والوقوف في وجه الهجمة الشرسة التي تقودها الولايات المتحدة و«إسرائيل» ضد المسلمين والعرب منذ عشرات السنين.

- إن كان الأمر ما ذكرته فأنا من أعضاء هذا التنظيم، أو في الحد الأدنى من المؤمنين بأفكاره. وصدقني لو قامت أي حكومة عربية وليس تنظيم القاعدة بهذا الأمر العظيم لانضممت إليها ولقاتلت تحت لوائها!

- لحظة أنا لم أنتهِ

- تفضل

- هذا التنظيم يكفر الحكومات العربية والإسلامية ويصفها بالمرتدة، لمجرد أنَّها تهادن أو تجامل أو تخشى أو تتواطأ مع أمريكا و«إسرائيل» ضد الحقوق العربية والإسلامية. ثم هو تنظيم لا يرى فرقاً بين المحارب والمستأمن والذمي والمعاهد. وهو كذلك تنظيم يجيز قتل المسلمين عرضاً أو تمترساً في العمليات الموجهة، ابتداءً للأمريكيين والإسرائيليين. إضافة بطبيعة الحال إلى تجويزه قتل المدنيين الأمريكيين، ودعنا نستثني المدنيين الإسرائيليين لأنهم محتلون، ولأن هناك شبه إجماع على كونهم محاربين.

كان عابد يُنقِّل بصره بيننا بدون أن يدرك شيئاً كثيراً مما نقول، فتعليمه المتوسط لا يسعفه كثيراً لفهم ما نقوله، بالإضافة بطبيعة الحال إلى بضاعته الدينية الفقهية البسيطة التي لا تتجاوز شروط الصلاة وأركانها وواجباتها وما يتعلق بها. الفقه على طريقة جماعة التبليغ.

لذا استأذننا كي يذهب إلى المحرق لشراء بعض الحاجيات. . .

صمتٌ لبرهة أدرك معها أنني أنتظر إجابته فقال:

- لا أعتقد أن لدى أسامة بن لادن (لم يقل الشيخ أسامة!) أو أيمن الظواهري هوس بالقتل العبثي، وأعتقد أنك توافقني في هذا. كما أنّك توافقني حتماً في أن ظلماً كبيراً وقع ولا يزال يقع علينا من الأمريكيين والصهاينة في أماكن كثيرة من هذا العالم. وأيضاً لا أظنك تخالفني في أن بعض الحكومات العربية والإسلامية هي حكومات عميلة كافرة تضع الإسلام والمسلمين خلف ظهرها والأمريكيين والصهاينة ومصالحهما التي تضمن لها البقاء في السلطة نصب عينيها.

نظر إليَّ ثم أكمل:

- لقد تعمدت أن أسرد لك الأشياء التي نتفق أنا وأنت وتنظيم القاعدة عليها، فهل يجعلك هذا من أعضاء تنظيم القاعدة؟ ثم إذ. .

- لكن الشيطان يكمن في التفاصيل!

- الإيمان كذلك يكمن في التفاصيل. أليس تعريف الإيمان: اعتقاد بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان؟ فعمل الأركان التفصيلي دليل على انطباق وصف الإيمان. قالها ثم ابتسم. وأردف:

- نأتي الآن لمواضع الخلاف، الجدية والحقيقية.

شعرت في حواري الأول مع عمر أنني أُجهض جنين الأسئلة حين أبدأ بأكثرها سخونة! لا أدري لـمَ اندفعت في هذا النوع من النقاش الفكري الجاد في لقائنا الأول؟ كان يجب أن أهدأ وأركز أكثر، وأدع الأسئلة تنضج على نار هادئة. لكنني كنت أخشى أن يكون لقائي الأول به هو الأخير، وهو ما يعني أنني قد أفوِّت الفرصة على نفسي لتحذيره من الولوغ في دماء المسلمين وهو أكثر ما كنت أخشاه عليه.

كانت قدرة عمر على النقاش مثيرةً لي جداً. فقبل تسع سنوات، كان شاباً بسيطاً جداً بالكاد يستطيع أن يرتب أفكاره، دع عنك أن يتحدث إليك كفاحاً بهذه الطريقة السهلة والانسيابية، أما اليوم فأنا أمام رجل ناضج يؤمن بقضية يحاول إقناع الآخرين بها من خلال طرح متماسك.

أتراه يحاول استقطابي وضمي إلى التنظيم؟!

أغبط المجاهدين كثيراً. أما لماذا؟ فلأنني أجدهم يواجهون أعدائهم كفاحاً. عدو مُتيقن من كفره وظلمه وتسلطه. أما نحن فنتعارك مع خصومنا داخل بلاد الإسلام غير واثقين من شيء، فلا ندري أكفارٌ هؤلاء الذين يطالبون بتنحية الشريعة أو لا بد لنا من إقامة الحجة عليهم قبل الحكم بكفرهم؟ وهل يغدون كفاراً بمجرد تنحيتهم للشريعة أم لا بد من تصريحهم اللفظي باستحلال ما حرَّم الله؟

أهل الثغور بمعزل عن هذه الخلافات البينية. إنهم يدافعون ويقاومون عداوة وظلماً لا شك فيهما. إنهم ينتصرون للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً كما جاء في النص القرآني الكريم.

أتذكر دائماً معاناة أهل البوسنة والهرسك والشيشان وكشمير والفلبين حين أقرأ هذه الآية الكريمة: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

شيءٌ مثيرٌ أن لا يُخصِّص أو يُقيِّد الوصف القرآني المستضعَفين

بالمسلمين. ثم إنه فرَّق بين ما هو في سبيل الله وما هو في سبيل المستضعفين، ولهذا فكلما قرأتُ هذه الآية شعرت أن من واجب المسلمين دفع الظلم والضيم عن كل المضطهدين، مسلمين كانوا أو كافرين. في ضوء هذه الآية، كان على المسلمين أن يتدخلوا لوقف المذابح بين الهوتو والتوتسي في راوندا وبوروندي وغيرهما...

القرآن يصنع آلاف التشي غيفاريين المناضلين الثوريين الاستشهاديين بدعوته من خلال هذه الآيات التي تهز الوجدان.

هذا هو ما يخطر على بالي حين أسمع هذه الآية.

لا أدري لماذا شعرت أنني بائخ وأنا أحاور عمر، على الرغم من أني أدرك جيداً أنني أشعر بهذا الشعور باستمرار كلما أنهيتُ حواراً جاداً مع أحد...

كيف أتكلم بهذه الطريقة على الجهاد وأهله وأنا لم أستطع الحفاظ على لحيتي؟ من سأقنع بهرائي هذا؟ كيف سيُصدِّق عمر أن دوافعي جادة، أنا الضعيف المنهزم «المنتكس»؟...

الثانوي

ما زلت أذكر تفاصيل ذلك المبنى المستأجر الذي يبلغ من العمر عشرين عاماً. لو حلف لي أحدٌ أن ذلك المبنى يمكن تحويله، بطريقة ما، إلى سجن لما ظننت أنَّه سيحنث! فكيف بمدرسة ثانوية؟! لا شيء في ذلك المبنى حتى بعد التعديل يشي بأنَّه مدرسة سوى العلم الوطني الذي كان في أعلى المبنى. لم تكن هناك ساحة للطابور المدرسي ولا لإلقاء الكلمات المهددة والمتوعدة من مدير المدرسة أو وكيله. لم يكن هناك ملعبٌ لأي نوع من أنواع الرياضة. الداخل لا يختلف كثيراً. فما إن تلج من الباب الخارجي حتى يقابلك بلاط رخيص وباهت. في الداخل تحتاج إلى السؤال كي تصل إلى غرفة المدير أو الوكيل، إذ ليس هناك لوحات أو إشارات أو لافتات. تستطيع أن ترى بوضوح شقوقاً كثيرةً تملأ الجدران، بعضها سُدَّ بلُطخ حديثة من الاسمنت لم يجد صاحبها الوقت لمسحها والصبغ عليها. غرفة المدير كانت هي الأكبر مساحة، كانت غرفة النوم الرئيسة على ما يبدو. لم يسمح التقسيم الذي قام به مسؤولو الوزارة لهذا المنزل للوكيل سوى بغرفة المطبخ الصغيرة. كان هذا مناسباً، ألا «تُطبخ» القرارات المهمة عادة في غرفة الوكيل؟!

غرف الدراسة لم تختلف كثيراً عن غرفة الوكيل. الفرق هو أن

هذه الغرف الأوسع قليلاً والتي تبلغ مساحة أكبرها 8 أمتار طولاً في 6 أمتار عرضاً تتراص فيها طاولات وكراسي 25 طالباً تقريباً! كانت علب سردين حقيقية. وكان واضحاً جداً أن هذا المبنى المستأجر هو نتيجة علاقة شخصية ما بين مسؤولي الوزارة وصاحب العقار. قضينا في ذلك المبنى سنةً كاملة.

في تلك السنة الثانوية الأولى حصلت على الترتيب الأول، وكذلك على أول «طرد» من الحصة في حياتي. طردني أستاذ عطية محمد سالم مدرس اللغة العربية المصري. بعد سنوات سمعت الاسم في إذاعة القرآن الكريم، وذكر المذيع أن عطية محمد سالم أحد علماء المسجد النبوي. جلست أبحث عن هذا الشيخ علَّه يكون مدرسي السابق، لكنه كان فقط تشابهاً في الأسماء. طردني أستاذ عطية محمد سالم من دون أن أعرف السبب. كانت صدمتي كبيرة. لم أعرف ما الذي علي فعله أو إلى أي مكان أذهب؛ لم أكن أدري إن كان ينبغي على الطالب المطرود أن يذهب إلى غرفة الوكيل أو المدير أو الذهاب لاستدعاء والده. كانت تجربةً جديدةً عليَّ. قررت الذهاب إلى بقالة مجاورة لأشتري وقتاً أضيعه. وهناك قابلت سعيد أحد طلاَّب الفصل الذي لم يحضر تلك الحصة. فاجأه وجودي فسألني عن السبب، وحين أخبرته بأنني لا أدري ضحك وقال: «أستاذ عطية هذا ملحوس، شوفني الحين بأروح الحصة وهي ما بقى على نهايتها إلا عشر دقائق وبيسألني وين كنت وبأقوله وشفيك يا أستاذ عطية لسه مستأذن منك عشان أروح الحمام، نسيت؟! والشباب ما يقصرون بيأكدون كلامي». وحصل ما خطط له سعيد. وبقيت لوحدي أفكر في السهولة الشديدة التي يمكن لبعضنا الهروب بواسطتها من مزالق تبدو لبعضنا الآخر كبيرة جداً وعصيَّة على الحل. لم أستطع نسخَ فعلِ

سعيد لأنني لا أملك جرأته. شغلني التفكير في سبب طردي طوال ذلك اليوم، ولم أصل إلى شيء.

كان الأستاذ عطية محمد سالم مدرساً موسوعياً. يبدو ذلك من طريقته في الشرح. إنَّه نتاج بيئة علمية رصينة وجادة وموسوعية، مثل المجمع العلمي المصري الشهير بخريجيه من الأدباء والمفكرين والساسة، أو الأزهر الشريف المعروف بمشايخه وعلمائه ودعاته. كان نحيفاً يلبس ثوباً وغترة بيضاء لا تكاد تستقر على جمجمته، فهي تتطوَّح يمنة ويسرة، فيضطر بين فترة وأخرى إلى سحبها من أحد طرفيها لكي تعود وتستقيم على رأسه الصغير. كان نحيفاً جداً بطريقة تدعو للتندر. وهو ذو بروز عظميَّة واضحة في وجهه الصغير وفي ساقيه النحيلتين، كما لو أنه مسلوخ. لم أره يضحك مرة. أقصى ما كُنَّا نحصل عليه نفحة ابتسامة لا تبدو صادقة.

ما أحبطني أكثر هو أنَّه لم يدرِ بأنني الأول على فصلي، وظل حتى آخر شهر في السنة الدراسية تلك يعاملني وكأنني تلميذ مشاغب كثير الإزعاج رغم محاولاتي الكثيرة لإثبات تفوقي. كان يلاحظ هذا كله لكنه لا يُعلِّق. حتى كان يوم توزيع شهادات نهاية العام الدراسي حين تغيَّب مدرس الفصل المسؤول عن توزيع الشهادات وحضر الأستاذ عطية بديلاً عنه. كان يقضي آخر أيامه التدريسية في السعودية بعد أن قرَّر العودة إلى مصر والاستقرار هناك. نظر إلى خانة الترتيب ثم ابتسم وسلَّمني الشهادة. كانت الابتسامة الصادقة الوحيدة التي حصلت عليها طوال سنة دراسية كاملة.

من حيث التعاطي مع ما حولي من مخاطر، لم تكن المرحلة الثانوية إلا نسخة محدثة عن المرحلة الإعدادية بتصرُّف. مزيد من الشبق لدى بعضٍ، ومزيد من القوة لديَّ على مواجهتهم. لا أعني

أنني كنتُ على استعداد للقتال، بل قصدت أن هذا الأمر لم يعد جديداً بالنسبة إليَّ، أي لم يعد يفجأني أو يصيبني بالهلع حد التبول في الثياب. أصبحت أدرك أنَّه موجود وأنَّ علي التعاطي معه بذكاء. أخي، شيطاني الحارس، كان لا يزال موجوداً، لكنني كنت أكتشف طرقي الخاصة بالهرب.

لا أحد سيُصدِّق أن ذلك الشاب النحيل البنية الذي يشارك زملاءه في كثير مما يفعلونه، يشكو اغتراباً داخلياً كبيراً فرضت «التأتأة» أحكامه العرفية. يلعب معهم الكرة، يشارك في مزاحاتهم، يصخب معهم، لكنه يفعل كل هذا وهو على عكسهم كلهم يداري خوفاً يمكن أن ينزَّ في أي لحظة!

لم يستطع شيء أن يحتويه، فالكل مشغول بما عنده. وليس ثمة حلقات أو نواد أو جماعات. لا أحد يعبأ بأحد. الشيخ بخيت لم يؤسس جماعة التوعية الدينية التي ستلحقها جماعات أخرى تحدث حراكاً كبيراً، ففي تلك الأيام لم يكن في المدرسة سوى ثلاثة من المتدينين الملتحين. بخيت الأسمر اللون، وفهد غير القبلي، وعبدالعزيز ابن أخت أحد علماء الدين النجديين الكبار. لم يكن في أي منهم ما يُغري، على الرغم مما يميز بخيت من مهارة وذكاء اجتماعيَّين...

استمر تفوقي الدراسي، وازدادت ثقتي في نفسي. وانتقلت من معسكر الخائفين جداً إلى معسكر الخائفين.

ترسخت مهارتي أكثر في تفادي إحراجات التأتأة. أُغيِّر مكاني في غفلة عن المدرس قبل أن يأتي دوري في القراءة بصوت مرتفع، أفعل ذلك وأنا أضحكُ مع زملائي وكأن الهدف من هذا العبث هو مجرد المشاغبة مخفياً الهدف الحقيقي «الهروب من إحراج التأتاة».

أستاذ إبراهيم، مدرس الدين المصري كان الوحيد الذي لا يمكنني الهرب منه، لأنَّه - ومن دون سبب مفهوم - أوكل إليَّ مهمة قراءة الجزء الذي يفرغ من شرحه من الكتاب، في نهاية الحصة الدراسية. ربما اختارني لتفوقي الملحوظ. كان ينادي على اسمي طالباً مني القراءة من دون أن يرفع رأسه عن الدفاتر التي ينشغل بتصحيحها في الفترة المتبقية من الحصة. أقرأ لدقائق قليلة قبل أن يدق الجرس. كنت أقرأ بصوت خافت جداً يضيع وسط الضجيج الذي يحدثه الطلاب. أتجاوز الحروف التي تحرن في حنجرتي. لقد بدا واضحاً أنني أكتسبت مهارة الهروب من المآزق ذات العلاقة بالتأتأة.

أستاذ إبراهيم الصعيدي ابن البلد المتوسط الطول، ذو الثوب الأبيض، والوجه الحاد الذي يقابلك منه أولاً أنفه وشاربه وفمه حتى لكأن الباب قد أقفل بعد ولوجهم. شارب أسود متوسط الكثافة، وجبهة متوسطة العرض، وشعر متوسط الطول. كان شخصاً متوسطاً جداً، يشبه شخصيات أفلام الستينيات المصرية. كان يدرسنا جميع مواد الدين. وكان ودوداً جداً ومن الشخصيات المميزة في مدرستنا بطريقته التشجيعية اللافتة، فلقد كانت عباراته التشجيعية الفصيحة التي يستخدمها في الحصص الدراسية وتلك المكتوبة في دفاتر الواجبات بعد التصحيح مثاراً للضحك والتعليقات. كتب لي في إحدى المرات: «إنَّ هذا لشيء عجاب»، ومرة: «ثكلته أمّه من لم تعجبه إجابتك»، ومرة: «أنت أنت أيها الرائع». قال مرة رداً على إجابة لأحد الطلاب: «يا لك من دويهية»، وقال لآخر: «لو كان العقاد حياً ما وسعه إلا الإعجاب بما قلت»، وقال لثالث: «حُقَّ لهذه المدرسة أن تفخر بك»! والأمر لم يكن يختلف ظرافةً حين يُعلِّق على كراسات البلداء، حيث كتب لأحدهم مرة «أين تعلمت لغة الهنود يا هذا؟» وكتب لآخر «أعان

الله والديك على بلواهما»، وكتب لثالث «لعمرك أنَّ التعليم في الحضيض وأنت رعاك الله خير مثال». . .

أحببناه. كان الوحيد الذي يمازحنا.

كان الأستاذ إبراهيم يدخن السجائر والشيشة بشراهة. وكان محبوب الطلاب الأكبر سناً من الذين قاربوا على التخرج. كان يُدرِّسهم في الصباح ويشرب معهم السجائر والشيشة في المقهى القريب في فترات استراحته في الظهر، وفي المساء بين الصلاتين.

كنَّا نحبه على الرغم من شعورنا بأنَّه منافق حقيقي لا يستحق أن نجعل منه قدوة لنا. كان يوفر لنا خميرة عن نوع من التدين لم يطف بخيالنا وجود مثله. أعني ذلك النوع من التدين الذي يُخدَش حين يتعلق الأمر بالممارسة العملية. كان المثال الأول في حياتي عن الفصام النكد بين التبشير والتطبيق. بين ما نقوله، بل وننصح الآخرين بفعله، وما نفعله!

لم أكن لأصدق أن متديناً يمكن أن يُدخن أو يشرب الشيشة أو يحلق لحيته! كانت هذه عندنا حقيقة لا تقبل الجدل.

على الرغم من حصص التدريب على تجاوز مآزق التأتأة التي مثلَّتها لي حصص الأستاذ إبراهيم، إلا أن كل هذا لم يجدِ نفعاً ذلك اليوم مع حصة الأستاذ مجدي مدرس مادة الجيولوجيا والذي تشعرك طريقته الأنيقة في اللباس والجادة في الشرح بأنه أحد علماء وكالة «ناسا». في تلك الحصة كان لزاماً على كل طالب أن يعدد 11 نقطة طلب منا الأستاذ مجدي في حصة سابقة حفظها وتسميعها. وقع الاختيار علي أولاً. حتى تلك الحصة لم يكن كثير من طلاَّب الفصل يعلمون بتأتأتي. كانت الأعين ترمقني. لم يكن هناك ضجيجٌ هذه المرة. كنت خائفاً جداً. وحين أخاف تأكل لساني القطة، ولا يبقى

منه سوى طرف صغير يسمح لي بالتأتأة. تأتأت كما لم أتأتئ من قبل. وانكشفت بشكل فاقع. ولأول مرة يضحك أحدٌ على تأتأتي.

لم يكن شيء يدفعني للمضي قُدُماً في دراستي بعد تلك الحادثة المشؤومة إلا سماعي أن الحياة الجامعية ليست كالثانوية وأنك تستطيع أن تختبئ في دهاليزها بسهولة شديدة. تستطيع أن تختفي كما لو أنَّك لم توجد قط. جامعة البترول - هكذا كان اسمها في السابق - كانت هدفي.

تخرجت من الثانوية بمعدل 88% . وكانت أسوأ درجاتي في مادة الكيمياء، ولا أدري كيف أصبح طالب الكيمياء البليد مهندساً كيميائياً في ما بعد؟

تقدمت إلى أرامكو للانخراط في نظام السي بي سي، وهو نظام دراسي تأهيلي تقدمه أرامكو لطلاب الثانوية المتفوقين، لتحضيرهم لدخول الجامعة بدون المرور بالسنة الدراسية الأولى فيها. اجتزت الاختبارات وقُبلت. لم أفرح كثيراً، ولعل السبب يكمن في أن فكرة الانتساب إلى أرامكو كانت رغبة والديَّ وليست رغبتي أنا. على الجهة الأخرى لم أكن كارهاً لهذا الانتساب لأنَّه سيوفر لي فرصة الدخول إلى عالم جديد فيه المال والمنزل الجديد والتطبيب المجاني والنساء الغربيات اللواتي يسمح النظام بالاختلاط بهن في العمل وفي السكن الخاص بهن.

حصلت على سكن، وكان زميلي في الغرفة شابٌّ سعوديٌّ قابلته في مكتب الإسكان، ولأنه كان معي في البرنامج نفسه، اتفقنا على السكن معاً.

في اليوم الأول للسكن، وكان يوم الجمعة الذي يسبق الدراسة بيوم، كانت المرة الأولى التي أقود فيها السيارة خارج مدينتي. كانت

الشهور الأخيرة من سنتي الدراسية الأخيرة في الثانوية هي أول عهدي بالقيادة، فلم أقد السيارة قبلها خارج حدود مدينتي.

قيادتي للسيارة ذلك اليوم كانت شيئاً شبيهاً برحلة سفاري في سيارة مكشوفة. على المستويين النظري والعملي كنت أدرك أن هناك عوالم أخرى غير عالم مدينتنا الصغيرة. لقد كان والدي يأخذنا كل سنة في رحلة إلى أقاربنا في الكويت بسيارته «الأمبالا» البرتقالية اللون. هذه الرحلة السنوية كانت كافية لأُكوِّن جغرافيا بشرية خاصة بي.

كان أخي الأكبر حاضراً في كل التفاصيل، فلم أكن قادراً على الاهتمام بشؤوني، أو تقحم مسالك هذه الحياة الجديدة.

في ذلك اليوم، قدت السيارة، وكان شقيقي الأكبر يقود سيارته خلفي، إذ أوصاه والدي ألا يعود حتى يضمن دخولي إلى المجمع السكني المسمى «حي المنيرة». شقيقي الأكبر، ملاكي الحارس، هو شخصية وشمتني في العمق. لا أستطيع أن أعيش مستقلاً من دونه، من دون أبوَّته الحانية وروحه التي ترفرف. كان أباً لنا منذ أن بلغ السادسة عشرة من العمر، في السنة التي بدأ الورم ينتشر فيها في جسد والدي رحمه الله.

أجمل ما فيه هو جموده وصلابته وغضبه المسرحي الذي يخفي تحته رقة وحناناً لا يدركهما إنسان على هذه الأرض كما أدركهما أنا.

كنتُ خائفاً طوال الطريق ومنهكاً. وصلت. انتابتني مشاعر مختلطة من الخوف والرهبة. خوفٌ مما قد أكون تركته ورائي مما هو ألصق بي، ورهبةٌ من هذا العالم الجديد والغريب عني تماماً. وعلى الرغم من أنَّ ما يفصلني عن مدينتي وأهلي لا يتجاوز 60 كم إلا أنني شعرت وكأنني مقدمٌ على اغتراب حقيقي.

أدركت وقتها بأنني لن أكون رجلاً مستقلاً في حياتي أبداً.

وصل صاحبي. تقاسمنا الغرفة. وبدأت التعرف إليه. كان شخصاً طيباً جداً وخلوقاً. سيتدين حين تهب رياح الصحوة.

«حي المنيرة» كان في آخر أيام سمعته السيئة، كما عرفنا في ما بعد. فقد كان قبل قدومنا بشهور قليلة مرتعاً للوطيِّة والحشاشين ومدمني المخدرات.

أذكر أننا خرجنا مرة من غرفتنا، فرأينا أحد جيراننا الشباب يخرج ومعه فلبيني يبدو أنه شاذ جنسياً من طريقة مشيه وكلامه. نظرت في عيني صاحبي مستنكراً، فابتسم وهز كتفيه. كان ذلك كافياً لأفهم أن اللواط على بعد أمتار من غرفتنا.

ومن تلك اللحظة، بتُّ أكثر خوفاً وحرصاً. وبدأت ألاحظ - ليس فقط بسبب رهابي الذي صنعته التأتأة - أن هناك من ينظرون إليَّ ملياً، فلقد كنتُ شاباً يافعاً ونحيفاً. كنت أتظاهر بالجرأة والشجاعة، إذ إن جرائم التحرش الجنسي تبدأ بالخوف وتنتهي عنده.

ساعدني وجود صاحبي كثيراً. لقد كان له أقارب في مدينة قريبة، وكانوا كثيراً ما يزوروننا، فنذهب إلى مطعم المجمع معاً. وقد كان لهذا تأثير إيجابيٌ كبير عليَّ...

كانت الدراسة جميلة وثرية. صحيح أنني واجهتُ فيها الصعوبات نفسها التي واجهتها في المدرسة في ما يتعلق بالتأتأة، لكن يظهر لي اليوم الفرق الكبير في تعامل مُدرسي المدارس الحكومية ومدرسي أرامكو الذين كانوا بريطانيين وأمريكيين في غالبهم.

أذكر جون روني، المدرس ذو الرائحة الكريهة، رائحة الخمر. لم نكن ندرك حينها أنها رائحة الخمر.

كان جون روني مخلصاً جداً. ما زلت أذكر ملامحه. إنجليزي بعيون زرقاء، ولهجة صافية وبطيئة. عينان صغيرتان وغائرتان. أول ما تلحظه عليه أن جسده غير متناسق على الإطلاق. نصفه العلوي صغير مقارنة مع السفلي. كان ذا وجه أبيض صغير نسبياً. يعلو رأسه شعرٌ متموج، وكأنَّك أمام أحد مطربي السيتينيات الإنجليز. يُكثر هز كتفيه ورأسه. يُكثر من الاستفهامات. لا يعطيك إجابةً واحدةً بدون أن تتعب في الحصول عليها.

طلب منَّا مرة مقالةً بخصوص قرار مصيري اضطُررنا لأن نتخذه في الماضي أو اتخذه شخصٌ نعرفه.

كتبتُ قصةً وكان هذا أول عهدي بالكتابة؛ بل وبالقصص. كانت قصة عن طبيبٍ سوفياتيٍ رفض أن يقاتل في أفغانستان، لأنَّ في ذلك مناقضة لرسالته الحياتية وواجبه المهني. حوكم الطبيب عسكرياً وصدر بحقه حكم بالإعدام. وقد كتب هذه المقالة في زنزانته، معرباً فيها عن طمأنينته وهدوئه ويقينه الخالص بأنه اتخذ قراره المصيري الصحيح، وبأنَّ القدر لو عاد إلى الوراء آلاف المرات لاختار الخيار نفسه.

أعجبت القصة المستر روني كثيراً. ولهذا وزَّع الأوراق الأخرى، واحتفظ بورقتي آخراً. ثم تحدَّث عنها لدقائق، وطلب مني أن أقرأها أمام الآخرين! لو كنت أعلم أن نهاية «القصة» ستكون قراءتي لها - أنا المتأتئ - لما كتبتها. المهم أنني قرأتها بصعوبة شديدة، فلقد كانت المرة الأولى التي أقف فيها أمام أحد وجهاً لوجه لأقرأ عليه شيئاً! أذكر أن أحد الإخوة الشيعة، وقد أعقبني في قراءة مقالته المتميزة والتي جاءت في المرتبة الثانية، كان يضحك بينما كنت أقرأ قصتي. لا أحب أن يضحك أحدٌ على تأتأتي. أخبرنا جميعاً في ما بعد أنَّه كان يضحك على نطقي لكلمة government، حيث كنت أنطق حرف

الـ n وما كان ينبغي لي ذلك. ضحكنا جميعاً بما فينا مستر روني الذي نظر إليَّ رافعاً حاجبه الأيمن ثم قال: he is right.

أذكر مدرساً آخراً. كان عجوزاً أمريكياً. أشعر الآن أنه كان أديباً ملهماً. وأذكر أني أدهشته مرة حين تحدث عن السينما والفن والفنانات، فذكرتُ له اسم غريتا غاربو بطريقة استعراضية! فانتفض، وطلب مني تكرار الاسم ليتأكد مما سمعه.

كان مدرساً مرحاً جداً ومحبوباً. كنا ننتقده من دون أن يثير ذلك حفيظته. أذكر أنني في أحد الأيام انتقدت تعامل الغرب معنا، وجحودهم لإبداعاتنا، وعلى رأسها إبداع البروفيسور مجدي يعقوب نابغة طب القلب البريطاني الجنسية. أذكر أنَّه أبدى استياءه مما قلت، وأنكر أن يكون لديهم أي نوع من الجحود للعلماء والنوابغ أياً كانت أعراقهم ودياناتهم. ما زلت أذكر حتى اليوم طريقته في الكلام، طريقة الشيوخ الإنجليز، في تقطيب وتجعيد تعابير الوجه حين الحديث بإنزعاج.

في الحصة التالية، حضر لنا مدرس مادة الكيمياء الأمريكي الجنسية والصربي المولد. كان أقربهم سناً لنا. لكنه كان المكروه رقم واحد لدى الأغلبية. سألنا عما جرى في الحصة السابقة، وسأل باحثاً عن رؤيتي. فرفعتُ يدي.

رسبت في اختبار مادته على الرغم من أنَّه كان اختباراً سهلاً، وقد يكون السبب ضعفي في الكيمياء. أعدتُ المادة، واختبرتها مرة أخرى، وكنتُ قد حضرتُ لها جيداً، فالرسوب لمرتين يخرجك من البرنامج ويعيدك إلى الدائرة التي نُسِبت إليها حين قبولك.

رسبتُ للمرة الثانية، وسط دهشتي ودهشة الكل! وتم إخراجي من البرنامج. لم أدّعِ ولو لمرة واحدة أن السبب كان ذلك الصربي.

واليوم أفكر في السبب الذي دفعني لعدم اتهامه، لأنني لو كنت أبحث عمن أوجه له كرهي وغضبي «السريين» ممثلاً عن هذا العالم غير العادل، لما وجدت خيراً منه!

لا يهم، المهم أنني صرت خارج البرنامج.

أول تجربة تنتهي بأول فشل. حقيقة مؤلمة جداً. في ذلك اليوم، عدتُ إلى بيتنا. لم تكن لنا غرف نوم خاصة. كنا ننام في صالة المنزل. وجدت فراشاً. تغطيت. وبكيت بكاءً مراً. وعلى الرغم من أنّي لم أرغب في الانتساب إلى أرامكو ابتداءً إلا أن للفشل عذاباته.

علِمت والدتي. حاولت أن تواسيني بطريقتها الخاصة الحنونة، جاء والدي، علم بالأمر، لم يكلمني. بعد يومين اتصل بأخي الأكبر، أخي من أبي الذي كان يعمل في وظيفة مرموقة في أرامكو. خاطب أخي الأكبر إدارتي. كان الباب المشرع أمامي ينتهي بوظيفة مساعد مهندس! لم أكن لأقبل بهذا لكن الجامعة لن تبدأ قبل شهور. حتى ذلك الحين لم يكن لدي من خيار سوى أن أقبل بالمتاح.

بدأتُ عملي في قسم الإنتاج بمعية المهندس الأمريكي الجنسية المصري المولد: جاك نوَّار. وكان معروفاً بمرحه ودعاباته على مستوى واسع. ومما عرفته عنه لاحقاً أنَّه كان قبطياً أرثوذكسياً.

عرَّفني جاك نوار برؤسائي وزملائي في القسم. كان مدير القسم سعودياً من أصل صومالي، وكانت تبدو عليه الحكمة والعلمية الفائقة. وكان نائبه أمريكياً يُدعى ديفيد وارلي كان مُقرِفاً. يشتكي الكل منه بما فيهم بني جلدته، فبالإضافة إلى عنصريته، كان شتَّاماً وساخراً لا يترك فرصة خطأ لأحد الموظفين تفوت من دون أن يهاجمه ويتندر عليه. هكذا قيل لي... لم أعمل معه لفترة طويلة، لكنني خرجتُ بانطباعٍ واحدٍ عنه أنَّه «مقرف»...

مع جاك نوَّار بدأتُ بالاطلاع عن كثب على ما يدور في سكن «نجمة»، وهو سكن خاص بموظفي أرامكو السعوديين من ذوي الدرجة الحادية عشر وما فوق، والتي تعتبر عالية نسبياً، إضافة إلى الموظفين الأمريكيين والبريطانيين. كنت أستطيع دخوله لأن مقر عملنا داخله.

سمعنا في الماضي قصصاً كثيرة لا ندري مدى صحتها عن فتيات هذا السكن الشقراوات وعلاقاتهنَّ وهوسهن بالشباب السعودي...

مع جاك تعرَّفت فقط إلى هندية! أخبرني في ما بعد أن كثيراً من الرؤساء يجرون خلفها. سمراء ساحرة، تلبس الجينز، يميزها بالإضافة إلى شعرها الأسود الفاحم الطويل الذي يصل لأردافها، صدرها الكبير المشدود بحمالات شديدة الضغط، جسم ممتلئ مغرٍ جداً، وجه دائري برونزي يأتي كما لو أنَّه تاج لجائزة أحسن جسم ممشوق! ولذلك فكثيراً ما عرض جاك خدماته ليعرفني بهذه المرأة القابلة للانفجار، لكنني أرفض. «بدوي» يرفض التصريح العلني بالرغبة، ومصاب بالـ«رهاب»!.

بالكاد كنتُ أرفع بصري عنها حين أراها في مكان. كنتُ ألحظ أنها دائماً ما تكون بمعية رجلٍ سعوديٍ خط الشيب عارضه. سألت جاك عنه، فأفاد بأنَّه صديقها الجديد، فلقد كان لها كل أسبوع أو اثنين صديق جديد!

في أحد الأيام جمعتني بها الصدفة، فاستغل جاك الموقف وعرفني إليها، وطلب منها موعداً في الخارج، فاعتذرتْ بأدب. منذ تلك اللحظة لم أعد أعرها انتباهاً.

أحببتُ مهدي. سبقني في العمل بوصفه مساعدَ مهندس. شاب أسود البشرة، ودود، حسن الخُلُق، متعاون. أيضاً أحببتُ حمد، دون

جوان زمانه، الذي لا يترك فرصة واحدة تمر حين نخلو ببعضنا حتى يحدثني عن مغامراته النسائية وولع النساء به، ولا أدري كيف كنتُ أصدقه، على الرغم من أن الواقع لا يسند ما يقوله، إذ لم يكن وسيماً على الإطلاق، اللهم إلا إذا اعتبرنا مشيته التي تشبه مشية البطريق مثيرة!

لا شيء كان قادراً على دفعي باتجاه غزل النساء! فلم يكن هذا الأمر على جدول أولوياتي آنذاك.

هذا بالإضافة إلى خجلي الشديد بسبب تأتأتي ربما، أو بوصف أدق تحولي إلى «راهبٍ اجتماعي رغماً عن أنفي»!.

في تلك الصيفية استقلت من وظيفتي وقدَّمت أوراقي إلى الجامعة. اجتزت اختبار القبول والمقابلة الشخصية، وقُبلت.

فواز

لم تكن لدى بندر وصاحبه أدنى فكرة عن العمليات العسكرية. كان الرمي بالكلاشينكوف بالإضافة إلى لعب الـ«بلاي ستيشن» هما كل ما يجيدانه. تدربا على الكلاشينكوف الذي كان متوافراً بكثرة في الكويت، بفضل الغزو العراقي الذي مضى عليه أكثر من عقد. مفارقة غريبة!

قبل أيام قليلة من ذهاب بندر وصديقه إلى العراق، حصلت حادثة كبيرة في الكويت. استنفر في ضوئها الإعلام الحكومي. لقد تمَّ القبض على شخص كان يحاول الخروج من منفذ النويصيب المتاخم للحدود السعودية بجواز سفر مزور. وذكر الناطق الرسمي الحكومي، حينها، أن القبض على هذا الشخص قاد إلى كشف شبكة إرهابية كبيرة تابعة للقاعدة، وقُبِض على مواطنين متدينين اتُّهموا بالانضمام إليها!

أحد أعضاء هذه الشبكة المفترضين كان النقيب فواز، العسكري ذو الاحترام الواسع في دائرة الجوازات. أُحضِر إلى مبنى التحقيق ذي الدورين. جرت العادة ألا يحقق مع المتهم البدوي محقق بدوي، ولا يحقق مع المتهم العسكري شخص من دورته العسكرية نفسها.

كان حظ النقيب فواز سيئاً. كان المحقق شيعياً طائفياً.

قبل التحقيق بأيام، كان السوري أبو الليث في خوف شديد وهو يخبر النقيب فواز أن نقطة تفتيش للمخابرات أوقفته هو وعمر ودققت في هويتيهما، ثم أطلقت سراحهما. كان إطلاق السراح يعني أن عليهما أن ينتظرا الأسوأ!

وصل أبو الليث السوري إلى الكويت عن طريق السويد التي وصلها من جورجيا. كان أحد المجاهدين في الشيشان التي فقد فيها أخيه الرابع، بعد أن فقد ثلاثة قبله في البوسنة والهرسك، وقد جاء إلى الكويت لعلاج إصابة في ظهره، والتي كانت تحتاج إلى عناية خاصة من طبيب عظام محترف. حين أُصيب بشظية في أواخر أيام الجهاد البوسنوي، نصحه بعض المقربين بالذهاب إلى الكويت للعلاج. لقد كانت دول الخليج تتعاطف بقوة في تلك الأيام مع الجهاد البوسنوي. تم علاجه في الكويت على يد طبيب مصري متدين يُدعى أبو فاطمة، الذي نصحه بالعودة إليه مرة أخرى لاستكمال العلاج حتى تبرأ الإصابة تماماً، لكن الجهاد الشيشاني الذي اندلع فجأة لم يتح له الفرصة لذلك.

جاءت الفرصة رغماً عن أنفه حين أُصيب برصاصة في مكان الإصابة السابقة نفسه، في إحدى العمليات في الشيشان. كانت الأمور، لسوء حظه، قد تبدلت في دول الخليج، التي أصابتها تداعيات الحادي عشر من سبتمبر، وهوس «الحصول على الرضا» الأمريكي في ملاحقة الإرهاب. كان للعرب وللخليجيين ضحاياهم وقرابينهم «الوطنية» للسيد الأمريكي، فما بالك بسوري يحمل جواز سفرٍ مزور! إنه صيدٌ ثمين في سنة جوعٍ مجنونة.

كان الشباب المجاهد ينظرون بعين الاحترام والتقدير للنقيب فواز الذي لم يكن يخفي تأييده للجهاد وشبابه. فبالإضافة للخطب الدينية

التي كان يلقيها في مسجده الذي يؤم المصلين فيه، كان يجمع التبرعات للمجاهدين وللبلاد الإسلامية المنكوبة علناً أمام الجميع. كما أنَّه كان حريصاً جداً على عدم مخالفة الأنظمة والقوانين الحكومية. باستثناء تلك المرة الوحيدة التي كانت قاتلة وكافية لإنهاء شهر العسل بينه وبين الحكومة.

تعوَّد النقيب فواز وسعدون، أحد أصدقائه المقربين وأحد شباب الجهاد، أن يجتمعا عادة في إحدى الاستراحات مع بعض الشباب الجهادي.

وكان الشباب الجهادي يعلم بشكل صارخ أن النقيب فواز يرفض بشدة ووضوح نقل عمليات الجهاد إلى داخل البلاد العربية، بل هو يذهب أبعد من ذلك، حيث يرى أن في عنقه بيعة للحاكم، ويرى أن من يقوم بأعمال التخريب والقتل الإجرامية هم حفنة من الجهلة والتكفيريين. كان هذا معلوماً لدى الجهات الرسمية فلقد كان هذا سره وعلانيته.

لكن، ولسوء حظه، لم يكن هذا كافياً وفق منطق ما بعد الحادي عشر من سبتمبر.

طلب النقيب فواز من أبي الليث وعمر السفر إلى الخارج بعد حادثة نقطة التفتيش تلك، لأنه سيتم القبض عليهما عاجلاً. توجه عمر مباشرة إلى المطار وركب الطائرة المتوجهة إلى سوريا. أما أبو الليث فانتظر يوماً آخراً كي لا يثيرا الشبهة. حزم أبو الليث أمتعَته في اليوم التالي ويمَّم وجهه شطر المطار ناوياً السفر إلى لبنان. كان فواز قد سأل أحد موظفي الجوازات ممن يعملون تحت إدارته إن كان اسم أبي الليث قد ظهر في قائمة الممنوعين من السفر، وجاءت الإجابة بالنفي. اتصل فواز بأبي الليث وأخبره بأن طريق السفر سالكة.

كان فواز سيتوجه في ذلك اليوم إلى السعودية في زيارة بمناسبة زواج أحد أقربائه. ولم يستطع فعل ذلك قبل هذا الاتصال التلفوني المطمئن.

بعد ساعة من دخوله الحدود السعودية، وقبل دقائق قليلة من فراغ أبي الليث من إجراءات السفر والجوازات، جاءه اتصالٌ تلفوني من ذلك الموظف يخبره أن اسم أبي الليث قد نزل في قائمة الممنوعين من السفر، فطلب النقيب فواز من ذلك الموظف السماح لأبي الليث بالمرور على الرغم من ذلك.

- لكنني لا أستطيع ذلك يا نقيب فواز، فالاستثناء يكون فقط من لدن وزير الداخلية!

- يا جابر مرره، وأنا سأقول إنني أنا الذي أمرتك بناءً على تصريح لدي موقَّع من وزير الداخلية. هل تخشى أن أنكر ذلك؟

- لا والله لا أخشى ذلك. بعد لحظة صمت، أردف: حسناً، لكن دعني أذكرك أنها مغامرة كبيرة جداً.

- توكل على الله، وخلِّ الباقي علي.

مرَّ أبو الليث، وتنفس النقيب فواز الصعداء. لطالما عرف أن مشكلة ما ستشرخ يوماً علاقته بالحكومة. ففي دولة تعتبر من حلفاء الأمريكان ليس طبيعياً أن يسمح لنفرٍ من الناس بجمع التبرعات لمقاتلة الحليف!

كشفت المخابرات كل شيء. بحثت عن النقيب فواز. كان خارج البلاد. اتصلوا به تلفونياً، فأفادهم أنه سيأتي في الغد. وفعلاً حضر في الغد، وسلَّم نفسه طواعية. وكتب الإعلام العلماني «القبض على عسكري كبير ينتمي لتنظيم القاعدة»!

فتشت المخابرات الاستراحة، فوجدت بعض أسلحة الكلاشينكوف. وأُلقي القبض على زملاء فواز وأصدقائه. تم في اليوم نفسه القبض على شاب جهادي حاول السفر بجواز مزور، كما ذكر الإعلام في اليوم التالي.

ظل فواز محافظاً على هدوءه بطريقة تثير الاستغراب، على الرغم من أنه واجه بعض الإهانات اللفظية بين فترة وأخرى.

كانت عيناه تُعصبان حين نقله من زنزانته الانفرادية إلى كرسي التحقيق.

كان كل ما لديه هو صوت غير مريح على الإطلاق لمحقق حَضَري، تدل لهجته على أصوله الإيرانية. حين تخرج النقيب فواز، كان من المفترض أن يكون في المخابرات، وفي لجان التحقيق على وجه الخصوص، لكنه رفض ذلك، فالمخابرات جهاز جسدي ضخم بلا عقل. زيادة على سمعة أفراده السيئة على المستويين المهني والسلوكي. وكان فواز يعتقد أن إطلاق اليد بلا رقابة كفيل بتحويل أكثر الناس وداعة إلى ساديين وسايكوباثيين. كان يعرف أن هذا النوع من التحويل مطلوب ولا يأتي صدفة!

لم يستطيعوا أن يحصلوا من فواز على شيء ذي بال. والسبب أنه لم يكن في الحقيقة يملك شيئاً ذا بال. حتى المواطن العادي المسالم لا يستطيع أن يقنع أجهزة المخابرات العربية بأنه لا يملك شيئاً ذا بال.

كل ما قاله كان معروفاً ومدوناً لديهم. لم يكن هذا ما يبحثون عنه. كانوا يبحثون عن ضحايا «وطنية» تثبت انجرار الكويت وراء الثور الأمريكي في ملاحقته للإرهاب.

كانت المخابرات الكويتية تريد أن تُقدِّم للسفير الأمريكي إثباتاً

«خاصاً» بالحيادية غير المتوقعة، وأنها على استعداد لتقديم ضحايا «دسمين» في سبيل إثبات حسن النوايا هذا، على الرغم من أن أحداً لا يعبأ بنوايا أو حيادية، بل ولا حتى بمذابح الكويتيين وقرابينهم السخيفة!

في أحد الأيام أدخلوا على فواز صديقه سعدون الذي اعترف تحت التعذيب بأشياء كثيرة لا أساس لها، منها أنهم خلية تابعة للقاعدة وأن قائد هذه الخلية هو النقيب فواز.

أُصيب النقيب فواز بالألم والحزن والأسى، فاكتفى بقول: «سامحك الله يا سعدون». قالها بهدوء شديد. كان يعلم أن كل ما قاله سعدون قاله تحت التعذيب. من موقعه في الزنزانة كان يسمع بعض الصرخات التي يطلقها المتهمون في ذلك الطابق أو الطوابق الأخرى القريبة. بكى سعدون بحرقة قبل أن يخرج وظل يردد: سامحني يا فواز، سامحني يا فواز.

- ما رأيك الآن؟ ألا تجد الوقت مناسباً للاعتراف. قال المحقق.

- الاعتراف بماذا؟ لم أكن لأكذب في حياتي. ولم أكن لأعترف بما لم أفعل.

- من تظن نفسك؟ أتحسب أنني لا أستطيع تعليقك من رجليك حتى تعترف.

- بلى تستطيع، لكنك لن تستفيد شيئاً، لأنه لا شيء لدي أخفيه. أتريد أن أعترف بدعمي للجهاد في سبيل الله في كل مكان باستثناء بلاد المسلمين التي أرفض نقل المعركة إليها؟ لا أظنني في حاجة لمثل هذا الاعتراف، فالكل يعرف رأيي حول هذا، وهو معلن وواضح. دعني أسألك سؤالاً، يقول فواز.

- قل

- أين كنت حين غزانا العراقيون؟

- ماذا تقصد من هذا السؤال؟ قالها المحقق وهو يكتم غيظه.

- لا شيء. لا شيء على الإطلاق. سأخبرك أنا أين كنَّا أنا وصاحبي الذي خرج قبل قليل. كُنَّا في فرقة «الشهيد فهد الأحمد». عملياتنا البطولية والوطنية يشهد لها الجميع، وهي مثبتة في أوراق وزارة الداخلية، لكن في أي فرقة كنت أنت، ومن يشهد لك؟

- كونك كنت في أحد فرق المقاومة لا يعطيك صكاً وضماناً مفتوحاً تعمل من خلاله ما تشاء وقتما تشاء.

- لم أقل هذا، لكنني أزعم أن هذا يثبت وطنيتي حتى يَثبت ما ينفيها. لكن ماذا عنك أنت، كيف تثبت وطنيتَك، خصوصاً وأننا مررنا بالتجربة ذاتها، الغزو العراقي؟

- متحمس ما شاء الله! لستُ في حاجة لإثبات أي شيء لك. أنت من يجب أن يثبت ويعترف.

- أنا أيضاً لستُ في حاجة لإثبات أي شيء لك. فأنا بمثابة كتاب مفتوح بالنسبة إليكم.

- من تظن نفسك لتتكلم بهذه الطريقة؟

- أنا مواطن كويتي ولي حقوق دستورية ومن حقي الدفاع عن نفسي وتوكيل محام. وعلى الرغم من هذا فأنا لا أحتاج لتوكيل محامٍ. لا أريد إثقال كاهل الحكومة بشيء. قالها وهو يبتسم: شوف يا عزيزي، أردف فواز:

- الناس الذين يعترفون بأشياء لم يرتكبوها هم ضحايا مرتين. ولستُ من هذا النوع. سيخرج سعدون من السجن قريباً، لأن من

يكذب كذبة يحتاج إلى عشرين كذبة جديدة ليغطيها. لن يجد سعدون أو من دفعه لهذا النوع من الاعتراف ما يُغطي تكاليف هذا الاعتراف.

ثارت ثائرة المحقق على نحو غير مفهوم:

- من أنت لتتكلم بهذه الطريقة. ما أنت سوى حشرة إرهابية. ابن حشرة إرهابية. قحبة صغيرة.

لسوء حظ المحقق، كانت والدة فواز قد توفيت قبل شهر. خلَّفت وفاتها جرحاً غائراً في صدره. كان يحبها بشدة. كانت امرأةً متدينة، ورعة وعطوفة.

حين سمع فواز ما قاله المحقق في حق والدته. ما كان منه سوى أن قام عن كرسيه الذي تلتف يدي فواز المكبلتين حوله، ودار به دورة كاملة بسرعة حتى تيقن أنَّه ضرب به وجه المحقق الذي أفقدته الضربة صوابه، وبدأ الدم ينزف من أنفه. سقط فواز على ظهره بينما ما زال عالقاً في كرسيه، ثم مال على جنبه الأيمن فانكفأ على وجهه بسرعة، وبدأ يحك وجهه بالأرض لينزع الرباط الذي يغطي عينيه. نزعهما ورأى المحقق الذي حاول أن يخفي وجهه. وبسبب الجلبة دخل الحارس الذي حاول هو الآخر أن يخفي وجهه عن فواز.

قال فواز للمحقق: عرفتك. الرجَّال ما يخفي وجهه يالدجاجة.

ثم وجه كلامه للحارس: على هونك. على هونك. لن أفعل شيئاً. لقد شتم أمي ورددتها عليه، وانتهى كل شيء. أما الآن، فأنا أطالب بحضور المسؤول. ولن أجيب عن سؤال واحد حتى يحضر المسؤول.

حضر المسؤول على عجل. كان يخشى أن تتفاقم الأمور، وأن تصل للصحافة تسريبات ما بوجود إضراب أو اعتصام داخلي في

السجن أو ادعاءات بوجود حالات تعذيب. كان ذلك كفيلاً بزعزعة موقفه كمسؤول عن التحقيق مع أفراد الشبكة الإرهابية.

أخبره فواز بما حصل، وقال بوضوح شديد: لن أقول كلمة واحدة بعد الآن لا لهذا الرجل ولا لغيره. ولن أقول حرفاً واحداً إلا لمحقق آخر. كل ما عندي قد قلته. وتستطيعون التأكد منه.

كان المحققون قد تأكدوا أنهم لا يملكون قضية حقيقية فلا شبكة إرهابية، ولا خلية نائمة.

الكويتي الذي قُبِض عليه على الحدود، لم يكن يحاول الخروج بجواز سفر مزور، بل جواز سفره الحقيقي، لكن سريان صلاحيته ينتهي ذلك اليوم. أوقفوه لهذا السبب، ولأنه أخ أصغر لأحد شباب الجهاد الذين استشهدوا في الشيشان. بعد يوم واحد أطلقوا سراحه، ففي النهاية تظل الكويت بلد «قانون»!

كانت فضيحة كبيرة للإعلام الكويتي العلماني وللحكومة بطبيعة الحال.

لم يكن أمام المخابرات من حل سوى الذهاب بالقضية إلى آخر الطريق، خصوصاً وأن الإعلام العلماني المساند لها أسال كثيراً من الأحبار حول هذه الشبكة «القاعدية».

في يوم المحاكمة، حضر أحد أفراد الأسرة الحاكمة، وكانت له لحية طويلة ناعمة. ويتمتع باحترام شديد في أوساط الأسرة الحاكمة بسبب شجاعته وشجاعة والده. له احترامه أيضاً في أوساط الشباب المتدين وخصوصاً الجهادي، فدعمه للشباب الجهادي مُعلن وواضح وصريح رغم أنه مثل فواز سلفيُّ المنهج والمعتقد.

كان فواز ومن معه في القفص. سار الشيخ حتى توقف أمام

القاضي، فقال: عار يالكويت، عار. أبطال المقاومة الوطنيون يوضعون في الأقفاض، بينما الذين تحصنوا وراء مؤخرات النساء أثناء الغزو، ونظر إلى المحققين، يحاكمونهم! ما الذي يجري في الكويت؟ فواز الذي يُعد مفخرة لكل كويتي، والذي ما عرفناه إلا وطنياً صالحاً ومخلصاً ومحباً لحكومته، يحاكمه مجاهيل الإعلام والأمن في الكويت؟

وخرج.

لم يظن فواز في يوم أن التناصر والتعاضد قد يأتي بمثل هذا الشعور الجميل الذي اخترقه وهو يستمع إلى كلمات هذا الشيخ. بالكاد منع دموعه.

بعد أسبوع من المحاكمة، حكمت المحكمة ببراءة الجميع، باستثناء سعدون الذي صدر ضده حكم بالسجن لستة أشهر لحيازة أسلحة غير مرخصة.

لكن الضرر كان قد وقع. والإعلام قد جرح هؤلاء في الصميم. والثقة بالديموقراطية والقانون قد خُدِشت.

في أوقات عصيبة كهذه تفقد ثقتك في النظام. تشعر أنك مهدد بكبريات الجرائم التي قد يجدها الإعلام مناسبة للحيتك أو ثوبك القصير. الشيخ كان هناك لفواز وصحبه. لكن منْ للذين لا شيخ لهم؟

منْ للذين قد يعترفون تحت وطأة التعذيب بفعل ما لم يفعلوه؟

ومنْ للذين لا يملكون اليقين الذي يملكه فواز بأن لا أحد قادر على تطويع لسانك؟

استقال النقيب فواز من وظيفته على الرغم من أنَّه حصل على اعتذار رسمي.

لم يكن كل ما حصل ليمنعه عن مواصلة ما كان يقوم به. استمر في دعم المقاومة. حتى تلك التي وُلِدت في العراق بعد الاحتلال الأمريكي.

بات صوته أقوى ويقينه أكبر، ولا يزال لا يعترف سوى بما يفعله.

كان فواز هو الجهادي الذي اتصل به بندر وصاحبه من سوريا ليدبر لهما دليلاً جيداً يدخلهما العراق.

ذوق سيء

- متعب؟!

- هلا محمود.

- وينك؟

- موجود، عسى ما شر؟

- ما شر. بس تعال أبغاك في موضوع. كعادة محمود بليد في تورية قلقه مع حماس شديد للـ«أكشن».

- طيب. أجيب معاي «باسكن روبنز»؟

- أكيد ما يبغالها!

وصلت إلى شقة محمود الصغيرة التي باتت في السنوات القليلة الأخيرة ملفى مجموعتنا الصغيرة.

وضعت الكيس الذي أحمل فيه علبتي آيسكريم باسكن روبنز على طاولة محمود التي تبدو كطاولة المستشفيات التي يضع عليها المرضى الصحون والأكواب الخاصة بالأكل والشرب، والتي يمكن رفعها وخفضها من خلال مقبض خاص، ثم جلست.

- خير

نظر إليّ وقال على عجل: رحت المباحث اليوم!

قلت بهدوء محاولاً الحفاظ على رباطة جأشي: ليش عسى ما شر؟

لم يجبني، لكنه فاجأني بسؤاله قائلاً: هل تكتب في منتدى الساحة العربية باسم ذوق؟ محمود يعشق الاكتشافات بشكل عام لذا فحين سألني هذا السؤال كان وجهه يشع بشراً وعيناه تتقدان حماساً، ليس لؤماً لكنها طريقته في اكتشاف الأشياء ذات الإثارة (الأكشن) والتعاطي معها.

- لا أدري. من الممكن أن أكون كتبت بهذا الاسم مرات قليلة، لكنني كما تعلم توقفت عن الكتابة في الساحة منذ أكثر من سنة ونصف. لمَ تسأل؟

- اسمع السالفة طال عمرك من طق طق للسلام عليكم.

- هات.

- اتصل بي نقيب اسمه النقيب جبران، بينما أنا في العمل وطلب مني الحضور إلى مبنى المباحث. حضرتُ إلى المبنى وبعد ترتيبات معينة ولجنا إلى باحة المبنى. كان شخص ما في انتظارنا عرَّف عن نفسه في ما بعد بأنَّه النقيب جبران. همَّ السائق بإخراج كرسيي المتحرك من شنطة السيارة لكن النقيب جبران أمره بالتوقف، وقال: لا داعي لأن تتعب نفسك، نستطيع إنهاء الموضوع كله وأنت في السيارة.

- جيد. ما الموضوع؟

- نريد أن نسألك بعض الأسئلة حول عملك، وأصدقائك، وجهاز الكومبيوتر الخاص بك الموصول بالإنترنت وعن أشياء أخرى؟

ثم أردف محمود: وبعد أن سألوني عن كل هذه، ولم آت

بشيء يخصك لوحدك، قال النقيب جبران: هل تكتب في الساحة العربية؟

- لا. أنا لا أكتب في المنتديات، بل إنني لا أكتب في أي مكان آخر، فالكتابة ليست من هواياتي. قلت هذا للنقيب جبران وأنا أعرف جيداً أنهم سيسألوني عنك ولا شك.

- حسناً. من يستخدم الإنترنت الموجود في غرفتك؟

- أنا لدي دي إس إل، والجهاز يستخدمه جميع أصدقائي بلا استثناء، إضافة لأختي.

- منْ مِنهم يكتب في الساحة العربية؟

- لا أدري والله. لكن ما أذكره أن الجميع كانوا يطلعون على الساحة العربية قبل سنوات، وأمَّا الآن فلا أسمع أحداً يتحدث عنها!

- هل تعرف من يكتب أو سبق له الكتابة باسم ذوق؟

- لا. لكن ما الذي كتبه ذوق وكان مخالفاً؟

- لا تهتم لهذا، لكن ينبغي أن تدرك أمراً مهماً جداً: أنت في وضع خطير للغاية، وما لم تدلنا على الشخص الذي استخدم جهازك والمسمى ذوق، فسنستنتج أنك ذوق أو أنَّها أختك، خصوصاً وأن في الاسم لمسة أنثوية!

- هل تريدون مني أن أتبلى على أحد؟ قلت لكم ما أدري من هو. أنتم أخبر مني وأنتم المباحث، ابحثوا وراء الناس الذين يأتونني في البيت واعرفوا من هو. أما أنا فمن الحين أقول لكم ما أعرفه. اللي يستخدمون جهازي ناس كثير. لي أقارب يجوني من الرياض والجبيل والخبر والدمام ويستخدمون الجهاز. إيش يدريني يمكن واحد منهم ذوق ويكون كتب اللي اكتبه وطلع! وبعدين قولوا لي هو وش كتب ومتى كان هذا؟

قدَّم لي النقيب جبران نسخة عن مقالة مكتوبة بعنوان «إيران تُكرِّم مقتدى الصدر والسعودية تعتقل صاحب موقع مفكرة الإسلام، يا للعجب!» ولمحت التاريخ الذي كتب فيه الموضوع، وكان قبل سنة ونصف! قرأت الموضوع ثم قلت للنقيب بعد أن أنهيت الموضوع وكان قصيراً: لا أعتقد أن الموضوع خطير كما تقول، فالساحة العربية والمنتديات تطفح بأضعاف هذا شدة وقسوة وتكفيراً! ثم إن الموضوع مكتوب منذ أكثر من سنة ونصف! هل تنتظر مني أن أتذكر من استخدم جهازي قبل سنة ونصف من الآن؟!

- أنا أنتظر منك أن تعرف من هو ذوق؟!

- طيب هل كتب شيئاً آخراً من جهازي؟

- لا لم يكتب سوى هذا الموضوع؟

- وهل تلاحقونه على موضوع واحد كتبه قبل سنة ونصف؟!

- مش شغلك. لا تتعدى حدودك. وترى وضعك وللمرة الثانية أقولها خطير جداً! إن لم تأت لنا بذوق، فستواجه أنت وأختك الكثير من التحقيقات. وستنقلون أنت أولاً ثم أختك للدمام لإكمال التحقيقات. المسألة أمن دولة يا محمود!

- وأنا قلت أنا ضد الدولة؟! أنا معكم لكن قولوا لي كيف ممكن أعرفه؟

- ما ندري. أنت وشطارتك، لكن تقدر مثلاً تفتح موضوع الساحة العربية وأنتو جالسين تدردشون وتشوف ردة الفعل مثلاً، ويمكن ينكشف لك خيط كذا وإلا كذا. وتقدر مثلاً تسألهم بوضوح وتقول لهم: يا جماعة أنا شخص معاق، ويمكن ينقلوني للدمام ومنها إلى الرياض وجدة للتحقيقات ويمكن للسجن، وكل هذا بسبب واحد

منكم اسمه ذوق، فاللي اسمه ذوق يقول لي، حتى ما أروح في الرجلين بسببه. . . . شيء من هذا القبيل.

- طيب أوكي. أبشر.

- الحين وقِّع على هذا التعهد بأنَّك لن تسمح لأحد باستخدام جهازك بعد اليوم.

وقَّعت وخرجت. هذا هو كل شيء. قالها محمود مبتسماً منتظراً إجابتي عن ما لم يسألني عنه صراحة.

من المنافق؟

«الانتكاس» لا يأتي فجأة. هكذا قال. ثم أردف: ستجد المنتكس قد انتكس قبل بروز مظاهر الانتكاس عليه. يقصد بالطبع معاصي السر والخلوة. يا للعجب، كان بخيت من قال لي هذه الكلمات حين كنا متدينَين!

يخيفني حديث المنافقين الذين ينتهكون حرمات الله في السر بينما في العلن هم أتقياء أصفياء. لهذا حين انتكست انتكست مباشرة، وأعلنت عن ذلك، وأظهرته. لم أفخر به، ولم أفرح به، ولم أشعر في يوم أنه كان قراراً صحيحاً. ولا أظن على الجهة الأخرى أنني سأعود عنه.

وقع الضرر. ولم يبق سوى لملمة زجاج الحياة الخاصة، واعتزال الحياة العامة. آن أوان استكشاف الحياة بلا تدين.

الآن تستطيع أن تحكم على ما مضى من دون أن تشعر بالذنب نحوه. اليوم تستطيع أن تسأل نفسك: هل هو التدين الذي جعلك تجابه ما حولك بهذا الكم من العدائية أو أن ما حولك كان عدائياً في الأصل وتدينك هو الذي كشف لك هذه العدائية، فبصرك اليوم حديد؟

لم تعد القيود تكبلك، ولا السجال يدغمك، ولا الأضواء تستهويك. لقد ارتكبت المحرم الأول، اللذيذ، الحرية.

أن تكون حراً يعني أن تكون مخيفاً، لأن الحرية تعني في ما تعنيه أن لك الحق في فعل ما يحلو لك، كأن تضع أنياباً وأظفاراً معدنية ولساناً طويلاً تخدش فيه، لمجرد إثبات «الحرية»، كل ما حولك بطيش لذيذ تدرك جيداً أنّك لن تمانع في دفع ثمنه «المادي» الرخيص.

في سنِي طفولتي الأولى لم أحب لعبة صفارة عيد الميلاد الورقية التي ينفخ فيها الطفل فتنفرد ورقتها للأمام كلسانٍ طويلٍ. حتى اليوم أتذكر كابوساً كنت أراه من وقت إلى آخر، يظهر فيه هدهدٌ يقف على جدار بيتنا يسخر منَّا مخرجاً لنا لسانه الطويل جداً الذي يشبه صفَّارة عيد الميلاد حتى يهجم عليه أحد إخوتي وصديقه فيُمسكان به ينويان قطع لسانه، وهو مستمر في ضحكه وسخريته. ظللت لسنوات أشك إنْ كان ما رأيته كابوساً أو حقيقةً.

من السهل أن يكون لك لسان طويل، طويل جداً، ومن السهل جداً أن تتحرر من قيودك، لكن الصعوبة، وأنت الذي جربت السجن، أن تمضي إلى حال سبيلك بهدوء. ذاك هو التحدي. من الحماقة أن يُنصِّب السجين السابق نفسه سجاناً. وأن يضع قيده السابق في يد سجين جديد. وأن يتبرأ من النظام الحياتي السابق. ما كان يجب أن يحصل هو أن تطلق ساقيك للريح من حين فُكَّت عنك القيود وكأن إطلاق سراحك كان خطأً، وأن السجان سيستدرك ما فعل ويعيد القبض عليك أو يطرحك من بعيد ببندقيته وهو يدخن سيجارته.

كان يجب على المتدينين السابقين أن يطلقوا سيقانهم للريح.

من السهل أن يحدث هذا أو عكسه، فالأشياء الحمقاء تحدث

كل يوم، لكن من غير السهل أن يحتفظ الإنسان برؤية موضوعية وعقلانية وواعية نحو كل ما جرى له ونحو كل خصومه، بطريقة يستطيع من خلالها فرز وعيهم والتزامهم ومبرراتهم عن ظلمهم وتطرفهم وطغيانهم. حين قرر ألا يطلق ساقيه للريح، لم يستطع منع نفسه من إغراء وضع القيد في معصم سجَّانه.

حين تخليت عن تديني. شرعنت - ولا أدري إن كنت صادقاً أم كاذباً - هذا التخلي بأنه خروج عن ملة كانت فاسدة في الأصل، ملة مُخترعة. لا أعني أصل الملة بل ذلك الجزء منها الذي لا يعبر عني، عن نزقي، عن غضبي، عن غيرتي، عن إقدامي، عن ذلك الجزء الأصيل المدافع عن الخير، عن الحرية بمعنى آخر. هوَّن علي كثيراً شعوري بأنها مُخترعة. قلَّل ذلك كثيراً من ألمي وحزني لحسن الحظ، على الرغم من وعيي الكامل بأنَّ كل فكرة «الاختراع» هذه قد لا تكون أكثر من مجرد مبرر «ضرورة».

كمهاجر بدأت أتعاطى مع ما حولي. مهاجر لم يستطع أن يتقيأ بلده الذي جاء منه. أتعس المهاجرين أولئك الذين لا يتقنون فن النسيان. أولئك الذين كانت تجربتهم الأولى هي الأخيرة.

مهاجر، قد يكون منفياً لخطأٍ سياسيٍّ ما، أو لمعصيةٍ ما، أو لخلافٍ، أو ثأرٍ، أو عارٍ.

مهاجر لا يملك من حطام الدنيا سوى ما تركه وراءه، لا يفهم قوانين السوق الجديدة. يعيد فهم الأشياء بطريقة بدائية، عرض وطلب، حاجات تبحث عن إشباع، قوى متصارعة، مناطق نفوذ. القرف يملأ روحه وهو يفعل ذلك، هو لم يهرب من أحضان «التدين» ليسقط في أحضان «النفعية»!

هيه يا هذا، أنت تمشي في حقل ألغام.

من السهل أن ينفجر بك لغم. تظن أن حياتك أصبحت رهن حذرك.

تشعر بشعور لذيذ ومخيف في آن واحد: لذيذ جداً أن تصبح ولي أمرك! مخيف، لأنك تعلم أن ولي الأمر هذا هو ولي أمر ضعيف «رخو»، قد يفقد سيطرته على إمارته في أي وقت وتحت أدنى هبة ريح عصبية. القرف يخلط الأوراق حتى لا تعود تعرف أين يقف كل من الماضي والحاضر.

تماماً، وكأنني في أيامي الأولى في سكن «حي المنيرة».

ما الذي أفعله؟

إلى أين تقودني حياتي الماضية؟ أين سيقف دولابها؟ ومتى تتحرك الحافلة الجديدة؟

أنا أقف في مواقف انتظار رحلة السكان غير الأصليين. حياة جديدة لا أدري ما هي حدودها...

نعم. لا أدري ماذا أريد. فقط أعرف ما لا أريده. ما أحلى الحياة وما أسهل دروبها لو قُيض لنا أن نختار ما نشاء من معروضاتها وخدماتها العريضة «المجانية» بعيداً عن وكلائها والناطقين باسمها. هم دائماً موجودون. أعلم ذلك. وهناك من يعذرهم في هذا، فنحن في عالم المنتجات التي تحتاج إلى مسوِّقين ولسنا في عالم الخدمات.

لماذا أشعر أن الحياة ملزمة أخلاقياً بخلق أناس يحلون هذا النوع من المشكلات فيكبحون جماح ورقة الدولار التي تمشي على الأرض؟

لا أريد أن أعود إلى الوراء، إلى ذلك النوع من التدين الذي انتهى فيه أمري إلى ما أنا عليه. خلوٌّ من «الحقيقي» و«الإنساني»

و«الفاعل». ذلك النوع الذي أحالني إلى خروف ينهشه الذئب الذي في داخله.

رغم أنني أقوله وأعنيه إلا أنني أشعر أن جريمة الكذب تعلق بياقة قميصي.

لطالما شعرت أن التدين عائق في طريق الوصول إلى ما تريد.

أكاد أجزم أن بني جيلي حلموا كثيراً مثلي. وحتماً وئدت أحلامهم، مهما كانت صغيرة أو سخيفة، في صدورهم.

حلمتُ كثيراً، كثيراً جداً، لكنني ويا لتعاستي لم أحلم ولو لمرة بأن أكون شيخاً نجدياً يحفظ بعض كتب محمد بن عبدالوهاب ويمتهن وظيفة المؤذن لثلاثين سنة!

هذه الأحلام لم تكن بالنسبة إلى جيلي أكثر من سلوى حقيقية.

جيلي بائس، منتكس بطريقة خاصة. ليس لأنه لم يعط الفرصة لأن يكون من يريد، بل لأنه لا يدري ماذا يريد، وحين يتقدم خطوة فيظهر له أنه يريد شيئاً ما، لا يعرف كيف يصل إليه. الأمر الذي يجعله، مع مرور الوقت، ينسى ما كان يريد...

لا تستطيع أن تكون من تريد من دون مساعدة من الآخرين، لكنك لا تدري أين هي حدودك وأين هي حدودهم، فأنت والمجتمع كما هو الإسلام والإيمان، إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

تكمن المصيبة في طبيعة هذا المجتمع الذي تريد منه أن يُساعدك. هذا المجتمع الذي لا تستطيع الحقيقة البسيطة فيه أن تكشف عن نفسها ببساطة. هذا المجتمع البدائي الذي لا يبدع في شيء إبداعَه في قتل «التفرد» والخيارات «الفردية» والمواقف «الفردية». مجتمع مسكون ومروَّع بأن مفارقة الجماعة تعني ميتة

السوء، ميتة الجاهلية الأولى. لذا فهو يعمل بكل طاقته الاستيعابية لاحتواء الفردانية حتى يصبح الفرد «المتميز»، بفعل عوامل الاستقطاب والوعيد والوعد، يمارس فردانيته من خلال قيادة مجموعة بدائية غبية تشعرُه طول الوقت بمشيختـه وبتميزه وعبقريته وفردانيته، وهو يؤدي خدماته «الربانية» التافهة على اختلاف أنواعها.

لا شيء فوق ذلك أو دونه.

الكل يجب أن يعمل من أجل درء الفتن والمفاسد والنتوءات. يجب أن تكون الخطوط مستقيمة، والطاولات نظيفة، والأهداف واضحة جداً. يجب أن تكون الأشياء معلومة وعلنية، وإلا كانت سرية «خارجية» أو «خوارجية».

قيمتك ليست في رأيك أو موقفك، بل في كم التحشيد الذي تستطيع صنعه حولك أو حول رب نعمتك أو حول مؤسستك، حتى تصل إلى ولي النعمة الذي بيده ملكوت المال!

لا تستطيع أن تكون أي شيء من دون أن تُقدِّم شيئاً ما... لا تستطيع أن تشتري الموقع المخملي الأسود من دون أن تدفع موقفاً أسود. ليس لك الحق في الانقلاب على هذا. أنت بهذا تنقلب على حقائق شديدة القدسية. الدين يرفض هذا الانقلاب، والقانون، والأهم «المجتمع»، وبينهم علم «العرض والطلب».

نعم أنا ناقم على ما حولي. جريت بأقصى سرعة بعد أن نُزِع القيد الذي أدمى معصمي. جريٌ يشبه القفز من قمة جبل!

لن ينفعني في شيء الادعاء بأنني لستُ من متمردي كولن ولسن الناقمين الذين يرفعون قبضاتهم نحو السماء.

لستُ من محبي تخريب الثقافة، ولا من مؤيدي قلب الأنظمة

الفكرية، ولا من الثائرين الأغبياء الذين يثورون لأجل الثورة والمايكروفونات والكاريزما. لم أعد في سن يسمح لي بكل هذا، وفوق هذا لستُ من أولئك الذين يظنون أن القيد ينبغي أن يكون قابضاً على معصم أحد السجانين السابقين. أنا أريد فقط ألا أنتمي لأحد. وأن أخرج على مقياس قيم الضرورة والحاجة التي صنعها هذا العالم البليد. وأن أجرئ الناس على أن يتمردوا.

من عساه يرفض أن يكون ناقماً ومتمرداً ومتطرفاً في ظل هذا العالم «الواقعي جداً»، هذا العالم الذي تتفوق واقعيته على سينمائيته؟ لا أريد أن أكون متمرداً يوتوبياً لأنني أوافق أمبيرتو إيكو بأن يوتوبيا التمرد تقود غالباً إلى واقع انتقامي سلبي. لا أريد هذا النوع من العبث. أريد تمرداً إيجابياً، يُحرِّك الساكن ولا يوقف المتحرك.

الذين ينجحون في عمل شيء ذي بال هم أولئك الذين يعرفون متى يتمردون ومتى يتوقفون فيهادنون، لأنهم يعرفون جيداً قيمة التمرد وثمن المهادنة...

هل تستطيع أن لا تتمرد وتبقى مؤمناً هادئاً مطمئناً بذلك الإسلام الذي يؤمن به كثير من المفتين والعلماء والمشايخ والدعاة من دون أن يتمثلوه؟! ذلك الإسلام الذي درسنا في مدارسنا وتعلمنا في محاضننا التربوية أنه يُعلِّم إخلاص العبودية لله، فلا يُصرف شيء من الخضوع أو الرجاء أو الخوف أو الرهبة أو الخشية أو الاستسلام سوى لله وحده...

الإسلام الذي علَّمنا نبيه ﷺ أن خير الشهداء حمزة، ورجل «استشهادي» قام إلى سلطان جائر فنصحه فقتله ذلك السلطان.

الإسلام الذي نقرأ في كتابه ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، والذي يدعو إلى الجهاد في سبيل الله والدفاع عن

المستضعفين من النساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . . .

الإسلام الذي تضج آياته وأحاديثه بأن «المجد للشهداء»، والذي يدعو إلى إقامة العدل، ويؤسس للعزة، ويفرض المساواة واحترام الإنسان وكينونته وخصوصيته.

الإسلام الذي يرحم ويتودد ويعطف.

هل تمثل العلماء هذا الإسلام، أم أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض؟ كفران، أصغر وأكبر، عملي واعتقادي. الأكبر منهما يُخرج صاحبه من الملة، بينما يجرح الأصغر إيمان صاحبه. صاحبه هنا هذه المرة هو العالِم ذاته الذي كان قبل لحظات قليلة يوزع كعكات التكفير بعد أن يقسمها قطعتين غير متساويتين، الكبيرة منها للخوارج، والصغيرة للحكام.

للمشايخ قضاة كانوا أو مفتين، تأثير كبير في ما يجري على الساحة وفينا نحن المعلقين بين أرض العلماء وسماء الأماني الكبيرة، فهم ممثلو الشريعة والقوّامون عليها وحماتها. لن يستطيع أي أحد أن ينحيها أو يبدلها ما لم يجد عوناً من علماء السوء.

هل المشكلة في الإسلام؟ لا، بل في المسلمين. وكذلك المشكلة ليست في الشريعة، بل في القائمين على تطبيقها!

موضوع الفتنة، حديث الساعة وكل ساعة جرى ضبطها على ميقات الرغبة الحكومية، مثال آخر على التوظيف غير الأمين للحقائق الشرعية. تحت زعم الخشية من الفتنة التي حذَّر ويحذِّر منها بعض العلماء والقضاة والمشايخ بأدلة شرعية لا تقبل الجدال أو التشكيك، مرَّر كبار الطغاة والمنافقين والزنادقة العرب كل إجراء تعسفي ضد دعاة الحرية والعدالة والمساواة.

شيء شبيه بما يجري في عالمنا العربي من تصفية للقضايا الوطنية والخصوم والحريات تحت زعم الحرب على الإرهاب الوهابي السلفي، أو الخشية على الأمن القومي من الخطر الصهيوني.

تلك المظلة ما عادت تستر. وتلك الحجة ما عادت سائغة. وتلك «الفتنة» انتهت.

إنهم لا يستطيعون رؤية الفتنة «الحاضرة» وسطهم والتي يغوصون فيها حتى ركبهم، لكنهم وبنور الله يستطيعون رؤية الفتنة «غير المتيقنة». فتنة ليست أكثر من فتاة لعوب رمت غمزتها فتعلقوا بها!

تحت ظل هذه الشجرة التشريعية الوارفة ألا يستطيع إبليس أن يحكم أكثر البلدان إيماناً؟

ليس أمامك سوى الإذعان وإلا وقعت تحت طائلة قانون المجتمع المحافظ، قانون احترام كل ما له علاقة «رسمية» بالدين.

إنَّهم لا يفعلون كل هذه السوءات إلا من أجل مصلحة أكبر ولدفع مفسدة أعظم لا تعلمونها، الله يعلمها.

إننا في عصر العلماء «الماديين» الذين يحتاجون، لكي يصدقوا شيئاً مما تقوله، أن يروه بأعينهم ويسمعوه بآذانهم ويلمسوه بأيديهم ويشموه بأنوفهم ويتذوقوه بألسنتهم، لأن حواسهم الخمس معلَّقة بالمساجد. لكنك لو قلت شيئاً في المغضوب عليهم أو الضالين من شباب الإسلام، لكنت عندهم الثقة الثبت الذي لا حاجة إلى التثبت مادياً مما قاله، فخطر أولئك القوم قد شاع وانتشر واشتهر!

لا أعتقد أن الصواب جانب عمر حين قال لي ذات حوار: لا يوجد شيءٌ اسمه كبير علماء أو صغيرهم، يوجد فقط عالم يكبر في عيون الناس أو يصغر بحسب ما يقدمه للأمة من نصرة وشجاعة وبسالة، وأما الحفظ والاستذكار فللحواسيب!

ذهب فريق من الشباب المتدين مرة وطاف على بعض العلماء يطالبونهم بالتحرك ضد الفساد وتحالفه مع التطرف العلماني الآخذ بالتزايد بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فهالهم ما سمعوه وما رأوه!

أحد أولئك العلماء يقول إنني «أخاف - هكذا - وأخشى على نفسي». لكنه لا يخاف ولا يخشى على نفسه ولا تطرف عينه وهو يلهف راتبه الحكومي الشهري الضخم الذي يفترض أن تكون له استحقاقاته الشرعية!

كان الوفد الشبابي يركز على مسألة وجوب عدم الاكتفاء بالنصيحة، بل ينبغي اتخاذ إجراءات عملية بالتنسيق بين ولايتي الأمر السياسية والشرعية لضمان إحداث التغيير المطلوب.

بعض العلماء، من الذين لا يرقى إلى نزاهتهم وشجاعتهم شك، كانوا يرون أن الواجب الشرعي يقتضي محض النصيحة فقط ولا شيء فوق ذلك. النصيحة السرية بالطبع!

هذا الصنف الأخير، على الرغم من نواياه الطيبة المخلصة، لم يستطع أن يرى حجم الخلل والخراب الذي تتسبب فيه ذهنيته التي ستجد حتماً من حوارييه من يؤمن بها ويدعو إليها ويوالي ويعادي فيها.

كيف يبقى غير مبالٍ من رأى هذا كله، رأى تخريب أعظم ما جاءت به منظومة القيم الإسلامية، الحرية.

إن ردة فعلي التي دفعتني لترك التدين، شبيهة بردة فعل النصارى «الخاطئة» حين ثاروا على الدين برمته، بدلاً من أن يثوروا على الإقطاعيين المتدينين وعلى ممارساتهم التعسفية روحياً وعملياً...

سأوافق على هذه التهمة، لكنني أطالب بتهمة مناسبة لهؤلاء

العلماء والمشايخ والقضاة، الذين دفعت ممارساتهم التعسفية الناس إلى «الخروج» عن الدين أو الانقلاب عليه، فالعقل يفترض أن يتوجه النقد إلى المتسببين بهذا الخروج وهذا الانقلاب!

كُنَّا نغضب حين كان بعض طلبة العلم يتهكمون على علمائنا بزعم أنهم علماء حيض ونفاس، ألا إنها حقيقة ليس دونها حجاب. حقيقة مؤلمة، فبعد أن كانت مصر حضن التهكم صارت بلدي حضناً آخر...

إن سبب الكثير من مصائبنا هم علماء الأمة مع كل أسف، فلا تصل أمة إلى هذا الدرك قبل أن يكون علماؤها قد وصلوا إليه قبلها بعقود! إنها حقائق الانحطاط الديني في أسوأ صوره.

يجب أن لا يُلام العامة أو علية القوم أو أعداء الخارج، فهي سنة الله في خلقه أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وما لم يطل التغيير العلم والمشيخة والقضاء فلا شيء آخر سيتغير.

ما لم تكن مواقف عالم الدين من المحكمات لا المتشابهات، فلا شيء آخر سيتغير.

عالم الدين لا يضع نفسه موضع الشبهة، ولا يضع قدمه في معسكر السلطة، بل هو دائماً في الضفة المقابلة للسلطة حتى حين يكون الحق مع السلطة، فقط كي يمنعها من التغول. عالم الدين هو في العمق عدو شرس للطغيان.

أدرك أنني أختار زاويةً صعبة للتصوير، لكنها الزاوية التي يريد كثير من المنتفعين أن تظل مظلمة...

لستُ أسامة بن لادن، ولا أريد أن أكون غاندي أو مانديلا.

أريد شيئاً ما ولا بد أنَّه كبير جداً، ليبدو عصيّاً على التعبير إلى

هذا الحد أو تافهاً جداً إلى حد ألا تعبأ به اللغة فتعطيه الكلمة «التافهة» التي يستحقها. أنا باختصار أريد أن أكون «أنا»، فلستُ مع ولستُ ضد ولستُ لا شيء.

أريد أن أكون أنا الذي يعبأ ويهتم وينحاز إلى المخدوعين، ويملأ العالم ضجيجاً وصراخاً حين يضطهد إنسانٌ أخيه الإنسان. أنا المسلم وليس المؤمن، العاصي الذي لم تمنعه معاصيه عن الوقوف في وجه الظلم، المخطئ الذي لم تكبله خطاياه عن فضح الفساد والمفسدين. أنا المنخلع من حياة الخوف والرهبة الذي لا يخشى أولئك الذين يجرون بشوتهم أو سياطهم أو لحاهم، لأنَّه أدرك أن «الولاء هو انعدام التفكير، بل انعدام الحاجة إلى التفكير، بل هو عدم الوعي»، فهو أكثر وعياً من هؤلاء الذين لا يتجاوز وعي الواحد منهم وعي دجاجة تنتظر الذبح.

أفكر في البطولة برومانسية شديدة، رغم أنني أظل أهجس كثيراً بأن لا قضيِّة لدي وإنَّما هي شذرات من الغيظ والحنق يتم التعامل معها بجدية فقط من باب الشفقة وإعطاء صاحبها الاحترام اللازم!

أشعر أني مخبول تماماً بهذه الطريقة من المراوحة بين البطولة والتفاهة، لكنني وبعقل تام ومهارة شديدة أنجح في مداراة هذا الخبل! قد يكون من السلوى أن أصدِّق بأنَّه لا يُعتد بأحكام المخبولين على أنفسهم.

بين البطولة والخبال شعرة، هي التمرد.

لهذا لم يكن متاحاً لي سوى أداء دور «المتمرد»، وهو دور مريح، للجميع. تسوية مقبولة ترضي كل الأطراف.

بدأ تمردي حين أعلنت عن رفضي لذلك النوع من التدين.

لم أكتفِ بالإعلان، بل خلعت لباسهم، وتبريراتهم، وتلويناتهم، وعبادتهم التي تشبه عبادة اليهود التي ذكر النبي ﷺ أنها كانت في طاعتهم لأحبارهم في تحليل ما حرَّم الله وتحريم ما أحلَّ الله. . .

لكن، وعلى الرغم من خيبتي الكبيرة فيهم، فأنا ما زلتُ أحفظ لهم تربيتهم الجيدة، وحثهم لي على العلم الشرعي، وتشجيعي، والشد من أزري، وما عدا ذلك فلا فضل لهم علي ولا شكر.

أعتقد أنني شببت عن الطوق، وبات لي رأيي الخاص، وقناعاتي الشخصية غير المحكومة بشريعة أو شرعية مُخترعة. . . أنا أنحاز إلى المتدين البسيط النقي الطيب.

كل هذا لا يعني أني لم أعد في مأزق! بلى. مأزقي هو في ذلك النوع من الهموم التي لا يمكن حملها ولا الإلقاء بها، والتي لا تكتفي سوى بتوريطك عن آخرك.

أنا بشر باستعدادات ملاك حين يتعلق الأمر بالمضطهدين، أو هكذا يخُيِّل لي، أنا السجين عواطفه. ولا أدري كيف تكون حياة الملاك حين تُنزع عنه العصمة ويكون شيطانه بشر!

كنت أريدُ أن أبدو كمن ضحى بكل شيء، ولا يدري لغبائه أنَّه ضحَّى في ما لا يجوز التضحية به: التدين!

لا أطير فارداً جناحيَّ شاعراً بالزهو والاستقلال لقدرتي على خرق ناموس الجاذبية الدينية التقليدية، بل أطير هلعاً متجنباً النظر إلى الخلف كي لا أبطئ سرعتي فيصطادني خصمٌ لا أدري ما كنهه. أسرع أكثر، أغوص أكثر، ولا أدري، لعلي أغوص في أحد الثقوب السوداء.

أنا في مأزق حياتي الأكبر، وأمامي الكثير من الخيارات أو

«الخلاصات» الخطيرة التي لا أستطيع اختبارها واحداً بعد الآخر بدون أن أُقدِّم حياتي على مذبحها. . . أنا مشوش جداً. هل هذه هي طبيعة «التمرد»، أن تتشوش أكثر؟

قد أنجو، وقد أغرق في أحد هذه الطرق المتعرجة، لكن حياتي «غير المتزنة» ذات الطبيعة المتمردة توفر لي المبرر في حال الفشل. شفاعة صغيرة «غير مخترعة».

فوضى الوسط

لبثنا لدقائق واجمين ننظر إلى بعضنا. في الحقيقة كُنَّا ننظر ولا ننظر. لا أدري على أي كيفية يجري تفسير مثل هذه الأوضاع. كُنَّا نتبادل خطف النظرات وكأننا في سباق تتابع.

للحظات تذكرت عمر، وعلاقته به.

شعرتُ بأنني في دوامة كبيرة، وسط لغز عميق. أمام تمثال كبير مُهشَّم جرى رتقه على عجل!

أنا أمام لعبة puzzle معقدة لخيال مآتم. ولا توجد قطعة واحدة تشبه أو تُكمِّل الأخرى.

موسيقى حزينة وكئيبة ترن في دماغي. كرة بولينغ تتأرجح في اليد. لا أدري لو كانت في يدي ماذا كنت سأصنع بها؛ أأضرب بها الحاجز الزجاجي دليل الغضب منه، وأمضي دون أن ألتفت؟!

لا أسيطر على أي شيء.

ولا شيء.

أخليت مقعد السيطرة منذ زمن بعيد، منذ سنوات أربع. بدت لي أكثر من ذلك. تبدو لي أكثر كلما تذكرت شيئاً منها على نحوٍ دقيق.

أبدو كالمستسلم الذي يفاوض على شروط العبودية، يحاول أن لا تخور قواه باكياً مستجدياً!

ما الذي أفعله هنا. لماذا أنا هنا. ما دخلي في كل هذا. لماذا بدأت أهتَّم. ما الذي أصابني. ما الذي تغيِّر منذ يوم المرقص...

صوته يأتيني من مكان ما بعيد. بعيد جداً. نعمْ. أعرف ذلك الصوت. أعرفه. أعرفه جيداً. فسمعك اليوم حديد.

- وشفيك؟

قالها بهدوء. وهو يلف كلتا يديه حول الكوب الذي أمامه. صوته الذي أعرفه اختلف قليلاً، قليلاً جداً. أحاول أن أتبين سبب الاختلاف، هل هو العمر أو شرب الخمر؟

- ولا شيء. قلتها وأنا أنظر من خلال الزجاج الذي على يسارنا في ستاربكس المنامة.

- لماذا لم ترد علي ذلك اليوم. لقد ناديتك وأنت تهم بالخروج. يقصد يوم المرقص.

- أي يوم؟

- لا تستهبل علي. لا تستخدم هذه الطرق معي. أنا أعرفك جيداً.

- هل صحيح أنك تعرفني بشكل جيد؟ قلتها بعد دقيقة صمت ونظرة مباشرة في عينيه.

نظر إليَّ من دون أن يقول كلمة. ثم أكملت: أشعر أننا في ما يخص علاقاتنا ببعض نحتاج دائماً إلى دائرة نتناوب أداء دور المركز فيها. شعرت أنني أتفلسف، نظرت إليه ثم قلت: نحن في مأزق، أليس كذلك؟

- نحن دائماً في مأزق! أصبحتَ فيلسوفاً.

- لا. لا علاقة للفلسفة. لو كانت الفلسفة حاضرةً في حياتنا لما كان هذا شأننا، ولما كُنَّا في حاجة لأن تقع المصائب على رؤوسنا

قبل أن تقع في أذهاننا. الفلسفة نوع من أنواع الوقاية. أليس المفترض بها عصمة الذهن من الوقوع في الخطأ؟

- هل تريد أن تقول لي إنك تركت التدين حين ظهر لك خطؤه؟

- ومن قال لك إنني تركته؟

- اها. إذاً لعلك أصبحت ممن يرون في الفلسفة نوعاً من التدين. قالها وابتسم. أعرف هذه الابتسامة. أعرفها جيداً. اختبرتها. ابتسامة العجز الذي يريد له صاحبه أن يبدو كما لو أنَّه فهلوةً. مجرد تلاعب بائخ بالابتسام لا أكثر.

- لا. ليس هذا ما أقصده، بل التدين القلبي، الروحي، سمه ما شئت، سمه التدين الذي كُنَّا عليه قبلاً، هكذا أفضل.

لا أدري، لكن فجأة ألحت عليَّ فكرة رديئة؛ أن أحاول الظهور بمظهر الذي لم يترك التدين، على فرض أنني تركته، لعل ذلك يكون باعثاً ومؤثراً إيجابياً على بخيت، لكنني شعرت فجأة بالرخاصة والتفاهة. حتى هذه اللحظة ما زال «أنا» يَ الأخلاقي، الضابط، الداعية، يسكنني على الرغم من كل ما فعلته! ما هي هذه الـ«أنا» الغريبة؟ هل هي مجرد هوس مرَضي حقيقي أم أنَّها يأس، أم أنَّها هي الأخرى مجرد تلاعب بائخ على الذات لا أكثر؟

قلت: صدَّقتك حين قلت لي مرة إنك خففت لحيتك بسبب مرض في الغدد!

- كنت أكذب. كانت تلك محاولتي الأولى في الخروج.

- لكنك عدت فالتحيت مرة أخرى.

- نعم. لم يكن الأمر سهلاً عليَّ، ولا على الآخرين. زد على ذلك أنني شعرتُ بشعورٍ غريبٍ جداً.

- ما هو؟

- إنه الشعور بالنفي الاختياري في المكان والزمان الخاطئين. القرارات من هذا النوع يجب أن تأتي بعد تأمل طويل جداً. شعرت أنني أرتجل قراراً خطيراً جداً بسهولة لا تليق. أصبت بالهلع من جرأتي على فعل ذلك. ما الذي قد يمنعني لاحقاً من اتخاذ قرارٍ بالانتحار ما دمت أملك جرأةً على اتخاذ القرارات المصيرية بهذه السهولة؟ شعرتُ أنني أفقد توازني. أفقدُ شيئاً غائراً فيَّ رغم رغبتي الشديدة في فقدانه ثم انتظار الذي سيحدث. كنتُ أختبرُ شيئاً جديداً. كما لو أنني أُجرِّب الولادة!

ثم أردف: لا أدري ما الذي جرى لي تلك الفترة، لا أقصد ما فعله الناس من حولي بي، بل ما جرى لي على المستوى الشخصي من فوضى شديدة. كنت كمن فقد سيطرته على قيادة سيارته رغم أنَّه يسير ببطء وفي سماء صحو! لم يدرِ بالسبب. هل كانت الأرض زلقة، أو أن السبب كان اهتراء دواليب السيارة، أو أنني كنت ببساطة أفقد الوعي؟ لم أستطع الانتظار لفترة أطول للحصول على إجابة. كان مخزون الهواء ينفذ!

نظر إليّ لبرهة، ثم سألني كما لو أنَّه تلميذٌ يسأل أستاذه، مما كشف لي حجم مأساته ومعاناته، فالأسئلة البسيطة تكشف أحياناً عن حقائق مرعبة: هل يختفي العالم الماضي، بأدواته، بأفكاره، بأصحابه، مع اختفاء الإيمان من قلوبنا؟ هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا تدين؟

حتماً أنَّ ما يجري لنا - لمَ قال «لنا» ولم يقل «لي» - هو عقاب. عقابٌ كبيرٌ لخطأ صغيرٍ ألقى بنا سبعين خريفاً في التيه.

- إنك تستبدل تاريخاً بتاريخ، ووجوداً بوجود، وديناً بدين.

إنها الردة.

هذا ما أزعم أنك كنتَ تشعر به يا بخيت.

- أفهم قصدك جيداً. وتوصيفك لم يكن يوماً دقيقاً كما هو اللحظة. لكن لا أدري لمَ أشعر أن ترك التدين هو الشيء الوحيد في العالم الذي لا يمكن تفسيره أو تبريره. قد يكون كلامي غير دقيق، لكنه ما أشعر به الآن. أشعر أن حياتي كانت دبقة بالدين بدرجة غير صحية على الرغم من كل ما كان يبدو عليَّ من حيوية ومرح وانشراح. تجاوزت دعوى التعالق بين الانبساط والانشراح من جهة والدين من جهة ثانية. أليس الصبر والتحمل والقهر والألم والتقشف والورع من صفات أهل التدين الحقيقي؟ أليست الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر؟ ألا يعني ذلك أن هذا التلازم بين التدين والسعادة هو تلازم غير حقيقي؟

لقد كان هناك هذا الشيء الثقيل الذي يشبه الحجر على ظهري، لا أستطيع الخلاص منه. لا أدري ما هو، ولا كيف نشأ، ولا متى، لكنني أشعر به بوضوح. بوضوح قد لا يتحصل لي في أشياء أخرى أقل أهمية.

أفكر أحياناً، يقول، في أنه الجوع لتجربة ما لدى الآخرين، الذين على الضفة الأخرى، في معسكر الخصوم. جوع الفهم الدقيق جداً لخياراتهم ولكيفية الوصول إلى هذه الخيارات. جوع لحقيقة أنني لم أظلمهم حين وقفت على الضفة الأخرى. لعله جوع الضعف البشري. جوع المعصية، ربما. جوع باتجاه التحرر من ظن الآخرين الزائف بك، من تطويبهم لك، من تعاملهم معك كأبٍ مؤسس.

أقدمية التدين مزعجة. مزعجة جداً. إنَّهم ينظرون إليك بهذه الطريقة: لقد تدين في زمن ما قبل الصحوة. في وقت لم يكن أحدٌ

ليعبأ بالتدين سوى الشيوخ والعجائز والقضاة! لقد كان يرى بنور الله هذا الأسمر الشاب في عالم عجوز مظلم يفقأ أعين أبنائه المولودين حديثاً.

التطويب الديني ليس في صالح أحد. ما زلت أذكر قول ابن مسعود رضي الله عنه: «من كان منكم مستناً فليستن بمن مات، فإنَّ الحي لا تؤمن عليه الفتنة». التطويب خطير للغاية. ثم أليس لي الحق في أن تكون لي أهوائي ورغباتي ونزواتي الشخصية؟ أم أنَّ الآباء المؤسسين كانوا حفنة من الملائكة؟

أدرك جيداً أن من الصعب على الإنسان أن يُبشِّر بقيم هو أول المتملصين منها. أفهم قوله تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ على نحوٍ جديٍ، وأفهمُ أنني بشرٌ بائسٌ غير معصومٍ.

أعترف أنني لم أستطع التوصل إلى صنع توليفتي الخاصة التي أستطيع من خلالها تجاوز هذا المأزق بسهولة.

ما يجعل الضغط أكبر، هو أنَّك تكون منخرطاً في عملٍ لا يدع لك الفرصة للتفكير والتمحيص بهدوء. عملٌ ما سواه هو وساوس وتلبيسات شيطانية وحيل نفسية، آمنت بوجودها طوال سنوات!

ضريبة الوعي في محيط التدين ثقيلة، على كل المستويات. الوعي معقود بنواصيه المطالب العقلية والشك والسؤال. أنا لا أقصد الإيمان على طريقة الفلاسفة الذين ينتقلون من الشك إلى اليقين، بل الإيمان الذي هو خليط من كل شيء. من الإرث والعقلانية والقلب والسلوى.

- أنت تتكلم على نحو نظري يا بخيت. ليس هذا فقط، بل على نحو معقد جداً. كثير من الذين أطلقوا عنان الشك لعقولهم، لم يفارقوا داره، بل بات إيمانهم الوحيد هو الإيمان بالشك.

- أعرف ذلك. وأدرك ما ترمي إليه، ولهذا قلت إنني لم أقصد هذا النوع من الإيمان.

- ولهذا قلتُ إن الأمر أكثر تعقيداً مما نظن، فأنا لا أعرف سوى إيمان يتسلل بطريقتين، وبالمناسبة كنت أنت أول من علَّمني هذا في بداية تديني: إما هداية توفيق من الله يدخل بموجبها الإيمان إلى القلب فيظهر بعد ذلك على الجوارح، وإما عن طريق الجوارح بالمجاهدة والصبر ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ حتى يدخل الإيمان القلب.

ابتسمتْ ابتسامته البلهاء البائخة نفسها ثم أكملت: يا بخيت، هل تريدني أن أفهم أنَّك لا تعرف قيمة ما لديك، ولذا تريد معرفة قيمة ما لدى الآخرين لتعرف قيمة ما لديك؟! هذا ليس بصحيح، أنت يا سيدي تريد أن تُجرِّب شيئاً جديداً... هذه هي كل الحكاية.

- لكن ما الذي يجعلك تظن أنني سأكون مثل هؤلاء الشكاكين؟

- عرفت أنَّك ستعود لموضوع الفلسفة والشك. فهذا هو المكب الأكبر للتبرير وإلقاء التبعات، لكنني سأجيبك: لأن كل واحد منهم سأل سؤالك هذا: «ما الذي يجعلكم تظنون أنني سأكون مثل هؤلاء الشكاكين»! زد على ذلك يا بخيت، أنك لا تملك الآلية العقلية ولا المعرفة الفلسفية التي تخولك للانتقال من الظواهر إلى المقدمات إلى النتائج، واعذرني على صراحتي، فليس قصدي التشكيك في قدراتك فأنا مثلك أشكو الذي تشكوه من فقدان الآلية والمعرفة. إننا، على الرغم من وعينا النسبي الذي يجب أن لا نركن إليه، نلعب بالنار.

- ما الذي تريد قوله؟

- لا أريد قول شيء. مجرد تساؤلات. أتساءل كثيراً مثلك وبطريقتك وأجد أنَّ من الأجدى أن نعمل على إيماننا الفطري

والموروث، فحتى اليوم لم نجد ما ينقضه أو يهزه، والسبب هو أن الإيمان بهذا الدين يأتي متوافقاً مع الفطرة، ومع العقل، ومع الواقع. شكوكنا يا بخيت لا تنبع من حقيقة الدين أو جوهره، بل من ممارسات أتباعه وفلسفة دعاته ونظر علمائه. وأنا وأنت ننبري للشك في الدين في جوهره لأنه قد جرت تربيتنا، خطأً، أن الدين هو معتنقيه ودعاته وعلمائه!

سكت للحظات ارتشف فيها من كوبه رشفات، ثم قال: أعتقد أن هناك منطقة وسطى في كل شيء في هذه الحياة. حتى اليوم لم أستطع الوقوف على هذه المنطقة الوسط. أزعمُ أنَّها توهبُ لمن يستحقها.

- ولِمَ تظن أنَّك لا تستحقها؟

ضرب صفحاً عن سؤالي، ثم قال: هل لاحظت الفرق بين أن تكون عند الحلاق أو في السوق أو في المجالس العامة بعد التدين وبعد تركه؟ هل لاحظت أنك حين لا تكون متديناً تكون غير معني بما إذا كان صوت الموسيقى عالياً، وبما إذا كانت على التلفاز صورٌ فاضحة أو مشاهد مثيرة. أنت تتجاهل هذا كله. ولا تتعامل وكأنَّك المقصود بهذه الإهانة، ولا كأن الموسيقى أو الصور أو المناظر الخادشة امتحان حياتي دائم، يجب أن يكون لك موقفٌ حديٌّ منها.

شعرتُ أن بخيتاً لا يشكو ذلك الهوس الأخلاقي الذي أشكوه.

قال: إن ما يجري لي، وقد يكون هو ذاته ما يجري لك، شيءٌ يشبه الرغبة الدفينة في الخروج على النسق النمطي المعتاد من أجل الاطلاع على الكيفية التي يستطيع بها غير المتدين العيش.

صح. قد يكون بخيت اقترب من الصواب. نعم لقد كنتُ غير متدينٍ في صغري، لكنني لم أكن أملك المعرفة الدينية المسبقة التي

أملكها اليوم. لم أكن أملكُ القدرة على التصنيف. في مرات كثيرة أفكر في السنوات التي قضيتها متديناً وكيف كانت لتكون بلا التدين. لم أكن أفهم «خطورة» ما أفعل وزناً ومآلاً. تشعر فجأة أنك تريد أن تختبر إمكانية وجود إسلام تستطيع أن تخدشه من دون أن تفقده بالكامل. إنَّه شيء يشبه «اختبار الفتنة». غدا هذا الاختبار أقل كلفة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

رفع رأسه ونظر إليَّ كمن يدري بما يعتمل في عقلي، ثم قال: سمه يأساً أو خوراً أو جبناً أو نكوصاً، سمِّه ما شئت لكنه شيءٌ ثقيلٌ جداً يقود صاحبه إلى الهاوية بسرعة شديدة.

لم يثر قوله استغرابي. أعرف أنَّ ليس كل ما قاله بخيت صحيح. وأعرفُ أن هناك جزءاً شخصياً خاصاً بنا قد ينزلق بنا إلى أخس وأحقر وأوضع أفكارنا وأهوائنا، وأنه يؤثر فينا بقوة، خصوصاً نحن المتدينين السابقين الانتحاريين الذين يتركون شيئاً يعرفونه من أجل شيء آخر غامض ومثيرٍ ولذيذ، يرونه من بعيد من دون أن يتبينوا إن كان فماً للهاوية أو طريقاً للحرية...

جا إمعة

لا أدري اليوم كيف استطعت أن أخطو هذه الخطوة، خطوة الاستقالة من العمل والتقدُّم للجامعة. فقد كنتُ عرضة للفشل أكثر من أي شخص آخر. غداً أو بعد غدٍ سأكون في الجامعة نفسها التي سيدرس فيها زملائي السابقين في أرامكو، فهل يُعقل أن أكون معهم بمستوىً واحد؟! مع اختلاف جهة التمويل هذه المرة.

الصحيح أنني تفوقت في سنتي الأولى على كثير منهم، وبالذات في اللغة الإنجليزية التي أحببتها منذ صغري، ومنذ أن قال لي أستاذي المرحوم محمد خير - على الرغم من التأتأة - في الثاني المتوسط: ستكون مذيعاً للأخبار باللغة الإنجليزية في القناة الثانية يوماً ما! كنتُ أعلم حينها أنَّه يقول هذا تشجيعاً وسلوى، لكن هذا لم يمنعني من الفرح والفخر. كنتُ أغرق حتى الثمالة في لحظات سعادة كهذه.

في الجامعة تغيرتُ كثيراً.

خفَّ كثيراً شعوري بالرهاب فلم أكن في حاجة - غالباً - للقراءة بصوت مسموع أمام أحد. وهذا ما كان والدي قد قاله لي في صغري. ولا أدري هل اختلقه أم أنَّه مبنيٌّ على استشارة طبية. قال لي: ستخف تأتأتك حين تكبر. ولم أُصدقه في ذلك الحين.

السنة الجامعية الأولى كانت بمثابة النزهة بالنسبة إليّ، حتى أنني حصلت على مرتبة الشرف في الفصلين الدراسيين!

في السنة الثانية غرقت حتى مشاشتي في كرة القدم. ولسوء حظي فقد اخترت السنة الدراسية غير المناسبة للغرق، فالسنة الثانية هي الأصعب.

كنا نلعب الكرة بعد العصر بين «اللاينات»، وهي مجمعات الغرف، حيث تتسلسل الغرف لتكوِّن مستطيلاً تتوسطه حديقة خضراء. وحين يؤذن للمغرب، ننتقل لنلعب في ملعب السداسيات، وهو ملعب كرة اليد نحوله إلى ملعب لكرة القدم بوضع القدم! وعندما يؤذن للعشاء ننتقل لنلعب في ملعب «العماير»، حيث نجعل الساحة الإسمنتية الصلبة بين عمارات الإسكان ملعباً لنا. ولا نتوقف عن اللعب حتى منتصف الليل حين نذهب للعشاء في مدينة الخبر. نعود مع الفجر. ننام. نصحو - وفي أكثر الأحيان لا نصحو- للذهاب إلى المحاضرات التي كانت تبدأ مبكراً.

«جبت العيد» في ذلك الفصل، فلم يكن معدل السنة التحضيرية الأولى محسوباً ضمن المعدل، فجاء معدلي الدراسي تحت المعدل العام وهو 2/4، فنزل في ورقة النتائج «إنذار». ينص النظام على بقاء هذا الإنذار ما دام معدلك دون المعدل العام. نزول آخر تحت هذا المعدل المنخفض كفيل بطي قيدك وإخراجك من الجامعة!

كانت ترعبني فكرة خروجي وفشلي، لكنني لم أفعل شيئاً لمعالجة هذه المشكلة. استمريت كمن يتحدى. أتعامل مع المواد مثل سياسي بليد. أحذف هذه المادة حين أجد أن نتائجي فيها سيئة. أوسِّط فلاناً من أجل حذف مادة مضى وقت حذفها. أُقدِّم معروضاً لمدير الجامعة - الذي كان كريماً جداً - فيقبله.

فصلان كانا الأسوأ في تاريخي الدراسي، وزادهم سوءاً وفاة والدي التي نزل خبرها عليَّ كالصاعقة.

جاءني صديقي سالم. اقترح علي أن نذهب إلى مدينتنا. استغرب الآن كيف أني أجبته إلى طلبه بدون أن أشك، إذ لم تكن من عادته مرافقتي في منتصف الأسبوع!

وصلنا إلى مدينتنا، أنزلني بعيداً عن بيتنا بثلاثة بيوت، ولم «أشك»! ثم مضى.

حملتُ أغراضي، وذهبتُ أمشي إلى البيت. كان الشارع مزدحماً بالسيارات. لا شك في أنها مناسبة ما عند أحد الجيران، فجارنا الشمري لا تكاد تتوقف «الشبّات» - كما هي اللفظة الشمرية، ويقصد بها الولائم - في بيته.

حين اقتربت، واجهت زوج أختي الوسطى الشقيقة، ومعه زوج أختي الكبرى الشقيقة، ومعهم كان يقف أحد أشقائي، شيطاني الحارس!

ما الذي جاء بهم من الكويت؟!

أذكر شعوري جيداً الآن: ظننتهم في البداية قادمين للزيارة، حتى نظرت في وجه شيطاني الحارس. أستطيع أن أشم الحزن في وجهه بمجرد نظرة، علمت أن هناك أمراً سيئاً. «والدي»!

كانوا يريدون الإحاطة بي من كل الجوانب. أظنهم خشوا من أن أتسبب لهم بفضيحة بصراخي، خصوصاً وأنَّ عشرات المعزين كانوا في المجلس الذي لا يفصلنا عنه عند الدخول إلى البيت سوى مترين!

حين أحاطوا بي، علمت أن والدي قد توفي. رحت أركض بهستيريا، أحاول الهرب منهم. كمن يهرب من حقيقة كونية بدهية مثل

الشمس البازغة الحارة المكورة. حين أمسكوا بي، تكورت وانتحبت كثكلى، وتكومت على فخذيَّ، وضع زوج أختي الوسطى يده على فمي وأدخلوني للغرفة المجاورة!

كان قد مضى يوم على وفاة والدي حين علمت بالأمر.

كانت صدمتي كبيرة، كبيرة جداً. فمهما كانت حراجة حالة آبائنا الصحية، لا يخطر على بالنا الأسوأ.

مضت السنة الثانية، وأنا أشعر أن حادثاً مرورياً بشعاً وغير معلوم التفاصيل حصل لي لا أدري أين ولا متى، فلقد كنت في غرفة العناية الفائقة طوال سنة!

كانت تلك السنة محض فوضى، عبث. أظل أهجس بالفشل كل يوم من دون أن أفعل شيئاً ذا قيمة.

سنتي الثالثة لم تكن مختلفة كثيراً عن الثانية، وإن كانت أقل سوءاً من حيث النتائج. السبب، طبعاً، لم يكن اهتمامي، بل لأنني كنت أستمر في حذف المواد كلما شعرت بأنني سأرسب فيها! سهل وأكثر بياضاً. شيء يبدو أنني تعلمته من مطبات الجامعة، حيث يوجد في الجامعة نوع استثنائي من المطبات المرورية اختبرت غرابتها في يومي الأول، حين قدمت للتسجيل في الجامعة مع شقيقي الأكبر ومعنا أحد أصحابه الذي كان طالباً على أبواب التخرج من الجامعة. نزل أخي من السيارة وأعطى المقود لصاحبه عند مدخل الجامعة وسط دهشتي! كانت المطبات عبارة عن حواجز معدنية صغيرة، لكنها متينة ومخروقة من المنتصف تسمح فقط بمرور عجلات السيارت من خلالها. ولم تكن هذه المطبات مستقيمة بحيث إنك تستطيع تمرير عجلات السيارة بينها، بل كانت عبارة عن صفوف يأتي الصف الأول طبيعياً، أما الثاني فتأتي مطباته مائلة ناحية اليمين فتضطر للاقتراب

كثيراً من الرصيف حتى تدخل عجلات السيارة، ومثلها الصف الثالث الذي تأتي مطباته مائلة قليلاً لكن إلى اليسار هذه المرة، حتى تكاد السيارة أن تدخل في المسار المعاكس. إنها الإشارة الأولى إليك بأنك والج إلى مسابقة أو لغز وليس إلى جامعة تقليدية. أذكر أننا كنا نتحدى بعضنا تلك الأيام والرابح من لا تمس عجلات سيارته الأمامية والخلفية هذه المطبات. كنت بارزاً في هذا الفن الذي انسحب على المواد ومطباتها.

بدأت أهتم، لأنني لم أعد أحتمل ضغط الدراسة! في الأسبوع أربعة اختبارات تحريرية محسوبة النتائج في الدرجة النهائية. وتقرير معملي يقتطع من وقتك ساعتين في المعمل وساعتين لصياغة البحث وتسليمه، ثم اختبار شهري مهم. حين تجهز نفسك لهذا الاختبار تضطر أن تؤجل متابعتك للمواد التي يشرحها الدكتور في ذلك الأسبوع، فتتأخر عن اللحاق به في ما بعد فينهدم البناء، فتكون كمن يجري خلف القطار برجليه الحافيتين على الأسفلت الساخن جداً.

لم يكن لي من سلوى سوى أصدقائي. الزائرون القادمون من خلف أسوار الجامعة على وجه الخصوص.

لم يكونوا كل السلوى، مُسكِّن وقتي عابر.

الصداقات التي تُبنى بين طلاَّب الجامعة لا تستمر غالباً. قلَّة من السجناء يتواصلون مع بعضهم بعد إطلاق سراحهم. لا تدوم الصداقات من هذا النوع بسبب الخلفية التي تطرزت في ضوئها. لا تفيد الأيمان ولا الأشناب واللحى المقبوضة للعهد دليلاً على بقاء هذه الصداقات.

قال لي ظافر فتوَّة (كما كنَّا نتندر بتسميته لعضلاته المفتولة) ذات مرة، ونحن نفطر في أحد محال الفول بعد فراغنا من أحد اختبارات

الفصل الجامعي الأخير: هل تظن أن صداقتنا ستنتهي على أسوار الجامعة؟ قلت له: نعم! ثم أكملت إفطاري بطريقة روتينية أغضبته.

بدأت الإبحار في التخصص الذي اُضطررت إليه نتيجة انطباعي الأولي عن التخصص الذي كنت أطمح إليه؛ هندسة الكومبيوتر. انطباعي الأولي بنيَ على خلفية مادة «الفورتران»، وهي مادة مطلوبة في السنة الثانية. فشلت فيها فشلاً ذريعاً واجتزتها «مقبولاً»، فلطمت وجه هذا القبول برفض التخصص برمته!

انتقلت إلى تخصص هندسي آخر. لم يكن محبباً إليَّ. وللحق فحتى اليوم أجد أنَّه من المثير لدهشتي شجاعتي في ولوج هذا التخصص، فليس من عادتي الإقدام، لأني جبان في ما يخص القضايا التي تمس مسار حياتي.

في تلك السنة تعرفت إلى شخصية ساحرة كان لها أثرٌ كبيرٌ وخفيٌّ على تكويني النفسي. إنَّه الدكتور محمد الفزَّاع.

رجلٌ قصيميٌّ في أواخر الأربعين من عمره. قصير القامة وممتلئ الجسم نسبياً، ذو وجه أبيض متورد، أنيق المظهر، له لحية متوسطة الطول، ثوبه إلى الكعبين، وقلَّما تجد دكتوراً جامعياً متديناً في أحد التخصصات العلمية يرتدي ثوباً إلى الكعبين!

قدِم للتو من أمريكا. لهجته قصيمية فاقعة ومميزة جداً غدت محط تندرنا وتقليدنا. نقلده حتى اليوم!

كانت المادة التي يقدمها هي المتطلب الأول في مواد التخصص.

مثَّل لي الدكتور محمد شخصية الرجل المتدين بحق. كان رفيقاً بنا، ليس لدرجة مفرطة أو مؤذية، بل بحكمة وحساب. لم يكن مميزاً في شروحاته أو إجاباته، بل على العكس كُنَّا نجد أحياناً صعوبة في فهم ما يُريد إيصاله لنا. كُنت على يقين أنَّه - من الناحية العلمية - لم

يكن دكتوراً مميزاً، بل عادياً جداً، لكنه من الناحية الاجتماعية والأخلاقية كان عبقرياً لا أحد يفري فريه!

المثير للعجب أن غالبية الشباب الشيعي كان يُفضل الدكتور محمد على الدكاترة الشيعة. كان ودوداً، ومُنصِفاً، وبشوشاً. كانت له طريقة مميزة في التواصل مع الجميع. يخاطب الطلاب وكأنه يخاطب صديقاً. وكان حريصاً على أن نحضر دروس المساعدة المسائية المجانية التي يُقدِّمها لنا قبل الاختبارات، ويُلمِّح فيها أحياناً إلى المواضيع مظنة الأسئلة.

ما زلتُ أذكر صوت تلاوته للقرآن، حين كان يأمُّنا في الصلاة جماعة بعد أن نفرغ من الدرس المجاني. كان يُقدِّم لنا درساً مجانياً آخر!

قليلة هي المرات التي يأمُّك في الصلاة فيها أستاذك. شعور لا أنساه؛ إنَّه شعور الإجلال والاحترام الذي لم يسبق أن جربته.

كان يُحبني. أعرف ذلك من ممازحته لي، على الرغم من أنَّي من النوع الهادئ.

وعلى النقيض منه، كان الدكتور الحسني. شيعي متطرف بامتياز. كان من المستحيل أن ينجح لديه سنيٌّ متدينٌ متوسط المستوى. كان يجد المبرر دائماً لإعطاء طلاب هذا المستوى درجاتٍ متدنية.

هذا لا يعني بطبيعة الحال أن الدكاترة الشيعة كانوا كلهم على هذه الشاكلة، أو أن الدكاترة السنَّة كانوا على شاكلة الدكتور الفزَّاع. ليس الأمر كذلك. لكن بعيداً عن الطائفية، فلم يوجد دكتورٌ واحدٌ بمثل تطرف الدكتور الحسني وطائفيته. وربما كان لوعيه السياسي أو لتطرفه الديني تأثيرٌ على مواقفه الحدَّية هذه!

الدكاترة المتدينون في القسم كانوا اثنين، الدكتور محمد الفزَّاع والدكتور عصام الشكر، والأخير كويتي الجنسية وصل إلى الجامعة مع النزوح الكويتي إبان الغزو العراقي. تدين بعد وصوله إلى الجامعة بأشهر. كان خلوقاً هو الآخر. لم يكن لي احتكاك مباشر به ينافي انطباعي الأولي عنه والذي تشكل من خلال بعض اللقاءات العرضية...

اثنان فقط، لكن حمَّى التدين كانت تسري كسم في الجسم الأكاديمي. كان واضحاً أن هذا الرجوع للأصول لم يكن حصرياً على الطلاب البسطاء أو قليلي الوعي، بل طال البروفوسورات والأساتذة والدكاترة.

لقد بات واضحاً أن الجامعة تنقلب على أهداف الآباء المؤسسين.

كان يُقال لنا إن الجامعة تأسست من أجل صنع جيل منفصم الهُوية، يكون الدين في آخر أولوياته!

ويُقال أيضاً إن الجامعة كانت في بداياتها يتنازعها خطابان: خطابٌ يساريٌّ، وآخر ليبرالي. حتى قيل إن اليساريين كانوا يدهنون أبوابهم بالدهان الأسود دلالةً على يساريتهم ودعوة للمريدين والأعضاء الجدد الراغبين في التواصل!

لا أعتقد أن كل ما قيل لنا كان صحيحاً، ولا يهمني إن كان صحيحاً أو كذباً، ما يهمني هو أن الجامعة، على الرغم من كل شيء، أضحت مصدر إشعاع ديني مهم وعلامة فارقة في مسيرة التدين في المنطقة. فمنها تخرجت شخصيات متدينة كبيرة ومشهورة تسلمت قيادة أكبر الشركات والدوائر. ومنها تخرج كبار رجال الشريعة والفقه في المنطقة، فجمعوا بين العلم الدنيوي والشرعي...

ليس هذا فقط، بل إنَّ حركة التدين طالت بعض الدكاترة المسلمين من الذين كان ارتباطهم بالإسلام لا يتعدى الاسم، مثل بعض الدكاترة الأتراك والمصريين ذوي الجنسية الأمريكية، كما طالت أيضاً بعض الدكاترة الأجانب الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام. . .

ولعل كثيرين لا يدرون أن الدكتور زغلول النجار، عالم الجيولوجيا الأشهر، كان أحد المدرسين في هذه الجامعة في تلك الحقبة، وكانت له دراساته وبحوثه ومحاضراته داخل الحرم الجامعي وخارجه. لقد كان تأثيره الكبير الروحي والعقلاني الذي يرتكز إلى الإعجاز العلمي للقرآن على النشء الجامعي واضحاً جداً. كان هذا التأثير ليغدو مضاعفاً، لو قُدِّر أن يكون الدكتور زغلول مدرساً لأحد التخصصات المرغوبة شبابياً. بعد تخرجي سمعتُ أنَّه طُرِد من الجامعة بتهمة التنظير السياسي لحزب المقاومة الإسلامية «حماس»! تهمة سخيفة، فالجميع يعرف أنه لم يكن ذا توجه سياسي، بل كان هذا مما يأخذه عليه شباب الصحوة!

مصدر الإشعاع الجامعي لم يكن شيئاً مكتوباً أو مسموعاً، لم تكن المواعظ وحدها، بل كان هناك ما هو أكثر، ما هو مشاهد، ما هو محسوس، ما هو ملموس، ما هو قريب من القلب والعين.

لقد كان الفزَّاع وزغلول قريبان من القلب والعين. . . هذه هي كل الحكاية.

في عش الدبابير

- الأخ متعب؟

- نعم، معك متعب. من معي؟

- معك مدير المباحث عبدالملك المطيع.

- هلا حيَّاك الله. قلتها وقلبي يكاد ينخلع.

- ممكن تمر على الفرع إذا سمحت؟

- متى؟ (لم أجرؤ على سؤاله عن السبب)

- يوم السبت، لأنني أزعم أنَّك لن تستطيع القدوم اليوم لظروف عملك أليس كذلك؟

- على العكس، أنا مستعد للمجيء الآن.

- جيد. حيَّاك الله إذاً. النقيب جبران سيكون في انتظارك. قالها وتخيلت كما لو أن النقيب جبران ينتظرني والسوط في يده!

- لحظة إذا سمحت. هل في الأمر شيء خطير قد يقتضي مكوثي عندكم لأيام كي أقوم بترتيبات ما.

- هل كنت لتظن أنني سأتصل بك تلفونياً وأدعوك إلى زيارتنا لو كان الأمر خطيراً؟! قالها بهدوء من يعي ما يقول.

- جيد جداً، أنا قادم الآن. وأغلقت السماعة.

اتصلت بشقيقي الأكبر لأخبره بما جرى كي يقوم بما يلزم من إخفاء القصة عن والدتي في حال تم القبض عليَّ، ثم اتصلت بزوجتي وأخبرتها، ثم اتصلت بصديقي حمد، وهو مسؤول إداري رفيع في المؤسسة التي أعمل بها، ومتهم سابق لدى المباحث، فأخبرته أن يقوم بما هو مطلوب من إيقاف طلب استقالتي في حالة مكثتُ ما يزيد على العشرة أيام لدى المباحث. وكنت للتو قدّمت استقالتي للحاق بوظيفة أخرى، وخشيت أن تُقرَّ استقالتي بينما يلغى طلبي في الشركة الجديدة بسبب عدم قدومي. فرقعت ضحكته ثم قال: لا تخف، الأمر بسيط. ولقد صدق مدير المباحث في ما قاله حول عدم خطورة الأمر وهو الكذوب. وفقط في حال حصل الأسوأ فلا تقلق سأوقف استقالتك وأتقدم نيابةً عنك بطلب إجازة رسمية، وإن طال الأمد تقدمت بطلب إجازة بلا راتب.

كنتُ غبياً جداً حين عرضتُ القدوم حالاً بدلاً من يوم السبت، فهذا لن يعطيني وقتاً كافياً لحذف ما في حاسوبي المكتبي وحاسوبي المحمول (اللاب توب) من ملفات أو مقالات قد تجد فيها المباحث ما يمكن اعتباره ضد الدولة ولو بشكل غير مباشر. هرعت إلى حاسوبي المكتبي وحاسوبي المحمول وطفقت أحذف الملفات والبحوث والمقالات والتي قد توجَد نسخ عن الكثير منها على أرفف المكتبات لكنني خشيت أن تسقط هذه الملفات والبحوث والمقالات بين يدي رقيب «أمني» قضى جلَّ حياته في أقبية المباحث، فلم تعطه الحياة الفرصة للاطلاع والقراءة وملاحظة حجم التحولات التي تجري من حوله والتي فرضت على الرقيب «الفكري» لجمارك الكثير من المنافذ الحدودية أن يرخي قبضته في ما يخص إدخال الكتب

«الممنوعة»، لكنني لا أستطيع بحال أن أغامر في توقع درجة ثقافة رقيب أمني وإدراكه وحصافته، كل ما هو مشهور به هو أنَّه بلا عقل أو دين أو ضمير.

حذفت الكثير، ولم أجد الوقت الكافي للتحسر. كنت أعمل بسرعة كبيرة، فأمامي وقت طويل لمعالجة هذين الجهازين، وطريق قصير للوصول إلى فرع المباحث. كان مقر عملي يبعد حوالي الخمسين كيلومتراً عن مبنى المباحث. كنت حريصاً على عدم التأخر، لأنَّ هذا سيعني أنني انشغلتُ بأمر ما. فهم حتماً تنصتوا على مكالماتي لشقيقي وزوجتي وحمد، ويملكون معرفة في الحساب تمكنهم من حساب الوقت الذي انقضى منذ آخر مكالمة حتى وصولي إليهم. هم جيدون جداً في الرياضيات «الأمنية».

أحذف وأنا على يقين أن بإمكان القوم استرجاع ما حذفته من خلال بعض البرامج الكومبيوترية المتطورة التي تستطيع استرجاع ما حُذف من القرص الصلب. الحل الوحيد كان في تكسير القرص الصلب وحرقه، لكن كيف عساني أفعل ذلك من دون أن أثير الكثير من الاستفهامات والريبة، رغم أن لا وقت يسمح بفعل ذلك أصلاً.

لكن ما كان يشغل بالي حقيقة هو «الرواية»، وضمان أمنها. فما فيها كفيل بإدخالي السجن ما بقي من عمري، بل إذا اقتضى الأمر أن يكمل أبنائي المدَّة المتبقية بعد وفاتي فلن يكون ذلك بالشيء الصعب. أقصد بالنسبة إلى المباحث بطبيعة الحال.

كنت قد قضيت بضع سنوات في كتابة هذه الرواية التعيسة. نقلتها على فلاش ميموري (الذاكرة الوميضية)، ثم حذفتها من الحاسوب المكتبي والحاسوب المحمول.

اتصلت بعبدالله المفلح، أحد أصدقائي في العمل وهو من

المحبين للقراءة والأدب والذي أعلم جيداً أنَّه سيكتم السر، ودعوته إلى مكتبي على وجه السرعة.

أخذت «الفلاش ميموري» وبعض الأوراق التي كانت تحوي تقطيعات الرواية الزمنية والإضافات التي كنت أنوي إدخالها، ووضعتها في جيب «اللاب توب». وجلست أنتظر قدوم عبدالله.

وصل بعد دقائق وعلامات القلق بادية على محياه. أخبرته بكل شيء، ورجوته أن يحتفظ لي بهذه الأغراض حتى خروجي لأنني حتماً سأدخل السجن. «احتفظ بها حتى أخرج، ولو بعد عشرة سنوات»، قلتها بوضوح وجدية كاملة. «أبشر» قالها وأحسست أنَّه يقصدها رغم التقطيبة التي سكنت حاجبيه.

ركبت السيارة متجهاً إلى مبنى المباحث. لم تكن المرة الأولى التي أزور فيها ذلك المبنى المخيف. زرته قبل سنوات قليلة حين كنتُ متديناً، وذلك حين أُخِذ مني تعهدٌ بعدم نشر أي مادة كانت من دون الحصول على فسح من الجهات المسؤولة. كان السبب هو قصة قصيرة كتبتها ووضعتها أنا وصديقي صالح الذي يعمل في الجوازات في مُغلَّفات جميلة وأرفقنا معها زجاجة عطر صغيرة. كنَّا نهدف إلى دعوة الشباب إلى الالتزام. كان الهدف دعوياً بحتاً، ولأن التغليف يأخذ وقتاً فلم نستطع أنا وصالح أن ننهي عملنا في يوم واحد، الأمر الذي دفع صالح لوضع بقيِّة المغلّفات والعطورات في بقَّالته الصغيرة المجاورة لبيته وأمر البائع الهندي بالقيام بمهمة التغليف نيابة عنا. لسوء الحظ دخل أحد مخبري المباحث الدُكَّان فرأى الأوراق والمغلَّفات والعطورات مصفوفة، فأخذ نسخة منها للفحص والاختبار. الأمر الذي انتهى بي وبصاحبي إلى توقيع تعهدات بعدم نشر ما لم يفسح لنا بنشره.

لكن الأمر هذه المرة مختلف. أفكر وأنا في الطريق حول الكيفية المثلى في الرد على أسئلتهم، رغم أنني لا علم لديَّ حتى اللحظة بسبب الاستدعاء وإن كنتُ أشك في أن للأمر علاقة بصالح وعيسى وما جرى لهما! قد يكون أمراً تافهاً، من يدري، لكنه قد يكون أيضاً أمراً خطيراً جداً. هؤلاء القوم يستطيعون وبسهولة شديدة أن يجدوا لديك ما يثير الشبهة، وما قد يستدعي بقاءك معهم لمدة أطول. جملة في مقالة، مكالمة ذكرت فيها على سبيل المزاح نكتة سياسية، علاقة قربى تربطك بمشبوه ما، علاقة صداقة قديمة ربطتك مع جهادي، من يدري؟!

هنا لا يوجد بريء كامل.

أفكِّر في الكيفية التي ستسير بها حياتي في حال تم القبض علي ومحاكمتي. يا إلهي بدأت أفكر كما لو أنني مجرم!

أحاول دفن هذه الأفكار السوداوية، لكنني لا أستطيع.

كيف سيكون المستقبل؟

قد تُقبل استقالتي رغماً عن أنف حمد ودعمه، بل قد تتدخل الدولة فتضغط لتمرير الاستقالة إن وجدت أن الأمر يستحق. وسأفقد حتماً وظيفتي الجديدة بسبب عدم مباشرتي، وحينها أفقد وظيفتي الحالية والمستقبلية!

كيف ستستطيع عائلتي البقاء حيّة؟ لا ريب في أن إخوتي سيجدون فيَّ مراهقاً مغامراً لا يحسب حساب الأشياء بشكل سليم. لذا فهو يُكلِّفهم مؤونة عائلته الصغيرة.

تذكرت أنني أودعت ملف الملاحظات في الجوَّال بعض الأفكار الخاصة بالرواية وبعض الأفكار السياسيِّة الأخرى التي كنت أنوي الكتابة حولها. مقود السيارة في يد والجوال في الأخرى. دخلت على

ملف الملاحظات وبدأت بحذف كل ما قد يثير الشبهة، رغم أنني لم أعرف بدقة تعريف الشبهة. هنا أيضاً درء المفاسد مقدم على جلب المصالح. أمسح كل ما له معنى واضحاً وبسيطاً، لأنَّهم قد يجدون فيه رسالةً مُشفَّرةً ما.

قلبي يخفق بشدة. يداي دبقتان بالعرق.

أصل إلى المبنى المُحاط بالأسلاك الشائكة والحواجز الاسمنتية. أقف بسيارتي أمام البوابة لأنني لو أوقفتها خارجاً وجئت ماشياً لربما ظنّوا أنني أخفي شيئاً فيها. ثم إنَّهم سواءً أكانت في الخارج أو الداخل سيقومون بتفتيشها، وهو ما جرى في زيارتي الأولى لكنهم لم يقوموا بتفتيشها بشكل غير مكشوف تلك المرة، بل تسببوا في كسر مقبض الباب الخلفي. ولعل تركهم لها مكسورة إشارة إلى إمكانية كسر أشياء أخرى...

يتقدم إليَّ العسكري مستفسراً عن سبب مجيئي. أجيبه فيطلب إثباتي. أمدُّ له بطاقة الأحوال. يذهب ليجري اتصالاً تلفونياً، ثم يعود بعد دقائق ليسلمني الإثبات ويخبرني أن النقيب جبران ينتظرني في الطابق الثاني ثم يرفع العمود الحديدي سامحاً لي بالمرور.

أدخل بسيارتي إلى مواقف المبنى الداخلية، من دون أن يتم تفتيش السيارة! في الجهة اليسرى للمواقف وعلى مسافة لا تبعد سوى أمتار قليلة يشمخ بناء يثير الرعدة في الأوصال. إنَّه السجن الأكبر في المنطقة الشرقية.

كفاحاً في مواجهة القاعدة

تمنيت ألا يعود عابد من مشواره! لأن حواري مع عمر كان ممتعاً للغاية، فلقد كانت المرة الأولى التي ألتقي جهادياً كفاحاً ومن دون انطباعات سلبية مسبقة...

قلت: هيَّا أرني الآن ما هي مواطن الخلاف الجدية والحقيقية؟

قال: خلافنا الأول يبدأ حول توصيفك لتنظيم القاعدة بالإرهابي. أنت هنا، واسمح لي أن أستخدم هذا الوصف، تجري وراء الدعاية الإعلامية لأعداء القاعدة من أمريكيين وصهاينة وإيرانيين وعرب خونة؟

- إذا لم يكن ما يمارسه تنظيم القاعدة اليوم إرهاباً، فما هو الإرهاب؟

- الإرهاب هو ما تمارسه «إسرائيل» وأمريكا. أعتقد بأنك لن تحظى بتعريف أدق من هذا. قالها بثقة شديدة.

- حسناً، إن كنت تؤمن بهذا التعريف المبسط، فلماذا تنقل القاعدة عملياتها إلى البلاد العربية، حيث يسقط عرب ومسلمون بدلاً من تنفيذها في أمريكا أو «إسرائيل»؟

- القاعدة لم تنقل عملياتها إلى البلاد العربية إلا بعد أن أقحمت

حكومات هذه البلاد العربية نفسها في الصراع الدائر بين القاعدة وأعدائها. هل سمعت بعمليات قامت بها القاعدة في البلاد العربية قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟ الذي حدث بعد الحادي عشر من سبتمبر هو أن الحكومات العربية استنفرت كل أجهزتها الإعلامية والاستخباراتية وجعلتها أدوات طيِّعة في أيدي الأمريكان. ولا أعتقد أن تنظيماً، مهما بلغت ملائكيته، سيقف موقف المتفرج وهو يرى الحكومات تطبق الخناق عليه وكالة عن أعدائها وبالأصالة عن نفسها.

- هل تريد أن تقول لي إن القاعدة لم تكن هي البادئة بأعمال العنف؟

- نعم.

- طيب، فماذا عما جرى في اليمن ودول شمال أفريقيا؟

- وما دخل القاعدة في ما جرى أو يجري في اليمن أو شمال أفريقيا؟

- أليست كل تلك العمليات هي من صنع القاعدة؟

- يا عزيزي، لقد قلت لك، لقد اخترعوا هذا المارد الذي اسمه القاعدة، لكنهم فوجئوا به يتمرد عليهم ويخرج على قوانينهم ويتوالد بسرعة شديدة، ولم يكن أمامهم من خيار إلا الاستمرار في اللعب على استهدافه بكل التهم.

- كيف تقول إنَّهم اخترعوه وكلنا يعلم أنَّه تنظيم حقيقي موجود على الأرض، أم أن أسامة بن لادن كائن خرافي هو الآخر؟!

- أنا قلت اخترعوه كمارد، وليس كتنظيم. التنظيم موجود، على الرغم من شكي في وجوده كتنظيم تراتبي متماسك، لكنه ليس مارداً أو أخطبوطاً تتمدد خلاياه النائمة في كل مكان. هذه إحدى هراءاتهم.

- إذاً ماذا تسمي هذه العمليات التي ينسبها التنظيم إلى خلاياه؟

- لا أستطيع تأكيد نسبة هذه العمليات أو نفيها، لأني أحتاج إلى دليل قاطع. فمن يضمن أن إعلانات المسؤولية لا تفبركها الحكومات؟ وإنْ لم تكن كذلك، فمن يضمن أنها غير ملفقة من قِبل أصحاب المصالح؟ أعتقد أنك لا تختلف معي في أن لدى كثير من الحكومات والجماعات واللوبيات الغربية مشكلة مع الإسلام وأهله!

- هنا دعني أجيبك بالطريقة التي أجبتني بها قبل قليل، لماذا الآن فقط أصبح لديهم مشكلة مع الإسلام وأهله؟ لماذا لم يلفقوا أو يفبركوا كل هذا قبل سنوات؟!

- لأن حمى الحادي عشر من سبتمبر لم تستعر.

- إذاً، أنت ترى بعينيك ما جرَّته علينا أحداث الحادي عشر من سبتمبر! لقد فتحت الطريق واسعاً أمام الأعداء.

- وهل كان الطريق موصداً أمامهم؟ يا سيدي هم يقتلوننا منذ أكثر من ستين عاماً. ثم لا تنسى أن هذا الغرب الصليبي احتل أراضينا وهو في أوج نهضته التنويرية التي قامت على قيم الحرية والمساواة والعدالة وحقوق الإنسان! هذا الغرب يا سيدي ليس أكثر من كومة هراء. إنَّه لا يفهم غير لغة القوة، فحين جاهدناه وقاومناه اندحر عن أراضينا مرغماً. وهو لا يفتأ يمني النفس باحتلال جديد أقل كلفة، هو الاحتلال السياسي والاقتصادي، وهذا ما يجري اليوم على قدم وساق. انظر حولك فترى صدق ما أقوله، بل انظر إلى القرار السياسي العربي كيف بات الأمريكيون يلعبون به كيف شاؤوا. انظر إلى القضية الفلسطينية. انظر إلى حصار الصهاينة للفلسطينيين، وانظر كيف تتوسع مستوطناتهم وتنتشر كالخلايا السرطانية. انظر إلى العراق وكيف عاد الناس فيه إلى روابطهم البدائية المتوحشة التي انفرط عقالها حتى أحالوه إلى غابة يأكل فيها القوي الضعيف، وحتى قضى في أتون

الطائفية ما يتجاوز المليون من البشر. أو أن تنظيم القاعدة الإرهابي هو الذي فعل هذا كله؟! يا سيدي لو لم تحدث أحداث الحادي عشر من سبتمر لاخترعوا شيئاً مشابهاً لها! ثم قل لي: كم قتلت القاعدة في الحادي عشر من سبتمبر؟ ثلاثة آلاف، أربعة آلاف، خمسة آلاف، انظر كم قتلوا ويقتلون حتى اليوم في العراق وأفغانستان؟! هل شبع هذا الدراكولا الصليبي يوماً؟! لا. لم يشبع من قتل ملايين الهنود الحمر. ولم يشبع من قتل عشرات الألوف من اليابانيين بقنابله الذرية. ولن يشبع من قتل عشرات الألوف من المسلمين. خبزه أجساد ضحايانا وماؤه دماؤنا.

- يا عمر أنا لا أستطيع أن أفهم، فأنت تنتقل من نقطة إلى أخرى بطريقة غريبة. كُنَّا نتكلم على نقل العمليات إلى بلاد العرب، ثم إذا بك تقحمنا في الحديث عن الغرب الصليبي وعدواته التاريخية لنا! أنا لا أستطيع أن أمسك خيط الحوار حول «القاعدة» و«نقل العمليات» إذا كنت ستقفز على هذا النحو؟ حبة حبة الله يرضى عليك. ما رأيك لو أسأل وأنت تجيب؟

- طيب. قالها مبتسماً وإن كانت ابتسامته لم تخف امتعاضه.

- اتفقنا أن تنظيم القاعدة هو تنظيم حقيقي موجود على الأرض، واتفقنا أن هدف التنظيم هو رفع الجور والظلم عن أهل الإسلام وعلى الأخص الفلسطينيين والأفغان، و. .

- وكذلك البوسنيين والشيشانيين.

- ولا يهمّك، وكذلك البوسنيين والشيشانيين.

- دعني أسألك: هل قتل المدنيين الأمريكيين هو ما سيرفع الجور والظلم عن المدنيين الفلسطينيين والأفغانيين والشيشانيين والبوسنيين؟

- نعم فالقصاص تحقيق للعدالة. والأمريكان المدنيون هم رعايا دولة محاربة. فإن قتلت هذه الحكومة المحاربة مدنيينا قتلنا مدنييها. ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾. فعلنا هذا يُحرِّك الرأي الأمريكي كي يضغط على حكومته...

- أكمل الآية، ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

- وهل تلزمني بالصبر؟ لو كان الأمر بالصبر ملزماً لما ذكر الله رد العقوبة بمثلها.

- لكن عواقب الصبر يا عمر دائماً محمودة.

- وعواقب رد العدوان بمثله ليست كذلك؟! قالها وقد رفع حاجبيه الصغيرين.

- أنا لم أقل هذا. ثم تذكر يا عمر أنني أجاريك في ما تذكر من حجج، وإلا فأنا أحتاج العودة إلى تفسير هذه الآية التي ذكرتها.

- فضلاً لا تبحث في تفاسير مشايخ الحكومات. قالها ساخراً.

- أبشر.

نظر إليَّ ثم قال: لمَ تسأل كل هذه الأسئلة؟

- لأنني أريد أن أفهم يا عمر.

- تريد أن تفهم ماذا؟

- أريد أن أفهم كيف يفكر الجهاديون؟

- ولماذا تظن أنني مثال مناسب للجهاديين، وللطريقة التي يفكرون بها؟

- أنت مثال من جملة أمثلة أخرى كثيرة. دعني أسألك سؤالاً آخراً. قلتها لأقطع الطريق على النقاش حول الهدف من طرحي لهذه الأسئلة.

- تفضل.

- أتذكر صلح الحديبية؟ أتذكر بنوده؟

- نعم.

- أتذكر كيف كان الاتفاق مجحفاً في نظر بعض الصحابة رضي الله عنهم؟

- نعم.

- ماذا فعلوا إزاء هذا الإجحاف الذي وقع عليهم؟

- لا أدري.

- معك حق، قلتها ساخراً. لم يفعلوا شيئاً، بل صبروا لأن عاقبة الصبر حسنى.

- لا نستطيع أن نقول هذا مباشرة، ما لم نعلم متى نزلت آية «فإن عاقبتم....»، فإن كانت لاحقة فهي الأصل. ثم دعني أفترض وجود مخارج شرعية لدى أهل العلم حول هذه المسألة، فإننا قد نجد أحد العلماء يقول: إن صلح الحديبية كان زمن استضعاف، ولهذا قبِلَ النبي ﷺ بهذا الاتفاق المجحف الشروط حتى يقوى المسلمون ويكثر عددهم. يا سيدي لا تدخلنا في هذه «الزواريب» الفقهية التي لن نخلص منها إلى شيء إلا شكك في ما لدي وشكي في ما لديك من أدلة وتفسيرات.

- معك حق. دعني أسألك سؤالي الثاني.

- قل.

- كيف تشعر وأنت تسمع عن سقوط ضحايا من الأطفال والنساء والشيوخ في عمليات القاعدة؟

تنهد قبل أن يتجه إليَّ بوجهه، بدون أن يضع عينيه في عيني، قال:

- أنت تعرف أن هذا الموضوع يقض مضجع كثيرين. دعني أقول لك ابتداءً، إنك لن تحوز مني على فتوى شرعية تجيز فعل هذا. ليس لأني لا أريد أن أبدو أمامك كخارجي تكفيري يستبيح دماء الراضين بالمنكر، فهذا لا يهمني كثيراً، ولكن لأني بالفعل أشعر أن هذه القضية بالذات هي إحدى القضايا النادرة التي أرتبك أمامها. الأمر معقد جداً.

- هكذا تقولون كلما حوصرتم في الزاوية!

- لحظة لحظة. قل لي أولاً من هم هؤلاء الذين «يقولون». لا تكلمني بصيغة الجمع. أنا لا أمثل أحداً. وإذا كنت تريد مني أن أستمر معك في هذا الحوار، فيجب أن تعي ذلك جيداً. إنه رأيي الخاص. لا تنسى هذا. والآن دعني أكمل يا فيصل القاسم.

- أكمل. قلتها ضاحكاً.

- أقول لك إن الأمر معقدٌ جداً لعدد من الأسباب، منها: أننا نستمع لطرف واحد فقط من أطراف الصراع، وليس كلا الطرفين. وهذا لا يساعدنا على تكوين صورة موضوعية أو حقيقية لما يجري. نحن فقط نستمع ونستقبل ونخضع لرواية الحكومات حول ما يجري. فإذا حصل تفجير قُتِل فيه أبرياء أو مدنيون قيل إن من قام بهذا التفجير هو تنظيم القاعدة! وفكِّر قليلاً، ولا أريد إجابة منك: لماذا يقتل تنظيم القاعدة الناس البسطاء؟ أي مصلحة يحققها من فعل ذلك؟ لا تقل لي إن تنظيم القاعدة يعلن مسؤوليته وهذا يكفي، فطوال سنوات، لم أجد تنظيم القاعدة يعلن مسؤوليته عن هذه الأفعال على مواقعه الإنترنتية الجهادية. يستطيع أي متصل بأي قناة فضائية أو جريدة أن يعلن أنه من تنظيم القاعدة، وأن التنظيم هو المسؤول عن هذا التفجير. وفي حال أصدرت المواقع التنظيمية الإنترنتية التابعة للقاعدة تكذيباً فلن يشير إليه

أحد! ثم فكِّر معي: هل تنظيم القاعدة وليد هذه السنوات؟ أليس موجوداً منذ أكثر من عقدين؟! لمَ لم يتوجه بعملياته ضد الناس إلا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟ الجواب سهل وبسيط ومنطقي: لأنه ليس هو من يقتل هؤلاء الناس من خلال هذه التفجيرات. كما هو الحال في العراق، وهو الأمر الذي كشفه روبرت فيسك.

- أوووووه، ما شاء الله صار روبرت فيسك دليلكم. عفواً، أقصد دليلك. يا صديقي أنا عندي رؤية أخرى، هل تسمح لي بعرضها؟

- أحد يقدر يسمح أو يرفض مداخلات فيصل القاسم في برنامجه؟ قالها باسماً.

- تنظيم القاعدة هو تنظيم تكفيري يرى كفر الحكومات العربية، ويرى أن سكوت الناس وعدم خروجهم على هذه الحكومات هو قبول ضمني بالكفر، وبالتالي فهذه الشعوب العربية كافرة هي الأخرى، وبالتالي فإن سقوط قتلى من هذا الشعب «الكافر» في تفجير هنا أو هناك لا يثير أي حساسية لدى قيادات التنظيم.

- أولاً من السذاجة الادعاء أن القاعدة تُكفِّر الشعوب، سأتجاوز هذه التهمة السخيفة كي لا يضيع وقتنا. الآن قل لي ما مصلحة القاعدة من هذا النوع من التفجيرات التي يسقط فيها ضحايا مدنيون؟

- الأمر واضح: زعزعة استقرار الحكومات وإثبات هشاشتها وعدم قدرتها على الضبط. وهو ما قد يغري الناس بالثورة وقلب نظام الحكم.

- لحظة. لدي ثلاث ملاحظات هنا: الأولى، هل القاعدة من الجهل والغباء بحيث لا تدرك أن الحكومات بأجهزتها الإعلامية الضخمة ستقلب الطاولة عليها فتستخدم هذه التفجيرات لحشد الناس

واصطفافهم خلفها؟ الملاحظة الثانية، أي فائدة للقاعدة من تسلم شعب «كافر» لنظام الحكم، على اعتبار أن القاعدة تُكفِّر الشعوب كما تقول، خصوصاً مع تدخل القوى العالمية ودعمها لتأسيس أنظمة حكم عميلة؟ أما الثالثة، فأنا لا أفهم كيف يُحرِّض ابن لادن أو الظواهري الشعوب العربية على قلب أنظمة الحكم، وهما يقومان بقتل هذه الشعوب من خلال التفجيرات؟!

- بالنسبة إلى الملاحظة الأولى: بلى ربما تدرك القاعدة ذلك، لكنها تدرك أيضاً أن الشعب ليس وحدة واحدة، بل خليط من المكونات التي لكل منها حساباته ومصالحه وصفقاته. أما بالنسبة إلى الثانية: فكما أن للقوى العالمية تدخلاتها، فكذلك للتنظيمات العالمية تدخلاتها كالقاعدة التي تراهن على قدرتها على الوصول للحكم أو على الأقل دعم وصول نظام حكم قريب منها. أما عن الثالثة: فإن هذا جزء من ذهنية هذه المنظومة العبثية، فهي تخطط لأكثر من سيناريو في الوقت نفسه.

- ما شاء الله. نظرية المؤامرة، قاعدية هذه المرة. هل تصدقني: لو كنتُ حكومة عربية لما وجدت محامياً أفضل منك قادراً على تبرير أي شيء، حتى لو لم يكن منطقياً. يا عزيزي اهدأ وفكر بموضوعية، فأنت تتكلم على القاعدة بالطريقة التي يتكلم بها الصليبيون والعرب المنافقون! هل القاعدة بهذا الانتشار وهذه القوة بربك؟

- لا أدري يا عمر، لكنك أيضاً تتكلم على تنظيم القاعدة وكأنك تتكلم على أصحاب النبي ﷺ في معركة بدر.

- يا متعب، تعلمنا في الفقه أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، أليس كذلك؟

- بلى.

- إذاً حين نحكم على أحد من الناس، بمن فيهم أسامة بن لادن أو الظواهري، فإننا في حاجة إلى الرجوع إلى منطلقاته العقدية والفكرية. هل عُرِف أسامة بن لادن والظواهري بأنهما تكفيريان ينطلقان عقدياً من عقيدة التكفير؟ هل يُكفِّران على المعصية؟ هل جوَّزا مرة واحدة قتل الأبرياء من المسلمين بصفتهم كفَّاراً لا حرمة لهم، أم أنَّهما ذوا عقيدة سنية على مذهب أهل السنة والجماعة، على الأقل في المجمل؟

- قد لا يكونا تكفيريين في ما مضى، أما اليوم فقد تغيرا.

- وهل يزول اليقين بالشك؟ الأصل أنَّهما على ما مضى حتى يرد الدليل على تغيرهما.

- أليس ما يقولانه في بياناتهما وتصريحاتهما الصوتية دليلاً؟

- وماذا يقولان؟

- دعواتهما المتكررة والعلنية للشعوب العربية للخروج على أنظمة الحكم وقلبها.

- وهل يجعلهما هذا تكفيريين؟

- أي شيء في رأيك يجعلهما هذا؟! قلتها مستغرباً.

- «همممممممم»، ناقمين، متمردين، ثائرين، بغاة، في أسوأ أحوالهما. أذكر أنني سمعت شريطاً للشيخ عبدالعزيز ابن باز، رحمه الله، يُسأل فيه عن الحكم الشرعي في حق جهيمان، وهل هو خارجي أو تكفيري، فرد الشيخ: هو من البغاة الذين يتأولون فيخرجون على الحاكم بمسوغ شرعي فهموه خطأً من النصوص، رحمه الله! لاحظ، لقد ترحم عليه الشيخ ابن باز!

- كونهما من البغاة لا يعني الصحة أو القبول أو الصمت عما يقولانه. إنَّه يعني أنَّهما مخالفين لعقيدة أهل السنة والجماعة، وأنَّ على حماة هذه العقيدة مدافعتهما.

- لكن الشيخ ابن باز لم يقل هذا عن جهيمان الذي تسوَّر الحرم المكي؟! هدّئ من روعك يا حبيبي. ثم، هل أنت من حماة هذه العقيدة الذين عليهم واجب المدافعة عنها؟ قالها وشعرتُ أنَّه يُلمِّح إلى لحيتي، وابتسم ابتسامة خبيثة تذكرني بابتسامات حسن الترابي الكريهة.

قلت: طيب. هل لاحظت كيف أن الأمر معقد جداً في الحكم على قضايا يظن الكثير من شباب الجهاد أنَّها واضحة ومحسومة، فما بالك بالقضايا المربكة وغير المحسومة.

- مثل ماذا؟

- مثل حكم التترس بالمدنيين الأبرياء.

- يا عزيزي، التترس حقيقة جهادية. هل تريد منا أن نقاتل في الزمان والمكان الذي يقرره عدونا؟ هل تريده أن يبيدنا؟ إن حروبنا اليوم هي حروب عصابات، فالجيوش النظامية قد استقلت عن القيام بهذا الدور، وواجبنا أن نقاتل بدلاً منها.

- ألا تستطيعون فعل هذا من دون استخدام الأبرياء؟

- يا عزيزي نحن لا نستخدم الأبرياء، نحن فقط نصعِّب الأمر على العدو حين نتغلغل في صفوف المدنيين، فإن استهداف المدنيين جريمة وفق المواثيق الدولية، مما يجعل وضعه حرجاً جداً. ثم هل تتوقع أن لا ثمن للتحرر سوى من الضحايا الجهاديين؟ هذه سذاجة كبيرة.

- أنتم إذاً تستخدمون المدنيين ضحايا لإثبات انتهاكات خصومكم للمواثيق الدولية، أي جنون هذا؟

لم يرد. وقف على قدميه لبرهة ثم نظر حوله كمن انتبه من نوم، بدا عليه بعض القلق، ثم قال: لقد تأخر عابد.

- خائف؟

- لا. بل قلق.

- من إيش، وعلى إيش؟

- من أشياء كثيرة، وعلى أشياء كثيرة.

- أشياء كثيرة مثل إيش يعني؟

- أشياء كثيرة، أكثر مما تتخيل. قد تفاجئك!

- مثل إيش؟

- يقلقني الآن أن يأتي اليوم الذي تتحول فيه أنت بوقاً للحكومة. يقلقني الآن تأخر عابد. يقلقني الآن أن الأمور قد تخرج بعد دقائق عن السيطرة فتحاول الأجهزة الأمنية القبض علي، فتُصاب أنت أو تُقتل.

- اعتبرني من قتلى التترس! قلتها مازحاً، ثم أردفت: لا تقلق من أن أصبح بوقاً للحكومات. لن يحصل هذا، اللهم إلا إن تحولت الحكومات فأصبحت تضع الشريعة وحقوق الإنسان فوق أي اعتبار. لكن أخبرني: هل أنت مسلح الآن؟

- لا تحتاج أن تعرف.

سؤال آخر فج وبائخ.

بدا أن منسوب القلق يرتفع. ألحظ ذلك من التفاتاته المتكررة.

- لا تقلق يا عمر. سيسير كل شيء بصورة حسنة.

- إن شاء الله. فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

- عمر.

- سم.

- لَمَ دعوتني للقائك؟

فاجأه سؤالي. لم يجبني حتى خرجت من صدره تنهيدة طويلة بعد أن رأى عابد مقبلاً يحمل كوبين من القهوة. ابتسم ثم قال: لو لم يأتِ عابد الآن لما أجبتك.

سلَّم عابد وجلس.

قال عمر: دعوتك لأنني أريدك أن تساعدني في الدخول إلى المملكة.

وقعت عبارته تلك عليَّ كالصاعقة! تظاهرت بالهدوء، على الرغم من أني كنت في فوضى حقيقية. قلت:

- لماذا؟

- لأنني أريد أن أرى والدتي. ونظر إلى عابد.

- تستطيع أن تراها هنا.

رد عابد: إنها مريضة منذ سنوات ولا تستطيع المجيء.

وأردف عمر: كما أنني على ثقة بأن قدومها وإخوتي سيثير علينا جميعاً الكثير من المشاكل. وأخشى أن تقبض عليَّ السلطات البحرينية وتسلمني للحكومة.

- هل أفترض أنك تريد الدخول والخروج بطريقة غير شرعية؟ تهريب يعني؟

- نعم.

- وما الذي أستطيع أن أقدمه؟

لم يجب.

كنتُ أود أن أسأله عن مدى قبوله لفكرة أن يُسلم نفسه للسلطات، لكنني فكرت بأنه قد ينفر مني، ثم يقطع أي صلةٍ بي. فضَّلت أن أجعل من الوضوح سبيلاً للتقرب إليه. لم أكن أريد أن أخيفه ولا أن أؤمنه. إنه مجاهد. يفهم جيداً هذه الاستراتيجيات العسكرية.

- ما الحل في رأيك؟ قالها بصوت ضعيف.

جيد إنه لا يحمل خطة بديلة. ذلك يُسهل عليَّ الحركة، لكن حواري معه كشف لي أنني لم أعد أتعامل مع عمر الصغير البسيط، بل عمر الجهادي الكبير الذي يبدو ذكياً جداً وواعياً.

- لا أدري يا عمر. نحتاج جميعاً إلى بعض الوقت لنفكر في الأمر. لا أظن فكرة الدخول غير الشرعي مناسبة، لأن نقاط التهريب دائماً ما تكون مراقبة بدقة، ثم إن الأوامر بإطلاق النار واضحة لدى مكافحة التهريب، على العكس من المنافذ الحدودية التي يمر من خلالها الآلاف في اليوم الواحد. وأنا أعرف أن كثيراً من الجهاديين يستخرجون هويات جديدة عن طريق بعض البلاد.

لم يُجبْ.

استأذن عابد للذهاب إلى دورة المياه.

نظر عمر إليَّ، إلى لحيتي تحديداً، ثم ابتسم ابتسامة لا تشبه ابتساماتي أو ابتسامات بخيت التي يجري التلاعب بها بشكل بائخ.

ابتسمت، ثم قلت: اللحية هاه؟

اتسعت ابتسامته، ثم قال: أنا لم أقل ذلك، أنت قلته.

- الشكوى لله يا عمر. إنه ضعف الإيمان، أسأل الله لك الثبات على دينه والشهادة في سبيله.

- آمين، ولك بالمثل.

مع شاب جهادي أنت لا تستطيع تبرير حلق لحيتك أو تركك للتدين، على الإطلاق. أنت مجبر على الإدلاء باعتراف.

ابتسم مرة أخرى، وقال: كم كنَّا سُذَّجاً حين كُنَّا نحكم على درجة تدين الشخص من خلال لحيته أو ثوبه؟ أغلب شباب الجهاد هم من غير الملتحين، ومن المسبلين ثيابهم. إنَّ الجهاد في سبيل الله يُعطي كل شيء موقعه المناسب من حياتنا. لا تعرف الحياة بشكل جدي إلا حين تجاهد في سبيل الله.

خلينا من هالكلام... كيف الشباب في المدينة؟

- ما عليهم، طيبين.

- كيف بدر؟

- قصدك الشيخ بدر. ولا أعني هنا مشيخة الدين بل مشيخة المال. بدر هو مصعبنا الذي لنا. تاجر عقار، وخطيب مفوه، وعضو مجلس بلدي. ما هو مثلي أنا وخشتي اللي لا هذي ولا هذي!

ضحِك، ثم أردفتُ: بدر هو هو لم يتغير. حماسي، يمتلئ غيرةً. لم يُغيِّره المال، ولم تستطع الدنيا تدنيسه. لكن تعال، أخبرني أنت كيف ذهبت إلى الشيشان؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

- الشرح يطول. باختصار، ذهبت مع بعض شباب القصيم. تدربنا في أحد المعسكرات في أفغانستان. ومن هناك انتقلنا إلى الجهاد في الشيشان مع القائد خطّاب...

جهاد، معاذ الله!

عداوة أمريكا تجب ما قبلها. ويوتوبيا الجسد الإسلامي الواحد ما زالت فاعلة. سيُقاتل الكويتي ضد احتلال العراق.

بندر شابٌّ في الثالثة والعشرين من عمره. أبيض كالقمر، أخذ هذا البياض القمري من والدته ذات الأصول التركية. قصير القامة ذو بنية رياضية مكتنزة، مندفع وقابل للتشكل، جاهز للجهاد!

والده، خالي، عميد متقاعد.

تدين بندر قبل ثلاث سنوات. خجول جداً مثل عمر في أيام مراهقته.

معاذ الذي كان يضايق صاحبي لؤي بتحرشاته الجنسية الصريحة، والمبطنة بالنسبة إلي في المرحلة المتوسطة، كان هو الآخر خجولاً أيضاً، بعد أن تدين، وحتماً ليس قبل ذلك!

هل الجهاد في سبيل الله هو ما يصنع هذا الخجل؟

غاب معاذ عن ناظري لسنوات. كنت أكرهه بشدة. أكره حدبته الصغيرة. أكره نحافته التي تشبه نحافة السحرة العمانيين الذين كنا نهابهم في صغرنا، والذين كنا نخشى «شبقهم» وهوسهم الجنسي الذي تحذرنا منه أمهاتنا بطرق غير مباشرة!

قيل لي إنه تدين وإنه قد ذهب إلى الجهاد في سبيل الله في

أفغانستان وإنَّه كان من أفضل شباب الجهاد السعوديين هناك، حتى أنَّه كان يعامل باحترام شديد لدى القادة الأفغان، لدرجة أن عبدرب الرسول سياف كان يعرفه بالاسم!

أصابته شظية في قدمه، فعاد إلى المملكة للعلاج.

حين سمِع بتديني، زارني. سبحان الله كيف صنع التدين منه شخصاً رقيقاً. أربكتني رقته، فلم أعهد رجال بني قومي ذوي رقَّة! كيف وهو جهادي، ملعبه القتال والسلاح والكر والفر!

خرج من بيتي لا أسمع لخطوه صوت، هادئ وصموت كالملائكة.

إن لم تكن هذه هي «الكاريزما» التي يتحدثون عنها، فما عساها تكون؟

أحببت حدبته الصغيرة، شعرت أنَّها على عكس السابق باتت تعطيه هيبة الشيوخ الذين حنت الحكمة ظهورهم. لديه عرج خفيف، لم يتعاف بعد من جرح الشظية.

كان يرغب في أن أذهب للجهاد. كان يريد استقطابي. ليس بالطريقة الاستقطابية الفجة، أو بالطريقة السرية الأكثر فجاجة! بل بطريقة المخلصين. كان يريد لي الخير والرباط والشهادة في سبيل الله، ونصرة هذا الدين.

زرته في بيت والده بعد أسبوعين من زيارته لي. طلبت منه أن يحدثني عن الجهاد. تكلم بطريقة غريبة لم أعهدها في أحد. كان يُغلِّف ما يقوله بغلاف بشري هادئ. هادئ جداً وكأنَّه ربَّاني. لم يكن يبالغ أو يتحدث عن الكرامات التي كانت الشغل الشاغل للداعين والمبشرين لانخراط الشباب في الجهاد في سبيل الله.

قلة قليلة في الوسط الإسلامي كانت تجد في نفسها الشجاعة للتحدث أمام المريدين الجدد بموضوعية وبعيداً عن العاطفة.

كان العزف لدى الكثرة الكاثرة على وتر العاطفة، لقناعة بعضهم أن المريد الجديد يحتاج إلى التثبيت والدعم الإيجابي قبل أن يتعرف على مزالق الطريق وأحراشه. ذاك الدعم الوردي القائم على أكاذيب تلبس لباس خدع الحروب. كانت تلك الحملات العاطفية أشبه بحملات التجنيد الشعبي التي شهدتها الدول التي شاركت في الحرب العالمية الثانية. بفرق واحد فقط أن هذه الحرب التي سيلقي خيرة شباب الأمة مصرعهم فيها، بنيَّة صافية خالصة كانت بالوكالة، دفاعاً عن عدو العرب والمسلمين، أمريكا!

كانت هناك خشية من الردة الصغيرة أو الانتكاس للشباب المتدين حديثاً لو فُتِحت الملفات المغلقة والمثيرة التي يجري الكلام عنها في السر. كان من المهم أن «يبدو» الصف متماسكاً.

العاطفة لا تأتي بخير. خصوصاً في زمن الحرب.

لم يستطع هؤلاء العاطفيون أن يروا أنَّ أصحاب القناعات هم الذين ثبتوا حين ارتدت العرب عن دين الإسلام. أصحاب القناعات في العصور المتأخرة هم الذين سطَّر التاريخ نضالهم وصبرهم وكفاحهم، على الرغم من أنهم قضوا نحبهم بدءاً من عز الدين القسَّام وعمر المختار والخطابي وانتهاءً بأحمد ياسين والرنتيسي ويحيى عياش وخطاب وباسييف وأبي الوليد الغامدي...

بعد خروج الشيوعيين من أفغانستان، كانت وكالات الأنباء العالمية تنقل إلينا أخبار صراع أمراء الحرب وتطاحنهم للسيطرة على كابول. كُنَّا ننكرُ نحن العاطفيين هذه الأخبار، ونَصِفُها بالتآمرية ضد نجاح الجهاد الإسلامي في أفغانستان. هذا ما كان يردده بعض

مشائخنا ودعاتنا. كان شقيقي الأكبر يضحك مني ساخراً حين أصف هذه الأخبار بالتآمرية! كنت أعجب كيف يُصدِّق بسهولة شديدة هذه الأخبار التي تصدرها الوكالات «الكافرة».

بعد أن تكشفت الحقائق، كانت المصداقية قد تشظَّت كما لو أنها قطعة كريستال رخيصة. لم يستطع الدعم الإيجابي، الوردي، الذي استُخدِم في البدايات منع حصول هذا.

كان هذا التشظي دافعاً لترك التدين بالكلية لدى كثيرين. كانت صدمتهم أكبر من الواقعة ذاتها.

باتت فكرة التسامح بإطلاق مع النية الطيبة، فكرة هزيلة وضعيفة.

معاذ كان مختلفاً. كان موضوعياً إلى حد كبير وهو يكلمني قبل حصول كل هذه الكوارث بفترة. هذا لا يعني أنه تكلم بسوء عن بعض المجاهدين. لم يحدث هذا لكنه تكلم عن الصعوبات التي تواجه المجاهدين وعن اختلاف الآراء والاجتهادات. وعن أن الأمور بخواتيمها، وأن النصر في أحيان كثيرة قد يكون أسوأ من المقاومة... فالمقاومة توحد الصفوف. والنصر يفرقها بسبب المغانم.

كان يتكلم بهدوء شديد وحكمة من اختبر مزالق الحياة وألاعيبها.

عاد معاذ إلى أرض الجهاد، لكنه لم يلبث حتى عاد إلى أرض الوطن مرة أخرى مع من عاد من الشباب السعودي الذي آثر اعتزال «الفتنة» الأفغانية وحرب أمراء الحرب من الأخوة الأعداء.

قابلته مرة أو اثنتين بعد ذلك، لكنني تفاجأت حين سمعت أنَّه انتسب إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الأحساء. كان

أمراً غريباً أن ينخرط معاذ، الجهادي العتيد، في طلب العلم الشرعي! فالمعروف عن شباب الجهاد هو أنَّهم يرون الجهاد في سبيل الله «الحل» الحصري لهذا الذل الذي تعيشه الأمة. ولذا فبعضهم يُشنِّع على من يطلبون العلم، ويصفهم بالمترفين، ويطعن في علماء الدين ويصفهم بعلماء السلطان أو الطاغوت، لأنهم لا يأمرون الناس بالنفير إلى أرض الجهاد.

الحقيقة هي أن هؤلاء كانوا قلة في الشباب السعودي الذين تربى غالبهم على حب واحترام علماء البلاد وعلى رأسهم ابن باز وابن عثيمين رحمهما الله، الذين على أكتافهما قامت الصحوة الإسلامية في البلاد، ومن تحت أيديهما تخرج مشايخ ودعاة الصحوة الذين كانت محاضراتهم في تأييد الجهاد الأفغاني أكثر من أن تحصى.

هذه القلة القليلة ممن مردوا على وصف العلماء بعلماء السلطان كانت تجد بغيتها في آثار كثيرة منها حديث النبي ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» وحديث: «يأتي زمان على الناس القابض على دينه كالقابض على الجمر» وحديث: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء». من عساه ينكر هذا الشعور بالذل والغربة وهو يرى كل هذا الذي يجري للعرب والمسلمين شرقاً وغرباً؟

استخدم الإعلام، كعادته، مثال هذه القلَّة المتطرفة لسحب الحكم العام على كل من يحمل السلاح!

لقد أرادِ الإعلام أن يقول للناس: كل ملتحٍ يحمل السلاح ولو كان في أفغانستان أو العراق المحتلتين هو تكفيري سيعود يوماً إلى بلاده فيفعل بكم الأفاعيل!

كالعادة، يبدأ الإعلام الكذبة، ثم يأخذ الفعل ورد الفعل دورته الطبيعية...

هناك ما هو شرعي وواقعي في غضب هؤلاء الجهاديين الموجه ضد العلماء والدعاة والمشايخ. فلم يكن الدعم الذي يأتيهم من هذه الأطراف كافياً من وجهة نظرهم. الجهاديون يرون أنّهم هم رأس حربة الأمة، وخط الدفاع الأول، والكفائيون الذين يسدون مكان القاعدين، ولذا فهم يستحقون ما هو أكثر من الدعم المادي والثناء والدعاء من العلماء والمشايخ، كانوا يريدون المفاصلة الصريحة.

كان للتكفير والتخوين مساحته وسط المجاهدين في أفغانستان. لم يكن كل الشباب المجاهد يوافق على ذلك. كانت هناك نقاشات تجري على قدم وساق. كان بعض الشباب السعوديين الجهاديين يرفضون التكفير الذي يُصرَّح به، رغم أن هذا النوع من الرفض والإنكار في بيئة مثل تلك قد يثير حولك الكثير من علامات الاستفهام والنميمة، بل قد تدفع حياتك ثمناً له في حالات الوشاية المتقدمة.

كان هناك هذا الشعور لدى الكثير من الغيورين بأن الجهاد في سبيل الله يجب أن يُخلَّص من براثن التكفير، ويتفرغ أبناؤه للدفاع ضد المعتدين من الكفار الأصليين، لكن وتحت المبرر الصحوي نفسه الشائع الاستعمال «تماسك الصف»، اختطف الجهاديون المتطرفون الخطاب الجهادي!

لم يكن من المستغرب وجود ذلك التطرف، فالغالبية العظمى من هؤلاء المتطرفين كانوا ضحايا حكومات بلدانهم المجرمة التي تحاربهم وتطاردهم وتحاصر مساجدهم وحلقاتهم ودروسهم وكتاباتهم.

الخارجون من هذه البيئات المحكومة بالحكومات الكافرة كانوا

عدوانيين جداً. الآخرون كانوا أقل عدوانية. كلٌّ بحسب حكومة بلده!

النفير للجهاد في سبيل الله لم يعطِ أحداً الفرصة للتفكير في ضرورة وجود طلبة علم شرعيين وموضوعيين لا يجعلون كل الحكومات في سلَّة واحدة. تدارك الجهاديون هذا في ما بعد كما في البوسنة والشيشان وغيرها، لكن بعد أن ذاقوا حنظل الافتئات.

لم يكن الشباب الجهادي المتطرف هو فقط من أخطأ حين عَّمم حكمه على حكومة بلده الكافرة على الحكومات العربية الأخرى، بل وقع الكثير من العلماء والمشايخ في خطأ أكثر شناعة حين عمموا حكمهم بخصوص حكومة بلادهم المسلمة على الحكومات العربية الأخرى التي لا يحتاج معرفة كفرها وفجورها وإجرامها سوى لبعض الفقه في الواقع! زد على أنَّهم أيضاً عمَّموا حكمهم على ثلَّة من الشباب الجهادي التكفيري فجعلوه عاماً يشمل كل الجهاديين! هذا الصنف من العلماء والمشايخ قضى على البقية الباقية من احترام وإجلال للعلماء بين صفوف الجهاديين المترددين، وأعطى القلة التكفيرية الفرصة لإثبات وجهة نظرها حول الدور المهادن والاستسلامي والعميل لأهل العلم الشرعي!

مرات كثيرة أفكر: هل لدى كل تكفيري فرصة لعودة هادئة لو وجد من الواقع ما يثبت أنَّ الحكومات والعلماء والمفكرين يعبأون بالفعل بقضايا المسلمين والدفاع عن المقدسات؟

لا أدري، لكننا على الجانب الآخر ينبغي أن لا نقع في الخطأ نفسه فنطوب حججنا الدامغة الصحيحة، ونظن أنَّها ستنجح في إقناع التكفيريين. فحجج ابن عباس رضي الله عنه الدامغة لم تُرجع كل الخوارج عن طريقتهم، بل إن بعضهم قُتِل وهو يقول «فزتُ ورب الكعبة»!

لكن هل من الحكمة قتال من لم يتراجع عن رأيه وهو لم يبدأ الأمة بقتال؟

يربكني هذا، لكنني أزعم أن إخضاع الناس بالقوة، ليس هو الحل، فالولاء قلبي، والانتماء قلبي، والكره قلبي، والحقد قلبي، وكذلك «النفاق» قلبي.

لا بد من وجود طريقة ما للسيطرة على هذه الطائفة والطوائف المذهبية المشابهة بواسطة الحكومة، بحيث لا تتسبب في اضطهادها ولا في نزوعها ناحية العنف.

الحديث عن أن الشباب الذين يحملون السلاح ضد الحكومة هم من الخوارج، هو كلام سطحي غير دقيق، فالخروج على النسق بالعنف هو نتيجة طبيعية للانسدادات السياسية والاجتماعية والدينية.

لا أحد يهتم لحل مشكلة هؤلاء الشباب. حتى أكثر المهمومين بالشأن الديني!

فالقضية مربحة، ما دامت ساترة...

ماذا يستطيع الشاب الجهادي فعله في معركته الحياتية، مع الظلم والقهر والتهميش؟

معاذ وبندر وعمر اختاروا نقل معركتهم الحياتية إلى العدو الخارجي، المُتيقن من عداوته.

الصحوة، الثقب الأسود

جاءت الصحوة الإسلامية، وتشكلت لأول مرة في حياتي علاقة بيني وبين التدين.

أحببت المتدينين منذ طفولتي، أو كما يُسمون «المطاوعة»، وهي تسمية تقليدية منذ أيام «الكتاتيب» حين كان الصبية يُطوَّعون لتعلم القرآن والحديث على يد الشيخ الملتحي الذي يسمى «المطوّع». انتقلت هذه التسمية للملتحين الجدد، حتى وإن كانت بضاعة أحدهم مزجاة في العلم الشرعي.

كل من نشأ في بيئة بسيطة، لا بد وأن جمعته الظروف بأناس متدينين طيبين، فالناس بنو حيواتهم في نهاية الأمر. لم أكن استثناءً. أحببت المطاوعة، لكنني ظلت على مسافة من «التدين»، فلم يكن يشغل تفكيري في ذلك الحين، ولم يكن يمثل لي ملجأً ضرورياً أو حاجة ملحة أو سلوى وعزاء. فحياتي في تلك الفترة كانت حياة روتينية. ليس فيها من الحركة والديناميكية ما قد يجعل تماسي بالتدين أقوى وأكبر. قدوتنا المتدينة في تلك الأيام لم تكن تتعدى إمام مسجدنا العجوز وصديقه المؤذن النجدي.

إمام مسجدنا رجل قدِم إلينا من مدينة مجاورة، عاش معظم

حياته فيها. كان إماماً للناس. هناك تعرف إلى المؤذن النجدي الذي قدِم إلى المدينة ذاتها طلباً للرزق. نزح الرجلان في أواسط القرن الماضي إلى مدينتنا، واستمرا في أداء مهمتيهما المقدستين.

سألني مؤذن الحي ذات مرة بعد أن فرغنا من الصلاة، وكنتُ قد تقدمت الناس إماماً ذلك اليوم بسبب غياب الإمام:

- هل تحفظ شيئاً من القرآن؟

- القليل.

- هل تحفظ ثلاثة الأصول وكشف الشبهات؟

- لا.

استشاط غضباً ثم قال بلهجته النجدية: كيف تصلي بالناس؟ والله لو دريت لما قدَّمتك للصلاة بهم.

لم أستطع الرد على هذا المؤذن النجدي... حتى أني لو رددت برد مفصَّل لما سمعني جيداً. فهو يضع سماعة الأذن لثقلٍ في سمعه أصابه في سنواته الأخيرة. كان قد درج على الصلاة بالناس في غياب الإمام، حتى كان ذلك اليوم الذي غاب فيه الإمام فتقدَّم هو للصلاة كما درجت العادة، لكنَّه في أثناء قراءة إحدى السور نسي الآيات، فذكّرهُ بها من خلفه، لكنه لم يسمع بسبب خلل أصاب سمَّاعته... لا زلتُ أذكر أني رفعت بصري لأراه، فوجدته يفرك يديه من الخجل محاولاً التذكر! بعدها لم يتقدم إلى الإمامة.

لقد كُنَّا نهابه. لم تتجرأ على مناكفته إلا النسوة اللاتي يأتين إلى محله الخاص ببيع القماش. كُنَّ يقسن القماش على أبدانهنَّ، فيسلط عليهن لسانه بالتهديد بالويل والثبور: الخلا يا الفاسقات! فيهربن وهن غارقات في الضحك.

قال لي: اذهب الآن، ولا تعد إلى مثل هذا الفعل قبل أن تحفظ ثلاثة الأصول وجزء عمَّ على الأقل.

بعد أسبوعين كنتُ قد حفظتهما عن ظهر قلب، جئته قبل الصلاة، قلت له: أريد أن أقرأ عليك ثلاثة الأصول. أحببتُ فكرة القراءة على الشيخ، ذلك التقليد المتبع في حلقات العلم، والذي يعتبر عملاً من الفخر يكبر مع كِبر مكانة الشيخ الذي يُقرأ عليه...

أحببت أن أقرأ على رجلٍ متدينٍ بسيط مثَّل لي النقاء والطهارة. قال: انهج (لم أدرِ وقتها ما معناها). قرأتها عليه، لم تصدر عنه نأمة.

سألني: هل حفظت جزء عمَّ؟

أجبته بالإيجاب. لم يزد على أن هزَّ رأسه. لم يحضر الإمام ذلك اليوم، بحث عني ليقدمني، لكنني تواريت عنه، فتقدَّم أكبر الرجال سناً.

كثيراً ما أفكر أن حبي المتَّقد وارتباطي العضوي بهذا الدين، على الرغم من كل ما شاب هذا الارتباط، هو نتاج دعوة صادقة نفحني إياها هذا الشيخ النجدي الذي لا أعرف رجلاً متديناً قد تجاب دعوته سواه.

كان يأتي إلى بيتنا لأقله إلى المحكمة الشرعية، أو لنذهب معاً لملء جالونات الماء من محطة الكهرباء القريبة.

كانت علاقة غريبة. من نوع خاص جداً، وكأنني ألمس عن قرب فضاء السلف الصالح. لم أرَ شخصاً متديناً في حياتي مثله. لهذا، فحين انتكست كان يجب أن أعلن عن ذلك. كان عدم إعلاني الأمر كما لو أنَّه خيانة حقيقيَّة لهذا الشيخ النجدي. على الرغم من هذا، ما زلت أشعر أنني قد خنته، بصدق.

لقد علمني هذا الشيخ النجدي الهرم على نحو عملي ألا أحتمل المكانة الرمادية أو المنتصف أو المداهنة أو المسالمة. كان واضحاً جداً وصريحاً لدرجة فاقعة مع الكل، وكأن الوضوح والصراحة الشديدين أمانة أو جزء أصيل من «وهابيته»!

كل هذا، وهو بالكاد ينطق ما هو أكثر من الأذان.

جرح الأطباء رئته في عملية منظار روتينية، فأودوا بحياته.

لقد جرحوا أهل الحي كلهم.

حين جاء رمضان تلك السنة وسمعت أمي أذاناً مختلفاً عن أذانه النجدي، شرعت في البكاء.

كان أذانه جزءاً من المشهد الحياتي اليومي للحي لأكثر من عشرين سنة.

حضرتُ جنازته، ودفنتُ جزءاً من تاريخي «الحقيقي» ذلك اليوم.

نعم. لقد تدينت قبل أن أعرفه، لكنني لم أتدين «حقاً» إلا بعد أن عرفته.

كانت صحوتنا شيئاً شبيهاً بنا، وكان تدينهم شيئاً شبيهاً بهم.

لم يمت أحد أقربائي، ولم أقم في أحد الأيام فزِعاً من كابوس أموت في آخره غير ملتحٍ، ولم أستمع إلى شريطٍ دينيٍّ ينفذ إلى روحي، يدفعني إلى التدين.

تدينت لأنني أردت ذلك ولأنَّه حق وقُربة إلى الله، ولأن ذاكرتي ما زالت تختزن قصص الطفولة عن حياة الصحابة، وعن الجهاد، وعن البطولات الإسلامية. حتى اليوم أذكر القصة التي قرأها لنا المدرس في الصف الثاني الابتدائي، والتي حدثت بعد انقضاء معركة

بدر حين كان أحد الصحابة يمر بالماء على الجرحى الذين يصارعون سكرات الموت. كان الصحابة، كلما قرَّب الماء من فم أحدهم دفع به إلى صاحبه الذي يئن بجواره مؤثراً به على نفسه فيذهب الماء إلى الذي يئن، فيدفع به هذا بدوره إلى جريح آخر يئن، وهكذا من جريح إلى آخر حتى مات الجميع.

تدينت أيضاً لأنَّه لم يكن على الساحة غير المتدينين. ماذا عسى غيرهم يفعل لدعم الفقراء وكفالة الأيتام وزيارة المرضى والمشي في الجنازات وتفريج الكُرب والدعوة إلى العقيدة الصحيحة الخالية من الشرك والبدع ودعم المجاهدين في سبيل الله؟

ما لم يكن الدافع دينياً، فلا أظن أن هناك من «قد» يتقدم لهذه المهام الصعبة.

تدينت، لأنَّ التدين كان الطريقة الوحيدة التي تُصبح فيها ذا جدوى في وطن لا يُعلمك معنى «الأنسنة» ذات الجدوى لك وللآخرين.

وتدينت، لأن كثيرين من حولي تدينوا، فلقد كانت الصحوة الإسلامية في أوجها حين لحقت بها.

كل هذه الأسباب مجتمعة قادتني إلى التدين. كان رغبة وسلوى وحاجة وعاطفة، وقدر.

كان غير المتدين مُستهدف على طول الخط. ليس بالضرورة من الآخرين، بل جزء من هذا الاستهداف كان ينبع من داخله، فليس من السهل أن يتجنب الإنسان أسئلته الذاتية حول الخارج؛ الوجود والكون والقدر والقيامة والتقوى والمعصية والتدين، فنحن في نهاية الأمر، نعيش وسط مجتمعٍ إسلاميٍّ في زمن انحطاط تربكنا تناقضاته الكثيرة وتدفعنا لعمل شيء.

التدين هو الحدث الدراماتيكي الأكبر في حياة الشاب السعودي.

كثيراً ما فكرت في السبب الذي يجعل الواحد منا يتغير تغيراً كاملاً، فقط بعد لحظات من تدينه. شيء غريب فعلاً. كل ما كان يعجز عن القيام به قبل التدين، كان يُقدم عليه بعد التدين بعزيمة وصبر مُدهشين جداً. هذا لم يكن مقتصراً على الأعمال التعبدية، على الأقل بالنسبة إلي، فقد كان هناك «عقل» وعاطفة جديدين يتشكلان.

لطالما آمنت بأنَّ التدين هو الحل، لا شعاراً سياسياً أو دعوى مجردة، بل شعار حياتي حقيقي.

ولا ريب أن للجامعة فضلٌ في دفعي باتجاه هذا الحل.

في الجامعة تكون تحت الضغط. تشعر أنك داخل خزان كبير للضغط.

ضغط الدكاترة، ضغط المحاضرات، ضغط الواجبات، ضغط الاختبارات، ضغط الحياة الجامعية الجديدة التي تأتيك على حين غرة من وعيك، ضغط الغربة، ضغط الفروق الطائفية والقبلية والمناطقية والطبقية.

مع الضغط تشعر أنك تنفذ من بين أصابعك، تغدو ماكينة، آلة، مسماراً في آلة السحق الجامعي التي لا تستشيرك في شيء.

تصنع منك الضغوط الدراسية اليومية آلة رقمية كبيرة. مجمل حياتك يدور حول الأرقام. تبهت في نفسك العاطفة، تفقد الإحساس وتصبح أكثر مادية. زد على ذلك أنك قد لا تكون طالباً جيداً، فتُعاني الانتكاسات الدراسية، فيُضاف إلى مجموعة الضغوط السابقة «ضغط الخشية من الفشل».

التدين هو الحل. تلك النفس البريئة المسكينة في حاجة إلى مسكن تلوذ به، إلى شاطئ ترتاح على ضفافه، إلى حقيقة أخرى «قريبة»، غير الحقائق الرقمية المعدنية.

لم يكن ذلك الحل سهلاً، فالتدين لم يكن شيئاً سهلاً لا يلقى مقاومة.

عرفت هذا في يوم حفل افتتاح السنة الجامعية، حين وجَّه مدير الجامعة رسائل أيديولوجية معينة، انتقد فيها الشباب المتدين المتنطع، والذي وفق زعمه، يترك السرير لينام على الحصير، ويزعج الساكنين بالطرق على الأبواب لإيقاظهم لصلاة الفجر!

كانت تلك هي البداية كي أدرك أن للتدين خصوماً.

زعمه الأول لم يكن مقبولاً من كثيرين ينكرون أن يكون في الجامعة من ينام على الحصير تقشفاً، على الرغم من أني أزعم أن الحصير لم يكن يختلف كثيراً عن سرير الجامعة! وإن كان حصل هذا من أحد على حد قوله، فهو من النادر الذي لا حكم له. لكن إشارة مدير الجامعة «العامة» هذه كانت كافية لأن يخوض الطلاب في أهدافه ومراميه - التي لم يكن يعلمها إلا الله - لأكثر من أسبوع بدون أن يخلو هذا الخوض من وصفه بالعلمانية ومحاربة الدين.

أما بخصوص الإيقاظ لصلاة الفجر، فما أعرفه شخصياً هو أن أحد الشباب المتدين كان ينبري في العادة متطوعاً لإيقاظ الساكنين الذين يسجلون أسماءهم في ورقة تُعلَّق في بهو المبنى... ولكنني لا أنفي أن هناك من قد يتطوع من تلقاء نفسه لإيقاظ الساكنين بدون طلب منهم.

حين كان مدير الجامعة يطلق وصف التنطع، ذهب ذهني بعيداً في طرح الإشكالات: من هو المتنطع، وكيف سنتمكن من الحكم

على فلان من الناس الذي لا نملك سوى انطباع أولي عنه، بأنَّه متنطعٌ؟

الصورة النمطية التي نملكها للمتدين المتنطع لا تختلف كثيراً عن الصورة النمطية للشاب المتدين الوسطي. كلاهما بلحية، وثوب قصير، وسواك، مُصلٍّ، وورع.

إن النقد الذي وجهه مدير الجامعة كان نقداً غير مسؤول. ينبغي عليه أن يُفرِّق، وأن يُفصِّل، وأن يوضِّح... لكنه لم يكن ذا حس شفاف وعقل تفصيلي يتعامل مع ما يقوله باحترام ومصداقية، وإلا فما الذي جعله يقف حائراً إزاء ذلك الطالب المتدين الذي قام وسط القاعة وتقدم إلى «المايك» ليطرح رأيه بشجاعة وإقدام منتقداً مدير الجامعة الذي حسب قول الطالب، يواصل انتقاداته للمتدينين سنة تلو أخرى، بدون ذكر أمثلة حقيقية، بل محض تخرصات وإشاعات لا يسندها الواقع، وتحدى مدير الجامعة أن يدله على اسم طالب متدين واحد ينام على الحصير، ثم أنهى مداخلته بتلك الكلمة التي أضحكت الحضور كثيراً: «تووو مووتش والله (too much)»

نظر إليه مدير الجامعة، ثم أشاح بوجهه وقال: هل هناك مداخلة أخرى؟

مدير الجامعة هذا، كان مضرباً للمثل في رقي التعامل مع طلبات الطلاب ومشاكلهم، على الرغم من موقفه الغريب هذا، وهو موقف قد يكون فرضته عليه معطيات أو إشارات معينة. لا أذكر مثلاً أنَّه رفض طلباً لحذف مادة بعد فوات زمن الحذف، سواء أكان المتقدم متديناً أو غير متدين. كان منصفاً جداً في هذا الجانب، بل ولعلي لا أبالغ إن قلت أباً رحيماً.

تدلف إلى التدين. تنظرك الأعين. يبدأون بملاحظة مواظبتك

للصلاة، جلوسك للذكر بعدها، تبكيرك بالقدوم إليها.

ليس هذا شأنٌ خاصٌ بالجامعة، بل والحي الذي تسكنه أيضاً. تفرح والدتك كثيراً. التدين بمثابة بقاء للوالدين، ضمان بعد الموت، يفرح إخوتك وجيرانك.

لم تكن الحاجة النفسيّة هي كل شيء، بل كانت جودة اتصال المتدينين بغير المتدينين سبباً رئيساً لتمكين التدين وتناميه.

يأتي الطالب الجديد من منطقته البعيدة فينزل في المطار، فلا يجد من يأخذ بيده إلا لجنة الأنشطة التي يقوم عليها الشباب المتدين. يحملون لافتة باسم الجامعة يستقبلون بها الشاب المنضم حديثاً إلى الجامعة، يستقبلونه ببشاشة، يحملون حقيبته، يوصلونه إلى مبنى الإسكان.

منظمون جداً، قد يجد بعض الناس وراء هذا الفعل ما يتجاوز النية الصافية إلى الاستقطاب الرخيص. نظرية مؤامرة مُقابلة لنظرية المؤامرة التي يوصم بها المتدينون دائماً!

لا يهتم الطالب الجديد بصفاء النية من عدمها، بل يهتم بمن يخدمه، من يوفر له احتياجاته، من يشعر بقربه منه.

لم يُعرف المتدينون الجامعيون بإثارة المشاكل، بل بضبطها. عُرِفوا أيضاً بالتفوق الدراسي. ما زلتُ حتى اليوم أذكر ذلك الطالب الملتحي المُصاب بشلل الأطفال، والذي بالكاد يمشي على عكازين. لقد تخرَّج بمرتبة الشرف الأولى. وهذه الجامعة الجافة لا تضع الاسم في مرتبة الشرف الأولى شفقة أو طيبةً!

لم يكن هناك إثارة حقيقية في الجامعة باستثناء التدين والانتخابات التي كانت تجري بين حين وآخر.

كان مدير المبنى يُعين بالانتخاب الديموقراطي الحر الذي لا

يخلو ككل انتخابات ديموقراطية من حملات الاستقطاب والاحتشاد والترويج وحملات التشويه الصغيرة، وخصوصاً إذا كان بين المتنافسين شيعة أو من هو معروف بالفساد والانحراف الأخلاقي!

كان الشيعة يخسرون دائماً في كل انتخابات، فلقد كانوا قلَّة قليلة.

كانت الانتخابات تتم ببساطة، وفي ما يشبه التزكية في العادة، حيث يترشح شخصٌ واحد يكون في الغالب متديناً، ويتم التصويت عليه من الحضور، وتُعلن النتيجة، وينتهي كل شيء. عدد الحضور في هذا النوع من الانتخابات يكون قليلاً، لكنه يغدو أكبر حين يأتي خصمٌ شيعيٌّ، حيث يجري التحشيد ودعوة الشباب السنة المتدينين وغير المتدينين للمشاركة، وقطع الطريق على الشيعة الذين يحشدون هم أيضاً ويدعون شبابهم المتدين وغير المتدين للمشاركة.

كان كل شيء يتم بهدوء ومن دون أي احتكاك، ولا يشوبه من سوء إلا تلك التكبيرات الهمجية التي يُطلقها بعض المتدينين حين ينتصرون! لم أكن أحب هذا الفعل، فأي نصر يستحق التكبير في انتخابات أقصى ما يستطيعه الفائز فيها هو توزيع شيكات الرواتب الحكومية على الطلاب! زد على ذلك، أنها تعني بصورة ضمنية أن من هُزِموا ليسوا من أهل التكبير!

كانت الانتخابات برمتها لعبة صغيرة، مُتنفس جديد غير المتنفسات التي اعتدنا عليها في طفولتنا، دلالة جديدة ممتعة ومخادعة بأننا انخلعنا من الماضي الذي لم يكن يعترف بنا، وبأصواتنا، إحساس آخر بأننا في جامعة سعودية سنيَّة، وبأننا، نحن الأغلبية، متشابهون في كل شيء، ولا يستطيع شيء أن يهددنا، وبأننا ما دمنا سويةً سننتصر دائماً.

لم تكن هذه الانتخابات أو شبيهاتها التي تحدث في لجان الأنشطة لتغيِّر شيئاً في الذهنية الجامعية من حيث الوعيُ السياسي أو الاجتماعي.

لقد كانت الجامعة كمن حزم أمره. لا نُريد ثورات أو شبه ثورات. نُريد من الطلاب أن يتعلموا، أن يتفرغوا لطلب العلم، أن يخدموا الوطن بشكل مناسب، ألا يُقحموا أنفسهم في ما لا طائل من ورائه. إنَّه كلام يشبه كلام أمي، إنه رأي الحكومة «الأم». لم تكن الحكومة الأبوية الحازمة الجادة التي يهمها مصلحة أبنائها ومستقبلهم، بل الحكومة الأم التي تخاف على مستقبل أولادها بدون أن تملك أي تصور عن الخارج وما يدور فيه.

لو سألت أمي عن الوطن، لما عرفت ما الوطن، ليس لأنها أميَّة لا تستطيع التعبير عن هذه المعرفة، بل لأنها لا تعرف هذا الوطن. فالشيوخ كانوا دائماً هم الأبخص. وهم من يُفترض أن يظلوا الأبخص. أمي لا تثق فيَّ من زاوية السياسة، فهي تراني دائماً ذلك الطفل النزق الذي يدلق الكلام بلا حساب. أمي تخاف علي. وأنا أخاف على خوفها هذا، لذا يُختزل الوطن النافي عندي أنا المنفي وعند أمي - التي لا تعرف الوطن - في اتفاق، في عقد ضمني على التفرغ للدراسة والنجاح وبناء الأسرة ورؤية أحفادها قبل رحيلها.

التدين هو الوطن، حين لا يكون هناك انتماء حقيقي لذلك الوطن في صيغته الطبيعية المعتادة. التدين أكثر الأشياء شرعية في العالم، إنَّه شيء يمسُّك. يتعلق بك بقوة ابتداءً، وليس كالوطن الذي يجمع بينك وبين الآخرين تحت ظروف بائسة تمثيلية وهشَّة.

لا تهم كثيراً أسباب تدينك، لكن ما يهم هو أنك بت متديناً، شخصاً آخراً.

أعرف شباباً كانوا متدينين جداً قبل أن يلتحوا. وأعرف شباباً متدينين جداً ولم يلتحوا. الجيِّد في الأمر أن التدين كخيار شخصيٍّ لم يكن إجبارياً، على الرغم من أنَّه لم يكن عفوياً. يمكن ملاحظة ذلك بانعدام الاختيارات الأخرى أو تلاشيها. كان بين بين، لكنه كان مطروحاً بقوة وبزخم شعبي لم يكن له نظير.

إنَّ التدين لا يعطيك عصا سحرية، لكنه يوفر لك عجلة «الإمكان» بسخاء خطير.

يغدو التدين، بسبب العلاقة مع الخارج الواسع، أكثر شرعية من الوطن الضيق. يمد ذلك كله لوجستياً خطاب الأخوة والتناصر والمساواة، وكذلك الحلم بالأممية أو الخلافة الراشدة التي تعيد إلى المسلم هيبته وإلى النصراني الباغي زناره الذي في وسطه.

لم يكن في ذهننا أي فكرة عن الوطن. لا أبالغ إذا قلت إن كلمة الوطن، كانت في طفولتنا كلمة جميلة حماسية، لكنها غدت - بفعل الوطن غير المبالي، أولاً، ثم بفعل الصحوة - دخيلاً علمانياً ورأسمالياً بشعاً، لا يند على الذهن إلا ويند معه ساطع الحصري و«القومجيَّة» الآخرين ورجال الأعمال والمال المرتزقة.

أذكر أن عبارة «الوطن السعودي» طرقت مسمعي لأول مرة في أزمة الخليج، حين كان محمد عبده يشدو بكلمات غازي القصيبي! كان بمثابة الاكتشاف. «واااااو» لدينا وطن كما الآخرين.

الصحوة لم تكن تسمع غناء محمد عبده. كانت مشغولة بأشياء أخرى أكثر أهمية...

لم يكن هناك ما هو أكثر أهمية لدى الصحوة من تديين الناس.

كان يهمني أن أفهم، أن أكون واعياً ومراقباً. كنت أكره المطاوعة

«الدراويش»، والغلاظ الجِلاف، وخفاف العقل، والجبناء، وكذلك المتهورين الصاخبين المهددين. وكنتُ أحب الخجولين الصموتين الهادئين. لقد كانوا مع الأسف قلَّة، فالصحوة تأتي بشباب على مثالها، صاخبين. فورة تخرج عن الكأس.

كانت الأعداد المقبلة على التدين والصخب هائلة.

الكل كان ينتظر ارتداداً تصحيحياً. جاء متأخراً وعنيفاً في ما بعد.

إشعار أول

أدلف إلى داخل مبنى المباحث المرعب، وفي الدرج الذي يقود إلى الدور الثاني ألتقي بأشخاص يشيحون بوجوههم كي لا أعرفهم. والشيء نفسه حصل في الممر الرئيس في الدور الثاني والذي تتناثر على ضفتيه غرف كثيرة. أتوقف أمام مجموعة تتبادل أطراف الحديث في الممر يلبسون لباساً مدنياً. يميزهم أن شمغهم وثيابهم قديمة، يبدو ذلك واضحاً من لونها الذي اهترأ بفعل كثرة الغسيل. أسألهم عن غرفة النقيب جبران. يشيحون هم أيضاً بوجوههم. أشعر بالثقة والقوة. أتخيل كيف سيهربون لو نبحت عليهم. يجيبني أحدهم من دون أن ينظر في وجهي: الباب الثالث على اليسار.

أتوجه إلى حيث وصف.

أطرق الباب فأسمع صوتاً من الداخل يقول: تفضل. أدير مقبض الباب وأدخل. رجلان في مقتبل العمر. أحدهما يجلس خلف طاولة عريضة تحتل مساحة كبيرة من الغرفة وُضِعت في مقدمة الطاولة لوحة خشبية رخيصة نُقِش عليها اسم النقيب جبران بطريقة مدرسية سخيفة، والآخر يجلس على كرسي وُضع أمام الركن الأيمن للطاولة العريضة كما لو أنّه مُراجع، وفي مقابله أمام الركن الأيسر للطاولة كرسي آخر لا يفصله عنه سوى طاولة صغيرة.

يقوم النقيب جبران من كرسيه ليصافحني بحرارة شديدة كما لو أنَّه يعرفني منذ زمن، أو كما لو أنَّه سيعرفني لمدة طويلة! يصافحني الرجل الآخر ببرود. لعل تلاعب الأدوار هذا مقصود. لا يُعرِّفني النقيب جبران باسم الرجل رغم أنَّه عرَّفه باسمي. نجلس، فيضغط النقيب جبران جرساً فيحضر شاب سعودي صغير السن، فيأمره بإحضار الشاي.

حيَّاك الله، يقول النقيب جبران.

- الله يحييك. أقولها بأريحية محاولاً قدر استطاعتي إثبات ثقتي ورباطة جأشي، كي أثبت أن لا شيء لديَّ يدعو للشك والريبة. أُفكر في الذين لا يستطيعون كتم خوفهم في حضرة رجال المباحث رغم أنَّهم لم يفعلوا شيئاً يستدعي الخوف، لكنها رهبة المباحث. أُفكِر: هل يشك رجال المباحث في هذا الصنف من الناس لمجرد أنَّهم أبانوا وكشفوا عن خوفهم؟ ماذا لو كشف أحدهم عن تناقض في أقواله سببه الخوف والتشتت ولا شيء آخر؟! لكن الثقة الشديدة مدعاة للشك هي الأخرى. إنَّها قد تعني «الاحترافية الشديدة» أيضاً، وقد تعني أيضاً الشجاعة الشديدة وهو أمر خطير جداً. يجب أن أكون في منزلة بين المنزلتين، بين الخوف والرجاء، بين الرغبة والرهبة.

أحاول جاهداً التماسك، فقد ران الصمت لمدة أطول مما ينبغي. لعلها فترة اختبار تقليدية. هل يظن هؤلاء الحمقى أنني سأسقط على ركبتيَّ باكياً أستجديهم العفو والغفران، فقط لأني لم أجد شيئاً لأقوله خلال هذه الدقائق؟ لا ليس مبكراً أيها السادة، فأمامنا مشوار طويل. يا للعنة، للمرة الثانية أفكر كما لو أنني مجرم حقيقي!

يدخل الشاب حاملاً أكواباً زجاجية للشاي، فيضع أمامي على الطاولة الصغيرة أحدها. لماذا أكواب وليس فناجين صغيرة كما هي

العادة. لعلَّ هذه رسالة بأنَّ حوارنا معك سيطول. أقول: شكراً. شربت شاياً قبل قدومي. أقول هذا هرباً من الارتجافة المعتادة ليدي حين أكون في مرمى بصر الآخرين. الأمر الذي قد يعني لهذين الرجلين في ما لو حصل أنني خائف، مما يعني أن لديَّ شيء ما، ومن يلومهما إذا لم يعرفا شيئاً اسمه الرهاب الاجتماعي.

- لا، لازم تشرب، هذا شاي خصوصي، يقول النقيب جبران.

- الله يستر. أقولها مازحاً، وأنا أحاول رفع كأس الشاي إلى فمي من دون أن ترتجف يدي. المزاح المدلوق على عجل، طريقتي المعتادة في إيهام نفسي أن كل شيء على ما يرام، وفي إشغال الآخرين بالمزحة عن رؤية يدي المرتجفة. لا أدري إن كانت يدي ترتجف أم لا لأنها كانت في طور التحرك من الطاولة الصغيرة التي أمامي إلى فمي، وأثناء الحركة لا يمكن الجزم. حين فرغت من الرشفة الأولى، وقررت أن أختبر «رجفتي»، أنزلت يدي حتى تكون على مستوى حجري، في الوقت ذاته الذي أطلقت فيه مزحة سخيفة أخرى كقنبلة دخان، لكنني شعرت ببوادر الرجفة فلم أفضِّل المغامرة ووضعت الكأس على الطاولة.

النقيب جبران يضغط على الجرس مرة أخرى، فيحضر الشاب نفسه. يطلب النقيب جبران مني بطاقة الأحوال. يتفحصها ثم يسلِّمها إلى الشاب الذي يخرج.

- عسى ما شر. قلتها ببراءة رغم أنني أعرف أنَّه إجراء روتيني بحت، لكنني أردت أن نخرج من جو التوجس وندخل في الموضوع.

- ما شر، هذا إجراء روتيني بحت. قال النقيب جبران.

- طيب ممكن أعرف إذا سمحتوا عن سبب الاستدعاء؟

- تبي الجد؟

- أكيد. قلتها وأنا ابتسم بينما قلبي يخفق في انتظار المفاجأة.

- ما ندري.

- كيف ما تدرون؟

- والله يا متعب ما ندري. كل الموضوع أنَّ القسم المركزي طالبينك، ودورنا نسلمك الإشعار بشكل رسمي.

- طيب والقسم المركزي وش يبون فيني؟

- والله ما ندري يا متعب. صدقني إنَّك تدري أكثر منَّا.

- لا والله ما أدري.

- لا تخاف. أتوقع أن الموضوع بسيط، فلو كان الموضوع خطيراً لكان أمراً بالقبض وليس الاستدعاء.

- هل تتوقع أنَّ يكون للموضوع علاقة بما جرى للإخوة صالح وعيسى؟

- هل تعرفهما؟

- نعم، فهما صديقاي. قلتها وقد زال من قلبي الخوف.

- احتمال كبير أن يكون للموضوع علاقة بهما، لكن ما قصتهما؟

- أنتما تعلمان أكثر مني، فحتى الآن لا أحد من أهليهم بل ولا حتى هما يعرفان السبب الذي من أجله تم القبض عليهما!

- تصدق بالله؟ والله العظيم ما ندري. كل ما جاءنا هو استفسار عنهما. وأجبنا عنه بأنَّهما من ذوي السمعة الحسنة، فصالح معروف بخدمته لأهل المدينة وتقديره الشديد لكبار السن ومحبتهم الكبيرة له، وعيسى هو الآخر رجل محبوب وصديق مُقرَّب لقاضي المدينة. كما

أنَّنا ذكرنا أنَّ لا علاقة لهما بالسياسة لا من قريب ولا من بعيد، ولم يُعرفا بأنَّهما من الشباب الحركي الذي يجتمع عادة في الاستراحات، أو من كتَّاب الإنترنت، أو من المداخلين على القنوات الفضائية.

بدا ما يقوله النقيب جبران وكأنَّه رسالة موجهة إليَّ حول الحدود التي يجب عليَّ عدم تجاوزها، والمناشط التي ينبغي عليَّ الابتعاد عن المشاركة فيها. قلت:

- ثم إنَّهما من الشباب السلفي الموصوم بالتجيُّم والذي يرى طاعة ولاة الأمر طاعة مطلقة.

لم يُعلِّقا.

عاد الشاب وسلمنّي بطاقة الأحوال، ثم نظر إلى النقيب جبران الذي أمره بالانصراف بطريقة لبقة.

وقَّعت على ورقة تسلمي الإشعار. وخرجت.

أفغانستانيات

في الشهور الأولى لتديني فكرت في شد الرحال إلى أفغانستان. لم يكن الوصول إلى هناك صعباً. لقد كانت الحكومة تقوم بنفسها على تأمين وصول المجاهدين إلى أفغانستان من خلال تسهيلات كثيرة يأتي على رأسها تذاكر الطيران المخفضة!

كان عبدرب الرسول سياف، يطوف المدن السعودية، يبشِّر بالجهاد الأفغاني، ويجمع التبرعات. وكان يجد قبولاً منقطع النظير، فلطالما كان الشعب السعودي هو الأبرز في دعم القضايا الإسلامية. وللأسف أن السنوات التي أعقبت ذلك كشفت عن أن هذه العاطفة كانت توظف من أطراف كثيرة بطريقة غير أخلاقية، وتُستخدم لصب المزيد من الوقود على الحروب التي تتم بالوكالة.

لحية سوداء مشوبة بحمرة، كثَّة وطويلة. قوام ممشوق يضفي على صاحبه الذي تجاوز الخمسين هيبة واحترام. أسلوب خطابي رائع. نجح سيَّاف نجاحاً باهراً في التأثير في الشعب السعودي. لم تكن تلك الخطابية بمعزل عن الخطابية التي تنتشر في السعودية تلك الأيام. تشعر أن المجتمع السعودي الكبير وجد لسانه فجأة، فلم يجد ما يقوله باستثناء: ماما! أعتقد أن المجتمع السعودي يمر بين عقدٍ وآخر بحالة البكم هذه التي تنتهي تحت وطأة حدث تاريخي مهم بسعار خطابي. 11 سبتمبر، كان مثالاً.

لم أكن أحب عادة رفع الصوت والصراخ، لكنني كنتُ أجد في كل ما حولي شيئاً جديداً عليَّ، يجعلني لا ألقي اهتماماً لبنيات الطريق. كنتُ مثل مواطن بلدٍ خرج للتو من حكم طاغية إلى رحاب الديموقراطية وأعراسها الانتخابية.

كانت خطابية سيَّاف تشعر كل واحد منا أنَّه من يؤخر النصر ببخله أو تهاونه أو جُبنه. كان الكل مستهدفاً!

بعد أن تتدين لسنوات، يتسرب إليك الملل، والخوف، والخشية من العودة إلى المعصية. تتحول بك الحال إلى أن تكون مستهدَفاً بعد أن كنتَ مُبشِّراً. تحتاج إلى مضخات دفع قوية يُعادل ضغطها ضغط الملل والجمود والرتابة التي تراكمت لسنوات. تبحث عن قصة، عن صراع، عن حادثة استثنائية تقتلعك من مخاوفك. بعضهم يجدها في الرحلة إلى الجهاد في سبيل الله وسط البؤر المُحتقِنة التي يكون وقودها في الغالب من المسلمين المُضطهدين، وقد يجدها بعض آخر في الاستغراق في طلب العلم الشرعي أو في الصراع الفكري بين الإسلام والتيارات العلمانية كالقومية والشيوعية والرأسمالية. في حالتي كان الأمرُ مُعقداً، فلقد عملت على أكثر من جبهة. كنت ابن تيمية آخر، بطل أسطوري لا يُشق له غبار، لم ألحظ حينها بأنني أنفق من رأس مالي القليل!

في سني النشاط والهمَّة والحماس سمعتُ بعبدالله عزام وأسامة بن لادن. كان ذلك بعد التدين مباشرة. لم يكن اسما الرجلين ظاهرين على الساحة الإعلامية قبل الصحوة الإسلامية. أحببت عبدالله عزام، الفلسطيني الذي قيل لنا إنَّه يعتقد أن تحرير القدس يبدأ من أفغانستان، ولهذا يُجاهد السوفيات الملاحدة وعينه على القدس الجريح، مسقط رأسه.

عبدالله عزام شخصية استثنائية وتاريخية مهمة في مسيرة الجهاد في سبيل الله. أفكر في أحيان كثيرة في حال الجهاد وأهله لو لم يستشهد عبدالله عزام؟ هل كان ليلوي عنق حصانه نحو فلسطين فعلاً؟ هل كان سيستطيع أن يفعل ذلك لو أراد؟ هل كان ليقدر بما أوتي من حنكة وكاريزما أن يوحد الصف الجهادي الذي تفرق أيادي سبأ، أو أن الفشل كان سيحدث لا محالة؟

هل كان الصف الإسلامي ليُصاب بهذا الارتباك؟ هل كانت لتوجد مكائن التقتيل والتدمير والذبح لأناس ما جاء الجهاد سوى لتحريرهم؟!

لم أقرأ كتابه **آيات الرحمن في جهاد الأفغان** إلا في مرحلة متأخرة من تديني. كان الكتاب يتحدث عن خوارق المجاهدين ومعجزاتهم. فذاك يُسقط طائرة العدو بسلاحه المتواضع وذاك الشهيد يُشم منه ريح المسك وذاك البطل يقف على رجليه أمام أنظار العدو يرميهم من دون خوف ومن دون أن تُصيبه قذيفة واحدة من قذائف الطائرات التي تتساقط كالمطر! وغيرها كثير...

لا أدري. لكنني أؤمن أن النوايا الحسنة طالما كانت الطريق الأسرع للفشل الذريع. لا أشك في صدق نوايا الذين جاهدوا واستشهدوا هناك، لكنني لا أشك البتة اليوم في فساد أمراء العصابات التي تقاتلت في ما بعد على المغنم. لا أدري متى فسدوا بالضبط، ولا يهمني إن كانوا فسدوا قبل حادثة كونر أو بعدها. ما يهمني هو أنَّ الجهاد الرباني الحقيقي يستحيل أن ينتهي بهذا الشكل المأساوي. تمنيت أن تقوم طالبان حين بسطت سيطرتها بتعليق هؤلاء الأمراء الفاسدين على أعواد المشانق!

لقد خُدِشت فكرة الجهاد بكاملها بعد ما جرى في كونر. وفقد

الكثير من الناس ثقتهم بالمجاهدين. ووجدت وسائل الإعلام العلمانية فرصتها التاريخية.

بتضافر هذه الأسباب مجتمعة شهد الجهاد انحساراً كبيراً مع توقف التدفق الشبابي والمالي.

لقد كانت الخيبة شديدة، لدى الجميع، حتى من غير المتدينين. كان الجميع يؤمل أن تكون أفغانستان نواة لقيام خلافة راشدة للمسلمين تعيد لهم هيبتهم وقوتهم، لكن ما حصل في كونر وما أعقبها أثبت أن المسألة محسومة لدى أمراء الحرب، النصر الفردي أو الطوفان!

لم تنفع الوساطات ولا العهود ولا المواثيق ولا النداءات في إيقاف شلاَّل الدم الذي كان غالب ضحاياه من المدنيين، وقد كانت تجري المعارك بين الفرقاء للاستحواذ على مدنهم.

هي اللعبة نفسها التي تجري منذ عقود، لم يتغير فيها سوى شخوصها. اختفى العدو الخارجي، وأتى مكانه عدو داخلي كان قبل شهور قليلة رفيق جهاد!

لعبة الكر والفر ذاتها، حيث يحتل جنود فصيل جهادي المدينة وينشر جنوده في الشوارع والأزقة، بينما يصعد فصيل الخصوم إلى الجبال والكهوف الآمنة، ومن هناك يمطرون هذه المدينة بقنابلهم وقذائفهم التي لا تُفرِّق لسوء الحظ بين المدني والعسكري!

إنَّها فكرة التترس ذاتها.

بعد شهور من الحصار والقنابل والقذائف المتتالية، ينزل الخصوم من الجبال ليحتلوا المدينة ويطهرونها من خصومهم «الكفَّار». يقوم الخصم بأداء دور «جيري» بعد أن لعب خصمه

المسيطر دور «توم»، فيصعد بدوره إلى الجبال والكهوف الآمنة على الجهة الأخرى من المدينة.

ومن هناك يمطر المدينة وأهلها الذين ساكنهم شهوراً بالقنابل والقذائف!

وهكذا. . .

الأغرب من لعبة توم وجيري هو لعبة التحالفات!

بالأمس لم يكن قادة الجهاد يسألون عن مصدر التمويل الحقيقي المالي والعسكري الذي يصلهم من حلفائهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾.

ما كانوا يقولونه هو أن السعودية وباكستان كانتا هما من يمدهم بالسلاح والرجال.

أو لعل السبب هو أنَّ اعترافهم بتلقي الدعم الأمريكي، حتى وإن كان في إطار مصالح متقاطعة، يعني بالضرورة أن لنجيب الله، الحاكم حينها، الحق في تلقي الدعم السوفياتي في إطار اللعبة نفسها، المصالح المتقاطعة.

لعبة التحالفات الداخلية عجيبة. فاليوم يتحالف قلب الدين حكمتيار مع الشيوعي السابق من نظام نجيب الله القائد عبدالرشيد دوستم ضد أسد بانشير أحمد شاه مسعود، وغداً يتحالف أحمد شاه مسعود مع خصمه اللدود الشيوعي عبدالرشيد دوستم ضد قلب الدين حكمتيار!

هذا النوع من التحالفات لم يكن غريباً أو مستهجناً أو معيباً، فمن وجد مبرراً لترك قتال الروس ووكيلهم نجيب الله وتوجه إلى قتال شيخ سلفي كجميل الرحمن في كونر بزعم أنَّ حركته تُفرِّق الصف سيجد ألف مبرر ومبرر لهذا النوع من التحالفات.

هل يمكن أن يقوم جهاد حقيقي في وجود هذا النوع من القيادات وهذا الضرب من التحالفات؟

أفكر في الذين جرحوا في تلك المعارك، واضطرتهم الظروف للعودة إلى بلدانهم. أزعم أنَّ جرحهم في الجهاد وما انتهى إليه كان أكثر غوراً وألماً. أما الذين رحلوا فقد رحلوا على نياتهم، ولن يبخسهم الله أعمالهم، فالأعمال بالنيات.

أفكر في الموقف الذي كان سيأخذه عبدالله عزام لو كان حياً وسط هذه الظروف، وهذا الانحطاط الجهادي غير المسبوق في التاريخ.

ماذا عساه سيفعل وهو يرى قادة الفصائل الجهادية مثل رباني وسياف وغيرهما يجتمعون في خيمة اللويا جيرغا بترتيب وتنسيق الأمريكي المحتل؟!

هل كان سيُصاب بالخيبة نفسها التي أُصيب بها الجميع؟

الله أعلم...

مسرح كبير

أول ما تُعلِّمُك إياه الجامعة في السعودية، هو أن تتطرف!

لم يكن في الجامعة حين دلفت إليها محاضن تربوية حقيقية، ولا مناشط فكرية ناضجة، ولا فعاليات حركية اجتماعية. لا تجد سوى المتاح: كرة قدم، قراءة، تلفاز، بالإضافة إلى مناشط أخرى تصطبغ باللون الديني، مثل الكشافة والجوالة ولجان الأنشطة. ولم أعرف بوجود هذه المناشط الأخيرة سوى بعد أن تدينت. وفي مدينتي مثلاً لم يكن هناك سوى المسرح المدرسي والذي كان حكراً على الشباب الأكثر جرأة وظرافة. ومسرح الثانوية ما زال ماثلاً في ذاكرتي: ستارة حمراء طويلة، ديكور خشبي مجاني صنعه أحد الخطاطين المتعاونين - ولا أدري لمَ يغلب أن يكون من يضع الديكور في تلك الفترة خطاطاً؟ - قصتان أو ثلاث إحداها يجب أن تكون عن فلسطين، أربع أو خمس أناشيد. في بعض الأحيان تكون هذه الأناشيد على أنغام العود أو الأورغ.

لم تكن الموسيقى والأغاني مُستجهنة كما هو الحال اليوم. هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن الموسيقى كانت تجد قبولاً أو احتراماً لدى الناس. على الإطلاق. لم تكن أكثر من وسيلة لتزجية الوقت للطرب. ولم تُحمَّل، إطلاقاً، قيماً تحرريةً أو مضامين وإيحاءات شهوانية كما هي اليوم.

كانت أغنيات بريئة. لا أحد يجهل أغاني «بورنو» تلك الأيام لكن الأغنية «البورنو» كانت شاذة، خارجة على الذوق، مكروهة اجتماعياً - وإن تداول الشباب كاسيتاتها بالسر.

على الرغم من أن الطرب كان مقبولاً ومحبوباً ومُستلطفاً، لم يكن المطربون مقبولين اجتماعياً. لم يكن في مدينتي أكثر من ثلاثة أو أربعة مطربين هواة. وكان من المستحيل أن يكون بينهم قبيلي واحد! بل ومن الصعب جداً أن يكون بينهم من ينتمي إلى حَضَرٍ ذوي أصول فارسية مُحترمة اجتماعياً ودينياً. أذكر منهم اثنين، أحدهما عماني الجذور، والآخر لا يُعرف له أصل! بعد أن نطرب لعزفهما وغنائهما ونُصفِّق لهما نقول «ما عليهم شرهة» استنكاراً على فعلهما «المشين».

لم يسمح لي رهابي الاجتماعي بحضور أكثر من حفلٍ مدرسيٍّ واحدٍ. أُقيم هذا الحفل في إحدى المساءات في ختام سنتي الثانوية الأخيرة، وحتى الساعة أتذكر وهج المنظر. حضورٌ كثيف يفترش السجاد الذي نُقِل من المسجد إلى قاعة الفُسحة، حيث نُصِب المسرح. في الصف الأول جلس مدير الشرطة ومدير البلدية وبينهما جلس مدير المدرسة فهو مثلهما مدير في نهاية الأمر! بالإضافة إلى قلة من الآباء. المدرسون مبثوثون في كل زاوية من زوايا القاعة يتحركون كجنود الحراسة الشخصية، لم ينقصهم سوى الميكروفونات والسماعات السرية!

في مدارس أخرى، كان الشباب يصمتون بعد دخول الأشخاص المهمين، أمَّا في مدرستي فلم يحدث هذا ذلك اليوم. قضى الطلاَّب الوقت في انتظار إزاحة الستار بالدردشة والسخرية من بعضهم أو من المدرسين وخصوصاً غير المواطنين منهم.

حين يُزاح الستار يصمت الجميع. أذكر شعوري حين أُزيح

الستار. هالة كبيرة لمُقدِّم الحفل الذي درجت العادة أن يكون أحد الطلاب المُتميزين جرأةً وعلماً. هذا الخليط بين الجرأة والعلم يجري التنازل عنه أحياناً حين لا يوجد من تنطبق عليه الأوصاف، لكن ليس إلى الحد الذي يسمح بقبول طالب بليد وجريء كمُقدِّم. والسبب هو الخشية من أن زملاء هذا الطالب البليد قد يبدأون بإلقاء النكات عليه، وقد يتهور فيرد عليهم! البلادة العلمية لم تكن من ضمن مواصفات مُقدِّم ذلك الوقت. ليس دفعاً للجميع نحو التميز العلمي، بل رفعاً للحرج مما لا تُحمد عقباه أمام الضيوف.

هالة كبيرة، أزعم الآن أن سببها كان الإضاءة القوية جداً التي لم نتعود على رؤية مثلها. تحت وهجها كان أصحابنا - ما غيرهم - يغدون ممثلين حقيقيين. كنتُ أغبطهم لسببين: الأول، أنهم لا يُعانون من التأتأة، والثاني، أنَّهم باتوا مشهورين. ولا تتحقق الثانية ما لم تسلم من الأولى.

ليس للمتأتئ مكان على المسرح الكبير.

كانت الإضاءة الفاقعة تلك أول علاقتي مع الإضاءة، مع الوهج، مع النجومية. أزعم أن جيناتي الرافضة للإضاءة المُسلطة الموجهة التي تكذب والتي تُخدِّر قد نبتت ذلك اليوم. السبب هو تلك الخيبة التي شعرتُ بها حين خالطتُ في اليوم التالي نجوم مسرح البارحة المُحاطين بدُخان الانبهار والتبجيل، فوجدتهم همُ هم لم يتغيروا.

في الجامعة غرقت في هوايتي المتاحة والمُفضلة، كرة القدم. كنتُ سعيداً وفرِحاً بحبي لهذه الهواية المُتاحة التي لم تقتصر علاقتي بها على مجرد الاستلطاف تحت ظروف معينة!

في الجامعة لا تملك ألا أن تغرق في المتاح إن أردت الهرب. تتطرف في حبه والولع به، فأنت لا تجد مكاناً آخر تستطيع أن تتولع

فيه في ما تشاء من هوايات كيفما تشاء من دون رقيب من والديك أو أقاربك. أنت مثل كل من في هذه الجامعة النكدة. منفيٌّ لأربع سنوات لا تدري ولا تريد أن تدري كيف ستمضي.

أعرف شباباً كانت هوايتهم مُعاكسة الفتيات في الأسواق. آخرون كانت هوايتهم التغرُّب لبساً وحديثاً - ونادراً - فكراً. لم أشعر في يوم أنني في حاجة إلى «نيو لوك» انقلابي. قد يكون السبب أنني نتاج بيئة شرقاوية مُنفتحة بطبيعتها. أعرف كثيرين تغيروا من حين وطئت أقدامهم الجامعة. ما زلت أذكر ذلك الجنوبي الذي جاء تكاد تشم منه رائحة «العصيدة» الجنوبية. ما هي إلا شهور حتى أصبح يُدخِّن، وما هي إلا شهور قليلة أخرى حتى نزع الثوب ولبس البنطال، شهور أخرى ولم نعد قادرين على مقارنته بهيئته الأولى، «ذات» جديدة «مودِرن على الآخر»!

حيوات جديدة تتخلق في الجامعة... لكنها حيوات هشَّة. موضات بشرية غير متطورة طبيعياً، غير قادرة على الاستمرار في النمو. في الجامعة ينمو فقط ما كان موجوداً في العمق، ويخبو بعد طفرة مفاجئة ما كان نشازاً عنها.

لا تصنع منك الجامعة شيئاً ذا قيمة، لأن الحياة كقيمة منهجية غير ذات قيمة في الجامعة.

حياة الجامعة ماكينة حقيقية تعمل على تجميعك وقولبتك وتنميطك، تكمل ذات العملية التي بدأتها أسرتك ثم مدرستك.

تحت دعوى أن الجامعة تعطيك المفاتيح لا تعطيك الجامعة شيئاً، فهي مثل فاقد الشيء الذي لا يعطيه. ليس هذا فقط بل ولا يُسمح لك بأخذ أي شيء، أو التعليق على أي أمر خارج حدود الأرقام والمعادلات.

في الجامعة، كان يُسمح بقبول الأجانب من جنسيات كثيرة. عرب وأكراد وأفارقة وهنود وباكستانيين. كان غالبية العرب من الفلسطينيين الذين يأخذ الشأن السياسي حيزاً مهماً من حياتهم. كنت أشعر أنهم مسيسون بقوة. لكن، لأنهم ضيوفٌ في بلادي، فهم مضطرون إلى التقيَّة حتى حين.

الفلسطيني شخصٌ ساخط على طول الخط. إذا لعب الكرة تعارك مع الخصوم، وإذا لم يجد خصماً تعارك مع الحكم، وإذا لم يجد حكماً لديه هواية العراك انتقل إلى الجمهور! كل إيحاء من الآخرين، يظنه موجهاً له. لا يتحملون عبارات الشفقة والعطف. محاورون جلدون. قرَّبتهم المأساة من الدين كثيراً. قلَّة قليلة منهم التي لم تكن تُصلي أو تجد في الجهاد في سبيل الله حلاً لكل مشاكلها. يهيم الكثير منهم عشقاً في الجهاد وفي أهازيجه. محبون للسمر والطرب. الغالبية منهم تحفظ أهازيج وأراجيز الحقبة الثمانينية في لبنان، والتي خرج في آخرها الفدائيون الفلسطينيون بقيادة عرفات تحت الضغوط الأمريكية والإسرائيلية واللبنانية والعربية.

كنَّا أنا وأصدقائي السعوديون نشاركهم الغناء والطرب والتصفيق... تشعر أنك على أرض فلسطينية. فلسطين حنين بالنسبة إلينا أكثر منها أرض مقدسة.

كنتُ أعرف الذين قاموا بذلك الفعل جيداً، فلا يكتب بذلك الخط العريض سوى طارق وأخوه محمود «تسقط أمريكا. يسقط العدو الصهيوني. يسقط الخونة العرب». كان ذلك بعد ضرب الطائرات الأمريكية لمقر معمر القذافي بعد اتهام ليبيا بالضلوع في تفجير ملهى ليلي يرتاده جنود أمريكان في ألمانيا في العام 1986م. لم يكن ليجرؤ على هذا الفعل سواهما. كثيراً ما كانا يشتمان أمامي،

وليس أمام أي أحد آخر لثقتهما فيَّ. صحيح أنني لم أقف طويلاً أمام تلك العبارة التي كتباها على ظهر أحد الجدران التي تتوسط الحرم الجامعي، خشية المباحث، لكنني عرفتُ أنّه طارق. حين واجهته في اليوم التالي، قلتُ له: ما هذه الصبغة التي على يدك؟ نظر إلى يده، ثم نظر إليَّ. كنتُ أمزح، فضحِك. في ذلك اليوم لم يبق من تلك الكتابة إلا الهمس. الكل يسيرون على وصايا أمهاتهم، بأن لا يثيروا المتاعب، وأن يحذروا، فعيون المباحث في كل مكان. كنتُ أحد الذين يبعدون عن الشر ويُغنون له كما يقال!

بمناسبة الحديث عن طارق، ما زلتُ أتذكر ما حدث له مع مبارك الشاب الإحسائي، شاب رقيق نحيف وكأنّه طبعة حنطية عن الصوماليين. يضع نظارة طبيَّة تزيده نحافة بعدستيها الكبيرتين اللتين تجعلان عينيه تبدوان كعيني صرصار تحت ميكروسكوب. شابٌّ مرِحٌ جداً، وعصاميٌّ جداً، خرج من بيئة فقيرة بوالدين متوفَّين وأخ مريض. هو مثلي نِصف متدين، يشك دائماً في أنَّه منافقٌ كبير. شارك مبارك في مباراة لكرة القدم وكان في الفريق المقابل الشاب الفلسطيني طارق. حصل بين الاثنين احتكاك كروي أتبعه شد وجذب حاول المشاركون احتوائه من دون فائدة. تهجم طارق على مبارك الذي وقف أمامه بصلابة لم أفهم سرها، لا ترتعش منه شعرة، وما هي سوى لحظة، حتى صفع مباركٌ طارقاً صفعةً قوية لم يتوقعها أحد فمبارك لم يكن شخصاً عدوانياً على الإطلاق. حدث هذا على الرغم من أن طارق كان أقوى بدنياً بمراحل من مبارك. لم يفعل طارق أي شيء للرد. تدخل المشاركون وانتهى كل شيء بسلام.

مبارك كان أحب إليَّ من طارق، لكنني تمنيت لو أن طارق رد الصفعة ذلك اليوم. مؤلم أن يحسب الفلسطيني حساب الأشياء

مضاعفةً، وخصوصاً الأشياء ذات العلاقة بكرامته وإنسانيته. لا أدري لِمَ ظللت كلما جمعني بهما مجلس أنظر إليهما وأتتبع نظرات كل واحد منهما تجاه الآخر، على الرغم من أن كل شيء بينهما عاد إلى طبيعته. التطبيع القسري، كما هو في الذاكرة الفلسطينية.

الفلسطينيون يتفاوتون أخلاقاً وتعاملاً ومعاناةً. ما زلتُ أذكر صاحبي الجنوبي مشبب، الشاب المتدين، والذي يسكن بجانبه طالبٌ فلسطيني أمريكي الطريقة. كانت موسيقى البوب المزعجة لا تتوقف عن الدوي في غرفته بطريقة مُزعجة جداً. طالبَه مشبب أكثر من مرة بتخفيض صوت المسجل، وكان يفعل بتردد. في أحد الأيام طلب منه مشبب أن يُخفض صوت المسجل مرة أخرى، فرفض ورد بأسلوب وقح، الأمر الذي أفقد مشبب اتزانه، فضربه ضرباً مُبرِّحاً جداً، على الرغم من التفاوت الجسدي الكبير بين الاثنين والذي يأتي في مصلحة الشاب الفلسطيني. مشبب كان في كامل لياقته البدنية ذلك اليوم!

قصص مشبب هذا غريبة! في أحد الأيام صادف مروره بسيارته وجود رجلين يتعاركان في الشارع تتوقف سيارتاهما على جانب الطريق. أوقف سيارته لفض نزاعهما، فعرف من أكبرهما سناً، وكان في نهايات الأربعين، أن الرجل الآخر، وكان شاباً في بدايات العشرين، قد أزعجه بمعاكسته لبناته ولحاقه بهم بالسيارة، فما كان من مشبب إلا أن قبض على يدي الشاب وضمهما خلف ظهره، وأمر الرجل الآخر أن «يشوف شغله»!

ضرب الرجل الكبير الشابَّ المُعاكس حتى شبع، ثم شكر مشبب «الشهم»، ومضيا في طريقهما. أزعم أن الشك لم يرق لمشبب حول شرعية ما فعل، فما فعل إلا خيراً وما كان لذلك الشاب المتهور أن يشتكي للسلطات «فاضحاً» نفسه وكاشفاً سوء ما صنع؛ بل وواضعاً

نفسه في موقف الجبان الرعديد. علقة عابرة تنجو من تأثيرها السلبي كل الأطراف.

في أجواء دينية واجتماعية مأزومة وفوضوية على هذا النحو، تستطيع أن تُرتكب أكبر الجرائم الإنسانية من دون أن تطالك العقوبة، هذا إذا وُجِد في النظام ما يُعاقب على الانتهاكات الإنسانية أصلاً!

صاحبي مشبب هذا شاب متدين وهادئ رغم الحادثتين اللتين ذكرتهما، لكنه يمقت حد الموت الجرأة والوقاحة في انتهاك ما حرّم الله. هو مثال على جيل الصحوة غير القادر على استيعاب المحرمات بصفتها منتوجاً بشرياً لا منتوجاً شيطانياً!

تستطيع أن تُلاحظ هذا بوضوح في أوج نجومية هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلقد كان الناس يؤخذون بالشبهة، ولا يستطيع أي أحد أن يرفع صوته بالرفض، فمن عساه يجرؤ على رفض محاربة الشيطان؟!

لقد كان كل ما حولي من تحولات وجرأة يُبشِّر بقيادة جديدة، بقوانين عرفية جديدة، وظروف انتقالية لم أكن أملك في مواجهتها إلا الصبر. الصبر حتى ينقشع الغبار...

مرج البحرين يلتقيان

اتصل بي عابد من الشريحة البحرينية التي كنت قد أشتريتها له مع شريحة أخرى اشتريتها لنفسي ليتم التواصل من خلالهما.

حدد لي موقع لقائي بعمر. حضرت مبكراً، وكالعادة وصل عمر متأخراً. يبدو أنَّه يمسح المكان قبل أن يأتي.

احتضنني ثم جلس. ابتسم، ثم قال: هذه المرة لي رغبة في الحديث إليك. سأؤجل سبب طلبي للقائك إلى النهاية.

- جميل، هيا هات ما لديك.

- أريدك أن تعرفني جيداً. لا أطيق أن يسيء أحدٌ الظن بي.

- أنا أعرفك جيداً.

- أنت لا تعرفني. أنت تعرف شاباً صغيراً غضاً طريَّاً. لا تعرف أي مصاعب كبيرة اختبرها. ولو عرفتها لأدركت أن بقاءه حياً ضربٌ من الخيال!

- ماذا تعني؟

- هممم. تنهد طويلاً ثم قال: كنت لفترة غير قصيرة متخصصاً في تشريك العبوَّات الناسفة، وذهبت مع رفيق جهاد في الشيشان، في غروزني تحديداً، لعملية تشريك كبيرة، وفي طريق عودتنا، صادفتنا

مجموعة من الجنود الروس لحقت بنا إلى الأحراش، وهناك قاموا بمطاردتنا وإطلاق الرصاص الكثيف علينا، فأصابتني رصاصة في كتفي، وسقطت!

- كانت المرة الأولى التي تصاب فيها؟

- نعم، قالها بعد ثوانٍ كان يبدو فيها أنَّه يحاول استرجاع المشهد.

- ما الذي حصل بعد ذلك؟

- اخترقت الرصاصة لحمي وأنزفتني وظننت أنَّها كتبت سطر حياتي الأخير. بدأت أفقد الوعي، وظننت أنَّها النهاية. هنا نحى تفكيري فجأةً منحىً آخر بشكل غريب لم أفهمه مطلقاً. فكَّرت في جمال أن تقضي حياتك حتى آخر قطرة من دمك في الدفاع عن هذا الدين. فكَّرت في والديَّ وفي كرم الله حين جعلني شفيعاً لهما. فكَّرت في بدر الذي لم يلحق بي، أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!

قبل أن أفقد الوعي بلحظات، رأيت صاحبي وهو يغامر بحياته ليعود ويحملني على كتفه! تمنيت أن أصرخ به: لا تفعل، لكن صوتي كان قد جف كقطعة خشب! ما إن ابتعد بي بخطوات معدودة حتى أصابته رصاصة في ظهره، لا أدري كيف أخطأت رأسي. عرفت حين أخطأتني أنني سأنجو. ركض وهو يحملني وكأنَّه حصانٌ يغوص في مستنقع، يركض سريعاً حين يستجمع وعيه ويترنح حيناً آخر، حتى وصل قريباً من منطقة الحماية التي يوفرها الفريق المساند. وهناك سقط فاقداً للوعي. نجونا. وبعد شهرين من العلاج الذي أشرف عليه القائد خطَّاب بنفسه، تشافيت تماماً.

- القائد خطَّاب!

- نعم، القائد خطَّاب. يا الله على خطَّاب. أتصدق أنَّه كان يعودني كل يوم مرتين. نصحني بمسح مكان الرصاصة بالعسل، وكان يقول: لقد نجحت معي، وكان يشير إلى أصابعه التي بترتها قنبلة يدوية!

- يا أخي لم تمر شخصية كاريزمية على تاريخ الجهاد منذ استشهاد عبدالله عزام مثل خطَّاب!

- جميل! وأخيراً صار هناك مثال حسنٌ غير مثال أسامة بن لادن والظواهري الذين تدندنون عليهما في الرايحة والجاية.

- من تقصد بتدندنون، من هم هؤلاء الذين يدندنون والذين تعتقد أنني أحدهم؟

- الكل.

- طيب، ألم تسأل نفسك لماذا أحب الكثيرون خطَّاب ولم يحبوا أسامة بن لادن والظواهري بالقدر نفسه؟

- لا لم أسأل نفسي هذا السؤال، لسبب بسيط: أن الإجابة واضحة وهي أنَّهم جميعاً على الخط نفسه.

- على العكس تماماً، فخطهم مختلف. خطَّاب لم يدعو ولو لمرة واحدة الشعوب إلى الخروج على حكوماتها. ولم يصف ولو لمرة واحدة الحكَّام بالكفرة! على عكس أسامة وأيمن.

- لأن الحكومات العربية لم تفعل مع الروس كما فعلته مع الأمريكان، من دعم ومساندة وملاحقة بالوكالة! وصدقني لو قدَّمت الحكومات العربية دعماً للروس لملاحقة المجاهدين الشيشانيين والتضييق عليهم، لاختلف موقف خطَّاب!

- هذا رأيك، وليس الحقيقة. أنا لي رأي مختلف، هو أنَّ خطَّاب أصدق وأوفى وأكثر واقعية.

- من الطبيعي أن يكون خطَّاب هكذا، وأسامة هكذا. إنَّ لكل واحدٍ منهما موقعه وطريقته. لكن هل يختلفان حول حقيقة أنَّ الجهاد العسكري هو خلاص الأمة من هذا الذل؟ هل يختلفان في أن الأمريكيين والروس محاربان يجب قتال رعاياهما في كل مكان. هل نسيت كيف نقل المجاهدون الشيشانيون المعركة إلى قلب روسيا، بعمليات استشهادية ذهب ضحيتها المئات من المدنيين؟

- لكن خطَّاب لم يشارك في أيٍّ من تلك العمليات، بل كانت القيادة فيها لباسييف وسليمان راديوف، ولا يمكن نسبة قول لساكت!

- هذا صحيح، لكن هل تريد أن تقول لي إن خطَّاب لم يكن ليقتل مدنياً واحداً وهو يرى عشرات ألوف المدنيين الشيشانيين مطروحين على جوانب الطرق لا يستطيع أحدٌ الاقتراب منهم أو دفنهم؟

- لا أدري. لا أستطيع أن أنسب إليه رأياً، لأنني لم أره ولو لمرة واحدة يشارك في قتل مدنيي العدو!

- شوف يا عزيزي. الصورة النمطية المختلفة التي تراها بين أسامة بن لادن وأيمن الظواهري من جهة، وخطَّاب من جهة ثانية سببها الإعلام. ألم يكن أسامة بن لادن بطلاً في نظر الإعلام إبان الجهاد الأفغاني، حين كان العدو هو الاتحاد السوفياتي. وأصبح مجرماً إرهابياً متطرفاً حين أصبح العدو أمريكا!

- يا عزيزي أنت تعود دائماً إلى هذه الفكرة! هل تريد أن تقول لي إن أسامة بن لادن ملاك لا يخطئ!

- لم أقل هذا.

- يعني تعترف أنَّه يرتكب أخطاء.

- بالطبع.

- هيَّا دلني على أخطاء ارتكبها أسامة بن لادن في نظرك.

- ليش تعتقد أني معني في ما إذا كان لأسامة بن لادن أخطاء أو لا؟ لا يهمني هذا كثيراً. ما أردت قوله وإيصاله إليك هو أن الإعلام الحكومي يؤدي دوراً رئيساً في صنع الصور الإيجابية أو السلبية بحسب المصالح السياسية.

- أوافقك في هذا، لكننا أيضاً وبأخطائنا الفادحة نُعطي هذا الإعلام الدلائل على صدق ما يقوله عنا وصحَّته.

- يا عزيزي هذا الإعلام وسيلة من وسائل الحكم، مثله مثل الاستخبارات ووزارة الداخلية والخارجية... إلخ.

- لا أختلف معك في هذا، لكن...

- ممكن نقفل هالموضوع؟

- طيب على راحتك. لنعود إلى ما بدأنا حديثنا حوله.

- أتصدق؟ كان هناك هدف رباني من بقائي حياً. هناك مهمة منوطة بي. هناك رسائل يرسلها لي ربي. لقد نجوت من حادثة التشريك، ثم من حقل ألغام مات فيه الثلاثة الذين كانوا معي. ونجوت من طلقة رصاصة كان صاحبها يريد منها اغتيال خطَّاب، فأخترقت ترقوتي. وأصابتني رصاصة ونحن نمشط إحدى القرى الصغيرة. وطعنني بسكين شاب شيشاني أصيب بالجنون بعد مقتل جميع أفراد عائلته. وخرجت من كل هذه الحوادث معافى.

قالها وابتسم:

- وما الذي تنوي فعله الآن؟ تلقي رصاصة جديدة؟

ضحك ثم قال: على العكس. أعتقد أن حظي لن يستمر طويلاً، ولذا أردت رؤية أمي قبل أن يحين رحيل أحدنا.

نظر إليَّ بعد لحظة صمت ثم قال: زادت قناعتي بضرورة رؤية والدتي، حين رأيت أمرأة تحتضر في العراق. لقد ضرب صاروخٌ غرفة الطعام التي كانت تتحلق حول طاولتها هي وزوجها وأربعة أو خمسة من الأطفال، فتبعثرت أجزاء الجثث المُقطَّعة فلا تدري لأي جثة تنتمي تلك اليد أو تلك الرجل؟ ماتوا كلهم في لحظة وبقيت الأم تحتضر، همست لي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة: وداعتك لا تروح وتخلي عيالي على هاي الحالة!

اشتقت لرؤية أمي بعدها. اشقت لها كثيراً. يحفرني قتل النساء. رؤيتهنَّ صريعات تثير جنوني.

لم أجد ما أقوله.

بعد أن هدأت نفسه، فضَّل تغيير الموضوع مرة أخرى: شاهدتُ بخيتاً بالأمس.

تظاهرت بالاستغراب: صحيح؟

- نعم. هنا، ليس هذا فقط، بل وكان سكراناً!

- ماذا؟! لم أتظاهر هذه المرة. كنتُ مندهشاً بالفعل.

- غريبة الدنيا، أليس كذلك؟ من كان يصدق أن بخيت يفعل هذا؟

لم أستطع أن أقول شيئاً باستثناء: نسأل الله الثبات يا عمر حتى نلقاه. القابض على دينه كالقابض على الجمر.

- القابضون على الخمر! قالها بسخرية لكن بهدوء تام.

لقد تغير عمر. لم يكن ممن يسخر مُطلِقاً هذا النوع من العبارات...

- لا أحد يدري عن الذي حدث لبخيت. قد يكون مسحوراً، أو قد تكون وفاة أخيه الصغير بين يديه هي السبب. دعنا نرجو الله أن يهديه، وأن يرده إليه رداً جميلاً. وأن لا يجعلنا وإياه فتنةً للذين آمنوا.

قلتها على مضض.

- خلينا في المهم.

- طيب.

- ما آخر الأخبار؟ هل فكرت في موضوع دخولي وخروجي؟

- لا شك في أنك تعلم أنَّه أمرٌ خطيرٌ جداً.

- كل شيء في هذا العالم ينطوي على خطر.

- أعرف ذلك، لكن الأخطار تتفاوت.

- ممكن.

- بل أكيد. وخصوصاً في حالتنا هذه.

ثم أردفتُ:

- أعتقد أننا مضطرون إلى المغامرة، لكنني لن أكون جزءاً من عملية دخولك. ليس لأنني خائف، بل لأن فرص نجاحها ضئيلة جداً. ما زلت أعتقد أنك ترتكب خطأً شنيعاً إنْ فكرت بالدخول بطريقة غير شرعية.

- لا مشكلة. هات ما عندك.

- أملك فكرة واضحة حول كيفية إخراجك. لن يكون صعباً. سأكون جزءاً من تلك العملية.

- لا. أرفض هذا. لا أريدك أن تكون جزءاً من شيء. إنما طلبت أفكاراً ولمْ أطلب مشاركةً. قل لي ما الفكرة وسأستطيع تدبر أمري.

- سنناقش التفاصيل بشكل أوسع في ما بعد، لكن لنناقش الدخول الآن. هل فكرت في موضوع الدخول بجواز سفر جيبوتي أو صومالي أو بوسني؟

- نعم. أستطيع تدبيره بسهولة، لكن لن يكون من أحد هذه البلاد التي ذكرتها، فلون بشرتي يكفي لإثبات أنني لستُ أحد مواطنيها.

- يجب أن تسرع فيبدو لي أنك بطيءٌ بعض الشيء.

- يا عزيزي. حين تصبح جهادياً تفهم معنى ترتيبات اللحظة الأخيرة.

- أعتقد أن الدخول بجواز سفر سيكون سهلاً.

- طيب طيب، ماذا عن الخروج؟

- ستخرج بسهولة شديدة، والبركة في الكابرس الجديدة!

نظر إليَّ باستغراب ثم سألني: ماذا تعني؟

قلت: يا عزيزي. حين تصبح منتكساً تفهم معنى ترتيبات اللحظة الأخيرة.

ابتسم، وقال: صدتني!

رامي الأحمر

وُضِع بندر وصاحبه في سرية أبو محجن، وهي سرية يقودها شابٌّ خليجي. كان من السهل على الخليجيين أن يتعارفوا بسرعة، لكن ضمن حدود. الكل يخشى مخابرات بلده. الأسماء اعتبارية وكأنَّك في عالم الإنترنت. كل شيء خاص يختفي وتبقى الوجوه والأصوات فقط. أنت لا تخلع كرامتك وتضعها عند الباب، كما يقال عن العسكرية، بل أنت تخلع ذاتك وكل ما له علاقة بها من هوية ورغبة وفردانية.

على أطراف مدينة «بلد» كانت تجري التدريبات. مجموعات صغيرة تضم كل واحدة منها عشرة أفراد. كانت القيادة على دراية بصعوبة نقل أعداد كبيرة وتدريبها من دون أن يلفت ذلك الأنظار.

كانت التدريبات تجري في مزرعة خاصة لأحد رجال الأعمال العراقيين المنتمين لحزب البعث والذي فرَّ إلى الأردن. كان أحد أقربائه على دراية بوجود هذه المزرعة ووجود مبنى سكني فيها، فأسرَّ بذلك لأحد قادة الجهاد.

كانت مكاناً مناسباً تماماً.

وعلى الرغم من قلة أعداد فرق التدريب، إلا أن القيادة وضعت نقاطاً للتحذير في حالة وصول قوات للشرطة أو جيش المهدي الذي

أصبح في ما بعد حليفاً على الأرض لقوات الجيش والأمن والداخلية.

انضم الطبيب رامي الخطيب إلى سرية أبي محجن.

لبناني بامتياز، أبيض البشرة، أحمر الشعر، عارض خفيف، بشوش جداً.

جاء إلى السعودية من كولومبيا نزولاً عند رغبة والده الذي اشترى مخبزاً كبيراً في السعودية.

منذ قابلته للمرة الأولى شعرتُ أنه مختلف، ودودٌ صموتٌ، تجلل وجهه ابتسامة جميلة. في المرة الثانية التي يقابلك فيها يأخذك بالأحضان، كما لو كنت صديق طفولة! هذا الود لا يجعلك متبسطاً معه، بل أكثر حذراً من خدش محبته لك. تشعر أنك لا تستطيع أن تقابل ودّه بود مماثل، لأن هذا الكم من الود لم يكن يوماً من طبيعتك.

أحبَّ رامي السعودية كثيراً. أعجبه نمط المعيشة البسيط، والتدين المتقشف. جاء يحمل فكرةً مشوهة عن الوهابية. هوَت في أسبوعه الأول، بحسب قوله!

وعلى الرغم من صمته الطويل، إلا أنه لا يكاد يترك فرصة سانحة لحوار شرعي إلا واستغلها. كان يذكر أنَّه ملَّ من كثرة ما سمع من الحوارات السياسية اللبنانية.

اللبنانيون بطبيعتهم سياسيون.

تنتهي حوارات اللبنانيين ذات العلاقة بالعرب في العادة إلى لوم العرب!

اللبناني يشعر بأنه مهمش عربياً. يظن أن من حقه كضحية للعدوان الإسرائيلي المستمر بأن يحصل على شيء ما. يشعر أن الكل قد تخلوا عنه، حتى حين لا يتخلون عنه!

تهمة التهميش تطال بالدرجة الأولى الدول الخليجية الغنية. القادرة من وجهة النظر اللبنانية على دعمه مالياً وسياسياً. لا أستطيع أن أفهم لمَ يجب على دول الخليج أن تهتم بكل الدول الأخرى؟ ولماذا تُتهم بالتقصير على طول الخط؟ لذا فرامي اللبناني مثله مثل أي لبناني يغضب من دول الخليج، لكن اللبناني بخلاف غيره يكتفي بالغضب، ولا يحقد. على العكس من بعض مواطني الدول الأخرى الذين يجدون في المواطن الخليجي بهيمة وقعت على بئر من النفط لا تعي كيف تتعامل معه بتحضر ومدنية ورقي!

جاء رامي يحمل موروثاته في داخله. رأى السعودية من الداخل فالتصق بالدين أكثر.

رامي كان شجاعاً.

حين أُبعِد المقاومون الفلسطينيون إلى مرج الزهور في العام 1988م، كان رامي أحد الذين وصلوا إلى مخيمهم يحمل لهم المؤن ويرابط معهم.

بعد ستة أشهر قضاها في السعودية، عاد رامي إلى لبنان بعد أن فقد رغبته في العودة إلى كولومبيا التي هاجر إليها بعد تخرجه من كلية الطب.

حصل الغزو الأمريكي للعراق، فنفر رامي مع مجموعة من الشباب اللبناني إلى العراق عن طريق سوريا. وكان من أوائل الذين وصلوا إلى العراق.

طالب رامي زملاءه اللبنانيين بعدم الكشف عن مهنته الأصلية. كان يخشى أن يدفع ذلك القيادة إلى وضعه مسؤولاً عن التطبيب، وهو ما يعني إرجاعه إلى الصفوف الخلفية. جاء رامي يبحث عن الشهادة. الشهادة على الطريقة الوهابية. مقبلٌ غير مدبر. موحدٌ لم

يختلط بشركٍ أو بدعة. لم يأتِ من أجل الدفاع عن البعث أو قائد البعث الطاغية صدام، بل جاء دفاعاً عن أرض العراق المسلمة وشعبها المسلم ضد الطغيان الأمريكي الكافر.

بعد شهر من التدريبات المكثفة، بدأت السرية تشارك في العمليات.

كان بندر قد لاحظ أن قائده كان مبرزاً في فترة التدريبات، فلقد أظهر مقدرة فائقة في التعامل مع مختلف الأسلحة من الخفيفة وحتى الثقيلة...

كان هذا القائد الشاب قليل الاختلاط بالآخرين، ملامحه جدية، لا يمن بأكثر من ابتسامة بسيطة.

بندر من النوع الجريء. وعلى الرغم من أنه يعلم أن هذه البيئة العسكرية لا تسمح بعقد الصداقات البريئة والعفوية بسبب حساسية الموقع الجغرافي والسياسي الذي يتطلب السرية الشديدة والتحفظ الكامل، إلا أنه قرر أن يحاول. وسط الموت كل شيء يستحق المحاولة.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بادر بندر قائده الذي كان يفردُ خريطة من خرائط الجيش العراقي السابق أمامه ويضع فوقها جهازاً لاسلكياً صغيراً.

- وعليكم السلام. قالها من دون أن يزيدها بأحسن منها ومن دون أن يرفع رأسه.

- كيف الحال؟

- الحمد لله.

- كيف الأوضاع؟ عسى الأمور جيدة في نواحي بغداد؟

- الحمد لله.

- يا خوي وشفيك أنت؟ ارفع راسك. خل نشوف ويهك. عطنا ويه يا معود. قالها بندر بلهجة كويتية صريحة ومرحة، علَّها تجر لسان صاحبه.

اكتفى صاحبه بالابتسام.

- يا خوي والله لو أني محقق أمريكي ما سويت معي كذا. يا أخي سولف. قالها بندر مازحاً.

- أسولف في ماذا؟

- في أي شيء.

- أي شيء مثل إيش يعني؟

- ودي لو تسولف لي من وين جيت؟ وين كنت؟ وش بيصير علينا هنا؟ وش تخطط له المقاومة؟ وش وضعنا بالنسبة لخلايا المقاومة؟ هل فيه اتصالات بيننا وبينها؟ لكنني أعرف أن أسئلة من هذا النوع تخيف!

- اسمع يا بندر: من الخطأ أن تسأل أحداً هذه الأسئلة. إنك بهذه الطريقة تثير حولك الشكوك والشبهات. انتبه!

بُهِت بندر حين سمع القائد يناديه باسمه الحقيقي!

لم يحر جواباً أو تعليقاً. شعر القائد بحيرة بندر وعجزه عن المواصلة. فبادره:

- لا تخشى، فأنت في مأمن. والحافظ الله.

في تلك الحقبة كانت المقاومة تتفرغ لمقاومة الاحتلال الأمريكي، وكانت تواجه صعوبات جمَّة نتيجة الضربات التي توجهها لها الميليشيات الشيعية، مثل جيش المهدي وفيلق بدر اللتين تشكلتا حديثاً. لم تكن المقاومة تلتفت لعملياتهما ضدها. لم ترد فتح جبهة

داخلية قد تستنفذها فتفك الضغط عن الاحتلال الأمريكي. كان بعض قادة الجهاد يعتقدون أن هدف الميليشيات هو بالفعل فك الضغط عن قوات الاحتلال، والسماح لها بخروج مشرف من العراق، في مقابل تسليم العراق لحكومة شيعية مدعومة إيرانياً. لكن قادة المقاومة أدركوا بأن مجرد نجاحهم في استمرار الضغط على القوات الأمريكية كفيل بإفشال المشروعين...

في أحد الأيام وبينما كانت مجموعات مدينة بلد تعد نفسها لعمليات متفرقة، ضرب صاروخٌ أمريكيٌّ أُطلِق من طائرة بلا طيار مكاناً قريباً من موقع سرية أبو محجن فأصابت أحد المباني ذات الثلاثة أدوار!

كان منظراً مفزعاً جداً. كانت الأشلاء في كل مكان. أحد الذين كانوا يصرخون كانت يده قد قُطِعت من المرفق. هرعت مجموعة بندر وقائدها إلى داخل ركام المبنى لإخراج الضحايا. كان القائد الشاب قد طالب المجموعات الأخرى عدم التدخل لأن صاروخاً آخراً قد يضرب المكان نفسه. أشار إلى بندر بالدخول معه.

في الدور الأرضي كانت هناك جثث مقطَّعة الأوصال بدا أنَّها لأب ولأربعة أو خمسة أطفال، لم يستطع بندر التأكد. أمهم التي كانت في الأربعينيات من عمرها مدفونة تحت الأنقاض، لا يظهر منها إلا وجهها. كان واضحاً أن الانفجار قد اقتلع إحدى ذراعيها من مكانها. كان نصفها السفلي كما لو أنَّه مثنيٌّ وراء ظهرها ولم يكن واضحاً إن كانت الرجلان في مكانيهما. كانت الوحيدة التي بقيت حية لبعض الوقت. كانت روحها تقرقر. جلس القائد عند رأسها يلقنها. كان نور عينيها ينطفئ شيئاً فشيئاً. مسح القائد على خدها في حركة بدت غير مفهومة وغير مشروعة بالنسبة إلى بندر. كانت تهمس للقائد

بصوت ضعيف جداً ومبحوح. سمِعها بندر تقول: وداعتك لا تروح وتخلي عيالي على هاي الحالة؟!

كان بندر ينظر إلى وجهها من فوق كتف القائد الجالس بقربها وظهره إلى بندر. كان القائد يردد أمامها «لا إله إلا الله». . . فاضت روحها. قام القائد ومسح بكمه أنفه ومضى إلى غرفة أخرى بدون أن يلتفت إلى بندر. . .

لم يستطع رامي الخطيب أن يحتفظ بسره وهو يرى الجرحى، ويرى أعين أصحابه ترجوه أن يتدخل. هرع إلى المسجد القريب، وطالب بإحضار الجرحى هناك. وبأدوات بسيطة وبدائية انهمك في عمله. في نهاية اليوم كان الجرحى قد نُقلِوا من المسجد إلى المستشفيات الحكومية.

شعر رامي أنه أدى واجبه ولأول مرة مارس مهنته التي يعرفها في الصفوف الأولى. قام بما يُحسن فعله. تكوَّم على نفسه في إحدى زوايا المسجد ثم غفا كطفل صغير. ولم يصحو بعدها، فلقد أطلقت الطائرة الأمريكية صاروخاً ثانياً مستهدفةً المسجد هذه المرة. . .

استشهد رامي الخطيب. اللبناني الأحمر. مات وقد فرغ للتو مما يحسن.

يحسن الله اختيار شهداءه. يختارهم بالطريقة التي يحبون. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾. . .

وبقيتُ أنا أقتات على ذكرى رامي، رامي وغيره، بل على ذكرى متدين سابق كان لا يرى الدنيا شيئاً سوى جهاد في سبيل الله أو طلب للعلم الشرعي.

سوء الطالع

خرجت من مبنى المباحث، وأنا أشعر كما لو أنني مغتربٌ.

لم تفارق والدتي أو عائلتي ذهني. والدتي لن تستطيع أن تتحمل ما يجري، وسأقاسي تأنيب الضمير حتى آخر يوم في حياتي إن جرى لها شيء. عائلتي الصغيرة التي للتو خرجت من البيضة ستخسر ربها، وسيكون لزاماً على زوجتي الصغيرة قليلة الخبرة أن تدير شؤونها بنفسها.

في المدرسة سيشيرون إلى أطفالي قائلين: هؤلاء أبناء الإرهابي!

أعرف أنني مهموم بحقوق الإنسان منذ طفولتي، منذ تأتأي الأولى، منذ أول صفعة تلقيتها من يد الأستاذ مرسي الكبيرة، لكنني أعاقب اليوم وتُعاقب أمي وعائلتي الصغيرة على أمرٍ هامشي لا يستحق الفخر، ولا علاقة له من قريب أو بعيد بحقوق الإنسان!

لم أكن أنوي السجن من أجل قضية تافهة مثل هذه لا تشعرني ولا تشعر من سيعانون معي وبسببي بأنَّ الأمر يستحق، بل من أجل قضية «حقوقية» كبيرة أُقدِم عليها وأدفع ثمن هذا الإقدام الشجاع، ففي النهاية تتساوى عقوبة العمل الصغير أو الكبير في حق عوائلنا نحن المجرمين الإرهابيين، وسيء الحظ هو فقط من يُسجن في سبيل شيء صغير.

لو كنّا في مصر كانت أمي لتخرج لقضاء حوائجها شاخطة لاعنة، يحاول الجميع تجنب الاحتكاك بها أو إغضابها، فهي حسب البيئة المصرية أم قتَّال قتلى!

أما عندنا في بيئة النميمة فستقعد أمي في غرفتها على كرسيها الخشبي، وتمد ساقيها المنتفختين من جراء السوائل على الطاولة الصغيرة التي يضعها أمامها أحد أحفادها، وستنشد بصوتها البدوي طاروقاً حزيناً، وتهل الدمع على ابنها وعائلته الصغيرة التي تشظت باكراً.

أمي هي كل ما تبقى لي في هذا العالم، لا شيء آخر سواها يستحق الحياة.

أعلم أنها لن تلومني في وجهي، فليس ذاك من عادتها، لكنها ستقضم قلبها حسرة وكمداً حتى لا يبقى لها منه سوى البطارية التي وضعها الطبيب لتنظم دقات قلبها.

فكرت كثيراً في هذا الخوف الذي سقط عليَّ؛ هل هو خوفي على نفسي، أم هو خوفي على أمي، أم هو خوفي على عائلتي؟ ألا يمكن أنني أموِّهه زوراً بالخوف على أمي وعائلتي؟!

أعتقد أن خوفي على نفسي من الموت أو التعذيب غير موجود على الإطلاق، ليس لأنني شجاع بل لأنني جرَّبت الموت حين انتكست، وجرَّبت التعذيب حين تأتأت، ولم يعد العالم المادي الضارب بسوطه والهادر بصوته يخيفني.

في ظني أن خوفي على أمي وعائلتي هو نقطة ضعفي، ويبدو أنَّها نقطة ضعف لدى الكثيرين، ولهذا تستخدمها السلطات في كثير من البلدان كورقة ضغط.

ما الذي فعلته أو قلته يستحق هذا كله؟! هذا هو السؤال البدهي الذي يطرحه كل سيء حظ يقع في أيدي رجال المباحث. سيعمل رجال المباحث على التأكد من أنَّه لم يأتِ إلى دائرة التحقيق بالخطأ، حتماً لديه ما يستحق أن يقضي بسببه سنتين كاملتين في السجن، عفواً في زنازين التحقيق، كما حصل مع عيسى وصالح. صالح بالذات يستحق أن يسجن مدى الحياة لأنه ارتكب الخطأ نفسه مرتين، فهو عسكري يعمل في الجوازات وقد تم نقله قبل سنوات قليلة إلى منفذ حدودي لانكشاف أمر سفره من دون إجازة رسمية، لكنه لم يتعظ. صحيح أن الآلاف مثله من موظفي الجوازات يعملون الشيء نفسه وصحيح أن رجال المباحث يعلمون بذلك، لكن سوء الطالع - ولا شيء آخر - هو ما يصنع الفرق. يشتغل رجال المباحث في العادة على سوء الطالع كما لو أنَّه اكتشاف خطير جداً.

كانت غلطة مميتة، لم ولن تعود حياة عيسى وصالح كما كانت من قبل، والسبب هو هذه الغلطة المميتة، فحين قرر عيسى السفر إلى سوريا للزواج طلب من صديقه صالح وألح عليه بأن يرافقه. نصحتهما بعدم السفر لأن الوضع السياسي بين السعودية وسوريا كان مأزوماً جداً بسبب الوضع اللبناني ولا أحد يدري ماذا عساه يحدث!

احتاج صالح إلى مساعدة من زملائه على منفذ جسر البحرين لدخول البحرين ومن البحرين طارا إلى سوريا. وبعد أربعة أيام عادا بسلام، حتى حين.

بعد وصولهما بيوم قلت لهما: يبغالكم تبوسون أكفكم ظهر وبطن أن سفركم مرَّ بسلام. فالبحرين اكتشفت قبل يومين شبكة إرهابية تديرها سوريا، والعلاقات بين السعودية وسوريا في الأيام التي كنتم فيها في سوريا كانت في أسوأ أحوالها.

قال عيسى: الحمدلله عدت على خير. أضاف القدر: ليوم واحد فقط!

في اليوم التالي، وصلت قوَّة من المباحث المركزية اقتلعت عيسى وصالح من بيتيهما. لم يكن لأهليهما من أحد يلجآن إليه سواي. طمأنتهم بأنَّ الأمر قد لا يستغرق سوى يوم أو يومين. في قرارتي كنت أشك، فليس من العادة أن تصل قوَّة تأخذ أحداً من بيته ما لم يكن هناك شيء كبير!

صحيح أن أبو مبارك، وهو ممن يكتبون في منتدى الساحة العربية أُخِذ من بيته لستة أشهر لشيء صغير، فلقد شاءت مشيئة الله أن يفتح المسكين في ذلك اليوم على الإنترنت أكثر من صفحة، ويبقيها مفتوحة، وحين قرأ موضوع الفلوجة ومقاومتها للاحتلال الأمريكي، كتب رداً يقول فيه: اللهم انصر المجاهدين في كل مكان. لكن وبدلاً من أن يضعه في موضوع الفلوجة وضعه بالخطأ في موضوع بعنوان «زعيم القاعدة في السعودية يهدد باستهداف المنشآت النفطية» ذلك الموضوع الذي كان ينوي قراءته والرد على ناقله! غلطة مميتة.

لا يعقل أن يرتكب كل هؤلاء الناس هذا الكم الكبير من الغلطات. هذا مخالف للمنطق، لا بد أن وراءهم بلاء.

حلف لهم أبو مبارك عشرات الأيمان، وطالبهم بالعودة إلى قراءة مقالاته الكثيرة التي يدافع فيها عن الدولة بحرارة، وهو الأمر الذي جعل الكتَّاب الآخرين يصنفونه في خانة الجامية المحترقين. لم يسعفه شيء. بعد شهر كامل من وضعه في زنزانة انفرادية، بدأ التحقيق معه، وبعد انتهاء التحقيق زُجَّ به في زنزانة يسكنها معه مجموعة من المنتمين لتنظيم القاعدة. حين تعرف إليهم أبو مبارك أصابه الهلع. ليس منهم

ولكن من حقيقة أنَّه مسجون مع مجموعة من قيادات تنظيم القاعدة! أحد هذه القيادات هو من خطط للعملية الفاشلة بضرب المنشآت النفطية في مدينة أبقيق، وهو أيضاً أحد المشاركين في عمليات استهداف المجمعات السكنية للغربيين.

ستة أشهر كاملة قضاها أبو مبارك، السلفي الجامي المحترق. لم يخرج منها سوى بصك يثبت براءته يستطيع تقديمه إلى مقر عمله كي يتم إرجاعه. تم إرجاعه بعد أخذ وردٍ لحاجة العمل إليه، وليس لأي سبب آخر.

لم يستطع أن يتحصل على رواتبه التي أوقفت من حين القبض عليه. فشركته قالت إنّها غير ملزمة بدفع مرتباته للشهور التي تغيبها. وحتى يتحصل على ما يوازيها ينبغي عليه أن يتقدم بـ«معروض» لوزارة الداخلية كي تدفع له حقوقه. تقدَّم بالمعروض، ولكن من دون فائدة، على عكس كثيرين حصلوا على رواتبهم كاملة من وزارة الداخلية، من دون أن يعرف أحد بدقة ما هي المعايير المعمول بها. لم تعد لديه حماسة للحصول على مبلغ المئة وخمسون ألفاً رغم تقدَّم شخص إليه بعرض مغرٍ بأن يتحصل له على كامل المبلغ مقابل 30 ألف ريال فقط. رفض العرض، وقال: سأقتصها من عيونه أمام الله عز وجل!

غلطة صالح وعيسى كانت مختلفة بعض الشيء فلم يكن لهما يدٌ فيها! فموظف الجوازات الذي استقبلهما نسي أن يدخل المعلومات الخاصة بجواز السفر الخاص بعيسى في الحاسوب المعلوماتي، وفعل معه كما فعل مع جواز سفر صالح الذي جرت العادة بحكم كون إجازته غير رسمية على عدم إدخال بياناته في الحاسوب المعلوماتي! وهو الأمر الذي أثار ريبة المباحث التي كانت أعينها الكثيرة تتابع ما يجري بدقة شديدة.

أجريتُ اتصالات هنا وهناك، تبين لي منها أن الأمر سيستغرق شهوراً طويلة.

علمت أن أقدام أهليهم ستحفى جيئة وذهاباً من دون فائدة سوى إثبات أن لهذا المتهم عائلة لن تنساه، وأنَّ هذا المتهم غير مرشح لأن يكون رقماً آخر سقط سهواً.

كلما تذكرت ما جرى لأبي مبارك وما يجري لعيسى وصالح والآلاف غيرهم أتساءل: كيف يغفل رجال المباحث عن أنَّ هذا المتهم الذي عومل بصفته مجرماً منذ يومه الأول سيجد أن الأسوأ قد مرَّ، وأنه قد تجاوز للتو أكبر مخاوفه، وسيجد أنَّهم صنعوا من جلده الناعم إهاباً مدبوغاً أصلياً قادراً على تحمل الكثير من الصدمات والضربات...

سيخرج عيسى بعد سنتين، وقد حلق لحيته، وسيخرج صالح بعد ثلاث سنوات، وقد تدين أكثر، وقد بات شجاعاً بدرجة مضاعفة!

إنَّها نظرية «ذهاب الأسوأ»...

الساحة العربية

لم أحلم بأن أكون كاتباً، فالكتابة المقالية حديثة على العقل المتدين. لم يُنظر إليها كوسيلة توعوية أو بَوحية منفصلة عن الغاية الدينية.

بالنسبة إلي، لم أرَ أول الأمر أن الكتابة تختلف عن الخطبة أو المحاضرة أو الكتابة الفقهية العلمية.

كانت علاقتي الأولى مع الكتابة هي علاقة قراءة خاصة. كان سيد قطب المؤثر الأول في ذوقي الكتابي، حين قرأت ما كتبه في معالم على الطريق وفي غيره من كتاباته. لكن تأثيره وسحره الأكبر كان في تفسيره **في ظلال القرآن**. لم أقرأ تفسيره كاملاً، لكنني أذكر الآن تأثير ما قرأت من تفسيره لسورة الغاشية وخصوصاً للآيات «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت. وإلى السماء كيف رفعت. وإلى الجبال كيف نصبت. وإلى الأرض كيف سطحت».

كان تفسيره ساحراً، أعاد لي الثقة بالقرآن. لطالما شعرت بأنَّ هذا القرآن الذي بين أيدينا لم يقرأ كما يجب، وبالتالي لم يستفد منه كما يجب، ولم يكن له من تأثير حقيقي في حيواتنا وتأسيسها وسيرها كما يجب.

من عادتنا أن لا نأخذ الأشياء على محمل الجد التام ما لم تكن

موجهة إلينا بشكل شخصي. أعتقد أن سيد قطب كان يقرأ القرآن وكأنَّه أُنزِل عليه.

الكتابة لم تكن في يوم هدفاً لي. الانخراط الكتابي جاء صدفة. كان الإنترنت في بداية حبوه. وكان الناس جميعاً يتحدثون عن هذا الشر الخطير الذي بات يغزو العقول والدور، هذا الشر المؤذن بانهيار الأخلاق والقيم والدين والحكومات!

لم أكن أفهم الفرق بوضوح - على الرغم من دراستي الجامعية - بين الكومبيوتر والويندوز! كيف وقد دخل على الخط مصطلح جديد وحديث - الإنترنت - لا يتعامل معه حتى تلك اللحظة سوى الأمريكان واليابانيون! وكنت أعتقد أنَّ كل ما يحدث هناك يحتاج إلى سنوات طويلة حتى يصل إلينا.

خطوتي الأولى كانت شراء كومبيوتر. ذهبت مع صديقي عيسى - الذي دخل السجن مع صالح - والذي كان يتباهى أمامنا بأنه يستطيع العمل على الوورد والإكسيل! بالنسبة إلى من لا يفهم الفرق بين الكومبيوتر والويندوز، كانت تلك عبقرية كاملة!

صالح من موظفي أرامكو، ولم يكمل تعليمه المتوسط. كنت أدرك أنَّني أتفوق عليه بمراحل. كان هذا دافعٌ مؤثر لتعلم العزف على هذا الجهاز.

اشتريت جهازي الأول، وتعلَّمت. أجبرتني الوظيفة على أن أتعلم بطريقة جيدة. أوصلنا الإنترنت إلى البيت فدبت الحرارة في أوصاله.

كنَّا نتسابق على الجلوس إلى هذا الجهاز العجيب والإبحار في ذلك العالم المليء بالغرائب. ما يجري كان شيئاً شبيهاً بمدينة الأعاجيب التي حكى عنها الروائي إدواردو ميندوسا!

دخل «الشات (المحادثة)» على الخط. كنتُ بين كماشتي شقيقيَّ الأكبر والأصغر. انتصر الأصغر علينا بالضربة القاضية من حين استطاع توصيل اشتراك مجاني بواسطة «الدايل أب» من شركة أرامكو التي يعمل بها.

بعد فترة وجيزة، خفَّت حمى الكلَب الكومبيوتري الإنترنتي. وخلا لي الجو. خصوصاً وأنا أعمل بنظام الورديات، فكنت أجد المكان شاغراً حين أعود من مناوبة المساء. كنتُ أجلس لساعات أتقلب في هذا الفضاء العجيب.

في أحد الأيام وبينما نحن في مجلس بيتنا، ذكر أحد أصدقاء شقيقي الأكبر بأن هناك منتدىً يسمى «الساحة العربية» هو بمثابة «هايدبارك» عربي، تقول فيه كل ما تريده.

أخذت منه الاسم، وكتبته، فخرجت لي الساحة العربية كما المارد من الفانوس. ساحر جداً هو الشعور باختفاء الرقيب السياسي. تستطيع أن تشتم. هذا هو أول ما يخطر على بالنا إذا شعرنا أن بإمكاننا الإفلات.

صرت أدخل إلى المنتدى يومياً.

كانت هناك حوارات كثيرة مثيرة. كان هناك بازار حقيقي للأفكار. إلحاد، ما زلت أذكر ذلك الموضوع الذي كتبه أحد الملاحدة «لا غالب إلا العقل». زندقة وسخرية بالدين والنبي صلى الله عليه وسلم. كان هناك أيضاً وجود للأفكار العلمانية التي تحوِّم حول المرأة والحدود الشرعية. كان وجود المتدينين لافتاً. شعرت بفرح غامر لكثرتهم.

متنفس المتدينين المفضل هو الإنترنت.

كنت ما أزال متديناً. بعد سنين قليلة ستتداعى وقايتي الدينية.

بعد شهور طويلة من دخولي المنتدى والاكتفاء بالقراءة، قررت الاشتراك. كان باب الاشتراك مغلقاً، لكنه فُتِح لفترة وجيزة استطعت التسجيل خلالها.

كانت مقالتي الأولى في الساحة المسماة بـ «المفتوحة» بعنوان «هل لنا ببوب فيندلي آخر»، وكانت عن السياسي الأمريكي الشجاع بول فيندلي الذي فضح تغلغل اللوبي الصهيوني وسيطرته على القرار السياسي الأمريكي، لكنني أخطأت في كتابة اسمه، فكتبته بوب.

لقيت المقالة الأولى صدى طيباً.

كرَّت سبحة المقالات. وبدأت أثبت أقدامي. لم أدلف إلى مجال القصة، لكنني كنتُ أكتبُ ما يشبهها. كنت أكتبُ مجموعة سميتها «مجموعة إنسان»، كتبتُ منها سبعة أجزاء، وهي عبارة عن أقصوصات صغيرة جداً.

كتبتُ قصصاً سخيفة وساذجة، لكنني أعي تماماً قيمتها والدافع من ورائها في ذلك الوقت.

ما يربط بين أكثر قصصي هو نهاياتها الدراماتيكية الحزينة. كانت هذه النهايات تلقى شعبية كبيرة. يريد الناس أن يموتوا على طريقة الشهداء. سألني كثيرٌ ممن راسلوني في تلك الفترة: هل حياتك مأساوية إلى هذا الحد؟!

كان ما أكتبه يلقى قبولاً كبيراً. فعدد القراء يبلغ الآلاف في العادة، في الوقت الذي لا تجد فيه مقالات الكتَّاب الآخرين ممن سبقوني سوى العشرات!

لم أكن لأحفل بالمنتدى السياسي وما يجري فيه على الرغم من

الإثارة الكبيرة التي اكتسبها المنتدى السياسي بعد ورود أخبار عن مشاركة القنصل الأمريكي بجدة في حواراته. كنتُ في تلك الفترة أكره الخلاف والجدال والعصبية. كنت قد انصرفت للتو عن الجامية، ومللت الحوارات والعراكات الفكرية. بعد دخولي إلى الساحة المفتوحة ولشهور طويلة لم أتصفح المنتدى السياسي إلا مرة أو مرتين فلم أكن أرغب في قراءة تلك المقالات التي يكتبها الملحدون والعلمانيون والتي تتواقح على المقدسات الدينية. كان هناك من يسد هذا الثغر من الكتّاب الإسلاميين الأقوياء كالمدهشين أبي سارة وخالد. كانا كاتبين على دراية جيدة ووافية بالفكر العلماني، إضافة إلى علمهما الشرعي الرصين.

من خلال متابعتي لما كان يكتبه هذا الثنائي، ظهر لي أن الإسلامي على عكس خصومه يستطيع اللعب على أرض الخصم ومرجعيته لأن للإسلامي جلد كبير على القراءة والاطلاع على فكر «الآخر» على العكس من العلماني أو الملحد الذي ينفر من فضاءات العلم الشرعي المليء بالمتون الشرعية الجافة والقواعد المنهجية الصارمة، والذي يحتاج إلى تفرغ كامل من أجل قراءة مكثفة ورصينة.

سار كل شيء كما أمّلت ولم أضطر للدخول في العراكات والمماحكات والجدالات، حتى كتب حسام - أحد الكتاب الملحدين القادمين من الساحة السياسية - مقالاً في الساحة المفتوحة بعنوان «المرأة الكمثرى» يسخر فيها من المرأة العربية المسلمة ومن حجابها ومن ثوابت الدين ذات العلاقة بها، ويتذرع بأن قعودها في بيتها جعلها تبدو كالكمثرى!

لم نعتد في الساحة المفتوحة على هذا النوع من الخطاب العلماني الحاد، فثارت ثائرة الأعضاء المتدينين وطالبوا بطرد الكاتب.

ولأيام طويلة لم يحصل هذا، وظل المقال مُعلَّقاً في أعلى الصفحة بسبب الردود الكثيرة التي تلقاها، طريقة الناس المعتادة في إشهار ما لا يريدون إشهاره! كان الكاتب يتلقى السباب والشتائم والسخرية بذكاء شديد، وبهدوء. الهدوء يدفع الحجة إلى الأمام غالباً، ويدفعها أكثر الأسلوب الكتابي الجميل. لم يكن أسلوبه جميلاً، كان ساحراً.

لأيام ظللت أعمل على كتابة مقالة للرد عليه. لعل ما دفعني لذلك هو خشية أن يتأثر برأيه أحدٌ حين لا يجد رداً مقنعاً عليه، حجة الإشهار المعتادة. تلك المقالة كانت بداية دخولي للأتون الفكري، وتلبس هاجس الضبط الأخلاقي على مشاعري ومعارفي وحركتي.

حين كنت أكتب في السابق كنت أبيِّن الحق الذي أعتقد، وأدع للقارئ خيار قبوله أو رفضه. هذا لا يعني أنني لم أكن أنزعج من رفضه، لكنني لم أكن حاداً ابتداءً.

كتبتُ مقالة الرد وكانت بعنوان «الكاتب الباذنجاني، والمرأة الكمثرية»، فطار به المحبون فشرَّقوا وغرَّبوا، أثارت تلك المقالة حفيظة خصمي حين وضع أحد الأخوة مقالتي كرد في معرض الردود على مقالته، فشتمه وشتمني وكانت المرة الأولى التي يفقد فيها أعصابه!

لقد فقد السيطرة على أعصابه، رغم أن لا مجال للمقارنة بين أسلوبه وأسلوبي، فالكفَّة راجحة لصالحه! ما قضيت أيام لأكتبه، لم يكن هو ليقض ساعات قليلة في كتابته في ما أظن. كان كاتباً محترفاً ذو حرف أنيق وأسلوب ساحر.

طُرِد هذا الكاتب، بعد أن قذف إحدى الكاتبات ووصفها بأنها زانية وفاجرة.

لا أدري لـمَ أشعر بالارتباك حين يطرد كاتبٌ ما سواءً أكان علمانياً أم إسلامياً. لا أقصد الطرد الذي طال هذا الكاتب، بل الطرد عموماً ضد من يختلفون معنا سواءً في الرأي أو في الدين؟

قال لي أحد الإخوة ذات مرة: هذا ليس اختلافاً في الرأي؟ هذا كفر!

قلت: إذاً هو اختلافٌ في الدين! فما الضير في مناقشة الكافر والرد عليه؟!...

إنَّ الطرد والإقصاء ممارستان تتناقضان بالكلية مع الحرية التي ننادي بها جميعاً.

مسألة «حرية الرأي» وتعقيداتها، تربكني.

هل المنع هو الطريق الصحيح والصحي لتطهير الأفكار أم نشرها والحديث بشأنها؟

كيف تُعرف الشُّبُهات إن لم تُطرح؟

لسنوات ظللت أعتقد، عكس الكثير من مجايليني، أن علماء الإسلام من أهل السنة والجماعة مخطئون في عدم مناظرة المبتدعة والخرافيين بزعم أن في مناظرتهم ترويج لبدعتهم، وأن تجاهلهم يكفي لحصرهم وحصر تأثيرهم. كنت أقول إن رأي العلماء هذا وإن كان يستند إلى أقوال وآثار ماضية فهو رأي باطل وساذج، فلا توجد بدعة اليوم ليس لها دولة تؤيدها أو على الأقل جماعات كبيرة ومؤثرة.

لم أستطع استيعاب أنني غير معني بردة من يرتد أو كفر من يكفر أو علمنة من يتعلمن. صحيح أنني ربما كنتُ معنياً، من جهة أخلاقية خاصة، بفضح ما تحت مقولات العلمانية والإلحاد من خواء وتفاهة وضعف، حتى لا يغتر بها الضعفاء ومحدودي الإدراك من عوام

الناس، لكن هذا لم يكن يكفي لزوال شعوري بالتقصير نحو حقهم في خياراتهم «الشخصية» جداً.

الكتابة من هذا النوع هي شيء يشبه الحرب. حربٌ غير «شريفة»، وربما استبطنت أهدافاً ونوايا غير معلنة أو غير واعية.

حتى اليوم أجد الأمر معقداً جداً. أعني الكتابة المضادة بهدف فضح كتابات الفاسدين والمفسدين من وجهة نظري.

ومما يزيد الأمر صعوبةً وتعقيداً، أن الخيارات محدودة جداً: أن تتجاهل كتابة هذا الفاسد المفسد، أو أن تُحرِّض على إيقافه. هل هناك خيار آخر؟

لا تستطيع أن تختار الأول، لأنك ستُعتبر عاصياً يرى المنكر فلا يُغيِّرهُ. التحريض لا يحل الإشكال لأنه يشخصن الموضوع، ويُثبت عدم قدرتك على الرد، فضلاً عن أنَّ المنع والإيقاف ليستا حجتين مقبولتين في عالم الأفكار!

ليس أمامك، إذن، سوى الرد إن كنت من القلَّة الذين يهمهم «الضبط».

أمضيتُ في الساحة المفتوحة ثلاث سنوات، كنتُ أحد أعلامها البارزين، أحد ضبَّاط الأخلاق فيها. صحيح أنني لم أكن ممن يسيئون الظن أو يُعنِّفون الآخرين أو يُغلظون في الرد، لكنني في داخلي كنتُ أعتبر نفسي واحداً من أفراد الشرطة الدينية في المنتدى!

كنت أقضي جل وقتي في القراءة والكتابة لهذا المنتدى. ولم أكن أملك فسحة للمحادثة وبرامجها. عوضاً عن أني لا أرى أن المحادثة تليق بالرجل الرشيد. في اللاوعي، كنت أرفض المحادثة لخشيتي من رؤية ما قد يدمي قلبي من مظاهر العلاقات المحرمة!

لا أدري، لكنني الآن أعجب من أن رؤيتي وقراءتي لمظاهر هذه العلاقات المحرمة كانتا تؤذيانني أكثر بمراحل من رؤية وقراءة الإلحاد والكفر. قد يكون السبب هو أن الإلحاد والكفر مستهجنين ومنكرين ومبغضين من لدن المجتمع بكافة أطيافه، بما فيه أصحاب العلاقات المحرمة، مما يجعل المجتمع محصناً ضدهما، بينما العلاقات المحرمة تمثل اختراقاً حقيقياً لمحافظة هذا المجتمع غير المحصن ضد أدوات الاختراق التقنية الجديدة الآتية من داخله.

في الساحة المفتوحة تعرفت إلى أناس كُثُر لا تستند كتاباتهم إلى أناقة أو بلاغة، بقدر ما تستند إلى صدق وبساطة شديدين.

لطالما سحرني الصادقون.

ولطالما سحرتني البساطة. أنا المعقد جداً، المركب جداً، الشكاك جداً.

ارتباك متبادل

كانت المرة الأولى التي أقابله هنا لا في البحرين. لستُ من روَّاد المقاهي الشعبية، لكنني سمعتُ أنه يقضي مساءاته في ذلك المقهى على الكورنيش.

لم يفاجئه دخولي عليه وهو يضع أنبوب الشيشة في فمه. قام واحتضنني. منذ زمن لم يفعلها. قال:

- هلا وغلا. ومرحباً ألف على طريقة بني قحطان

- هلا بك. كيف حالك؟

- الحمدلله. بخير وعافية إن لم تقتلني هذه الشيشة.

- دعها تفعل. ماذا عسانا أن نخسر إذا مات سيرلانكي الشاشة أو الشيشة العربية؟

ضحك ثم قال: يا أخي أحب طلعاتك، حواراتك. منذ اليوم الأول الذي عرفتك فيه، عرفت أنَّه سيكون لك شأنٌ. أنت ديناميكي ذكي ولمَّاح، أنت غيييير، غيييير.

- «غير» لا تعني بالضرورة شيئاً جيداً. و«غير» بالنسبة إليك، في هذا الوقت وهذا المكان بالذات تكتسب معنى آخر لا علاقة له من قريب أو من بعيد بالديناميكية والذكاء والألمعية وسرعة البديهة.

- ماذا تعني إذاً؟

- تعدني أن لا تغضب؟

- أعدك.

- إنها تعني محاولة مكشوفة ورخيصة منك لتحييدي وضمان سكوتي أو قبولي لمبرراتك التي تخاتل فيها وعيك، والتي تعتقد أن سكوت شخص مثلي ذكي ولمَّاح كما تدَّعي عن ردها يعني أنها حقيقية وموضوعية ومنطقية، وهذا ليس بصحيح، فأنت تعرفني جيداً يا بخيت، وتعرف أن سكوتي ليس في الغالب علامة رضا أو قبول.

لم يقل بخيت كلمة واحدة، بل اكتفى بنفث الدخان إلى الأعلى، ثم قال: شكلك جاي وانت حامي. لن أعلِّق على ما قلت. لا تعتبر سكوتي في هذه اللحظة علامة رضا أو قبول. وابتسم.

- أدري أنها ليست كذلك. أدري قبل اليوم بمدة طويلة، بل لعلي لا أخطئ إن قلت أنني أدري بهذا منذ فترة التدين. وزاد يقيني بأن هناك شيء ما خلف صمتك الجامد منذ أن حلقت لحيتك في المرة الأولى. كنت قد صدَّقت حجة الغُدَّة، لكن كان هناك هذا الشيء المزعج يُلِّح علي بأن هناك أمراً ما غير مريح.

- إيه على فكرة: غالب الذين يتركون التدين يبدأون بقصقصة لحاهم شيئاً فشيئاً، فلِمَ حلقتها أنت مباشرة؟

- أنا لم أحلقها مباشرة يا بخيت.

- بلى فعلت. لا أعني أنك حلقتها بالكامل، فأنا أعلم أنك جعلتها عارضين مشذبين وخفيفين، لكن ذلك لم يمنع وصفك بالمنتكس.

- أنا كنتُ فعلاً منتكساً.

- أما زلت منتكساً؟

- لا أدري. أحتاج لفهم معنى منتكس أولاً.

- ما أقصده هو أنك أعلنت عنه بوضوح.

- ما هو مريح في المرض هو أنه رسالة إلى الآخرين بأنهم ليسوا في حاجة للاستنتاج حول مشاعرنا ومواقفنا الغريبة في الآونة الأخيرة. المرض أو الانتكاس رسالة واضحة البيان بأننا لم نعد كما كُنَّا في السابق. حين حلقتها، كان أول من رآني هو ابن صديقي عيسى الذي كنتُ قادماً لزيارة والده، فقط لقراءة ردة الفعل الأولية. نظر الصبي الصغير إليَّ. كان يعلم أن هناك شيئاً ما مختلفاً. ذهب يجري إلى أبيه. سمعته يهمس في أذن أبيه: لقد حلق لحيته يا أبي. نزل الخبر على صديقي كالصاعقة. ارتبك بشدة. الارتباك ذاته الذي يصيب أهل المريض حين يعلمون بإصابة قريبهم بمرض خبيث. وصلت رسالتي، أنا مريض ومنتكس، أنا أمر بحالة انعدام للوزن، أنا تعبان. تجاهلوني كما لو أنني هندوسي حلق لحيته. دعوني في حالي. لا أريد أن أسمع شيئاً. يكفيني مرضي. الجدري الخاص بي الذي أسقط شعر لحيتي.

نظر بخيت إليَّ، ثم قال ضاحكاً: لحية وشعر وعوارض. يا أخي كأني جالس مع حلاَّق.

نظرت إليه، ولم أستطع منع نفسي من الضحك، فضحكت. قال بخيت: إيه يا خوي فكها شوي. يخرب بيت عدوينك جاي طالب شر. شرشحتني لين قلت بس. بس على فكرة سأفكر كثيراً في ما قلته. يبدو لي متماسكٌ جداً.

قلت: أيمن النقي يا بخيت، ذلك السلفي الجامي الصلب لم يشعر في لحظة من اللحظات أنه سيغدو ساحراً أو مشعوذاً.

- ماذا تقصد؟ والله بيني وبينك أنا شكلي مشعوذ. مشعوذ سيرلانكي. وضحك.

- ما أقصده هو أن أيمن النقي لم يتحول بين يوم وليلة. إننا نتحول شيئاً فشيئاً. الأخطر أننا لا نشعر بهذا التحول.

- يا أخي لا تخوفني. أنت صاير لي اليوم مثل فيلم الرعب.

- أقول لك ما قاله أحد السلف: أخوفك حتى تدخل الجنة فتأمن، خير من أن أؤمنك حتى تدخل النار فتخاف.

- أشوف صاير لي اللحيدان على غفلة. وضحك مرة أخرى. ثم قال: شوف يا حبيبي: وش أطلب لك أول قبل ما ندخل في العميق.

- شاي مغربي.

نظر إليَّ باسماً ثم قال: يا خطير. ولا يهمك شاي مغربي شاي مغربي. بس ترى ما يمدحونه.

- ليش؟

- مضروب.

- stock يعني؟

- ههههه. ستووووك. عليك نوووور.

لم ينتهِ جدالنا ذلك اليوم عند هذه النقطة بل تمدد واتسع وتشعب واشتد، كان ما دار بيننا بعد هذه الديباجة السريعة محض اعترافات متبادلة ومرافعات قانونية ساخنة...

أدركتُ في طريق عودتي من ذلك المقهى، أنني تهورت كثيراً، وأنني بدوت كشاب ثائر طائش ووقح، استعراضي في الوقت الخطأ والمكان الخطأ. لم أفهم لمَ فعلت كل ذلك بتلك الطريقة. هل نجح بخيت بإيهامه لي بأنني مختلف في دفعي إلى الجهة المقابلة النقيض

تماماً؟! بدوتُ كمن لعب بكل أوراقه، بكل بلاغته، بكل طاقته الذهنية.

كنت مثيراً للشفقة والرثاء، شعوري الدائم كلما تهورت. ولا أدري متى سيمكنني السيطرة على هذا النوع من الانفعالات. ما يتعبني أكثر هو أن هذه الانفعالات تظل خفية علي حتى يأتي من يكشفها لي.

بخيت كشفني أمام نفسي...

كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

أم لتسعة أطفال تقف عارية أمام المرآة. تنظر إلى بطنها المتهدل ذي الخطوط الجلدية الغامقة بأسى. لا تستطيع أن تتوقف عن الحمل، لأنها لا تملك ما يكفي لشراء موانع الحمل! لذا هي تستمر في دورة الحمل والوضع حتى سن اليأس!

هكذا كانت الصحوة.

الكأس الفارغة امتلأت، وبدأ العصير يخرج عن فوهة الكأس. لم تستطع قيادات الصحوة أن تستوعب تلك الأعداد الهائلة...

فنانون، يأتي على رأسهم، فنان العرب النجم الغنائي محمد عبده، رجع عن التدين في فترة لاحقة، المطربون الشعبيون الأشهر، فهد بن سعيد وعبدالله الصريخ وغيرهم، مصمم الأزياء الشهير عدنان أكبر، شعراء وأدباء ومفكرون...

لقد اكتسحت الصحوة كل شيء، ومن يقول عكس ذلك، لا يقول الحقيقة...

لكنه الاكتساح الذي لخبط أوراقها، فلم تكن هناك كوادر مدربة لاستيعاب هذه الأعداد الهائلة.

كانت الطريقة الوحيدة، الأسرع والأقل كلفة، في الاحتفاظ

بالقواعد الشبابية، هي المحاضرات الدينية، حيث يتم من خلالها مخاطبة أكبر قدر ممكن من الشباب إما مباشرة وإما من خلال الأشرطة التسجيلية التي كانت توزع بأسعار زهيدة جداً.

كان هناك ولع كبير بالتجمّع، وسماع الخطب مباشرة...

ألوف من الشباب يملأون المسجد، وباحاته، والشوارع المحيطة، قبل أكثر من ساعتين من بدء المحاضرة!

أكثرهم كانوا شباباً في العشرينات من أعمارهم، لحاهم للتو تبرز، يتسوكون، ثيابهم قصار، وجوههم كالقمر، أنيقون، يذكرون الله ويقرأون القرآن في انتظار حضور الشيخ. أبناء الطبقة المخملية من بينهم، دليلٌ فاقعٌ على كذب مقولة أن التدين يسري فقط في صفوف الفقراء!

ما أكثر كذبات المحللين!

الأعداد الصحوية الكبيرة هذه أعطت الصحوة أظفاراً طويلة ولساناً حاداً. ولذا تفرغت الصحوة للواقع من نافذة الفضح والنقد، ولم تتفرغ لتغييره من خلال آليات السنن الكونية التي تأخذ زمناً طويلاً، لأنَّها لم تكن تملك لا الأدوات ولا الوقت الكافي للتغيير. كانت الصحوة على عجلة من أمرها.

كانت الحكومات هي التي تُمسك بوسائل التغيير الحقيقية. كل تغيير طالبت به الصحوة في تلك الفترة وحصل إنما حصل بسبب أن الحكومة أرادته أن يحصل، إمَّا للتأثير في الجماهير غير المتدينة وإثبات تدين الحكومة وغيرتها التي لا يستطيع أي أحد، الصحوة مثلاً، المزايدة عليها، وإمَّا حصل لاسترضاء التيار الصحوي الديني وخشية الاشتباك مع مشايخ الصحوة والذي لو حصل لكان في غير

صالح الحكومة، فتلك الجموع الشبابية الهائلة لم تكن تحتاج سوى لشرارة واحدة فقط . . .

ستأتي لاحقاً، لكنها لن تكون شرارة، بل حريقاً، اسمه أزمة الخليج.

بدأت الأشياء تتسارع بوتيرة غريبة. خطاب عُنفي شديد اللهجة يتنامى يوماً وراء آخر، أشرطة ساخنة جداً، تهديدات مُبطنة. بدا أن هناك تحرراً من الخوف من السلطة، غذّاه أكثر حقيقة أنَّ الصحوة كانت تنتشر في الكثير من البلاد. إنَّها الثورة. أعطى هذا الصحوة شعوراً بالقوة والسيطرة والغرور والقدرة على فعل ما يحلو لها، الأمر الذي دفعها على المستوى الاجتماعي الصرف لمحاصرة الكثير من مظاهر المباح سداً للذريعة وعملاً بالقاعدة الفقهية الأشهر «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح». لقد كانت كمن يقتطع جزءاً كبيراً من اللحم الحي مع الجلد المسلوخ!

أخطر من كل ذلك كان الشعور بأن زمن المخاض العسير الذي لا أحد يدري متى بدأ قد أوشك على النهاية، من دون أن يلحظ أحدٌ أنَّه المخاض الأقصر في التاريخ!

لم تكن الصحوة مرنة. لقد سيطرت عليها ثنائية الحق والباطل سيطرة كاملة. ما كان «حقاً» كان يجب أن يُسمح به، وما كان «باطلاً» كان يجب أن يُزال على الفور!

اختفى وسط هذا الزحام المادي والمعنوي صوت العقل المرن، صوت الأولويات، صوت الرِّفق، صوت البِشر، وارتفع صوت الرفض، صوت الغرور، صوت القوة.

لم تقف الحكومة مكتوفة الأيدي، بل بدأت باستخدام ماكينتها الإعلامية، من خلال الجرائد المحسوبة عليها، وعلى رأسها **جريدة**

الشرق الأوسط التي أطلق عليها أحد قيادات الصحوة اسم «خضراء الدمن»، وهو تعبير تراثي يُقصد به المرأة الجميلة في المنبت الفاسد!

كانت جريدة **الشرق الأوسط** رأس الحربة في الحرب على الصحوة، من خلال السماح بمقالات تصب جام غضبها على الصحوة وقياداتها وتشكك في وطنيتهم وتدينهم ومآربهم.

لم تقف الصحوة مكتوفة الأيدي أمام هذا الهجمة، بل حصلت على فتوى شرعية من أحد كبار العلماء بتحريم بيع هذه الجريدة والاشتراك فيها بزعم أنَّ ما يُطرح فيها من مقالات تُنافي الدين وتُشكك المسلم في ثوابته. هذه الفتوى أصابت الجريدة في مقتل، ودفعتها لمنطقة وسط تُلبي فيها رغبة الحكومة، وتهدئ فيها من خطابها!

أجزتُ لنفسي أنا المتدين الملتزم شراء هذه الجريدة، على الرغم من الفتوى المُحرِّمة، حتى أنني أذكر الآن أنني أرسلتُ مقالةً لها رداً على مقالة كتبها أحد كُتَّابها، وقد نشروها بأمانة شديدة.

كنتُ أنطلق من احترامي للفتوى الشرعية من منصة «منطقيتها وعقلانيتها»، هكذا كنت منذ يومي الأول. حين أشعر أن الفتوى عبثية إضافة إلى أنَّها تطال موضوعاً سخيفاً، أجد نفسي غير مُلزمٍ باتباعها. زد على ذلك أن ماكينتي التبريرية «الخاصة» تستطيع تزويدي بحجج كثيرة، مِن مثل جواز أن أقرأ هذه الجريدة للرد على الفساد والشُّبُهات الموجودة فيها. إنَّه فرض كفائيٌّ، إذا قام به بعض الناس (بعض الناس هنا هو أنا) سقط عن الباقين.

هذا، بطبيعة الحال، لا يعني أني أقفز على الواجبات وألِغ في المحرمات طبقاً لهواي، أو أن تبريراتي الخاصة هي تبريرات سيئة النية، رغم صعوبة التأكد من ذلك. ليس الأمر كذلك، فأنا أدور مع الشريعة حيث دارت، لكنني أتوقف حين أجد فتوى عبثية ولا أدور

كما يدور الرحى، هذا هو كل شيء. كنتُ مؤمناً صالحاً، مُحباً للدين وأهله، مُدافعاً عنهم، أقتدي بعلماء الدين في سمتي وهيئتي وأخلاقي.

منذ تلك المقالة الخاصة ببول فندلي بدأت مسيرتي مع النشر.

كان ذلك في الجامعة، سنة أولى تدين.

تدينت بعد أن كان كل شيء قد قام على سوقه، أو هكذا بدا في عيني أنا الشاب الوالج هذا العالم الملتحي!

لا أدري هل هو من سوء حظي أو حسنه، أني دلفت إلى التدين الصحوي قبل المواجهة بخطوة.

تدينت بعد مضي أزمة الخليج بسنتين تقريباً، بعد أن حصل الشرخ الوطني الكبير. المواجهة الكلامية الأشد في تاريخ المملكة بين رموز الصحوة والدكتور غازي القصيبي رحمه الله الذي استغل فرصة الغزو العراقي وما دار في فضائه من أجل توظيفه بطريقة بدت غير أمينة ضد الصحوة ومشايخها.

جئتُ إلى الجامعة من الطبقة المتوسطة. شاباً صغيراً غضاً وطرياً، همَّه الأول والأخير كرة القدم، ثم تأتي الهموم الأخرى في الوسط: الشهرة، المكانة، الفتيات، التلفاز... إلخ.

تفتح وعيي على السياسة أول مرة حين قابلت «بيكردايك» مدرس اللغة الإنجليزية الإنجليزي الأشقر في السنة التحضيرية، وهي السنة التي تسبق الدراسة الجامعية الرسمية، حيث ندرس مادتي الرياضيات والإنجليزي فقط.

قابلته في السوبرماركت القريب من محطة الوقود خارج أسوار الجامعة. تكلمنا على الحياة الجامعية، ثم لا أدري كيف تحول حديثنا

إلى الشأن السياسي! أوغلنا حتى وصلنا إلى الحديث عن أحداث 1979م حين قام بعض الشيعة في المنطقة الشرقية، وفي منطقة القطيف تحديداً، بمظاهرات مؤيدة للثورة الخمينية وتخريب كبير ومحاولات تفجير في بعض المنشآت الصناعية الأمر الذي انتهى بتدخل قوات الحرس الوطني وقمع التظاهرات بالعنف وبالرصاص الحي.

أذكر الآن أن الذي دفعنا للحوار في هذا الاتجاه هو أنَّه تطرق للمسيحية وأخلاقها الفاضلة النبيلة، فاستنكرتُ عليه أن يحمد مقولة المسيح المزعومة: «إذا ضربك أحدٌ على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر». قلتُ له: «عندنا في الإسلام، شيء مغاير. إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك. إن هذا النوع من إدارة الخد يعلِّم الطغيان ولا يحل مشكلته». فردَّ عليَّ: «وهل كان الحل الذي استخدمته حكومتكم في التعامل مع المظاهرات الشيعية حلاً جيداً أم طغياناً، لماذا لم تتذكر حكومتكم قدرة الله عليها؟».

لم أكن أملكُ ثروة لغوية إنجليزية تسمح لي بنقل وجهة نظري والرد عليه، والحديث حول الثورة الخمينية وتصديرها، وتصدير العمليات المسلحة، والتفجير، والإرهاب، والانفلات الأمني.

كان ذلك السؤال الذي وجهه لي بيكردايك الإنذار الأول بأنَّ زمن القبول السهل الذي لا يطرح أسئلةً صعبة قد ولَّى، وأن الصعوبة كما توجد في المسائل الحسابية والفيزيائية التي نواجهها في اختبارات الجامعة دائماً توجد أيضاً في أفكارنا وقناعاتنا.

لم أنخرط رغم الربكة التي تسبب بها سؤاله إلى القراءة الفلسفية، فلم أكن على وعي كامل بما يجري من حولي.

كان اهتمامي منصباً على استكمال فضائلي الخاصة.

سأدلف بعد سنوات قليلة إلى الصراع الفكري، وسيجذبني حراكه السعاري، وسيبدأ وعيي بالتشكل.

في بدايات التدين انكببت على قراءة كتب مفكرين ودعاة كان بعضهم من تيار الإخوان المسلمين المصري أو الكويتي، وآخرين كان بعضهم يصنفهم بصفتهم «إخواناً» على الرغم من رفضهم القاطع لهذه التصنيفات. أتذكر تأثري الشديد بما كنت أقرأه للكاتب الكويتي عبدالحميد البلالي من إيمانيات وكتابات وخواطر دعوية قمة في الجمال والسهولة والبساطة. وكذلك تأثري بما كنت أقرأه لسيد قطب وبالتحديد رسالته من السجن لأخته، وكتابه الصغير **معالم في الطريق**، وقبلهما بطبيعة الحال تفسيره **في ظلال القرآن** الذي يخرج بك إلى بيئة الواقع الحركية الفاعلة.

تأثرت بكاريزما سيد قطب وسحره، وروعة بيانه وبلاغته.

إنَّه يستدعي لنا شخصيات التاريخ النضالية، الإمام أحمد بن حنبل، والعز بن عبدالسلام، وابن تيمية، وابن عبدالوهاب رحمهم الله.

من يستطيع أن يتجنب سحر كاتب ومفكر ألمعي كسيِّد؟

لم يكن متديناً، ثم تدين، ثم جاهد بقلمه، فرد على الشيوعيين، وعلى الرأسماليين، والقوميين. سُجِن، وعُذِب. ساوموه على قناعاته ومبادئه في الحادثة الشهيرة فرفض مفضلاً الشهادة في سبيل الله على الخضوع للطغاة والظلمة.

ظهر في وقت كان الفكر الإسلامي في موقف الدفاع، فنقله من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم.

كان واضحاً جداً في اختياره لمربعاته.

كان شاهداً في حياته على التخلف والجمود والهزيمة النفسية.

رحل شهيداً لم يعطِ صكاً شرعياً واحداً للفساد.

منْ مِن الشباب المتدين لا يريد أن يكون سيد قطب آخر؟

بل من يجرؤ على شتم سيّد بعد كل هذا التاريخ النضالي؟

سلفيون كُثُر فعلوا ذلك، جاميون إن أردنا الدقَّة، وللأسف سأصبح واحداً منهم!

لم تكن كتب سيد قطب أو البلالي أو حتى جمال سلطان الذي تأثرت به لاحقاً لتجرفني بالكامل نحو الفكر وقضاياه، فلقد كان العلم السلفي الغارق في الأصلين الشرعيين القرآن والسنَّة تفسيراً وبحثاً وتحقيقاً، ممثلاً في السعودية بهيئة كبار العلماء ورموزها المشهورة بالرصانة والعلم والأمانة هو السائد وهو الذي له الغلبة على كل التوجهات الإسلامية الحركية.

في مقابل السلفية العلمية هذه، كانت توجد السلفية الحركية التي يطلق عليها بعض المهتمين اسم «السرورية» نسبة إلى محمد سرور زين العابدين المفكر السلفي الحركي السوري الذي عمل في السعودية لسنوات قصيرة، والذي كان له تأثير كبير في وضع «فقه الواقع» في سلم أولويات الصحوة، الأمر الذي ساعد على نضجها ونضج رموزها في الجانب السياسي. كما كان له دورٌ مشهودٌ في ترطيب جفاف القواعد الفقهية والشرعية بتنزيلها على الواقع وصعوباته وتعقيداته.

وُصِف محمد سرور زين العابدين بأنَّه الأب الروحي لبعض رموز الصحوة، وعلى رأسهم الشيخ سلمان العودة والشيخ عبدالوهاب الطريري وغيرهما. يُراد من وراء قول ذلك الغمز بأنَّ مشايخ الصحوة كانوا حزبيين.

كنت أسمع عن صراع السرورية والإخوان من أصدقائي الجامية، دون أن أملك فكرة كاملة عن أوجه الاختلاف بين السرورية والإخوان.

وسمعت كذلك منهم وبشماتة حادة أن الصراع وصل إلى السيطرة على جمعيات التوعية والدعوة والتحفيظ في المدارس.

الملاحظ بدقة يستطيع أن يلحظ أنَّ هناك فرقاً واضحاً بين الفريقين في ما يخص أسلوب الدعوة وطريقة التحشيد والمناشط الشبابية. وأما كون كل فريق يتحرك من توجيهات تنظيمية حزبية سرِّية فلم أجد عليه دليلاً، رغم وجود بعض القرائن.

في ذلك الوقت كنت أجد أن التسميات والتوصيفات لعبة مضحكة، لنسبيتها المدهشة. كان ما هو إخواني في السعودية سلفي متشدد في الكويت أو مصر. وما هو سلفي حركي في السعودية هو سلفي علمي في الكويت أو مصر، وهكذا...

من الصعب بمكان وضع حدود لكل تيار أو توجه لمجموعة من الأفراد، ولهذا كان الكثير من العلماء يجدون أن هذه التسميات تضع الأسافين بين أهل الخير، ولهذا رفضها ابن عثيمين رحمه الله جملة وتفصيلاً، وقال، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ كما في الآية.

أمّا أنا، فكنت أحب كل من يدافع عن الإسلام وأهله، وعلى وجه الخصوص المجاهدين بأنفسهم في سبيل الله. كانوا بعيدين عن خضم هذه التقسيمات اللغوية وهذه التصنيفات الهشة. مرتقون فوق الإحن والخصومات والاستقطابات... كانوا لي دائماً بمثابة الأبطال الأسطوريين.

كثيراً ما كنت أتساءل، هل هذه الخصومات التي تحدث بين الإسلاميين مبررة فعلاً؟

إنَّ من يرى حدة التلاسن والسجال لا يكاد يستطيع أن يصدِّق أن خلافاً على هذه الشاكلة هو خلافٌ في الفروع. . .

في أحد أيام الخميس وبينما أنا في بيت والدي، زارني صديق جامي، بسيارته، وذهبنا في رحلة قصيرة تجاذبنا فيها أطراف الحديث. . . ثم، حين سنحت الفرصة، مدَّ لي شريطاً تسجيلياً وقال: أريدك أن تستمع لهذا الشريط، وأن لا تتسرع بالحكم.

الهيئة

كثيرون تحولوا إلى التدين من شباب مدينتي. فهد عازف العود المتمكن ذو الصوتِ الشجي، تدين منذ الساعة التي طرق سمعه قول الله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بينما كان يسقي مزرعته.

«أمل» الحجازي صاحب السيارة اللامبورغيني الفخمة الذي كان اسمه الأنثوي محلاً للتندر والسخرية. تدين بفضل تأثير أصدقائه من فريق «برشلونة» المحلي. لم يمضِ على قدومه لمدينتنا سوى أشهر قليلة. كان شاباً وسيماً جداً، انتقل من حين تدينه إلى البوسنة والهرسك للجهاد والدفاع عن أهلها ضد الصرب، استُشهِد هناك. بكيته بحرقة، على الرغم من أني لم أعرفه بشكل شخصي، ولم أره سوى بضع مرات. لا أدري أبكيته أم بكيت أني لم أستطع، لجبني وعجزي، فعل ما فعله.

عارف العائد تواً من أمريكا والذي ينتمي إلى عائلة ثرية.

حسن الذي تصلح قصته لعمل سينمائي، والذي ذهب إلى أمريكا هو الآخر لدراسة اللغة، فصدمته حيوانية الحياة الأمريكية فتدين هناك وعاد إلى بلاده. يقسم جميع من عرفتهم ممن جالسوه إنَّهم يجالسون

ملاكاً لا بشراً. رحل إلى ربه بعد عودته بشهور في حادث مروري، تسبب رحيله في تدين الكثيرين.

يوسف، الشخصية الأكثر شهرة، الأقرب إلى قلبي. من لا يعرفه جيداً لا يُلام في ظنونه فيه. يتهمه كثيرون بالسذاجة. يُقال ذلك لأن الناس لم تتعود على طيبة ونقاء من هذا النوع. الناس يريدون أناساً على شاكلتهم أو على أهوائهم، ذئاب شرسة!

فشِلت كل العلاجات في إنقاذ ناصر وخليل وجاسم من الإدمان، ونجح يوسف!

يوسف يعمل في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لديه قدرة عجيبة على الصبر والاحتمال، يحب الناس، يشفق عليهم. إذا قُدِّر لك أن تصلي التراويح خلفه فستجده يدعو للشباب، يدعو الله الهداية لنساء المسلمين، يطيل الدعاء حتى يبكي. يستغرب من لا يعرف يوسف جيداً سبب بكائه في هذه المواطن.

ناصر، جارنا السابق، كان مدمناً على المخدرات لسنوات تتجاوز السبع. لم ينفع السجن في إيقاف إدمانه. لم أحرك ساكناً لعمل شيء. كان مجرد ذكر المخدرات يصيبنا بالهلع.

يوسف من النوع الذي لا ييأس. أعطِيَ دأب دودة. تقرَّب إلى ناصر في الوقت الذي ملَّ فيه ناصر من إدمانه فتعلَّق به، ودلف إلى التدين من باب يوسف. لم أشارك مع يوسف في عملية علاج ناصر إلا عن بُعد وفي حدود ضيقة جداً لا تتعدى المشورة.

تجاوز ناصر مرحلة الخطر، والفضل بعد الله ليوسف الذي وفّى. لسنتين كانا يجتمعان يومياً تقريباً. لا يغيب ناصر عن نظر يوسف وكأنه طفله المدلل. أحبَّت عائلة ناصر يوسف حباً شديداً. كان عيسى الذي يحيي الموتى بالنسبة إليهم.

كان يوسف يأخذ ناصر في سيارته إلى جلسات التعافي العلاجية - هكذا هو اسمها - التي تُعقد أسبوعياً في مستشفى الأمل.

هناك عقد يوسف صداقات كثيرة. أحبه الجميع دكاترة ومعالجون نفسيون ومدمنون. برأ جسد ناصر من الإدمان كلياً، وبعد شهور قليلة التحق بالعمل في المستشفى مساعدَ مُعالج.

يوسف، على الجهة الأخرى فتح حلقةً لتحفيظ القرآن الكريم في المستشفى. كان حافظاً للقرآن الكريم. حفظه أثناء دراسته في ثانوية تحفيظ القرآن الكريم. كان خريجو ثانويات تحفيظ القرآن الكريم يعملون مدرسين للمرحلة الابتدائية من حين تخرجهم. ولسوء حظ يوسف، أو لحسن حظ ناصر، أوقف العمل بهذا النظام في السنة التي تخرج فيها يوسف!

لديه جلد مدهش. يأتيه الفجر شابٌّ يريد أن يحفظ القرآن فيقرأه عليه مجوداً يومياً لساعتين، ثم يخرج، فيذهب إلى عمله. عمله ميدانيٌّ شاقٌّ. إنه يضطر إلى الوقوف على قدميه لساعات، يمر على الأسواق، ينصح ويوجه، يؤذيه جداً عدم الاحتشام. بعد صلاة العشاء يأتيه شاب آخر ليقرأ عليه القرآن هو الآخر.

يتصل بي هاتفياً أحياناً لأنه يرغب في الكلام إلى شخصٍ ما. بعد أن تركت التدين، استمر باتصالاته هذه لكن بوتيرة أقل.

«شيَّبتك الهيئة»، هكذا يردد الأصدقاء كلما قابلوه. لقد هجم الشيب على لحيته الطويلة رغم أنه لم يلج الأربعين إلا قبل سنوات قليلة. يحبه الشباب، حتى العصاة منهم والمعاكسون. أزعم أن سبب حبهم له قناعتهم أنه لا يوقفهم أو يحرر ضدهم مخالفة أو تعهداً، إلا خشيةً عليهم وحباً لدين الله لا تشفياً ولا استعراضاً للقوة كما يفعل غيره.

عانى يوسف كثيراً بسبب هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلقد واكب يوسف زمن عنفوانها، ثم زمن تقليم أظافرها. كان يوسف ضحية الزمنين، فلم يستغل الحملة الأولى، ولم يرضَ أن يسير في ركاب الثانية.

كان يريد فقط أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

في زمن تقليم أظافرها لم يكن هذا مطلباً سهلاً.

عانى الكثير من أعضاء الهيئات في فترة تقليم أظافرها من الظلم والتهميش والتطفيش، ففهموا الرسالة جيداً، واستقالوا. لقد مضى ربيع الصحوة. كان لكل شخص مبرراته الخاصة للهروب من السفينة الغارقة.

أحد أصدقائي، الجامي الذي أهداني الشريط، كان مديراً لأحد فروع هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لاحقاً انضم إليه صديقنا عبدالوهاب الذي تخرج للتو من جامعة الملك سعود بتخصص لا تدل عليه بنيته الجسمانية الضخمة، تربية بدنية. تربية بدنية، في هيئة الأمر! استخدمها في ما بعد بطريقة ناجحة جداً.

جاء تعيين عبدالوهاب على بند «الساعات» وهو البند الذي يُخوِّل المتعاونين العمل لساعات معينة لقاء أجر مالي. كانت فرصة جيدة لعبدالوهاب الذي كان عليه أن ينتظر بدء العام الدراسي الجديد.

في الأسبوع الأول لوجود صديقي الجامي على رأس الهيئة ارتفع سعر زجاجة الخمر المحلية في السوق السوداء من 5 ريالات إلى خمسين ريالاً.

لقد أنجزت الإدارة الجديدة إنجازات كبيرة على المستويين الأخلاقي والاجتماعي.

إدارة صاحبي الجامي كانت تعمل في الضوء، بسبب تجيمه، لكن تجيمه لم ينفعه حين وقعت الفأس في الرأس!

بعد شهور من الإنجازات المشهودة، حصل أن قبضت الهيئة على أحد الشيعة، وكان يضع أحد الأطفال ممن بلغوا الحلم في حضنه أثناء قيادته السيارة بدعوى تعليمه القيادة. حين أوقفته الهيئة تهجَّم عليهم بألفاظ حادة، وادَّعى أنه خال الصبي، في حين أنكر الصبي خلال التحقيق المبدئي أن يكون خاله! كان من الواضح أنه لوطي. ذهبوا به إلى مركز الهيئة. طوال الطريق كان يهدد ويتوعد ويحذر ويسب ويلعن. حين وصلوا كان السيل قد بلغ الزبى. وعلى الأخص لدى عبدالوهاب الذي يكره الشيعة حد المقت.

حاول مدير الهيئة إيقاف الشيعي عن حديثه بتلك الطريقة لكنه لم يُفلِح. أُخِذ إلى غرفة الإيقاف.

لم يأمر المدير، ولم يسؤه ما حصل. ضرب عبدالوهاب ذلك الشيعي على ظهره بعصي الخيزران ضرباً مبرحاً. هذا ما افترضه، لأنه إلى اليوم لم يخبرنا عبدالوهاب ما الذي فعله بالضبط، فقط اكتفى بالقول: ضربت الرافضي «من قلب».

خرج الشيعي بعد أن كتب تعهداً بعدم التعرض لذلك الصبي مرة أخرى. ذهب مباشرة من مركز الهيئة إلى أحد المستشفيات، وحصل من هناك على تقرير طبي وتوجه به إلى أمير المنطقة، واستغل فرصة اللقاء الأسبوعي المفتوح ليكشف أمام الأمير عن ظهره ثم سلَّمه التقرير الطبي وناشده أن يأخذ له حقه.

أُوقِف رئيس الهيئة وصاحبه عن العمل، وحُجِزا في غرفة الإيقاف لدى الشرطة.

أثارت القضية ردة فعل كبيرة لدى مشايخ الصحوة، حيث تطرق لها أكثر من شيخ في محاضراتهم التسجيلية.

استمر الإيقاف أسبوعاً كاملاً. بعدها طلب أمير المنطقة مقابلتهما. قابلهما على انفراد. تبين له من خلال الحوار «جامية» مدير الهيئة وصاحبه.

رُفِع الحجز عنهما. عاد المدير إلى عمله أما عبدالوهاب فقد طُويَ قيده.

في ما بعد جرت محاولة غريبة لتصفية هذا المدير وظيفياً، على الرغم من معرفة الجميع بتجيمه وحكوميته الفاقعة.

جاءت فرصة المتربصين حين تقدم بطلبٍ بالنقل إلى مدينتنا، حيث توجد وظيفة شاغرة على الدرجة التي كان عليها.

نُقِل إلى مدينتنا، لكن تحت إدارة رئيس يقل عنه بدرجتين! كان المغزى واضحاً. تدخل الأمير مرة أخرى، وتم تحويله لوظيفة أخرى هي إدارة التوعية والتوجيه في الإدارة الرئيسة.

تسلم هذه الإدارة فأحدث نقلةً نوعيةً في قسم التوعية والتوجيه، لكن علاقته مع الأمير لم ترق لبعض المسؤولين في الإدارة المركزية للهيئة، وخصوصاً المدير العام. كان هناك نفور عام من هذا المدير العام الذي جاء من القصيم تسبقه سمعته السيئة عن تهاونه تجاه المنكر وعن جبروته تجاه أعضاء الهيئة ومنسوبيها.

وجود صاحبي بقرب الإدارة المركزية العامة كشف له عن تجاوزات مالية خطيرة. وصل خبر بحثه حول هذه التجاوزات للمدير العام. جمع صاحبي ما لديه من وثائق، وعزم على الذهاب إلى مدير الهيئات في الرياض، ومفتي عام البلاد سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمه الله.

في الطريق إلى الرياض، أوقفته المباحث العامة. فُتِّشت سيارته، وحين لم يجدوا شيئاً ذا علاقة بالأمن سمحوا له بالذهاب. ثبت في ما بعد أن هناك من سرَّب وشايةً مفادها أنه يحمل منشورات ذات علاقة بحركة المعارض السعودي المسعري، تلك الحركة التي ما انفكت ترسل فاكساتها التحريضية لكل من تستطيع...

أوصل صاحبي رسالته، وعاد. مرَّ بي بسيارته وأركبني معه، وأخبرني بما جرى. نصحته أن يذهب إلى شقته فينظفها مما قد يكون أودعه فيها أولاد الحرام أثناء سفره إلى الرياض. حين وصلنا كان هناك من ينتظرنا في المحل المجاور لشقته. قلتُ له: أسرع إلى الشقة، وإنْ وصل أحدٌ ما سأضغط على منبه السيارة ضغطتين متظاهراً بأنني أدعوك للإسراع. ولا تنسى أن تتأكد من الفاكس، فلربما أرسلوا لك شيئاً على الفاكس لتوريطك...

بعد نصف ساعة، وبينما أنا أنتظر في السيارة جاءت سيارة أخرى وتوقفت غير بعيد. لم أحتج إلى الضغط على منبه السيارة. كان صاحبي قد نزل من شقته. ما إن ركِب السيارة حتى جاءت السيارة الأخرى وسدت الطريق علينا من الخلف. نزل منها رجل تنفر منه من حين رؤيتك لوجهه. بروز عظمية في وجه نحيف، وأسنان صفراء لعب بها الدخان، يتكلم بلغة متعالية. نزل صاحبي، ولم أنزل. طلب إثباتاتنا الشخصية. أعطاه صاحبي في حين رفضت أن أفعل. طلبتُ ابتداءً إثباته الشخصي. مده لي على مضض فمددت له إثباتي.

سألني أين تعمل. فقلتُ: هل هذا تحقيق رسمي؟ هل أنا متهم بشيء؟

سكَت ثم مضى يتحدث إلى صاحبي، أخبَره أنه مطلوب في الإدارة العامة للمباحث. ذهب صاحبي معهم. أشكالهم وطريقتهم في

الكلام والتعالي واحدة كما لو كانوا مستنسخين. خرجتُ من السيارة. واتصلتُ بأخي صاحبي الذي جاء مسرعاً. لم يكن هناك ما يدل على الخوف والهلع لدى أيّ منا. لقد تعود صاحبي على هذا النوع من التعامل. وكان «تجيمه» تذكرة خروجه من كل ما يحيق به.

حققوا معه تحقيقاً أمنياً مكثفاً، ولم يخرجوا منه بشيء. ليس لدى الجامية ما يخفونه، هم واضحون في ولائهم لولي الأمر وإن ضربهم وأخذ مالهم، لكن يبدو أن هناك من لا يُصدِّق كل الجامية.

بعد توقيف لشهرين خرج صاحبي. أوقف عن العمل مرة أخرى. هذه المرة لم تكن كغيرها.

«طابت» نفسه عن الهيئة كما يقول.

يوسف وصاحبي الجامي هذا سلِما من كل شيء، حتى الناس الذين يقع عليهم الاحتساب، ولم يسلما من إدارة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

صاحبي الجامي فضَّل الترجل.

يوسف لم يتوقف.

وسَّع مع ناصر من مجموعتهما. في البدء انضم لهما أحد المدمنين ممن يبحث عندهما عن الخلاص. كان في أواخر الأربعين، طيباً وودوداً، في ما بعد انضم صديق آخر لهذا المدمن إلى المجموعة الصغيرة.

حذَّرت يوسف من وجودهما والغفلة عنهما خشية انفرادهما بناصر. كُنَّا نخشى على ناصر. فشل يوسف مع ناصر يعني فشله مع الآخرين، ولو أنني أشك في أنه يرى الأمر هكذا. يوسف لا يحسب الأشياء من زاوية النصر والهزيمة، بل من زاوية التوفيق الرباني وبذل الأسباب.

تراجع الأربعيني و«انتكس». أما الآخر الذي لم أعوِّل عليه كثيراً، فثبت وتدين.

بعد أن خف تديني، وبعد سنتين من هذا كله، علمت أن ذلك الأربعيني عاد مرة أخرى، وتدين.

رأيته في ما بعد في أحد المهرجانات. أصبح هو وصاحبه الآخر مشرفين في مستشفى الأمل.

مضى عليهما في هذه الوظيفة ثلاث سنوات.

يوسف ما زال مواظباً على حلقة التحفيظ. تاب على يديه كثيرون. يقص عليَّ أحياناً قصص بعضهم. ويخبرني عن رحلاته الدورية معهم إلى العمرة.

يتكلم عنهم كأم.

بالبراءة عينها...

البراءة التي صنعت منه رجلاً من أهل الجنة.

أفخاخ لا داعي لها

وصلت بالسيارة بعد ساعة من القيادة المرتبكة إلى مبنى المباحث الكبير المبني حديثاً على تلك القطعة البرية المعزولة إلا من طريق فرعي صغير يربطها بالطريق السريع الثلاثي المسار.

هذه المرة كانت الإجراءات أكثر صرامة. أُمرت أن أوقف السيارة عند البوابة الأولى التي تبعد كيلومتراً عن أقرب مبنى. أُدخلت إلى غرفة انتظار كان يجلس فيها مجموعة من الناس. وبعد نصف ساعة دعينا لركوب مايكروباص قادنا إلى داخل مبنى التفتيش، حيث جرى تفتيشنا ورهن كل ما لدينا في حروز خاصة بعد أن تجاوزنا باب جرس الإنذار الذي يلج منه القادمون. أُدخِلنا بعد ذلك إلى غرفة انتظار أخرى، أكبر قليلاً من سابقتها.

كان يبدو لي أنَّها غرفة انتظار أولياء الموقوفين، ظهر لي هذا بعد أن فُتِح باب من الجهة المقابلة لباب الدخول وأطل جنديٌّ فنادى قائلاً: «أهل فلان، تفضلوا للزيارة!».

نودي عليَّ بعد ساعة، لكن من دون أن يُقال «زيارة». قادني رجل يلبس اللباس المدني إلى داخل مبنى التحقيق. وهناك عبرت للمرة الثانية باب جرس الإنذار، ثم تم أخذ بصماتي. قادني بعدها إلى مكتب ذكر لي أنَّه مكتب المحقق، وأنَّه سيأتي بعد قليل.

بعد نصف ساعة دخل المحقق إلى الغرفة، فقمت لأسلِّم عليه، لكنه وبإشارة من يده لا تخلو من جلافة أمرني بالجلوس.

جلس إلى طاولته، وقال بعد دقائق سكون انشغل فيها بترتيب هندامه أكثر من انشغاله بالأوراق التي أمامه: أتعرف لِمَ أنت هنا؟

- لا والله. قد يكون للأمر علاقة بصالح وعيسى، لكن هل لي أن أعرف السبب الحقيقي؟

- وين الأخ صالح والأخ عيسى؟

كان يستذكي بطريقة فجَّة. مبتدئ وجد فرصته للاستعراض.

- صالح وعيسى موجودان عندكم.

- من يقول إنَّهما موجودان عندنا؟

- الجميع. مباحث الفرع، وإخوتهم الذين زاروهم هنا.

- طيب هل تعرف ما قضيتهما؟

- لا والله لا أعرف، ولا أعتقد أنهما أو أهاليهما يعرفون.

- معقولة؟!

وابتسم ابتسامة خبيثة في غير مكانها.

- وما هو غير المعقول في ذلك؟

- دعنا من هذا الآن.

لم يستطع الرد، ولذا فضَّل التظاهر بأنَّ الأمر غير ضروري.

- كيف هي علاقتك بعيسى وصالح؟

- هما من أقرب أصدقائي، وخصوصاً صالح، حيث لا نفترق عن بعضنا إلا حين النوم، حيث يذهب كلٌّ منَّا إلى بيته.

أردتُ أن أكون واضحاً وصريحاً، لأنني لم أرَ أي فائدة أو مبرر يدعوني للكذب، إضافة إلى أن القوم سيكتشفون على الفور أنني

أكذبَ. وقبل هذا كله أردتُهم أن يشعروا بأنَّهم يسيطرون على الوضع تماماً. أردتهم أن يسمعوا ما يريدون أن يسمعوه.

- هل تعرف ما الذي يفعله صالح بعد افتراقكما؟

- يغط في نوم عميق!

- أتهزأ؟

- لا والله. هذا ما أعرفه.

- وما يدريك أنَّه ربما كان يفعل شيئاً آخر؟

- وما هو هذا الشيء الآخر؟ الاتصال بالفقيه أو المسعري أو أسامة بن لادن مثلاً؟

- توقف عن السخرية، فليس ذلك من صالحك، وهذا إنذاري الأخير، قالها محاولاً أن يبدو جاداً.

- طيب. بجد أنا آسف. حاولتُ تقليل نتائج سخريتي الأخيرة. لم أُرد أن أكسب عداوته. سأحتاج في نهاية التحقيق أن يخبرني بآخر ما لديه عن صالح وعيسى، لأبشر أهليهما.

بدا فرِحاً باعتذاري. أشعرته بالسيطرة، وبالقوة. قلت:

- عفواً ما هو هذا الشيء الآخر؟

- كأن يدخل مواقع معارضة على النت مثلاً؟

- يا عزيزي: صالح وعيسى وأقسم لك بالله على هذا، ليْسا من أهل السياسة لا من قريب ولا من بعيد. أقسم لك بالله إنكم تضيعون وقتكم معهما.

- تكلَّم عن نفسك، هذا أولاً، وثانياً ماذا عنك هل نضيع وقتنا معك؟

- لم أفهم.

- صالح يقول إنَّك نزَّلت كتاب ناصر الفهد **التبيان** من جهازه!!

قالها كمن يريد إحداث مفاجأة مدوية، لكنني تعاملت معها كمن أصابه النوم في انتظارها. بهدوء شديد.

- هذا ليس بصحيح، بل صالح واهم إن كان قد قال ذلك. ثم إنني لا أعرف أين موقع جهازه في البيت، فلم أدخل إلى بيته سوى مرات قليلة، ولم يستخدم أيٌّ منَّا الجهاز؟

- وماذا عن جهاز المكتب الخاص به؟

- نعم، استخدمناه مرة أو مرتين، في إحداها علَّمته كيف يصنع لنفسه بريداً إلكترونياً.

- والأخرى؟

- لا أذكر، قد نكون دخلنا منتدى مدينتنا لرؤية مقالة كُتِبت عن صالح، وكانت شكراً له على جهوده الوظيفية في خدمة أبناء المدينة. لا أتذكر أننا دخلنا مواقع كثيرة لكنني على ثقة أن ليس من بينها مواقع ممنوعة!

- سنرى هذا حين نجمع بينكما!

- لا مشكلة على الإطلاق. أنا مستعد.

- هل أنت ذوق؟

مرة أخرى حاول أن يفاجئني بطريقة مسرحية بائخة. أصيب بالإحباط لأنني لم أفاجأ كما أمَّل.

- أذكر أنني كتبت بهذا الاسم، وقد أخبرني صديقي محمود أن مباحث الفرع قد سألوه عنه، لكنني لست على ثقة إن كنت أنا من كتب ذلك الموضوع أو الرد، لأن اسم ذوق استُخدِم بواسطة كثيرين غيري.

- هل تريد أن تقول لي إنَّكم مجموعة منظمة؟

- لم أقل هذا. أمر استخدام اسم واحد من أشخاص مختلفين هو أمر شائع في عالم المنتديات.

- يعني أفهم أنَّك تُنكر أنَّك من كتب ذلك الموضوع؟

- أنا لا أُنكِر ولا أثبت. أنا أقول فقط أروني هذا الموضوع لأقول لكم إن كنتُ أنا من كتبه أو لا. لن أقبل أبداً أن يدخل السجن أحدٌ بجريرتي، وخصوصاً صديقي محمود.

بدا لي أن المحقق لا يملك نسخة عن ذلك الموضوع أو الرد، وهو ما أوحى لي بأن هذا التحقيق برمته ليس سوى قرصة أُذن فقط.

- أين سافرت مع صالح وعيسى؟

- سافرنا إلى سوريا ولبنان قبل أربع سنوات، كما أنني سافرت مع صالح ثلاث مرات إلى أندونيسيا.

- من قابلتم هناك؟

- قابلنا في لبنان بعض الأصدقاء اللبنانيين الذين كانوا يعملون سابقاً في مخبز كان يملكه صالح.

- وفي سوريا؟

- قابلنا صديقاً قديماً عمِل أيضاً في المخبز.

- ما اسمه؟

- علاء الدين أمجد

- هل اختفوا عن ناظريك؟

- أبداً. كُنَّا معاً طوال الوقت.

- ما هي طبيعة الأماكن التي زرتموها؟

- هي أماكن سياحية بحتة.

- يعني لم تذهبوا إلى أماكن تدريب؟

- لا يا رجال، وش تدريبه؟!

- تدريب على السلاح، مثلاً؟

- قول خير يا ابن الحلال!

بندر في قبضة القائد

تجاهد في سبيل الله تصبح مداناً. تقاتل الأمريكان تصبح إرهابياً كبيراً. تأخذ بحُجُز أهل السنة والجماعة عن الذبح على أيدي الأمريكان أو كتائب الموت الشيعية تصبح إرهابياً طائفياً مطلوباً على قائمة الجميع. أنت نقطة تقاطع المصالح بين أمريكا وأشد أعدائها في المنطقة، إيران!

وأنت لوحدك.

كانت تركة ثقيلة تلك التي وجد المجاهدون أنفسهم بإزائها.

الأشياء غير واضحة المعالم بدقة. لعل هذا أخطر ما في العمل الجهادي.

تذهب إلى أرض الجهاد وقد راهنت على روحك ثلاث مرات، مرة وأنت في الطريق، ومرة وأنت على أرض المعركة، وثالثة لا تدري ما كنهها لكنك تشعر بها طوال الوقت.

أزعم أن هذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعه كل جهادي. إن الشيطان يظل يكمن لك في تفاصيل صغيرة قد يودي مجرد إعطائها ثانية تفكير إضافيةً بحياتك.

إنه ينزرع في عقلك، يناورك، يشككك، يُحبطك، يشبِّه الأشياء عليك.

بالنسبة إلى بندر الأمر كان مضاعفاً: هل ترضى أن تدافع عن طاغية بدأ يتلبس بلبوس الإسلام بعد أن اقترب من عنقه حبل المشنقة؟

هل ترضى أن تدافع عن رجلٍ غزا بلدك، وتسبب في قتل ابن عمتك؟

هل ترضى بأن تكون غوغائياً يُصدِّق ما ينعق به البعثيون الذين تدينوا ذات خشية وهم الذين كانوا البارحة، وفقط البارحة، يفتخرون ببعثٍ كافر يوحد العرب ومرحباً بعده بجهنم؟

هل يريد منكم الشعب العراقي فعلاً أن تقاتلوا الصليبيين على أرضه؟

هل ستقاتلون الشيعة الذين تحالفوا مع الغزاة؟ أليسوا مسلمين؟ كيف ستلقى الله وفي عنقك دم امرئ مسلم؟

كيف ستستطيع التمييز بين الشيعي وغير الشيعي؟ وكيف ستكتشف كذب الشيعي إذا ادعى أنه سنياً؟ هل ستقيم عليه الحجة قبل قتله؟ ماذا لو صرخ بك أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ هل تفعل به ما فعل أسامة ابن زيد بقتيله؟

تعظم الجائزة حين يعظم الخطر. وكأنك في سوق استثماري يتناسب فيه العائد طردياً مع الخطر.

لا يعبر القنطرة سوى الأصفياء.

كان هذا هو رهان بندر الذي ظل متشبثاً به طوال الوقت.

عرف القائد عن ذلك الرهان من حين رآهما للمرة الأولى في مطار دمشق. مثالان ناصعان وتقليديان جداً على جهاديين مخلصين صغيرين.

جاء بندر إلى القائد بينما هو منهمك يقطع بفأسه الحطب في

زاوية من زوايا المبنى، وقف قبالته ثم طرح عليه أسئلة المبتدئين المعتادة:

نظر القائد إلى عينيه، ثم أشاح بوجهه عنه، وانهمك في تقطيع الحطب.

- لماذا لا تجيبني؟

- لأنني مثلك لا أملك أي إجابة! أظن أنني قد قلت لك هذا سابقاً.

- ماذا؟! قالها بندر بحنق.

- هو ما سمعته.

- وماذا سنفعل إن واجهنا شيعة؟ وكيف سنعرف إن كانوا من جيش المهدي أو فيلق بدر أو إن كانوا أشخاصاً عاديين؟ وماذا لو كانوا متنكرين؟

- قلتُ لك لا أدري. قالها بحزم.

- من يدري إذاً؟ أنت مسؤولٌ عنَّا هنا في حال لم تلحظ!

اسمع يا بندر: أنت تسأل أسئلةً صعبة جداً لا أملك عنها إجابات ثابتة الآن. الأسئلة من هذا النوع موجودة طوال الوقت في العمل الجهادي. لا تشتت ذهنك وركز على ما جئت من أجله، وستشعر مع مرور الوقت بأن الإجابات تتكشف لك.

- لكننا في خضم حرب طاحنة ليس من أسلحتها الشعور.

- صحيح.

- إذاً؟!

فجأة، فاجأه القائد بانقضاضه عليه ثم الإمساك بتلابيبه بقبضة قوية جداً. شدَّ بندر إليه ثم قال:

- خايف من الموت؟! ونظر في عينيه بحدة. إذا خايف من الموت ليش جيت؟ شعر بندر لوهلة أن القائد تمنى لو أنَّه لم يأتِ. كان جلست في مدينتك، آمناً في سربك، عندك قوت يومك، ممتلئاً يقيناً وطمأنينةً وأمناً. وإلا يمكن جاي تنتحر؟ كرهت الحياة؟ تشعر بملل ونفور منها؟ تريد أن يتوقف الهزء بك والسخرية بلحيتك وثوبك القصير؟ والا تلاقيك أحد الفاشلين في الدراسة أو العمل؟ تشعر أن الموت أرحم؟ لهذا تريده في سبيل الله؟

هل هذا معنى «في سبيل الله» لديك؟

دفعه من أمامه ثم أردف:

الجهاد عمل خطير جداً، والعمل الخطير تأتي أسئلته خطيرة جداً. انظر إلى ذلك السوري هناك، والمسمى أبو الليث.

- هذا الشاب فقد ثلاثة من إخوته في الجهاد البوسني. والرابع فقده في الشيشان. عاد بعد فقد أخيه الرابع سراً إلى منطقته الجبلية في سوريا. خشي أن يحرف استشهاد إخوته الأربعة الذين يحبهم، جهاده فيكون انتحاراً!

ترك الجهاد لسنتين، فقط حتى يُصفي نيته، ثم عاد إلى الشيشان... يخبرني بأن أشد مفاصل حياته قوة وصلابة كانت حين أصيب أحد أصدقاء الجهاد مرة في كتفه وهما في طريق الفرار بعد عملية تشريك عبوة ناسفة كبيرة. تكوَّم صاحبه على الأرض يئن من ألم الرصاصة التي يبدو أنَّها اخترقت عظمه. يقول أبو الليث: كمنتُ في مكاني أفكر. هل أعود فأحمله؟ هل ستكون عودتي انتحاراً؟ أم أواصل طريقي ففي نهاية الأمر يجب أن يبقى أحدنا، فنحنُ الوحيدين المتخصصين في هذا النوع من عمليات التشريك الكبيرة، يقول: كنت أستطيع أن أعود جازماً بأن جهادي لم يعد يخالطه شيء من الرغبة في

الانتحار، لكن فجأة قفز إلى ذهني أنها حيلة شيطانية، وأن خشية الرغبة في الانتحار ستطفو من حين عودتي إلى حمل صاحبي. تشوشت. قفزتُ من مكاني، وذهبت إليه وزخات الرصاص تأز بجانب أذني، ما إن قمتُ بوضع نصفه العلوي على كتفي ومشيت بضع خطوات حتى أصابتني طلقة في ظهري في مكان إصابة سابقة. فررتُ مسرعاً، وأنا أحمله. مضيت أركض وأنا أشعر بخيط حرارتها يشق ظهري نصفين. ظللت أركض متوارياً بين الأشجار، كدتُ أفقد الوعي، لكنني تماسكت، وواصلت الجري بفرح غامر، لقد تحررت بالكامل من هواجسي. لقد قتلت تلك الرصاصة كل هواجسي. لن أموت منتحراً بعد الآن.

ظلَّ لسنة كاملة يتطبب من تلك الرصاصة. في حين أن صاحبه شفي في شهرين!

أتظن يا بندر أن الحرب لعبة «بلاي ستيشن»؟ أو مغامرة جريئة؟

هل تحب النساء يا بندر؟ قالها وهو ينظر إلى عيني بندر!

فوجئ بندر بالسؤال فلم يحر جواباً، فهو يرى أن الجواب معلوم لدى القائد فلا يوجد رجل لا يحب النساء!

- تحب النساء، أليس كذلك؟ كلنا كذلك، لكن هل فكرت وتساءلت مرة: هل تقاتل لتحظى بالحور العين؟ لا ريب أنها جائزة ربانية، لكن ليست هي الثمن الرئيس ولا ينبغي أن تكون كذلك، فالمتعة الجسدية هي في القتال في سبيل الله! لن تدرك صِغر هذه الجائزة، أعني الحور العين، حتى تقاتل في سبيل الله. في سبيل الله يا بندر.

بكى بندر... لا يدري لماذا؟

أحس بالهوان، والصغَار، والغباء. . .

أخذه القائد من رأسه وضمه إليه، وقال: لا تنسى هذا يا بندر، فلن أستطيع أن أعيده. . .

الجهاد عالمٌ مليء بالعواطف. العقلانية فيه مؤجرة لهذا العالم الدبق بالحذر المصلحي.

عليَّ الانتكاس وما عليَّ إذا لم تفهم البشرُ

أتساءل أحياناً: ألا يمكن أن أكون مثل بخيت؟ شخص يفقد «المعنى» والمبرر. ينسى لغته الأم فجأة فلا يحاول تذكرها، على الرغم من أن حياته كلها لن تسير بدون هذه اللغة الأم، ولأنه نسي اللغة فقد كان يعتمد فقط على حدسه وظنه. يتعامل مع الناس وكأنه في غيبوبة. هو يظن أن هذه الغيبوبة واضحة جداً للعيان، وأنَّها بكيفية ولسبب ما ستجبر الآخرين على تجاهل ما يصدر عنه.

يظن أنهم سيتركونه وشأنه.

أفكر أحياناً بأنني مختلفٌ عن بخيت لأني ما زلتُ أملك ذلك الحماس الدفاق، وتلك الروح الأبية، والغيرة الدينية الحارة. أشعر أحياناً بأن بخيت اختبر كل هذه المشاعر منذ زمن طويل، ربما قبل أن أتدين، وتجاوزها. أشعر أن هذه المشاعر صبيانية وسخيفة بالنسبة إلى بخيت.

الأخطر من ذلك: ماذا لو كان على حق؟!

هل الأمر لم يعد يستحق بالفعل؟ هنا بالذات يختلف موقفي عن بخيت، فدائماً ما أشعر أن الأمر يستحق. «هوس» ربما. لا أستطيع الحكم الآن. أحتاجُ أن أموت لكي أدرك ذلك.

تعودت على أخذ الأشياء بشكل شخصي منذ زمن طويل. لم

أكن أدرك أنني أفعل ذلك. ففي سنين معينة من تدينك يختلط عليك العام والخاص فلا تستطيع التفريق بينهما. هذا على افتراض أنك تهتم. يصبح العام، محيط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لصيقٌ بك جداً. هذا الذي يحدث بإزاء العام يجعل الخاص أكثر التصاقاً. «ولو أنَّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً». تستمر دورة الحماس والغيرة مدفوعة بالـ«عام» المطلوب تغييره إلى الأحسن، والخاص الذي يزداد قوة وثباتاً...

تغوص أكثر في تفاصيل المنكر الشعبي «العام». وحين تشعر أنَّ هناك ما هو غير صحي في هذا الغوص وأن سلَّم الأولويات قد اختل، يأتيك ذلك الشعور «الخاص» بأنَّك نذير هذه الأمة لتغيير هذا المنكر، فلا أحد اقترب منه قبلك كل هذا الاقتراب. فتغوص أكثر، بدون أن ترى أنَّك تغوص في تفصيلة صغيرة هناك ما هو أكثر أهمية منها بمراحل...

لا أقبل بالخداع، أو النفاق، أو التزوير، أو التلفيق، أياً كانت الظروف.

أقبل الأخطاء، وأتسامح معها ومع أصحابها، لكنني ضد سبق الإصرار والترصد بالمطلق.

ليست لي حياة فردية. نعم، ليست لي حياة فردية خاصة. أشعر أنني لا أملك حق الانفراد بشيء بعيداً عن الآخرين. مثل من لا يستطيع أن يأكل لوحده.

عقلي في مكان ما من هذا العالم. في زر «الماوس (المشيرة)»، في شريط الأخبار، بين صفحات الجريدة.

أنا أحمل همَّ الإسلام من دون أن أعرف كلفة ذلك. أقرأ

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، وأظنها تصدق في حق من لا يحمل همَّ الإسلام. أمَّا أنا فحتماً ممن هداهم الله سبله.

أعلم أنني لستُ مخبولاً، حتى الآن على الأقل، وأنني لستُ قديساً أو ورِعاً أو تقياً أو خلاصياً نذر نفسه للأمة، لكنني موجود. أعتاش على النقائص وإن كانت لمماً. وحين تسير الأمور سيراً حسناً أفرح كثيراً، لكنني أفقد حينها المبرر من وجودي. أفقد صوتي وعقلي. أصبح جازماً أنهما في إجازة في مكان ما لا أعرفه بصورة يقينية. يبرد بركاني، يتجمد، وكأنني في رحلة استجمام من عناء «الضبط». رحلة قد تشوبها الفتن وخطوات الشيطان. . .

حين تسوء الأمور، تعود آباري للعمل بكامل طاقتها. لا أحب أن أقول هذا، لكن هكذا أشعر. أنا بمثابة رقيب صغير. لم يعطني أحدٌ هذا الحق، أدرك ذلك، فأنا لم أعطه لنفسي ابتداءً! لكن هذا أنا، وهذا ما أنا عليه. شخصٌ أخلاقيٌّ تضطره الظروف أحياناً لأن يستخدم أخلاقيته بطريقة لا أخلاقية، لضمان أخلاقية ما يجري.

في المنزلة بين المنزلتين، حين لا أحسم أمري، وأقع في الخطأ. أتذكر قول الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. المقت هو أشد الكره، هو موجه للذين يقولون، ليس بسبب قولهم، لكن بسبب أنهم لا يفعلون الذي يقولونه. لهذا أستمر بالقول مهما بلغ سوء ما أفعله. أشعر بندم كبير وأسى وحزن وألم قاتل، لكنني لا أتوقف حتى لا أرتكب جريمتين. تماماً كما يحصل مع المتدين الملتحي الذي أُبتليَ بشرب الدخان. «يجب أن لا تحلق لحيتك لأنك تدخن، إنك بهذا ترتكب معصيتين».

أعرف أن الأمر مختلف شيئاً ما، لكن هذا النوع من المعرفة

يساعدني على البقاء حياً وأخلاقياً. لا أستطيع العيش لا أخلاقياً مهما بلغ سوئي وزللي.

قد يكون هذا موطن اختلافي عن بخيت، أو اختلافه عني.

بدأت أتغيَّر.

«تغيرت» كما هي اللفظة التي يتداولها المتدينون حول من ترك التدين، تعني في حقيقتها أن إيماني قد ضَعُف. بدأتُ طريق ما يسمى «الانتكاس». الردة الصغيرة، إن جاز التعبير، على الرغم من أن بعض العامة يسمونها ردة ويتعاملون معك على أساس أنها ردة ولا أبا بكر لها!

«الانتكاس» كلمة شنيعة، لها مدلول سيء جداً. لم تدخل القاموس الاجتماعي السعودي إلا قريباً. يُراد منها وصف شخص ما ترك التدين أو خفف منه بعد تمسك والتزام شديدين. قد تخفف لحيتك بعد أن كانت كثة فتوصف بأنك انتكست. قد تطيل ثوبك تحت الكعبين فتوصف بأنك انتكست. قد تستمع إلى الغناء فتوصف بأنك انتكست. مجرد ممارسة واحدة، خطيئة واحدة، معصية واحدة، كفيلة بأن تخرجك من التدين! ليس لدى المتدينين فقط بل وعامة الناس حتى غير المتدين منهم!

أرأيت إلى أي حد أنت «مُقدَّس»، ومُنزَّه، ومبرأ، وكأنك قد خلقت على صورة الله؟!

المتدين الذي ينتكس لا يدري أنَّه موعود بحد الردة. لو درى بهذا قبل تدينه لما تدين. ولو شعر بها بعد تدينه لما انتكس!

تقحمك لعالم التدين خطيرٌ جداً. أنت تغدو مقدساً. تصبح تحت المجهر. تُعدَّ عليك أخطاؤك كما يعد المرابي نقوده. إذا كنت

«درويشاً» لا تعي هذا كله، وتملك من البلادة ما يجعلك تتجاوز حساسية هذا الأمر، فأنت بخير.

أما إذا كنت مثلي تشعر طوال الوقت بأنك رسول مبشر، وأنك قدوة حقيقية للآخرين، وأنك مسؤول عن تمثيل هذا الدين خير تمثيل، فالأمر يختلف. تصبح أنت من يُحاسَب على أخطائه كما يُحاسب على صلواته. أنت من يشوه هذا الدين. أنت من يؤخر النصر!

حين تقتحم هذا العالم، أنت لا تكتشف أو تمر على مهل أو تدرس، أنت تقتحم. تنتقل من هوية لا مبالية إلى هوية جديدة شديدة الحساسية.

لا أقصد أن هذا العالم مليء بالقسوة على النفس والرهبنة والطرق التي لا عودة فيها، على العكس فالتدين وخصوصاً في بداياته حلو المذاق جداً. تغدو كطفل بين يدي أم رؤوم. تتفرغ فقط للصلاة والذكر والطاعة. ليس لك أي تماس مع حقائق الاجتماع والاختلاف، الشدة واللين، الحكمة والتطرف، السياسة... إلخ.

التدين حين ينتقل من مجرد حالة شخصية إلى «حالة فاعلة» تتأثر وتؤثر، تفعل وترد، تشارك فتأخذ وتدع، حين يحصل هذا يتحول التدين إلى أداة ضغط كبيرة على صاحبه. وحين لا يكون صاحبه مهيأً ينهار تحت وطأة هذا الضغط.

حالات التدين هي حالات متنوعة، فكثير من المتدينين استطاعوا التعاطي مع تدينهم «الفاعل» بتناغم وانسجام من دون أن يتحول ليكون أداة ضغط، بل عامل حث ودفع حقيقي. آخرون، أنا منهم، لم يستطيعوا فعل ذلك. قد يكون «البلا فيني»، كما تقول العامة.

اختلفت مبررات المتدينين خلف الأسباب وراء حالات الانتكاس بين الإغراق في الأناشيد والمسرحيات والبرامج الترفيهية وبين معاصي السر وبين الجهل الشرعي أو الإصابة بالعين والسحر. . .

لا يهم. المهم أن هناك ما قاد إلى هذا الانتكاس أو التغير كما في رواية أخرى.

يعامل المنتكس معاملة سيئة للغاية؛ كمنافق لا يؤمن جانبه، لا يؤخذ على محمل الجد إطلاقاً، يشعر أن مجرد حلق لحيته غيَّر العالم، ودفع الناس كل الناس الذين يعرفونه، قبل اللحية وبعدها، إلى الجزم بأنهم أمام شخص متقلب ومتردد وغريب الأطوار.

حين تنتكس من الداخل، ويلٌ لك إن لم تبق محافظاً على شكلك الخارجي، لحية وثوب قصير، وأصدقاء ملتحون ذوو ثياب قصيرة وإلا فأنت على موعد مع الحصار الاجتماعي.

حصارٌ غبيٌّ يدفع في الغالب هذا المتدين السابق إلى أن يرتمي في أحضان الخصوم!

مع أنَّ التدين علاقة خاصة مع الله، إلا أنَّ الآخرين فاعلون بقوة في هذه العلاقة.

في التدين «السعودي» هناك الكثير مما هو حقيقي وجميل ومريح، وفيه أيضاً الكثير مما هو بشري وغير حقيقي وغير مريح.

أحلى ما فيه لذة الإيمان، وأسوأ ما فيه انسحاق الفرد تحت نعال القطيع.

لم تتعلم الصحوة النقد، لذلك لم تستفد من نقد خصومها، رغم أنها تدندن أن الحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحق بها. كان هناك كره شديد للعلمانية الخصم اللدود كثير الانتقاد جعل الصحوة

تنفر عن كل ما يصدر عنها جملة وتفصيلاً. بدا وكأنه قد أعيدت صياغة الأثر لتكون «الحكمة ضالة المؤمن ما لم تكن علمانية».

لقد ظنَّت الصحوة لمدة طويلة أن كل تغيير هو تغيير سيء بالضرورة. لا شك في أنَّ هناك من يدعو للتغيير، ويجعل منه سلماً من أجل هدم مباني الدين، لكن الصحوة لم تستطع أن تدرك أنَّها تستطيع أن تُغيِّر بطريقتها وتنستجيب لضرورات الحاضر من دون أن تُمس الثوابت.

كما أنَّ الشك الذي قد يأتي به الرأي الآخر قد يقود إلى النفي وزعزعة القناعات فهو أيضاً قد يقود إلى الإثبات. والذي يملك يقيناً راسخاً، لا يخاف الشك.

حين صالح النبي ﷺ في الحديبية الكفار، فكتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه عريضة الصلح، رفض الكفار أن يُسمى النبي برسول الله، وقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فطلب الرسول ﷺ من علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يمحوها، فأبى علي رضي الله عنه، فأخذ النبي ﷺ الصفيحة ومحا منها عبارة «رسول الله».

لم تكن هذه العبارة لِتُغيِّر في الحقائق شيئاً، ولم يكن محوها يدفع إلى الكفر. كانت قناعاتهم راسخة وإيمانهم ثابت.

كان الأمر واضحاً لدى الصحابة: لا حاجة للإسلام بأناس يؤمنون بألسنتهم وتكفر قلوبهم لمجرد عبارة.

كان ينبغي أن لا تبقى الصحوة أسيرة أوهام القائمين عليها.

لقد فوتت الصحوة الكثير من الفرص للتغيير. وكل فرصة تفوت كانت ممسكاً لدى الآخرين على جمود الصحويين وتصلبهم.

كانت الخشية الصحوية من الجديد، من التغيير، وتحوله ليكون استهدافاً للثوابت مبررة. لكن كان من الخطأ الكبير تحويل هذه الخشية إلى «هوس»، فخصومهم أضعف من أن يعتدوا على الثوابت في مجتمع متدين ومحافظ.

بسبب عدم قبول الصحوة لتغيير ما دون الثوابت كي لا تكر السبحة فتصل إلى الثوابت، ظن الآخرون - حسنو النية - أن الخلل هو في هذه الثوابت بالذات!

درء المفاسد بات هو الدين.

الحرية هي خطوات الشيطان

توطدت علاقتي بالكتابة أكثر فأكثر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وذلك بعد أن تفرَّد بالساحة السياسية كُتَّابٌ ملأوا ببكائياتهم ودموعهم الساحة، منددين بالصحوة الإسلامية وبتيارات الجهاد في سبيل الله كافة، ومحرضين الحكومات، وخصوصاً الحكومة السعودية، على قمع كل أشكال العمل الخيري الإسلامي ووقفها بزعم أنَّها عملٌ سريٌّ يوفر الدعم اللوجستي للجماعات التكفيرية والجهادية. كما طالبتها بشنِّ ضربات استباقية من أجل تجفيف منابع التدين بطريقة تستلهم الطريقة الاستئصالية التونسية.

بتُّ مضطراً إلى فعل شيء ما، لوقف هذا الهجوم غير الأخلاقي والشرس ضد التدين وأهله. ماذا عساه أن يكون هذا الـ «شيء ما» بالنسبة إلى متأتئ لم يتعافَ، إن لم يكن الكتابة.

كان الجو مشحوناً وكانت الساحة ثائرة، وبالقدر نفسه، كانت الكتابة.

ضعف الساحة التقني جعل بعض «الهاكرز» يسيطرون عليها لفترات غير قصيرة. ضعفها هذا لم يسمح فقط للـ«هاكرز»، بل ولأجهزة الحكوماتْ الرسمية بمراقبة ما يُكتب.

تم القبض على بعض مؤيدي تنظيم القاعدة من خلال اختراق

الجدار الأمني للساحة، وكذلك من خلال عناصر الاستخبارات التي كانت تكتب بشكل تبدو فيه أنَّها معادية للدولة ومؤيدة للقاعدة!

لم أكن ضد الحكومة، ولهذا لم أخف كثيراً من نتائج ما سأكتبه. كنتُ جامياً «على خفيف» وقتها.

كانت الساحة هي الناطق الرسمي عن الشعوب. وشريحتها السعودية كانت بمثابة مقطع عرضي للشعب السعودي ونقائصه؛ النميمة، الفضائحية، سب الحكومة، التهجم على العلمانية والعلمانيين، سب الشيعة والصوفية والتحذير من خطرهم، المرأة ثم المرأة ثم المرأة، وغيرها كثير.

لم يكن الكُتَّاب من الجنسيات الأخرى يزيد عددهم على أصابع اليدين، غالبيتهم من الكويت والإمارات. التواجد الشامي والمصري كان فقط في بدايات الساحة حين كان مسموحاً لمن شاء أن يقول ما شاء. سمح ذلك للملاحدة والشيوعيين والكفَّار العرب من الشام ومصر في البدايات بقول ما يشاؤون قبل أن تغيَّر الساحة من سياستها وتضع بنود دستورها وقانونها الذي حدَّ قليلاً من غلواء الكتابات العلمانية والإلحادية التي كانت تستهزئ بالذات الإلهية على وجه الخصوص وبالدين عموماً.

في الساحة السياسية تجد لغةً عنيفة، وأفكاراً متمردة، واصطفافاتٍ، وتكفيراً، وتبديعاً، ودعواتٍ مبطنة للقتل، وتحريضاً مستمراً للحكومات وللجماعات، وخداعاً، ونفاقاً، وتستراً، وكذباً صريحاً. ستجد في السياسية أيضاً غرائب كأن يكتب الكاتب موضوعاً باسم مستعار ثم ينقد ما كتبه باسم آخر! والسبب أنه يريد لفت الانتباه إليه، فالرد يستوجب رداً، ثم رداً على الرد ثم رداً على رد الرد، وهكذا. . .

في الساحة كما في المنتديات الأخرى الردود الأحدث تجعل الموضوع في مقدمة المواضيع المعروضة.

أيها المهمش أنت في المقدمة.

ستكون متفائلاً مثلي إن ظننت أن الإنترنت سيكون لنا وحدنا نحن المهمشون. للأسف أن للحكومات رأي آخر. لقد وظّفت أتباعاً يقومون بالكتابة نيابة عنها مدافعين عن كل سياساتها، ومبررين كل أخطائها، ومسوقين رأيها وحكمتها وبُعد نظرها. إنه وجهٌ آخر لما يحدث في الصحافة الرسمية.

غالب ما يوجه للحكومة من نقد يأتي ممن يكتبون من الخارج ممن لا تستطيع يد الحكومة أن تنالهم.

لهذا تجد أن أعضاء الساحة الحكوميين يتواطؤون على اتهام كل من ينتقد الحكومة السعودية بأنه غير سعودي، وإلا لما كتب من خارج السعودية!

كُتَّاب الإنترنت يملكون فرصاً أفضل في الإفلات بعكس كتَّاب الصحافة الرسمية.

في الصحافة الرسمية قد لا تستطيع نشر ما تريد قوله حتى لو كنت على استعداد لتحمل نتيجته من جرجرة وتحقيق ومحاكم وسجن. أنت لا تستطيع أن تقول ما لديك، لأنك لا تملك أن تفعل شيئاً تجاه أخف النتائج سوءاً، الحصار الذي سيُمارس عليك. هذا فضلاً عن أن ما تريد نشره سيمر على الكثير من الرقباء الرسميين، ومنهم رجال يعملون في المباحث العامة تحت غطاء الثقافة والإعلام والعمل الصحفي. إذا كان في ما كتبته ما يسيء، لن يُشطب، بل ستُشطب أنت! ستدفع الثمن في سبيل كلام لم ينشر، بطريقة أخرى: في سبيل لا شيء!

في الإنترنت تستطيع أن تقول ما شئت تحت اسم مستعار. قد تمسك بك الجهات الرسمية إذا عرفت من تكون، وهذا واردٌ جداً، وقد تُفلت بجريمتك، وهذا وارد أيضاً، لكنك تستطيع أن تنشر ما سيكون سبباً في إيداعك السجن لاحقاً إذا تم رصدك والقبض عليك، على عكس الصحافة الرسمية التي لن تسمح لك بالنشر ابتداءً.

بدأتُ الكتابة في الساحة السياسية على استحياء. دافعت عن الطالبان ضد المواضيع الكثيرة التي انهمرت تسخر منهم وتستسخف عقولهم ومشروعهم. لم يكن النقد أميناً، كعادة غالب نقدنا المُزوَّر.

شيئاً فشيئاً وتحت ضغط العنف اللفظي الآتي من الخصوم بدأت لغتي تحتد. تفرغتُ ابتداءً للرد على ما يُنشر في الجرائد الرسمية من بعض الكتَّاب الذين رموا قفازاتهم وبدأوا يضربون بأيديهم العارية.

في الظروف الاستثنائية يكثر المستثمرون، ويختلط مفهوم الجرأة بالوقاحة، والشجاعة بالتهور، والعلم بالدعوى. والوطنية بالنفاق، وكما قيل فالوطنية هي سلاح المنافقين الأخير...

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، خرجت فئراننا من جحورها. وأطلَّ الاستئصال الكريه برأسه.

نقد يومي وتحريض متواصل على كل مظاهر التدين وأشكاله. تشكيك في المشاريع والمباني الدينية. تهجم على المشايخ والعلماء والدعاة.

لم يكن الإعلام السعودي في يوم - من وجهة نظري - إعلاماً متديناً مهما نقل تلفازه صلوات الحرمين وخطبة الجمعة، لكنه لم يكن ليجرؤ على مهاجمة التدين كما حصل بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر!

وجدت الحكومة نفسها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في مأزق.

كانت تريد أن تتبرأ من غطائها التعليمي والديني والاجتماعي الذي أفرز الانتحاريين الخمسة عشر. كانت تريد أن تقول للعالم إننا علمانيون، أو إننا في أسوأ أحوالنا أطيافٌ متنوعة بدليل هذه الحوارات الداخلية المستعرة.

حصلت فروزات تشبه إلى حد ما نظرية الفسطاطين الذي نظَّر لها أسامة بن لادن؛ فسطاط نفاق لا إيمان فيه، وفسطاط إيمان لا نفاق فيه. من ليس معي فهو ضدي على طريقة جورج دبليو بوش.

كنت تقرأ السباب في كل مكان؛ صحونجي، قاعدجي، وهابي، متطرف، طالباني، تكفيري، خارجي... إلى آخر القائمة. وعلى الجهة الأخرى لم يكن رد الفعل المصطلحاتي لدى بعض شباب التيار الديني يقل سوءاً؛ علماني، ليبرالي، عميل، كافر، مرتد، منافق، مباحث إلى آخر القائمة...

كانت معركة حقيقية - حول ما هو غير حقيقي - انغمس فيها الكثيرون.

المحبط جداً هو انغماس نُخب ورموز من الطرفين كانوا يشبهون شباب تيارهم في درجة البذاءة والسطحية!

انكشفت هشاشة البنية الداخلية، وبان أننا في عصر «طفرة»...

كما هي الحروب، كان ضحايا هذه الطفرة أكثر من مجرميها. لم يقع الضرر فقط على البشر، بل طال التاريخ والدين والفكر. كانت الموضوعية أول ضحايا هذه الحرب «الطفرة».

كان صوت القذائف الصاروخية مدوياً، تماماً كأصوات مدافع حملة نابليون على مصر، في آذان بعض الحالمين المتفائلين!

كانت فرصة التيار التغريبي التاريخية للسيطرة على كل منافذ التعبير وطرد جميع الأصوات المعارضة. كان سلاحهم الأمضى والأخير هو اتهام الآخرين بعدم الوطنية والانتساب السري إلى الجماعات المتطرفة ودعمها والتبرير لها!

كانت حرب قذرة بكل معنى الكلمة.

أدى الهجوم الشرس والسافر إلى تضعضع في بنية التيار الديني الخارجية التي كانت تهتز بفعل الخلاف الجامي الصحوي. تحوَّلت قلَّة من التيار الديني إلى الليبرالية، وهي قلَّة مدعومة من بعض المتنفذين لم تكن تملك مشروعاً أو رؤية تقدمها للناس، ولم تكن تملك سوى «التمرد» والجهر بنقد التيار الديني من الداخل.

استُخدمت هذه القلَّة لاحقاً استخداماً غير أمينٍ من لدن أطراف كثيرة بغية ضرب التيار الديني الذي ظل الطيف الواسع منه متماسكاً رغم الضربات التي تلقتها بنيته الخارجية.

برزت هذه المجموعة الصغيرة لتأخذ لها مكاناً استراتيجياً بين الفرقاء، بزعم أنها فرقة محايدة متنورة تملك أن توائم بين الإسلام والليبرالية بسهولة ويسر.

كانت هذه المجموعة المدعومة هي أداة مهمة لضرب الإسلاميين من داخلهم، خصوصاً إذا علمنا أن أفراد هذه الفرقة هم متشددون سابقون قاموا إبان تشددهم بعمليات تفجير وتكسير لبعض محلات الفيديو بزعم أنها محلات خنا وفجور وكفر! وهو الفعل الذي لم تقره في حينها الفعاليات الصحوية بغالبية أطيافها إنْ صدقاً وإنْ نفاقاً!

أصبحت هذه المجموعة المتمردة رأس الحربة في الهجوم ليس على الإرهابيين والتفكيريين بل على الصحوة ومشايخها بعامة، في محاولة لربط الصحوة ومشايخها بالإرهاب والتكفير.

لم يكن الكثيرون يعون أنَّ كون أفراد هذه المجموعة ضحايا أو شهود العيان لا يعطيهم امتيازاً خاصاً يدفع الآخرين إلى قبول كل ما يقولونه على بياض!

كانت حجج هذه الفرقة الشرعية والعقلانية ضعيفة. كانوا مجموعة من الشباب المتهور العنيف يريدون تحقيق ما يصبون إليه بسرعة وعلى عجل. وهي العادة ذاتها التي لم تفارقهم حين تلبرلوا. شهور قليلة وإذا أحدهم ممن لا يملك سوى شهادة الكفاءة المتوسطة ينادي بالإنسانية، وإذا الآخر زميل الدراسة يصبح كاتباً لـ **جريدة الشرق الأوسط** يعيش في لندن، وإذا الثالث يتحول إلى أقصى الضفة ليكون كاتباً علمانياً صرفاً ينادي بالعلمانية علانية، ويتلمَّظ أطروحات محمد أركون كلما سنحت له الفرصة!

كانوا كما هي الجامية، صنيعة أخرى لسيِّد الفخَّار. لقد أدرك مخرج المسرحية كيف يُحرِّكهم على خشبة المسرح، فموَّه أهدافه كي تبدو كما لو أنَّها أهدافٌ شخصيةٌ خاصة بكل واحد من أفراد هذه المجموعة، فكلهم كان يبحث له عن متنفس بطريقة ما، عن كوَّة يعبر فيها عن ذاته، عن اسم رنَّان، عن واقع جديد ديناميكي، عن احتواء لم تستطع الصحوة توفيره.

بعد زمن قصير ستتشظى هذه المجموعة بالكامل، وتختفي بالسرعة نفسها التي ظهرت بها، وبالسرعة نفسها التي ظهرت فيها الجامية واختفت.

ترسخت شيئاً فشيئاً لدى العلمانيين التغريبيين أن ربيعهم قادم. كيف لا والعالم برمته معهم. وكذلك المتنفذون الذين نصحوا الحكومة بفتح جهازها الإعلامي على مصراعيه لهم لإثبات تحوِّلها عن المحافظة إلى التغريب.

لسوء حظهم لم تجرِ الرياح كما يشتهون.

لم يكن السبب قوة المشروع الصحوي وتغلغله فقط، بل وتنافر مصالح خصومهم وتضاربها، وهم الذين لم يلقوا تأييداً على بياض من لدن الحكومة التي تتوجس من العلمانيين كما تتوجس من الإسلاميين، فللسلطة فرضياتها المختلفة طولاً وعرضاً.

الأكيد هو أنَّ الصحوة لم تنهار، بل امتصت الصدمة الأولى بطريقة مدهشة، ونقلت المعركة التي أرادها المتنفذون أن تجري على أرضهم، الأرض الرسمية، إلى الأرض الاعتبارية، الإنترنت.

لقد تغير وجه الساحة الإعلامية. بات العلمانيون الذين مردوا على التظاهر بالأدب واحترام حرية الرأي وحقوق الإنسان أكثر حدة وتطرفاً وعنفاً. مع النت، وفي بيئة تسمح لوجود منافسيك في ظروف حرية مساوية، تظهر حقيقتك.

لقد استُخدم الإنترنت بشكل فعَّال جداً في فضح ارتباطات التيار العلماني بالمتنفذين وبالسفارة الأمريكية.

وأصبح لنا القدرة على الهجوم عليهم وكشف تهافت حججهم ومنطقهم وشُبُهِهم وإثبات أنها ليست أكثر من رجع الصدى لحجج المستشرقين الصليبيين وأذنابهم من علمانيي الإلحاد العربي السابقين ومنطقهم وشبهاتهم.

انغمستُ أكثر فأكثر في السجال.

اشتد عود قلمي، ودلفت إلى الكتابة المقالية الجادة، والحادة في أحيان كثيرة، ثم الساخرة العنيفة التهكمية في نهاية المطاف.

كانت حدتي أكبر وجرأتي أو وقاحتي أشد لأنني نشأت وكبرت على كره النفاق والدجل. كان هذا الكره هو الشيء الوحيد الذي احتفظ بمكانته رغم كل التحولات التي مررت بها.

نجحتُ في كلا الأسلوبين، وبات لي اسماً معروفاً، وتضخم رصيدي من المعجبين. وأصبحت المتحدث الرسمي «الاعتباري» عن الصدق والأمانة والشرف والنزاهة والعفة، والناطق «الاعتباري» عن الجهاد في سبيل الله، والمصدر «الاعتباري» المسؤول عن دحض حجج المنافقين والشيعة والصوفية تجاه «الوهابية» و«الجهادية»، وتجاه مدارس تحفيظ القرآن الكريم والمراكز الصيفية والتسجيلات الإسلامية والجمعيات الخيرية والأنشطة الإسلامية بعامة.

لم أكن أتطرق للحكومة، خشيةً على والدتي العجوز.

ولسبب آخر، هو قناعتي أنَّها معركة خاسرة، ففيما لو وجهت سهام نقدك للحكومة فسيتم القبض عليك بدعوى التحريض. لن تكتب الصحافة الرسمية شيئاً عنك، قد يكتب كاتب أو اثنان عنك في الإنترنت لشهر أو شهرين، سيكتبون وهم خائفون، وستمر ذكراك السنوية على محبيك الذين سيكونون منشغلين بملاحقة لقمة عيشهم.

ستخسر كل شيء، من دون أن تحصل أنت أو قضيتك الشرعية على أي شيء، ستظل قضيتك على حالها. أنت فقط لم تعد كما كنت. كل شيء آخر بقي كما كان، هذا طبعاً في أحسن الأحوال، وإلا فسيجني بعضهم الكثير من الأرباح على قفاك. كتّابٌ صحافيون ومحررون ورؤوساء تحرير سينثرون أحبارهم في الحديث عن تهورك ووقاحتك وعدم وطنيتك!

إنَّها معركة خاسرة. معركة الإنسان البدائي في مواجهة الديناصور.

أنت لا تأمن على نفسك، إذا قلت ما هو جائز شرعاً مرفوض حكومياً.

في بلادنا العربية حين تكتب عن خطأ وقعت فيه الحكومة فأنت تكتب عن شيء خطير جداً.

إنك في حقيقة الأمر تجلب الحكومة إليك، تدخلها إلى حياتك.

تأكد أنها لن تكون ضيفاً خفيفاً.

سيحدث لك ما يحدث في الأفلام حين تُرتكب جريمة ما. ستكون أنت الجريمة الغامضة التي يُشحذ من أجلها أعتى العقول والأجهزة. سيبدأ المحققون في البحث في موقع الجريمة، سترفع كل بصماتك، وسيُبحث في سجلك الحياتي. وسيجري التحفظ على جميع ما لديك. سيتألمون لأن الشرع، وربما قبيلتك، لا تجيز لهم التحفظ على أهل بيتك!

ستتمنى أن لا تعود إلى بيتك. لم يعد بيتك منذ اللحظة التي فتحوا فيها أبوابه عنوة. لم يعد هناك ثمة علاقة خاصة بك وبالأشياء من حولك.

ستضطر للزواج بتلك الفتاة التي ضاجعتها في لحظة نزوة وتعيش معها ما تبقى لك من حياتك. لا ضرورة للقول بأنك في الحقيقة تتزوج الشك تحت سمع وبصر الخوف ويدك في يد مأذون الحكمة والروية والأمن.

السجن، النفي، الحصار، النبذ، هي كل ما ستلقاه إذا تهورت. حين تتهور أنت لا تخطئ، بل ترتكب جريمة، وجريمة خطيرة.

الجامية

حمَّام ساخن جداً تحت شمس أغسطس الحارقة، حرارة مُضاعفة، هذا ما شعرت به حين سمعت الشريط.

كان الشريط الذي أهداني إياه صاحبي الجامي بعنوان «البنا وسلمان في الميزان»، تكلم صاحبه بوقار شديد على السلف الصالح وعلى أئمة السنة ثم سرد الكثير من الآثار السلفية عن موقف السلف الصالح من البدعة والمبتدعة، وعن خطورة الفرقة، وعن ضرورة لزوم طاعة ولاة الأمر وخطر الخروج عليهم. . .

ثم تكلم على فقه الواقع، وفنَّد الدعاوى التي تصم العلماء بالجهل بالواقع، والبعد عن دراسته، والانفصال عن حركة التاريخ، والتأثير السياسي. . . حتى تلك اللحظة لم أفهم السبب من قول هذا كله!

ثم تكلم على الشيخ حسن البنا رحمه الله ووصفه بالمبتدع، متكئاً على ما ورد في بعض الكتب والمقالات التي كتبها الشيخ حسن أو كتبها أتباعه عن حضوره لبعض الحضرات الصوفية ومشاركته فيها وغير ذلك من مواقف مشابهة. هنا بدأت أشعر بالضيق.

كل ما قاله كان مقبولاً نوعاً ما بالنسبة إلي، خصوصاً مع قناعتي حينها بتساهل بعض المفتين والمشايخ المصريين ومخالفات بعضهم

العقدية والتي من ضمنها السكوت عن الطواف بالقبور والأضرحة مع ما فيه من مخالفة صريحة لجناب التوحيد.

انتقل بعد ذلك الشيخ المتحدث إلى الحديث عن مشايخ الصحوة، فوصم الشيخ سلمان العودة بالمبتدع! تفاجأت، فلم أعهد هذه الجرأة في تبديع شيخ سعودي!

ودليله على هذا الابتداع، أن آثار السلف كانت تقول «من آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، والمحدث هو المبُتدع، والآوي هو المناصر أو الداعم لوجستياً أو معنوياً في عرف اليوم. ولأن الشيخ سلمان العودة وصم الشيخ حسن البنا - المبتدع في عرف صاحبنا - بأنَّه أحد المفكرين المجددين، لذا يصدق على الشيخ سلمان أنه مبتدع مستحق للعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لأن مادح المبتدع مناصرٌ له، وبالتالي يصبح مبتدعاً هو الآخر!

واتكأ على عشرات الآثار السلفية لأئمة في الدين، كان ينقلها حصرياً من كتابين، هما كتاب **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** للإمام اللالكائي وكتاب **السنة** للإمام أبي بكر الخلال رحمهما الله.

كانت هذه الكتب في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وتحوي الكثير من الآيات والأحاديث، لكن الشيخ كان يضرب صفحاً غير أمين عن هذه الأحاديث والآيات ليتمسك بأقوال السلف وآثارهم الخاصة بغربة أهل السنَّة وقلة عددهم في مقابل المبتدعة. لم أعرف وقتها كيف أفرز هذا عن هذا، وقدسيَّة هذا عن بشريَّة هذا...

عرفتُ ذلك متأخراً جداً.

لمَ كان يفعل ذلك؟

حتى اليوم لا أدري، هل كان باعثه بريئاً، هل هو الجهل، أو سوء النية؟

كل هذا لا يهم. . . .

الأكيد هو أن ذلك قد وقع من قلبي موقعاً غريباً، فلقد وجدتُ فيه خروجاً على المألوف، ودعوة من لدن الشيخ للعلم الشرعي «السلفي» الحقيقي. حلم جديد وأمنية جديدة يحملان أملاً بتغيير حقيقي في هذا العالم المُحبِط جداً. تغيير تجاه العودة إلى الجذور. بطولات القلّة السنية في مواجهة الكثرة المبتدعة.

نعم هكذا ينبغي أن يكون التغيير.

لم أكن أدري وقتها أن أحلى الأشياء قد تصيب بمرض السكر.

كان ذلك الشريط دعوة مجانية للاصطفاف والتحزب والتسخين من أجل حرب طاحنة وشاملة، فالأمر بين سنَّة وبدعة، وأمر كهذا يغدو في السعودية أمر حياةٍ أو موت!

لم يكن لي من تعليق على ما سمعته ذلك اليوم. فقط سألت صاحبي: من كان هذا الشيخ؟

قال: طالب علم اسمه فريد المالكي. لم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل. أخذ صاحبي يسرد لي محاسن هذا الشاب وقوة حافظته (في السعودية إذا أردت أن تمدح طالب علم وجب أن تُثني على حافظته!) وحلمه ورسوخ علمه، وأنه طلب العلم على كبار العلماء «السلفيين» (من هنا بدأ تمايز الهويات) كمفتي عام المملكة الإمام ابن باز رحمه الله وعضو الإفتاء الشيخ صالح الفوزان حفظه الله، وبعض مشايخ المدينة النبوية، مثل الشيخ ربيع المدخلي والشيخ محمد أمان الجامي رحمه الله.

حتى تلك اللحظة لم أكن قد سمعت بربيع المدخلي ومحمد أمان.

بالنسبة إلى شاب صغير، كان دخول هذا النوع من المعتركات تجربة ممتعة...

بدأت منذ ذلك اليوم أفتح عيني أكثر، وأغلق فمي بإحكام، وأترك أذني تستقبل.

بدا يتكشف لي ما كانت تخفيه الابتسامات الصفراء واللقاءات غير الحميمة التي كانت تحدث بين الشباب الجامي وشباب الصحوة. هناك شرخ ما، شيء يحدث في الخفاء.

بدأت الأشرطة الصوتية البيضاء غير المرخصة تنتشر في كل مكان. لم تكن أشرطة سياسية ضد الحكومة، بل على العكس، كانت أشرطة سلفية جامية تُركز في غالبها على طاعة ولاة الأمر والتحذير من الابتداع وأهله. لم أستطع فهم عدم ترخيص الرقابة لهذا النوع من الأشرطة والتي تصب مضامينها في خدمة الحكومة!

كان يُقال لنا: إن السروريين والقطبيين - أعداء السلفية - يسيطرون على مواقع القرار بالفسح أو المنع، لهذا لم يكن بالإمكان فسح هذه الأشرطة في ظل تلك الظروف! كان ذلك أمراً غير مفهوم بالنسبة إلي، كيف لا تستطيع الحكومة منح تراخيص بالفسح لأشرطة تدعو لطاعتها؟!

بدأت تصلني الأشرطة تباعاً من صديقي الجامي إياه الذي كان يمونها بسخاء لكل ملتحٍ يصادفه. صديقي الجامي هذا هو أحد طلبة العلم الشرعي. كان يدرس في جامعة الإمام محمد بن سعود في قسم الشريعة في الرياض صباحاً، وفي المساء يحضر إلى حلقة الشيخ ابن

باز رحمه الله. كانت تربط أخوه الجامي المتشدد جداً بالمشايخ الجاميين علاقات صداقة ومحبة وود، بالإضافة إلى علاقاته الودية الأخرى مع مجموعة من الأمراء والوجهاء.

دُقت طبول الحرب منذ اللحظة التي دُشنت فيها حملة تدفق الأشرطة البيضاء. كانت هذه الأشرطة تنتقد مشايخ الصحوة وتصفهم صراحةً وعلانيةً بالابتداع والحزبية والسرية والانتماء لتيارات ما يُعرف اليوم بالإسلام السياسي كالإخوان المسلمين وحزب التحرير. ظهرت في ما بعد تسميات جديدة على الطرفين، كالقطبية نسبة لسيد قطب رحمه الله، والسرورية نسبة إلى محمد سرور زين العابدين، والجامية نسبة إلى محمد أمان الجامي رحمه الله، والحدادية نسبة لأبي عبدالله الحداد، أحد طلبة الشيخ ربيع المدخلي في السابق ومن سينقلب على شيخه لاحقاً، وغيرها من التسميات والتصنيفات...

كانت غالب هذه الأشرطة تصدر عن مشايخ المدينة النبوية، أشهرهم ربيع المدخلي ومحمد أمان الجامي. حمل الشيخان لواء فضح ما سمياه تيار الإخوان المسلمين والقطبية المتلبس - حسب رأيهما - بالسلفية زوراً وبهتاناً...

منذ تلك اللحظة بدأ هذان الشيخان وطلابهما عملاً انتحارياً حقيقياً كان يهدف إلى عمل مذبحة «معنوية» كبرى في أوساط مشايخ الصحوة. تنوعت طرق وأساليب هذا العمل بين نقد مبطن على استحياء في البداية، ثم تصريح بالأسماء في المنتصف، وانتهاءً بدعوة تحريضية للسلطة للتدخل ضد من زعموا أنهم سيقومون عما قريب بانقلاب وخروج على ولي الأمر! اعتمدوا في فعل هذه المذبحة على دعم حكومي حاول قدر استطاعته أن يبقى في الظل، لكنه لم ينجح في فعل ذلك، بعد أن جرى تسريب الكثير من التوصيات التي حملها

فريد المالكي وغيره إلى أمراء المناطق والمحافظات لتوفير الدعم بأنواعه للشيخ حامل التوصية.

على الجهة الأخرى، لم يقف تيار مشايخ الصحوة مكتوف الأيدي، بل شنَّ «بعض» مشايخ الصحوة حرباً لا هوادة فيها ضد مشايخ المدينة، ووصفوهم بأوصاف ليست أكثر بياضاً من تلك التي وصف بها مشايخ المدينة مشايخ الصحوة. وهكذا ابتدأت حرب ذات «الصوتيات».

انجرَّت لهذه الحرب أقدامٌ كثيرة. حصل اصطفاف كبير على الجهتين. وتنقلات من معسكر إلى آخر وفق العاطفة أو المصلحة أو القناعة. كانت التنقلات في الغالب من تيار مشايخ الصحوة إلى تيار مخالفيهم، وهذا أمر طبيعي فلقد كان تيار الصحوة هو الأكبر والأقوى، وهو الذي جرى عليه النقد والتحذير من خطورته، زد على ذلك أن اختيار مربع الجامية كان هو الاختيار الأكثر راحة. فهو تيار ينبع من التراث السلفي، زد على أنَّه لا يُعرِّض أصحابه لمواقف سياسية محرجة أو قلقة أو متنافرة سواءً مع الحكومة أو مع الشريعة أو مع هيئة كبار العلماء.

وجدت أسماء كثيرة فرصتها للظهور على العلن. «الاتجاه المعاكس» الصوتياتي ترسخ ونما بسرعة كبيرة. الكل يريد أن يخرج على النسق الرتيب، وأن يأخذ حقه في البطولة، وأن يذهب بطموحاته التي قد تكون، لسوء حظه وحظنا، مشروعه إلى أبعد مدى.

استمر التراشق والسجال الصوتي ردحاً من الزمن. كانت الأمور تبدو وكأن المملكة لا تستطيع العيش من دون أزمة داخلية. فرغنا من صخب أزمة الخليج لنقع في أزمة التراشق الديني!

نظرة واحدة لعناوين أشرطة التسجيل الصوتية لتلك الفترة تكفي

للدلالة على حجم الاحتقان الصحوي - الجامي. أشرطة كثيرة ومشايخ كُثُر خرجوا فجأة ليتسيدوا الساحة، متسلحين بأدوات الجرح والتعديل والجرأة، فأشاعوا جواً من الفوضى والارتباك الشديدين.

المدهش أنَّه ورغم هذا الخلاف الحاد كان الجميع متفقين ضمنياً وسكوتياً على وجوب أن لا يخرج هذا الخلاف للعلن، فلم يكن أي من الفريقين على استعداد لتحمل تأنيب الضمير الناشئ من تسببه في تنفير الناس عن الدين. كان الجميع يريدون حرباً تشبه الطلاق الذي لا يتضرر منه الأولاد.

انزلقت قدمي بعد زمن من الممانعة لتصطف إلى جانب الجامية. كل ما حولي كان يدعوني لهذا. ولم أكن أملك من الوعي ما يجعلني أرى المشهد كاملاً، فأعرف من المستفيد ومن الأحمق ومن الضحية. زد على ذلك أن الصحويين بدأوا بمعاملتي كجامي قبل أن «أتجيم» بمدة طويلة، بسبب مصاحبتي لممول الأشرطة البيضاء إياه. . . لكن هؤلاء الصحويين لم يكونوا على مسافة كبيرة مني. كنت ما أزال أحتفظ بصداقاتي لهم. أستمع لهم. يمازحونني أحياناً بنقد الجامية أمامي وغمز رموزها على استحياء.

بلغ الاصطفاف والاحتقان مداه في مدينتي حين حضر فريد المالكي شخصياً إلى مسقط رأسي، خلال زيارة تبشيرية نزل خلالها على كثير من مدن ومحافظات وقرى المنطقة.

لم أحضر تلك الجلسة الصاخبة التي اجتمع فيها عدد كبير من الشباب المتدين على وليمة أعدها أحد الجامية الجدد للسماع إلى مواعظ «الشيخ» فريد المالكي وتبشيره بالمنهج السلفي، ذلك التبشير الذي ما إنْ بدأ حتى علا الصراخ والسباب والتسخيف. كان فريد المالكي، حسب ما نُقِل لي، حليماً جداً ومؤدباً وعفيف اللسان (إذا

لم نعتبر الوصم بالبدعة للمخالفين مخالفة لعفة اللسان). يُقال إن بعض الشباب وقفوا أمامه ليقولوا: «أتريدنا أن نترك رأي علماء الأمة وكبارها مثل الشيخ ابن باز، لقولك أنت أيها الصعلوك؟!».

كانت ليلة صاخبة جداً. بدا واضحاً بعدها أن الصف قد انقسم، وأن الجرح قد نكئ.

أدركتُ بناءً على ما جرى في مدينتي أن شيئاً شبيهاً به يجري في أماكن عديدة في الوقت نفسه.

أين كان العلماء الكبار عن كل ما جرى، فلقد كان الاستفهام الإنكاري الذي أطلقه الشاب الصحوي في وجه المالكي صحيحاً جداً؟

كان كلا الطرفين الصحوي والجامي يدَّعي أن العلماء في صفه! الأمر الذي كان يستوجب تدخلاً سريعاً من العلماء لاحتواء هذا الخلاف، ومنع إقحام أهل العلم الكبار في هذا التراشق. لكنهم لم يفعلوا. ولم تظهر في الأفق بوادر انفراج من أي نوع بل نُذُر تصعيد شديد من لدن كل طرف.

شُلَّ العقل المتدين تماماً. وبقي الكل ينتظرون الأسوأ.

بعد بضعة شهور تدخل الشيخ ابن باز، وإنْ متأخراً. كان الحل الذي لعب عليه سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله هو أن يحتوي هذه الخلافات من دون أن يجعل أي طرف من الأطراف يحشره في زمرته. لم يذكر الشيخ أياً من الطرفين المتخاصمين بسوء. كان الشيخ يعرف تماماً حجم الخلاف من خلال الأسئلة المنهجية التي ترد عليه.

راهن الشيخ على الوقت. الخلافات الصاخبة من هذا النوع السطحي لا يمكن أن تختفي بالنقاش والحجة والدليل. كانت هناك عاطفة شديدة تسيِّر غالب الصف ولن يخمدها سوى الوقت.

أثنى الشيخ ابن باز على الشيخ ربيع المدخلي وذكره بالخير، وأفاض في ذكر علمه الواسع في علم الحديث، وهو ما كان يشير إليه دائماً الشيخ ناصر الدين الألباني هو الآخر. لكنه، أعني الشيخ ابن باز، أشاد على الجانب الآخر بالشيخ سلمان العودة، بل ووصفه في تقديمه لأحد كتب الشيخ سلمان بالشيخ العلاَّمة وذكر أوصافاً مماثلة عن مشايخ الصحوة الآخرين. الألباني كذلك وصف الشيخين سلمان العودة وسفر الحوالي بأنهما من أبرز مشايخ السلفية، على الرغم من ممانعة وجدال ومحاصرة بعض طلابه.

لقد كانت سياسة الشيخ ابن باز رحمه الله سياسة نقية تماماً.

يحضرني في هذه اللحظة ما قاله أحد الأخوة السودانيين في تلك الفترة، وكنا للتو فرغنا من صلاة الجمعة: «لقد رحمكم الله بشعرة معاوية»، قلتُ: ماذا تقصد بشعرة معاوية؟ قال: «الشيخ ابن باز، هو شعرة معاوية. وحين يرحل سترى كيف تسوء الحال».

لقد كان الشيخ ابن باز بالفعل هو شعرة معاوية بين الحكومة والمشايخ، وبين المشايخ بعضهم بعضاً، وبين المتدينين والعلمانيين.

كان كل طرف من الصحويين والجامية يحتج بثناء الشيخ ابن باز على مشايخه، ويفلسف أن ثناء الشيخ على الآخرين إنما ينبع من حسن نيته وطيبته الزائدة، سذاجته، لكن بطريقة لغوية أكثر نعومة وحياء.

كنت حتى تلك الفترة لم أدخل باب التبشير التياراتي، كالطالب المستمع في سنته الابتدائية الأولى.

صدامي الأول مع القطبيين أو السروريين أو مؤيدي مشايخ الصحوة، لا أدري ماذا أسميهم، لم يحدث في مدينتي، بل كان في الجامعة حين كنت في سنتي الرابعة.

صاحبي مشبب الذي ضرب المعاكس في الشارع، كان من المقربين لي جداً، وكنتُ أدردش معه حول طاعة ولاة الأمر، وحول خطر الإنكار العلني عليهم. وصلت الرسالة ووجدته في اليوم التالي يزورني بمعية أحد أصدقائه الذي يوصف بأنه طالب علم. عرفت في ما بعد أن هذا الصديق هو ابن أخ لأحد المنفيين السياسيين المتدينين في لندن. جلسنا وجرَّنا الحديث - لا أدري إن كان مقصوداً من لدنهم أو غير مقصود - إلى ولاة الأمر، فبدأ صديق مشبب يشتم ويلعن ولاة الأمر، فذكرت له أن هذا لا يجوز، وأن هيئة كبار العلماء أفتت بحرمة هذا، فما كان منه سوى أن أزبد وأرعد وبدأ يشتم العلماء واصفاً إياهم «بهيئة كبار العملاء». نظرتُ إلى مشبب، وقلت: هل هذا شيخكم؟ أترضى بشتم هيئة كبار العلماء؟ قال مشبب: لا والله لا نرضى بشتم علمائنا.

انتهى حوارنا الصاخب، بسلام جاف جداً وسخيف، لقد بتنا أعداء.

في الغد زارني مشبب وصديقه، واعتذر صديقه عما قاله، واحتج بحالة الغضب التي اعترته. أظن أنه كان يكذب، وأن مبعث اعتذاره خشيته من أن أشي به، فلقد اشتُهِر على الألسن أن غالبية الجامية هم من المباحث.

قد يكون سبب ما قاله حول الحكومة والعلماء ظروف عمه وشعوره بالظلم السياسي الواقع عليه...

لم ينتشر في الجامعة أنني جامي، بل ظلت علاقتي مع مشبب، ومع الشباب المتدين كما هي، لكنني كنت ألحظ تحفظاً منهم في الحديث حول الشأن السياسي أمامي. لم أكن وحدي، فلقد كان هناك الكثير من الشباب من غير المحسوبين على الجامية يرفضون بعض

أفكار تيار الصحوة، وخصوصاً الشحن النفسي والسياسي للشباب والذي لا يعود - حسب رأيهم - إلا بالضرر والخطر، لكن هذه الفئة لم تشكك للحظة في مشايخ الصحوة ولا في نياتهم، بل شكَّكتْ في مشايخ المدينة وفي أهدافهم من هذا النقد الذي انصب غالبه في التطبيل لولاة الأمر.

أكاذيب عربية

حصل غزو الكويت قبل تديني بسنتين تقريباً. وقع على الجميع كالصاعقة. وخصوصاً علينا نحن الذين نرتبط بعلاقات قربى مع بعض الكويتيين.

لقد ظن الكل أن الأمر لا يعدو أن يكون قرصة أذن من الحكومة العراقية للكويتية لتتنازل عن ديونها وتعطيها حصة من موارد بترولها، وهو الأمر الذي رفضه الكويتيون. . . .

بعد أيام، وحين رأى العالم تعنت الحكومة العراقية وترسيخها لأقدامها من خلال إعلان حكومة كويتية جديدة، بدأت جموع كويتية كبيرة في الخروج من البلاد.

خرج كل أقربائي. كان آخرهم خروجاً شابٌّ مجندٌ قُبِض عليه خارج أحد المباني الحكومية. كان حارساً صغيراً لذلك المبنى.

احتاج أخوه الأكبر إلى دفع الكثير من الرشى لمنع ترحيله إلى بغداد. بالكاد لحقت به الرشى إلى البصرة، فسُمِح له بالعودة إلى الكويت، ومنها إلى السعودية عبر البر.

أحد أبناء خالتي، أخرج أهله براً، ثم عاد إلى الكويت بعد شهر. قُبِض عليه على الحدود. لم يعد بعد ذلك إلى أهله. أغلب الظن أنَّه قُتِل من لحظة القبض عليه، فتلك الفترة كانت فترة تسلل الكثير من

عناصر المقاومة الكويتية إلى الداخل عبر الأراضي السعودية، وهو ما دفع الحكومة العراقية في ذلك الوقت إلى إصدار قرارٍ واضحٍ بقتل كل من يُقبض عليه متسللاً.

أكره الحديث عن تلك الفترة. أُفكِّر في السبب، فلا أستطيع تحديده بالضبط. كل ما أشعر به هو أن أزمة الخليج كانت أزمة «عروبة» أُريق فيها الكثير من الكذب والدجل والخداع والبروباغاندا الجماعية.

لم يكن أحدٌ يتوقع تلك النتائج الكارثية لغزو الكويت، ذلك الغزو الذي لم يستفد منه عربيٌّ واحد، إذا استثنينا المرتزقة الذين وجدوا فيه فرصة لإسقاط ديونهم، ومد جسورهم، على حساب الجسد العربي الواهن.

متحف باهت، فقد روحه. هو هذا. لم تكن العروبة أكثر من متحف، لكنه بعد الغزو العراقي للكويت فقد مسمى المتحف. لقد قُصِف بقذيفة سخيفة كما لو أنَّها خرجت من حافر حمار. تشظت الروح العروبية التي كانت متشظية في الأصل، وتفرق المتفرق، وتجزأ المجزأ. لا أعني بالعروبية تلك القيمة القومية بل ذلك التضامن المشترك، أضعف الإيمان. تلك الوشيجة التي تقول لنا: لأننا متشابهون يجب أن نتشارك المخاوف نفسها والمطامع نفسها، فما يهددني اليوم سيهددك في الغد.

لطالما عجبت من هذه الجامعة التي جاءت بقرار بريطاني. أتذكر دائماً لورنس العرب الذي جمع شيوخ قبائلنا وأجدادنا حوله للدفاع عن الشرف العربي في وجه الأتراك، فقاتلوا ببسالة، وبسذاجة، لا نظير لها حتى سقط الأتراك، المسلمون الطغاة، وخرجوا عن أرضنا، وعاد لورنس إلى بلده عودة الأبطال الوطنيين الظافرين، ثم تقاسم

البريطانيون والفرنسيون، الكفار الطغاة، بلداننا وفق معاهدة سايكس بيكو الشهيرة.

قام بعدها البريطانيون بإعطاء فلسطين لليهود.

ألا يجعلنا هذا السبب الرئيس في تسليم فلسطين لليهود؟

أعطوني ذاكرة مثقوبة فأعطيكم بئراً من الذل لا ينضب.

شيئان لا يستطيع الظالم أن يحكم بدونهما؛ الأوهام، والنسيان.

أي وهم ذلك الذي يجعلنا ننتظر قراراً وحدوياً من جامعة فيها أنظمة حكم وسياسة مختلفة؟

ذاك بعثي، وذاك قومي، وذاك اشتراكي، وذاك مسيحي، وذاك ملكي، وذاك جمهوري، وذاك شيخ، وذاك سلطان، وذاك وذاك وذاك... إلخ.

حكومات لها المخاوف نفسها والمطامع نفسها. كل مخاوفها تنبع من جيرانها، وكل مطامعها في ما لدى جيرانها. ومع ذلك يتحدث الجميع بطلاقة وحماس عن خطر خارجي يهدد الأمن المشترك.

لا توجد إرادة حقيقية للخروج من هذا النفق المظلم. تشعر أن الحكومات العربية على خلاف مع شركة الكهرباء، وكأنها خفافيش لا تريد لخيط من الضوء أن يتسلل!

شعوب تنام وتصحو على البروباغندا الحكومية التي لا توفر شيئاً في سبيل تظهير شرعيتها وقوتها وحكمتها وإنسانيتها.

حلبجة التي صحونا بعد شهور طويلة على ضحاياها، مجرد قصة قصيرة لحكاية البروباغندا الحكوماتية هذه. لا ألوم جيلي الذي انساق ببراءة وعفوية شديدتين ومخلصتين وراء الضجة الإنسانية التي أعقبت

تكشف خيوط مذبحة حلبجة، فلقد كُنَّا صغاراً حينها. لكن ماذا عن كبارنا، إعلاميينا الأفذاذ، مشايخنا، مثقفينا؟ ما عذرهم؟

لَمَ لم يتكلموا وقت حصول المذبحة مباشرة؟ لَمَ لَمْ يصرخوا؟ لَمَ لم يملأوا الدنيا ضجيجاً حين كان الأطفال الكُرد يتساقطون أمام بيوتهم كالعصافير؟!

الشيخ الكويتي أحمد القطَّان كان الوحيد الذي صدع بما جرى في حلبجة رغم أنَّ حكومة بلده كانت حليفاً وسانداً للعراق في حربها مع إيران. تكلم الشيخ القطَّان وحده رغم أن الكويت كانت تمتلئ وقتها بعشرات إن لم نقل مئات العلمانيين الذين لم ينفكوا يعلكون مصطلحات «حقوق الإنسان» و«الإنسانية» و«التقدمية» و«التنوير» و«حرية الكلمة» وما يجري من «تكميم الأفواه» (لا يقصدون بالطبع استخدام كمامات الأفواه لمنع دخول الغازات السامة)... إلخ من الكلام الذي غيض حين وقعت المذبحة...

لَمَ الآن بالذات وبعد غزو الكويت عادت إلى حناجرهم قوتها؟ وعادت إلى «أرصدتهم» البلاغية مخزوناتها؟

العذر الكريه نفسه: لقد كنا تحت الضغط. كنا في حاجة إلى رص الصفوف، فالأعداء على الأبواب. الحجة نفسها التي احتج بها أمراء الحرب الأفغان للقضاء على دعوة الشيخ جميل الرحمن، السلفية التوحيدية. والحجة نفسها التي يحتج بها الصحويون حين ينتكس من ينتكس.

أليس هذا ما يقوله كل عملاء المخابرات في العالم حين يقومون بأعمالهم القذرة؟

أزمة الخليج، لم تفتح الباب على مصراعيه بل على صراعاته داخلياً وخارجياً.

انكشف الداخل السعودي تماماً.

سجال إعلامي داخلي حاد بين المتدينين والعلمانيين أجج أواره غازي القصيبي، حيث هاجم مشايخ الصحوة من خلال «خضراء الدمن»، **جريدة الشرق الأوسط**، وذلك حين وصفهم بالصدّاميين في محاولة للربط بينهم وبين صدام حسين، في اتهام سافر لهم بدعم غزو الكويت ثم السعودية لاحقاً!

أمر آخر غريب على السعوديين تسببت فيه هذه الأزمة؛ هو سؤال الذات حول «الهوية» و«الانتماء»، فهوية السعوديين وانتماؤهم كانا دائماً أمراً دينياً. لم يتم طرح الهوية والانتماء الوطني مطلقاً، لا من الحكومة ولا من خصومها. لذا حين حصل الغزو وبات الجيش العراقي على التخوم قفزت أسئلة الأنا والخارج وطفت على السطح محدثة بعض الارتباك.

هذا لا ينفي أن بعض السعوديين كانوا يستسخفون فكرة «الهوية» و«الإنتماء» برمتها، ولا يرون أنهما أكثر من شعار براغماتي قذر.

أتذكر الآن قول عبدالرحيم منصور أحد أصدقاء شقيقي الأكبر، وكان عسكرياً كبيراً، وسيأتي الكلام عنه لاحقاً: «لو دخل العراقيون إلى المنطقة الشرقية، لهربت بعائلتي إلى الجنوب. لمَ يريدون منا أن نقاتل في الوقت الذي نعلم فيه أن من قُتِلوا مؤخراً في معركة الخفجي عوملت عوائلهم بمهانة شديدة؟! لقد أخرجوهم من السكن العسكري، وأعطوهم «طفسة» دريهمات نقدية تحت ذريعة الراتب التقاعدي. لمَ أموت في سبيل لا شيء، بينما غيري يتمدد على شواطئ ريو دي جانيرو أو ماربيا، مزايداً على انتمائي ووطنيتي»!

ازداد الارتباك حين ظهرت فتوتان دينيتان معتبرتان واحدة من هيئة كبار العلماء السعوديين تؤيد السماح بدخول القوات الأمريكية

للسعودية من أجل رد العدوان وتحرير الكويت، وواحدة من الشيخ الألباني ترفض الاستعانة بالقوات الأمريكية. لم ترق فتوى الاستعانة لمشايخ الصحوة، وبالتالي لم ترق لشباب الصحوة الذين التقطوا مشاعر وآراء مشايخ الصحوة حول تلك الفتوى.

لقد كان الخلاف الفقهي حول جواز الاستعانة بالقوات الأمريكية هو كرة الثلج التي تدحرجت مكونة الخلفية لكل ما جاء بعدها.

بدا وكأن الجميع يبحثون عن إعلان القطيعة بشكل رسمي.

لقد ظنت هيئة كبار العلماء أن القوات السعودية أو العربية لن تكون قادرة على صد الهجوم العراقي المحتمل، ولهذا جاز الاستعانة بالكافر لإيقاف «البعثي». كما فعل النبي ﷺ حين استعان بدليل من مشركي مكة يوم الهجرة، وكما فعل حين استعان بصاحب بستان كافر في الطائف... إضافة إلى الاستدلال بالقاعدة الفقهية التي تقول «حين تحصل مفسدتان، ترتكب الأصغر دفعاً للأكبر»، وهي القاعدة المعروفة باسم «قاعدة أخف الضررين».

على الجهة الأخرى، كانت فتوى الشيخ ناصر الدين الألباني التي لم تجز الاستعانة بالقوات الأمريكية تستدل هي الأخرى بأدلة شرعية معتبرة...

هذه الفتاوى كانت فتاوى اجتهادية. ومن أشد المواضيع خطورة على الأمة أن تأتي النوازل وليس ثمة دليل شرعي قاطع تجاهها، فتخضع المسألة للاجتهاد، وهو ما يسمح بوجود اختلاف قوي في المسألة يُمكن أن يُبنى عليه سياسياً ودينياً لمفاصلة خطيرة قد تأخذ في طريقها أسس وقواعد كبيرة كالعيش المشترك والوحدة الوطنية والتضامن والأمن وغيرها...

خرج كتاب **وعد كيسنجر** للشيخ سفر الحوالي وشريط **سقوط**

الدول لسلمان العودة، ليبينا أن مشايخ الصحوة قد أخذوا مواقفهم. لقد كان جلياً أنهم ضد جلب القوات الأمريكية. لم تكن البدائل واضحة أو مطروحة. لقد كانت الصحوة تنطلق من موقف مأزوم. لقد وضعتها الأزمة في مواجهة مع الحكومة، تلك المواجهة التي لم يختر توقيتها أي من الفريقين.

بات واضحاً أن السعوديين في حاجة إلى رابطة عصبوية جديدة تسند العصبوية الدينية، لم يكن هذا سهلاً. خصوصاً والسعوديون يرون الكفَّار الذين طالما لعنوهم من على أعواد المنابر يطأون بأقدامهم أرض الحرمين الشريفين مدافعين وحماة!

لم تكن الحكومة لتنجح في وضع عقد اجتماعي جديد خلال أشهر قليلة. كان كل من الحكومة والشعب في حاجة إلى محمد بن عبدالوهاب حقوقي وقانوني مجدد للدولة الجديدة، يأخذ على عاتقه تجسير الهوة التي اتسعت بين الديني المتأصل والسياسي والحقوقي الطارئ لدى كلا الطرفين.

لم يعد من الممكن أن تعيش المملكة كدولة تمتلئ بالتجمعات السكانية الخائفة التي لا يربط بينها سوى طرق أسفلتية، ولا يحفظ الحقوق فيها سوى شبكة العلاقات العامة أو الوازع الديني البحت، كما كان يقول بعضهم!

كان لا بد من تغيير ما...

صدر قرار تشكيل مجلس الشورى...

خطبة إسلامية

- هناك خطأ تاريخي يُرتكب، ولا أحد يجرؤ على الإشارة إليه لشدة خطورته، دع عنك تصحيحه.

- ما هو؟

- 41 فيتو استخدمتها أمريكا ضد قرارات دولية تُجرِّم «إسرائيل»، ألا يجعلها ذلك في خندق الصهاينة «المحاربين»؟ ألا تعتبر بذلك حليفاً لـ«إسرائيل» وعدواً للعرب والمسلمين؟

لم تكن لدي حماسة للرد. ففسحت المجال لعمر كي يخطب خطب الإسلاميين المعتادة:

- كثيرة هي المرات التي أعجب فيها من إغفال المفكرين والمثقفين والسياسيين والمشايخ والكتّاب لعداوة أمريكا وحربها لنا. قناعتي هي أن أمريكا محاربة، بالمصطلح الشرعي، وينبغي مقاومتها بجميع الطرق العسكرية والسياسية والشعبية والدينية. العدو المحارِب بالمصطلح الشرعي هو ذلك الذي يحتل أرض الإسلام، فيسيطر على مقدراتها، ويقتل المدنيين، وينتهك حرماتهم، ويُقصي شريعة الله. لسنا في حاجة إلى افتراض ما هو غير واقع، ولا حاجة لنا في الهذر الكبير حول اللوبي الصهيوني في أمريكا والذي أسقط القرار الأمريكي في أحضان اليهود. انتهى هذا كله الآن، فها هي أمريكا تحتل بشكل

مباشر العراق وأفغانستان، ولا أعتقد أن هناك من يستطيع أن ينفي صفة إسلامية الأرض عن العراق وأفغانستان!

- هل تدعو إلى حرب واسعة تأكل الأخضر واليابس؟

- ألا ترى أنَّ هذه الحرب قائمة اليوم، لكنها لا تأكل سوى أخضرنا فقط؟! يا عزيزي يجب أن لا نخشى توسيع دائرة الحرب وفتح الجبهات على أمريكا والصهاينة. أمريكا والصهاينة لا يرعوون إلا حين تُفتح عليهم الجبهات.

- صحيح والدليل ما فعله حزب الله في لبنان في حروبه ضد «إسرائيل». اقتنصت الفرصة لأنني أردت معرفة رأيه حول حزب الله.

- حزب الله مثله مثل أمريكا والصهاينة بالنسبة إلي، فهو ذراع مسلَّح لإيران المجوسية. وحربه مع الصهاينة هي حرب تشبه اختلاف اللصوص على الغنائم!

- لكنهم أدموا مقلة «إسرائيل»!

- وإخوتهم الشيعة في العراق وأفغانستان أدموا مقلة العرب والمسلمين السنَّة، بالتحالف مع الأمريكان!

- دعنا لا نُدخِل الصراع السني الشيعي في الحوار. بالنسبة إلي سأقف مع حزب الله في حربه ضد الصهاينة حتى وإن كان يعمل وفق أجندة إيرانية. لا تهمني عقيدته الدينية، ما يهمني هو أنَّه أدمى عدوي واقتص لقتلانا وأسرانا! ثم ما الضير في أن يتحالف الشيعة مع الأمريكان ضد العدو المشترك؟! أليس هذا ما فعله أسامة بن لادن وكل الجهاديين في حربهم مع الروس، ألم يتحالفوا مع الأمريكان؟!

- عدو عدوي صديقي، ما لم يكن عدوي أنا أيضاً!

- طيب. دعنا نعود إلى حوارنا حول نقل عمليات القاعدة: ألا

ترى أنَّ من الخطأ تهديد السلم الأهلي لبلداننا الآمنة، فقط من أجل فتح جبهة جديدة على الأمريكان؟ خصوصاً ونحن نرى أن العراقيين والأفغان قادرون على طردهم من أرضهم.

- يضحكني ويصيبني بالغثيان، أولئك المفتون الذين يفتون بأن الجهاد فرض عين على أهل البلد المحتل، فإن لم يستطيعوا دفعه، أصبح فرض عين على البلاد الملاصقة، وهكذا. . . لا أدري كيف يغفل أو يتناسى هؤلاء أن هذا التقسيم الجغرافي الذي هو نتاج سايكس بيكو لم يكن موجوداً زمن النبوة ولا زمن الخلافة حتى سقوطها؟!

يكمل: عجباً، أيحكم سايكس وبيكو جهادنا من قبريهما؟ ويا عجباً كيف يطيعهما المفتون! والله لو علِم الأمريكان والبريطانيون والفرنسيون أن أي اعتداء على دولة مسلمة هو اعتداء على العالم الإسلامي بأكمله، وأنه إعلان حرب حقيقي يؤذن بضرب سفاراتهم في العالم العربي والإسلامي، وحرقها، وضرب قواعدهم العسكرية، لتوقفوا عن الاستهانة بنا وببلداننا. ولكانت مطامعهم في ثرواتنا وئدت في صدورهم، لكننا تحولنا بفعل هذه الفتاوى السخيفة الغبية لنكون سخرية للغادي والرائح فصرنا من أهون شعوب الأرض على الناس.

أفهم رأي عمر، فالأمور على جميع المستويات غير محسومة. والحل هو في أخذ زمام الأمور بنفسك، لأن من تعتمد عليهم من كبرائك قد أضلوا السبيل، فلا أحد يقول ما ينبغي قوله في الزمن الذي ينبغي. الكل مرتاب، يتوجس. الحكومة المتغولة تحيط بشبوكها كل شيء، وبشكل خاص، أكثر الأشياء خطراً، الفتوى الشرعية.

الكل خائف من عمل شيء ما رغم أنَّه قد لا ينطوي على ضرر على الحكومة أو على الناس، المبادرة محرمة.

لا يوجد ثمة نفق. لا يوجد ثمة ضوء. لقد جرى توظيف كل شيء لمصلحة الغول وصغاره.

أوهام كبيرة. هكذا هو كل ما نحن عليه، وفيه. أوهام كبيرة «نحن».

عمر ضحية، ضحية جميلة، نقية لفحشنا... فحشنا تجاه الحقائق الكبيرة العارية.

الحقائق العارية تُعامل لدينا كمادة ثورية. وتأخرُ كشفها يصيب باليأس، ويضاعف عدد الضحايا.

قد يكون عمر اكتشف بعض هذه الحقائق العارية متأخراً، لكن هذا لم يمنع تحوله إلى ضحية!

لقد اكشف عمر الحقيقة بالطريقة الأكثر كلفة. وذلك حين لم يصبح لهذا الاكتشاف الذي خاطر بحياته من أجله أدنى فائدة!

كلنا ضحايا الشياطين الخُرس بدرجة أو بأخرى، لكننا على عكس عمر فضَّلنا التيار، والموت مع الجماعة، مرتاحين تماماً إلى أن انتحارنا الجماعي هذا هو انتحار في سبيل الله...

نظر إليَّ ثم قال: كيف ترى أنت الحل في هذا الذي يجري؟

- أي شيء بالضبط؟

- ضعفنا، ذلنا، احتلال الصليبيين لنا. كيف ترى المخرج؟

- سؤالك صعب. وأنا شخص لا أؤمن لا بالتحليل الفردي ولا بالحلول الفردية. الموضوع يحتاج إلى دراسة مستفيضة ومشاركة أكثر من جهة.

- الله أكبر عليك! لو أخذ المسلمون طوال تاريخهم برأيك هذا لكان الكفَّار الآن يحتلون مكة والمدينة!

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الأمر واضح جداً لا يحتاج إلى كل هذا. هناك غزو من الكفَّار على أرض مسلمة، وواجب المسلم الحق هو أن يدافع عن أرض المسلمين، أليس كذلك؟

- بلى هو كذلك، لكن لحظة، إذا كان الأمر واضحاً جداً كما تقول، فلماذا تسألني؟

- لأعرف رأيك! يهمني أن أعرف أنَّك لم تفقد ثقتك في الجهاد!

- أنا لم أفقد ثقتي في الجهاد بل في المجاهدين! لقد أخرج العرب والمسلمون المحتل والغازي لكن من حكمهم بعد ذلك كان أسوأ!

- ألم تكن تقول لي إنَّ هؤلاء الحكَّام مسلمون، ولا يجوز تكفيرهم، كيف تقول إنَّهم أسوأ؟ ما المشكلة إذاً إذا أخرجت الكافر من أرضي وحكمني المسلم الظالم على التقسيم الشرعي المشهور حول من لم يحكم بما أنزل الله وفق تلك الفتاوى الغبية؟

- دعنا لا ندخل في الزواريب. وجهة نظري وباختصار شديد هي أن الحل يكمن في قوتنا، كدول وكحكومات وليس كأفراد فقط. العمل الفردي أو الحزبي غير نافع في قضايا مصيرية كهذه. زد على ذلك أن الجهاد الشرعي يحتاج إلى تضافر الكثير من الجهود والأجهزة. يجب أن تمتلك القوة المادية قدر استطاعتك، وكذلك القوة الإعلامية والسياسية والدينية. ونحن اليوم لا نملك شيئاً من هذه. نملك فقط إخلاصاً شديداً ورغبة محمودة في تغيير هذا الواقع البليد، لكننا لا نملكُ أدنى فكرة عن الواقع الذي نطمح إليه ولا عن كيفية الوصول إليه. لا تكفي العاطفة يا عمر. جنونٌ أن يُقاتل الشاب

في سبيل الجنَّة فقط من دون أن يُلقي بالاً للهدف الرئيس من الجهاد في سبيل الله، وهو إعلاء كلمة التوحيد ورفع الظلم وتحقيق العدالة.

غضب عمر، وسقطت منه بشكل لا إرادي دمعة حارَّة لو سقطت على الطاولة لأحرقتها، ثم قال: ألم تملوا من ترداد هذه العبارات؟ طوال ستة عقود وأنتم تعيدون وتزيدون وتكررون هذه العبارات من دون أن تقوموا بخطوة واحدة لوضعها على أرض الواقع! ألم تتعبوا من الهجوم على الجهاد وأهله؟

ها أنت ذا تقول لي إننا لا نملك فكرة عن الواقع الذي نطمح إليه، فماذا عنكم، وماذا عن الواقع الذي تطمحون إليه منذ ستين سنة، أين صار؟ أنتم لا تختلفون عنَّا في شيء. الفرق هو أننا اكتشفنا هراء هذه الفكرة فأخذنا زمام الأمر بأيدينا، بينما أعطيتموه أنتم للحكومات!

كان واضحاً أنني لا أستطيع الإدلاء بتصريح، ففضَّلت الصمت.

أم القضايا التافهة

لا أعرف مسيرة لقيت الذي لقيته هذه المسيرة، سوى مسيرة هدى شعراوي التي انتهت بحرق الحجاب الإسلامي في الميدان الذي عُرِف في ما بعد بميدان التحرير!

كونها مسيرة مطالبة بقيادة المرأة للسيارة لا يعني أنها كانت مسيرة بريئة، على الإطلاق، لكنها حتى وهي في أسوأ نواياها خبثاً لم تكن تستحق كل ذلك الضجيج.

لم أشك ولو للحظة في أن وراء هذه المسيرة شخصيات فاعلة جداً أرادت تخفيف الضغطين الداخلي والخارجي جراء السماح بوجود القوات الأمريكية على أرض الحرمين الشريفين مهوى أفئدة المسلمين ومهبط الوحي الرباني.

لم يكن لهذه الضغوط الخارجية ما يبررها، لكنها الماكينة الإعلامية في الأردن والسودان والجزائر واليمن التي استطاعت رغماً عن أنف إعلام البترودولار أن تثير الغضب والسخط. حتى الدول التي تضامنت مع دول الخليج في تلك الأزمة من أجل مصالحها الخاصة، لقيت معارضة داخلية شديدة.

باختصار كان العالم العربي شعبياً ضدنا.

نجح إعلام صدام وفشل إعلام البترودولار، فيكفي أن تمد يدك

لأمريكا لتكون خائناً وعميلاً وكافراً لدى أرباب الإعلام العربي المعاصر، فتلك اليد ليست لك، ولا يهم بعد ذلك اليد التي أثكلتك وإن كانت عربية!

المسيرة النسائية لم تكن أكثر من عقدٍ مصلَحي، رغم كونه لدى بعض القائمين عليها وفيها مطلباً عادلاً، لكن النوايا الطيبة تغدو بفضل السياسة خبيثة إنْ فضَّل صاحبها تقاطع المصالح على نقاء الهدف.

مجموعة من النساء بينهن دكتورات جامعيات وكاتبات وفتيات صغيرات، مجموعة من النخبة ذات الهوى الغربي، يقدن سياراتهنَّ في أحد أكثر شوارع الرياض شهرةً، من دون أن تلبس أي واحدة منهنَّ حجاباً شرعياً يغطي رأسها أو وجهها كما قيل، في خطوة عُدت بمثابة تحدٍّ سافرٍ للدين وسلطة القائمين عليه.

ماجت الرياض، وهاجت، وتبعتها مناطق كثيرة، فتدخلت الحكومة على عجل بالقبض على أولئك النسوة وأخذ التعهدات الخطية منهنَّ ومن ذويهنَّ بعدم تكرار ما حصل. كاد الأمر يخرج عن السيطرة بعد تجمع الشباب المتدين أمام مبنى إمارة مدينة الرياض التي كانت متهمة في ذلك الحين، حتى وصول المفتي العام سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله الذي أمر الشباب المتدين بالانصراف لحال سبيله، بعد أن أعطاهم العهود والمواثيق على متابعته شخصياً لهذه القضية المقلقة.

انفجر جرحٌ وطنيٌّ آخر بمسيرة غبية لم يوفق أصحابها في توقيتها ولا في طريقة إدارتها.

هاج الشعب السعودي عن بكرة أبيه، وهو ما لم يحسب حسابه أكثر المؤيدين والمتفائلين لهذه المسيرة. كانت بمثابة طعنة في الظهر بالنسبة إلى الجميع. وطعنة للظهر «سافرة بلا حجاب» بالنسبة إلى المتدينين على وجه الخصوص.

لم يكن ما حصل من كتابة التعهدات، والفصل من الوظائف - في حق بعض المشاركات في المسيرة - كافياً لدى الشباب المتدين الذي بلغ غضبه مداه، فسارت الركبان بقوائم تضم أسماء المشاركات وأزواجهن، والانتماءات الأيديولوجية لكل واحد منهم، فتلك شيوعية وزوجها الكاتب الشيوعي المعروف، وتلك يسارية وزوجها المسؤول اليساري الكبير وذلك الدكتور العلماني وزوجته الملحدة و. . و. . في قوائم لا أحد يدري مدى صحتها، وإن كانت انتماءات بعض من جاءت أسماؤهم في القوائم واضحة ومعلنة ومشهورة.

اشتملت بعض القوائم على دعوات للتصفية، وعلى تهديد شديد اللهجة تجاه الحكومة بأن شرعيتها وشريعتها الإسلامية على المحك، لدفعها لاتخاذ موقف حدي قضائي. لم يحدث أي من الأمرين، بل إن الإقصاء عن الوظائف لم يستمر طويلاً. أعيد الكثير من تلكم النسوة إلى وظائفهن في ما بعد بهدوء شديد، ما رجَّح أنَّ هناك متنفذين ومسؤولين كباراً كانوا وراء هذه المسيرة.

لم يكن أحد يتكلم على مسألة خلعهن للحجاب، فلقد كان هناك شبه إجماع على حرمة قيادة المرأة للسيارة.

وسط إجماع كهذا هل يستطيع أي أحد أن يناقش قيادة المرأة للسيارة بحجابها الشرعي؟

لقد تسبب هؤلاء النسوة بغبائهن في العودة بهذه القضية إلى الوراء عقوداً أخرى.

هل يُلام أي متدين بعد ذلك، في الشك في نوايا دعاة قيادة المرأة للسيارة، وهو يعلم أن أول ما فعلنه المطالبات بالقيادة هو نزع الحجاب الشرعي؟!

إننا أمام مجتمع منقسم على نفسه، غير مهتم بخياراته، لا يفكر كثيراً في ما لديه. نزق مثل مراهق يريد أن يتحول إلى رجل في ساعة!

يريد أن يكنس سنين طوال من الثبات والجمود بمقشة مرنة. مرنة أكثر مما ينبغي، لذا فهي لا تكنس شيئاً.

إنها أزمة شعورية فكرية بالدرجة الأولى. يعلم هذا المجتمع أنه في مأزق، في ورطة. يشعر بذلك، لكنه لا يستطيع أن يفكر بهدوء في الطريقة المناسبة للخروج من هذا المأزق الوطني. التفكير الهادئ خطير جداً.

لقد أوتينا موهبة الكلام لكن من دون أن نستفيد منها لأننا أوتينا أيضاً موهبة الفوضى. تفكيرنا طارئ كما لو أن الجبل سيقع علينا الساعة.

نريد الخروج، لكن لا أحد يدلنا على الطريق. لا نملك الثقة بالقدرة على إنتاج طريقنا الخاص، لهذا نُفضِّل تجربة ما سبق وجرَّبه الآخرون!

اختفى صوت الدين الفاعل في زحمة الاتهامات. لا يُراد لوسطية من أي نوع أن تبرز، فكثيرون يخشون وجود تيّار وسطي فاعل وقادر. كل المتدينين يجب أن يكونوا غوغائيين متخلفين. كل من هم غير متدينين يجب أن يكونوا علمانيين عملاء. يجب أن لا يتحاور الطرفان. يجب أن تظل هذه الخصومة قائمة. سيِّد الفخَّار يلعب بدولابه.

لهذا وقع المجتمع السعودي بين خطابين حديين متناقضين. في كل منهما شيء من الصواب يراه صاحبه ولا يرى غيره!

سيرفض تيار التحرر على الطريقة الغربية أن يكون الإسلام طريقاً للتحرر، وسيعملون ما في وسعهم ليستبدلوا النظام الإسلامي بنظام

غربي بحت. لن يقولوا هذا بألسنتهم في العلن، لكنه معروف ومُشَاهد ومُصرَّح به في أماكن وأقبية خاصة.

سيرفض تيار التدين أن تكون المدنية طريقاً للتحرر، فهم يرون فيها - جرَّاء أطروحات رموز وكتَّاب التحرر على الطريقة الغربية - انخلاعاً وانسلاخاً من الدين وقيوده.

كل فريق أفسد على الآخر فرصته، لكنه لحسن الحظ خفَّف قليلاً من غلوائه من خلال الحوار الداخلي وإنْ لم يكن من النوع الجيد.

كانت الصحوة خاضعة لهذا النوع من الرأي الديني، وكان خصومها خاضعين هم أيضاً للرأي الآخر.

كُنَّا نشعر وكأننا مصريون في ستينيات القرن الماضي. اصطفاف حول طه حسين والرافعي، حول لويس عوض ومحمود شاكر...

خصومات لم تكن لنا. شبهات لم تكن من بنات أفكارنا. ردود على هذه الشبهات لم تكن من اكتشافنا.

كان بإمكان تيار الصحوة أن يعمل على إيجاد مجتمع مدني محافظ بطريقة تقطع الطريق على مخالفيه، وترد على دعاواهم المستمرة بتخلف الصحوة والقائمين عليها، وبعدم امتلاكها رؤية مدنية حديثة. وكان بإمكان خصومها أن ينشغلوا ببحوث ودراسات أمينة في الداخل تحاول المواءمة والمزاوجة بين الديني والمدني، بطريقة تكون رداً على خصومها الذين يصمونها بالانفلات الديني والأخلاقي والتبعية الغربية.

بقي كل شيء على حاله. ظللنا نقبع في المكان نفسه، منتصف الطريق، حيث المشاريع العابرة وقود الحرب بين الطرفين.

متعب، في الزاوية!

نزع بخيت أنبوب الشيشة من فمه ووضعه جانباً وقد شعر أن الحوار سيشتد ويتوسع. رشف رشفة من كوب الشاي الصغير الذي يُحلِّق قبضته على فوهته.

- ستنتهي حياتك وتموت ولسانك رطبٌ بانتقاد الآخرين.

- ماذا تقصد؟

- أقصد بلاغاتك وكتاباتك وبياناتك السخيفة. أتظن أن أحداً يهتم بما تكتبه أو تقوله؟

- لا يهمني رأيهم، أنا أقوم بـ.....

- لمن تكتب إذاً ما دام رأيهم لا يهمك؟

ثم أردف: آآآه. أنت تكتب للصم العمي الذين لا يعقلون، أليس كذلك؟ لقد قرأت كتاباتك في بعض الجرائد ومواقع الإنترنت، لكنني لا أعلم شخصاً واحداً اقتنع بما تقول.

- وما يدريك؟

- يدريني، أنني أنا وأنا أكثر المؤمنين بك والواثقين بصدقك والمتأكدين من قدراتك أجد أن ما تقوله وما تكتبه سخيفاً جداً. لا يحرك فيَّ أدنى شعرة.

- قد لا يكون هذا رأيك لو كنت بقيت متديناً.

- وهل تظن أن الناس كلهم متدينون؟ يا أخي انزعوا هذه الكذبة من عقولكم، واعرفوا حجمكم.

- عمَّن تتحدث، ومن هم هؤلاء الذين تظن أنني أمثلهم؟

- لن أدخل معك في هذا الوادي السحيق وادي التصنيف، لكنني أريد أن أنصحك بأن تتواضع قليلاً، وأن تبحث ملياً وطويلاً قبل أن تتكلم أو تنتقد. إنكم يا سيدي لا تنتجون شيئاً مفيداً ذا بال. مثلكم مثل العلمانيين الذين تنتقدون انبهارهم بالحضارة الغربية، واستيرادهم لأنظمتها وأفكارها وأنماط عيشها. أنتم منبهرون بما لدى أجدادكم، تستوردون نظمهم وطرائق تفكيرهم وأنماط عيشهم. هل تريدون للتاريخ أن يحكمنا في القرن الواحد والعشرين؟ أنتم مترددون، خائفون، لا تعترفون بأخطائكم، تذهلون عما وضعه هذا العالم الفسيح بين أيديكم. تُفضلون الماضي «الآمن» على الحاضر «الجريء» و«المغامر».

حبيبي، أنت لا تعرف شيئاً. كل ما تعرفه استقيته من الكتب أو المجلات. كونه موجود في عقلك أيها المتعلم لا يجعله علميٌّ، ولا يخرجه من كونه كلام كتب ومجلات وجرايد. تضعه على الورق ثم تدافع عنه ببلاغة وفصاحة وحماسة لا نظير لها.

هيا قل لي ما الذي فعلته في ما يخص سرقة المال العام؟

هل يستطيع أي أحد فيكم أن يقف أمام أحد المتنفذين ليقول له: أنت لص، تستحق قطع يدك! أم أنكم نسيتم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإذا سرق فيهم الشريف تركوه»، ألا يعني هذا أنَّك تشارك في إهلاكنا.

هل تستطيعون إنشاء جريدة واحدة تتكلم باسمكم؟ والله لا تجرؤون.

هل تستطيعون أن تقولوا رأيكم في ما يخص سياسة حكومتكم؟ كانت السياط لتلهب أجسادكم.

هل يستطيع واحد منكم أن يجيش ويحشد مظاهرة من أجل قضية إنسانية عادلة كقضية فلسطين مثلاً؟

ماذا فعلتم لإخوانكم من أهل السنة والجماعة الذين يقتلهم الشيعة كالشياه في العراق، وأنتم على مرأى ومسمع من هذا كله؟

يا سيدي أنتم جبناء، وعلماؤكم جبناء، ومشايخكم جبناء، ولن تستطيعوا أن تزحزحوا الوضع القائم قيد أنملة.

لهذا تتفرغون للضعيف مثلي، فلا تجرؤون إلا عليه، ولا تلهبون بسياطكم سوى ظهره، وأما الشريف فأنتم ترجون له الهداية، وتدعون له بالبطانة الصالحة.

كف عني لغوك، ودع عنك دور البطولة الذي لا يليق بك ولا بي. كلانا لا نملك من الأمر شيئاً.

ثم لا تتحدث كثيراً عن الفتنة، فأنت لا تعرف شيئاً عنها.

الفتنة أن ترفض بغباء شديد بيع دكانك الصغير الذي يتوسط أرضاً تجارية كبيرة، وتصر على البقاء مستفيداً من ريع هذا الدكان الصغير الذي يتوقف عمله فجأة بعد أن أضحيت أنت وإياه معلماً تراثياً للمتسوقين في السوق التجاري الكبير الذي بُني على هذه الأرض وتوسطه دكَّانك الصغير. في العالم ظروف حياة ونجاح وحركة أكبر من دكانك الصغير.

الفتنة أن تحايد بينما يجب عليك أن تعلن وتُصرِّح وتحكم.

الفتنة أن تخجل وتستسلم وأن تظهر بمظهر المتحضر وأن تنسى اسمك ورسمك ووواقعك وحقيقتك.

وأن تكون ديناً يحارب الدين!

أرجوك لا تكلمني عن «الفتنة».

وأخذ رشفة أخرى من كوب الشاي، ثم قال:

أيمن النقي لم يتحول فجأة. قاطعته:

- أعلم أنك تحب هذا المثال.

- أحب الخوض في أمر أيمن لأنه مثال حي وناصع ومهم ومُدَرك مني ومنك على ضعف النفس البشرية ونكوصها. لقد نكص على التوحيد، أُس العبادة. أفهم أن ينتكس أو يضعف إيمانه أو يتخلى عن مشروعه الفكري الذي طالما نافح عنه، لكنني لم أكن لأدرك أن الإنسان قد يصل لما هو أسوأ من ذلك.

أفكر كثيراً في الذي دفعه إلى هذا الطريق.

أيمن النقي بعيداً عن التدين، خضيري مثلي، ومتعجرف ومغرور، يجري وراء ما يمكن أن يستر شعوره الدائم بالنقص. لهذا لا يرقي سوى الأغنياء، ولا يتحدث سوى عن الأمير الفلاني والعلاني. أرأيت الطريقة التي يتحدث بها، والمنطق الذي يسير عليه؟! أرأيت الطريقة التي ينظر بها إلى الآخرين؟ إنه يتكلم وفق «عقل» مطلق. هكذا خرجت من معرفتي الأولى به.

- ما تقوله صحيح تماماً، وأوافقك عليه، لكنني لم أفهم ما الذي ترمي إليه.

- ما أرمي إليه هو أن «فيروس» أيمن يسكن داخل كل واحد منا. هذا العالم الخارجي هو الذي يعطيه فُرص الحياة والبقاء، مثله مثل الفيروسات التي تنشط فجأة فتقتل.

- طيب. إذا فهمتك بشكل صحيح. فأنت تقصد أننا معرضون لهذا الفيروس الذي تسميه فيروس أيمن. هل نستسلم؟ هل نلقي أسلحتنا؟ هل ننخلع من تديننا؟

ضحك ضحكة صفراء، ثم قال: أنت لا تفهم. إنني أبرر لأيمن ما فعله. أرأيت كيف كان تبريري متماسكاً؟ حتى أنك قبلته!

- لا لم أقبله. لهذا قلت لك هل نستسلم؟

- إذاً أنت تقر بما حصل. وتقر بمنطقي التحليلي، لكنك تطلب أن لا نستسلم لهذا الفيروس. أنت «مفتون» مثلي يا سيدي، لهذا قلت لك في السابق: الفتنة حاضرة طالما بقي هناك مبرر.

سكتُّ لدقيقة ثم قلت: لماذا أشعر دائماً أنك تهرب من الجهر برأيك؟ تلف وتدور، توجه حواراتنا دائماً بعيداً عنك. تستدل بفلان وعلان. لا أنفي أنني أجد بعض ما تقوله رصيناً لكن كما قلت لك سابقاً لا تجعل من رأيي حكماً ففي أحيان كثيرة أفقد اتزاني وأشعر بتطرفي في خياراتي. انتبه حتى لا تنخدع بي، فأنت في حالة ضعف شديد ومن السهل جداً أن تتعلق بقشة!

- أنا لا أهرب. أنا أحاكم أفكاري ومنطلقاتي ومواقعي من خلال مقارنتها بالآخرين.

- لا أستطيع أن أفهم العلاقة بين تركك للتدين والآخرين.

- وهل كانت كل حواراتي السابقة معك إلا في هذه العلاقة؟!

الحرب

فار التنوران الصحوي والجامي، وجرى الاصطفاف الأعنف في تاريخ التدين السعودي رغم فارق الجماهيرية الكبير بين الفريقين الذي تجاوزته الجامية من خلال الدعمين الإعلامي والمالي الكثيف الذي لقيته.

قامت الحرب بالوكالة.

حين تُعارض حكومتك في عالمنا العربي غير مسنود إعلامياً، فأنت تنتحر بطريقة من لا يريد الانتحار بصدق!

إنَّه عصر الإعلام أن تكذب أكثر. وأن تفعل المستحيل من أجل أن يظل خصمك أكثر صدقاً، وذلك بأن تمنعه من الحصول على إعلام يسمح له بأن يكذب أكثر منك!

وفق عقلية المؤامرة سار العقلان الجمعيان الصحوي والجامي يتساجلان ويتطاحنان.

رغم هذا كان كلا الفريقين يخشى الذئب الكامن داخله. كان الجامي يخشى من طغيان الحكومة، بينما كان الصحوي يخشى انفلات عقال الشباب المتحمس، فتحصل المواجهة المخيفة.

كان انفلات الأوضاع على بعد خطوة، خصوصاً بعد تلك المحاضرة في الرياض والتي اتهم فيها الشيخ محمد أمان وشيخ آخر

بعض مشايخ الصحوة بالبدعة أو بالعقيدة السياسية الإخوانية الأمر الذي أثار سخطاً وسط الحضور كاد أن يتحول لاعتداء جسدي. . .

قذفت الآلة الإعلامية الجامية بكتب وأشرطة تسجيلية كثيرة، تفرغ فيها أصحابها لنقد مشايخ الصحوة، والتحذير من الإخوان المسلمين والقطبيين وجماعة الدعوة والتبليغ.

بدأت الحرب الجامية بكتاب للشيخ ربيع المدخلي، يُجدد فيه ويحيي ما اندرس من مناهج الجرح والتعديل التي يتم فيها نقد عدالة وموثوقية رجال الأسانيد. استبدل فيه مشايخ الصحوة برجال الأسانيد.

السبب في صدور هذا الكتاب، أن أتباع مشايخ الصحوة كانوا يستنكرون على مشايخ الجامية تفرغهم للرد على أخطاء مشايخ الصحوة من دون ذكر محاسنهم وإيجابياتهم، مستدلين - أعني أتباع مشايخ الصحوة - وداعمين استنكارهم بآيات وأحاديث تحث على القسط ووجوب العدل مع المخالفين، فيذكرون أن الله سبحانه وتعالى حين ذكر أهل الكتاب فرَّق بين من إنْ تأمنه بقنطار يرده إليك ومن إنْ تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً. واستدلوا كذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر له أبو هريرة رضي الله عنه قصته مع الشيطان حين أوصاه بقراءة سورة الكرسي لتمنع عنه الوساوس والشياطين، قال له: صدقك وهو الكذوب! فلم يغفل صدق الشيطان في هذه المرة النادرة، فلا بد من الموازنة حين النقد بين الإيجابيات والسلبيات. . .

لقد كتب الشيخ ربيع المدخلي هذا الكتاب تحت ضغط الشارع الصحوي واستنكاره، وملأه استدلالات كثيرة مفادها أن الموازنة في ذكر الإيجابيات والسلبيات غير واجبة في معرض التحذير من الأخطاء، لأن ذلك يهوِّن من شأن الأخطاء المراد نقدها. . .

لقد وضعت الجامية المشانق، وكانت تنتظر الضحايا!

كان ربيع المدخلي روبسبيير تلك الفتنة. المُخلِص الذي يبدأ شيئاً لا يملك أدنى فكرة كيف سينتهي. يُشعل بغيرته الوقَّادة ناراً من دون أن يعبأ بالسبيل إلى إطفائها، لقناعته أنَّها في أسوأ أحوالها منكر أصغر يدرأ بها المنكر الأكبر؛ القضاء على بلاد التوحيد ومنهج السلف!

على الجانب الآخر كان هذا المسلك الجامي العنيف والهجومي دليلاً على الضعف الديني والأخلاقي بالنسبة إلى الشباب المتدين الذي لم يدخل حلبة التراشق، فأي شيخ هذا الذي يتفرغ لنقد الآخرين والتحذير منهم وذكر أخطائهم ومثالبهم؟ كان الشباب المتدين المحايد يجد في هذا نوع غيبة كان يجب أن يترفع عنها المشايخ!

قد يبدو الخلاف بسيطاً حين يُنتزع من ذلك الجو الاستقطابي الخانق، والمُحاط بظروف سياسية وفكرية مأزومة.

كانت هناك عودة جامية محمومة لكتب التراث لمحاكمة الواقع في ضوئها!

كثيرون ظنوا أنَّهم من القلَّة «الفهمانة» التي تدرك ما يجري حولها بدقة.

حقيقة الأمر هو أن أحداً لم يكن يدري بالذي يجري على وجه دقيق. الكثير كان يتم في الخفاء. لم يكن أمام الكثيرين سوى الاعتماد على حدسهم. شيءٌ شبيهٌ بما ذكره سارتر في رواية **الغثيان**: «لقد بدأت أعتقد أن ليس بوسع المرء أن يثبت شيئاً على الإطلاق. إنها افتراضات تنبئ عن الأحداث. لكن شعوري بأنها صادرة عني هو من العمق بحيث تصبح بكل بساطة طريقة لتوحيد معلوماتي».

على الرغم من اعتماد الكثيرين على حدسهم، فلم تكن درجة

الثقة برأيهم منخفضة. كان كل واحد يأخذ نفسه، وبالتالي رأيه، على محمل الجد التام.

أصبح غاز الشك والريبة والتوجس يملأ الأجواء. كان الجميع يبدون وكأنهم على استعداد فطري للاستفزاز.

الصراع الصحوي الجامي كان مثالاً حياً على ضيق الأفق، وفقدان البصيرة، والقابلية الشديدة للعنف.

لقد اكتشف السعوديون المتدينون بكافة أطيافهم فجأة أنهم مخترقون. الكل مُخترق من الكل. كان لا بد من تنظيف الصفوف الصحوية والجامية كلٌّ مما علق به من الآخر. وبدأت محاكم التفتيش من الصف المتدين وعليه. كان من الصعب بمكان بالنسبة إلى الجامي اكتشاف منهج صديقه القريب، والحال نفسها بالنسبة إلى الصحوي. لن تستطيع أن تنصح أحداً بضرورة الحذر ووجوب التريث والصدور عن رأي كبار العلماء كما في الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾. لم يصدر الشباب عن رأي العلماء، فالأمر واضحٌ جداً بالنسبة إليهم، حدسٌ كما الوحي.

أخرج بعد ذلك بفترة الشيخ ربيع المدخلي كتاب **أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره** ذكر فيه بعض أخطاء سيد قطب وتأويلاته، واصماً إياه بالأشعرية وبالاعتزال والخارجية والقدرية والجبرية والتصوف والتشيع.

لم يكتف ربيع المدخلي بكتاب واحد في سيد قطب فأصدر كتاباً آخر لا يختلف عن الأول كثيراً.

ثم خرج بعد ذلك كتاب معجب الدوسري **القطبية** والذي كتبه

باسم مستعار هو العدناني. لم يختلف الكتاب في شيء عن كتابي ربيع المدخلي.

كتب بعد ذلك فريد المالكي هو الآخر كتاباً حشد فيه أخطاء جماعة الإخوان المسلمين المصرية واستدل بهذه الأخطاء على فساد المنهج الصحوي الإخواني السعودي بجامع الانتساب إلى الجماعة ذاتها.

هذا النوع من الربط الذي مارسته الجامية بين الداخل والخارج لم يكن خاصاً بالإخوان، كان في العادة يشمل جماعة التبليغ والدعوة كما ذكرتُ سابقاً والتي جرت محاكمتها بناءً على أخطاء الجماعة الهندية والباكستانية من دون ملاحظة التراكم التبييئي الذي أجراه العقل السلفي السعودي على منهج كلتا الجماعتين.

بلغ التطرف الجامي مبلغه حين خرج أحد مشايخ الجامية في الرياض ليقول من على المنبر في بادرة تحريضية غير مسبوقة: «إن من حق ولي الأمر فصل رأسي دعاة الفتنة عن أجسادهما». المقصودان بدعاة الفتنة هما سفر الحوالي وسلمان العودة. تطاول هذا الشيخ الجامي في ما بعد على الشيخ ناصر الألباني وغمز من قناة معارضة الشيخ الألباني للدولة السعودية في بعض مواقفها، وهو الأمر الذي لم يكن يخفيه الشيخ الألباني رغم تصريحاته العلنية الكثيرة بأنه لا يعلم دولة تقيم علم الإسلام والتوحيد مثل المملكة. أُوقف هذا الشيخ الجامي عن الخطابة والكتابة بعد تدخل بعض أعضاء هيئة كبار العلماء ومطالبتهم بإيقافه.

لم يقل الكثير من الجامية الشيء نفسه الذي قاله هذا الشيخ المتطرف، لكن كان هناك إجماع سكوتي على عدم رفض ما دعا إليه من قتل المشايخ لو حصل. أعطت الجامية أو قبِلت في أقل أحوالها

أن تعطي لولي الأمر، ظل الله في الأرض، أشياء كثيرة على بياض كبياض قلوب أصحابها.

لم يكن أيٌّ من سلمان العودة أو سفر الحوالي إخواناً أو مبتدعة، بل عُرِفوا بتدريس العقيدة السلفية من خلال التصانيف السلفية الكثيرة التي انتشرت شروحاتها في سائر أنحاء المملكة والتي على رأسها كتب شيخي الإسلام ابن تيمية وابن عبدالوهاب رحمهما الله. تلك الكتب التي تحذر من الشرك والبدع وتقديس الأولياء والأضرحة، والتي كانت في جزء كبير منها رداً على أهل البدع مثل الأشاعرة والمعتزلة.

ظهر في تلك الفترة حديثٌ كثيرٌ عن قضيتين كانتا مثار النقاش والجدل على الرغم من أنه لم يكن لهما أي بُعد فكري أو ديني أو سياسي!

أولاهما كانت قضية **وسائل الدعوة وهل هي توفيقية أو توقيفية**. بمعنى هل يجوز استحداث وسائل جديدة للدعوة مثل القصة القصيرة والرواية والشعر والأناشيد والمسرحيات وغيرها، أو أن الأمر يجب أن يقتصر على المشافهة المباشرة من خلال المحاضرات والدروس والكتابة، وغير المباشرة من خلال الشريط الإسلامي؟

كلا طرفي قصد الأمور ذميم. هذا كان رأي سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله في هذه القضية. كان الشيخ يرى أن الانشغال بهذه الوسائل الجديدة عن القرآن الكريم وتدارسه خطأ، كما أن منعها وتحريمها خطأ آخر.

وأذكر أن أحد أصدقائي، وكان جامياً، سأل الشيخ قبل مماته بسنوات قليلة عن حكم سماع الأناشيد الإسلامية والتي باتت أصوات منشديها بفعل المؤثرات رقيقة وناعمة، فأجاب وبصرامة شديدة: جائز.

كانت أمثال هذه القضايا التافهة مثار خلاف ونقاش طويل لأنها كانت قضايا اجتهادية، وهي بالتالي محل تماس وتجاذب ديناميكي. كان الجاميون يريدون هدم وتخبيث كل ما يستخدمه الصحويون. الثوابت لا تعطيك فرصة لإظهار مواهبك في الجدل والمراء والغضب والاستفزاز، على عكس القضايا الاجتهادية التي توفر ملعباً جيداً.

كان هناك من يرى وجوب ترتيب البيت السلفي من جديد على قواعد أبينا الإمام أحمد أو على قواعد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله. كان يُراد استنساخ تلك الضراوة والشجاعة التي ميزت عصر هذين الإمامين حتى تنتصر السلفية كما انتصرا، من دون أي التفات موضوعي إلى الظروف التاريخية والسياسية والدينية.

ثاني القضايا الصاخبة كانت قضية «**المنهج، وهل هو من العقيدة**». كان السبب في طرح هذا التساؤل أن خصوم الجامية كانوا يُحاججونها بسلفية مشايخ الصحوة ودفاعهم وتفانيهم في خدمة العقيدة السلفية، فكيف يكونوا إخوانيين أو سروريين مبتدعة؟

كانت الجامية تنزع للرد على هذه الحجة بالقول أن العقيدة شيء، والمنهج الدعوي شيء آخر. قد تجد من هو سلفي قُحٌّ في العقيدة، إخوانيٌّ في المنهج الدعوي، من حيث دعوته للانقلاب على ولاة الأمر، ونقدهم من على المنابر، والتحريض عليهم، وتهديدهم...

قضيتان ثانويتان تافهتان ليستا أكثر من تفصيلتين صغيرتين، لكن، وكما هو معروف، فالتفاصيل الصغيرة تهم كثيراً، في الحروب.

منزلة منتكسة بين المنزلتين

كلهم كانوا يقولون: ما الذي جرى له؟!

أغوص أكثر فأكثر في الكتابة الإنترنتيِّة. شخصية «اللقب» تستولي علي. أصبح أكثر جرأةً واحترافاً. أستفيد من قراءاتي الفكرية المختلفة في الفكر الغربي في الرد على أتباعه ودحض حججهم وشبهاتهم وبيان أغاليطهم وفساد فهمهم لمنتجات ذلك الفكر.

أصبح حاداً، سليط اللسان. لا أحد يوقفني عند حدي. كنتُ شخصية إنترنتيِّة ذات ثقل في الساحة العربية.

أتحرر أكثر فأكثر مما حولي، فأكتب ما أشاء. كانت فترة طفرة كتابية. أحارب على كل الجبهات. أكتب ضد الصفوية الشيعية وضد العلمانية وضد الإرهاب وضد التشدد والتطرف وضد العنصرية في المجتمع السعودي وضد علماء السلاطين!

شيئاً فشيئاً أتحرر من الجامية، وشيئاً فشيئاً ينخلع عني رداء التدين الكامل. يشعر الجميع أن شيئاً ما تغيَّر فيَّ. لا أحد يُصرِّح بمخاوفه.

سخريتي الكتابية توجه تجاه الليبراليين الجدد من صغار المنتكسين الباحثين عن موطئ قدم في المشهد الوطني!

أيها الاسم المستعار، صرت تُحرك الجماهير الهادرة. صرت تضرب فلا تقوم لخصومك قائمة. صرت تفضح فلا تتركهم إلا عراة. إنها سلطة المهمشين الجديدة: «الماوس (المشيرة) والكي بورد (لوحة المفاتيح)».

تستطيع أن تسبح حتى في أكثر المواقع عمقاً بينما هم لم يتعودوا السباحة بعيداً عن الشاطئ. كان ذاك الذي يراقب من بعيد وهو يدخن سيجارته حاملاً بندقيته حاضراً! كلما حاولوا الابتعاد نفث دخَّان سيجارته نحو الأعلى كمن سينهيها كي يجهز بندقيته، فتصلهم الرسالة فيعودوا!

كنت أشعر بالسعادة أنني لستُ مثلهم وأنني لا أنتظر دخان أحد وأنني لا أخضع لرأي أحد.

مررتُ بما هو أشد وخبرته جيداً. مررتُ بقيود المجتمع الذي كبلني بالتأتأة لعقدين، ثم بالتدين لعقدين آخرين، ولم يستطع ترويضي. أنا ابن لبوة بدوية تحدت موت والديها وهي طفلة، ثم تحدَّت مرض السلَّ حين كان يُراكم ضحاياه بالعشرات. وتحدَّت الطبيب حين أنجبت وهي مريضة. أنا ابن امرأة متحدية، جيناتي ثورية.

وجدت نفسي في التدين حين كان نقياً، ثم حين انطفأ وهجه، تركته إلى شيء آخر أبعد. شيء لا أدري ما كنهه، لكنه يخيفني، رغم لذته المروِّعة!

لا أرى صاحب البندقية يُحرِّك ساكناً حين أبتعد عن الشاطئ وأمضي عميقاً، على عكس ما يفعله مع الآخرين!

كل خشيتي هو أنّ يكون ذكياً جداً فيراهن على عدم قدرتي على الطفو على السطح، عيبي الكبير. لذا فهو يتركني أتقدم أكثر فأكثر...

هل يخدعني؟

لم يعد لي من خيار سوى التظاهر بالغرق أو العودة إلى الشاطئ والانضمام إلى الجوقة...

التظاهر بالغرق أعلى كُلفة. العودة «أذكى»... إن كان هو أقل ذكاءً مني.

رفعت سقفي وسقف الآخرين حين ذهبت بعيداً وعميقاً. في المرات القادمة سأذهب أبعد، وأعمق! وسيكون هناك الكثير ممن رأوني اليوم يرغبون في عمل الشيء نفسه. سيتعلمون السباحة، وسيكون عليه أن يُطلق كل ما في جعبته. وحين يفرغ لن يكون أمامه سوى أعقاب سجائره.

تمدني الحرية بترياق ضد اللحوم المسمومة بأنواعها!

حين لا تسمح لك الدنيا بالإعلان عن تمردك وتخليك عن مكرمات مجتمعك، لا يكون أمامك سوى الساحة العربية.

رميت القفازين وبدأت أضرب بيدي العاريتين.

أهاجم بعنف أحد مشايخ السلاطين الذين يُنظِّرون لولاية العراقي العميل إياد علاوي كوليٍّ أمر لمسلمي العراق، وله على الشعب العراقي حق السمع والطاعة في المنشط والمكره. أسميه «البربيكان»، مشروب الشعير!

أُدافع عن النساء غير المحجبات وأحذر من تصنيف كل سافرة كداعرة أو فاجرة أو زانية.

تأتي المقالة التي أثارت لغطاً شديداً دفع بعضهم إلى وصمي بالليبرالية والعلمانية؛ إنها مقالة «هيئة كبار الجبناء» التي قرَّعت فيها هيئة كبار العلماء على مواقفها الخارجية المتخاذلة تجاه القضايا الإسلامية وعلى رأسها الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق!

قامت عليَّ الدنيا، ولم تقعد.

أنا أحل اليوم محل حسام الذي ثارت عليه الساحة المفتوحة.

لم أنقلب على ما كنت أعتقده. كل ما هنالك أن اعتقاداتي كانت تأخذ شكل أنصاف آراء بسبب الخشية والخوف من التصريح بها. لم أعد خائفاً من الجمهور، بعد أن لم أعد خائفاً من صاحب البندقية!

سأقول رأيي، ومن لم يعجبه فيشرب من ذلك البحر الذي يحرسه صاحب البندقية!

تكر سبحة المقالات، ويكر معها الغضب العارم. وتتوالى الدعوات بالإيقاف. وأبدأ بفقدان الأصدقاء.

يأتي الحل من السماء حين يحذف مشرف الساحة السياسية مقالةً لي، فأثور وأرعد. وأطالب بالقصاص.

أُعلن انسحابي من الساحات، حتى يتم محاسبة المتسبب في حذف مقالتي.

بدأت أتكلم وكأني في دولة قانون حقيقية، بل وكأنني زعيم معارضة مفوَّه قادر على تحريك الشارع!

طوال تلك الفترة كنت في سَورة حرية مجنونة، وغضب شديد. كنت نزقاً، وكأنني للتو اكتشفت حقيقة كبيرة جداً! كان من حقي وبشكل غير مبرر أن أُكسِّر وأشتم وألعن كما يحلو لي. كنت كمن خُدِع لسنوات طويلة، بكذبة مثل «التأتأة» مثلاً، وبات من حقه الصراخ المتواصل لساعات كتعويض!

أتوقف عن الكتابة. وأستغل فترة التوقف في القراءة المُعمَّقة. أتحول إلى دودة نشيطة. أقرأ بنهم شديد. بين فترة وأخرى، أكتب مقالة، في الغالب ساخرة، من دون أن أنشرها.

فجأة تبدأ تجربتي مع الكتابة الرسمية. يطرح عليَّ أحد أصدقاء أخي ممن يقرأون لي في الساحة الكتابة في جريدة مشهورة. أوافق. يتصل بصديقه الذي يشغل منصب نائب المدير العام في المؤسسة الصحفية، والذي يتصل بي بدوره. أرسل له عينة من مقالاتي الساخرة التي كتبتها في فترة التوقف فيتصل بي مبدياً إعجابه الشديد بما أرسلته.

يبدأ النشر الأسبوعي لمقالاتي في صفحة الرأي التي تتوسط صفحات الجريدة. بعدها بفترة أفاجأ بأن مقالي نُقِل إلى الصفحة الأخيرة وفي العمود الأشهر! في العمود المقابل كان يكتب «زملاء» شابت لحاهم في الكتابة الصحفية.

أنت ترتقي مرتقى صعباً يا فتى.

حياتي تتغير. أنزلق في شيء جديد علي كل الجدة.

أنا من النخبة.

أيمن النقي

وصلت الموافقة الرسمية من الإمارة. وبدأ مركز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالإعداد لخطة مناسبة للإيقاع به.

المرة الأولى التي قابلته فيها كانت في مجلس أحد طلبة العلم. كان المجلس مكتظاً بالشباب المتدين. حصل اللقاء في خضم سخونة السجال الجامي الصحوي.

كان المجلس متوتراً جداً. طُرِح كلام ساخن عن الفتنة وعن الخلاف. وذكرت أسماء وتصنيفات لكثير من المشايخ. كنتُ للتو متديناً. لم أستوعب الذي يجري. كنت أشعر أن هناك أمراً ما، لكنني كنت أواريه خلف ظهر إحسان الظن.

تكلم أحد الجامية حول العقيدة ووجوب التسمك بها وحذر من التحزب والسرية والجماعات والفرقة ومخالفة ولاة الأمر. لم أدرك حينها المغزى من ذكر ذلك. لكن الأمر كاد أن يخرج عن السيطرة حين بدأ ينتقد سيد قطب رحمه الله نقدً لاذعاً. جوبه بممانعة شديدة، وبإنكار حاد، وغضب عارم. لم يخفف منه سوى فالح البدوي الذي قال بلهجته البدوية: يا جماعة. اسمعكم تقولون العقِيدة والعِقيدة، وش تقصدون بذا العِقيدة؟

قال أيمن النقي: سؤاااااااال حلو جداً. يا الله يا شباب، وبدا

كما لو أنَّه يوجه كلامه لخصومه من الشباب الصحوي على هيئة تحدٍّ، من يشرح لنا معنى العقيدة؟

كان الهدف من السؤال هو التحدي، وإثبات أن شباب الصحوة من غير الجامية لا يفقهون في العقيدة ما داموا لا يستطيعون تعريفها، والحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره!

كانت تلك هي المرة الأولى التي أقابله فيها.

لقائي الثاني به كان بعدها بشهرين تقريباً. كانت في مجلس أحد الشباب الجامية حيث دُعيت وصاحبي الجامي مصدِّر الأشرطة البيضاء لحضور جلسة خاصة مع الشيخ محمد هادي المدخلي.

خُصِّص الجزء الأخير من الكلمة التي ألقاها الشيخ لتلقي الأسئلة. وكالعادة كانت الأسئلة إياها: ماذا تقول في فلان؟ وما رأيك في علان؟ وما رأيك في قول الشيخ الفلاني؟...

أذكر أنَّ أحدهم سأله: ما رأيك في حسن حبنكة الميداني؟ قال الشيخ: «هذا حمار لا يفهم عقيدته»! هكذا، من دون أن يقوم سلفي واحد يعلم حرمة الغيبة ليرد، بل فرقع الضحك! نظرت وإذا أيمن النقي يقهقه. كانت حجة الشيخ ماثلة «إننا في معرض بيان خطر عقيدة معينة». الحجة نفسها التي رفض بها الشيخ ربيع مبدأ الموازنة!

لم أكن أعرف عن حبنكة الميداني سوى كتابه **أجنحة المكر الثلاثة**... وهو الكتاب الذي لقي قبولاً وانتشاراً واسعين.

بعد رحيل الحضور بقي عدد قليل جداً من بينهم أيمن وصاحبي وأفراد آخرون. اتضح لي عن قرب أنَّه كان معتداً بنفسه كثيراً، حاداً في توجيه النقد، يغلِّف انتقاداته بنكهة ساخرة. لم يكن أسلوبه في الكلام أو التعامل مريحاً بالنسبة إلي.

الآن أستطيع أن أقول إنه كان مغروراً، مغروراً جداً. أشعر أنه من ذلك النوع الذي يظن أنَّ امتلاكه لجزء من الحقيقة يعطيه سلطة خارقة.

شخصيته مركبة، عصيَّة على التحليل. أزعم أنه مريض، مختل بطريقة ما، لا أستطيع شرحها أو تفسيرها.

باختصار إننا أمام شخص غير سوي. ولو كان حافظاً عن ظهر قلب للقرآن الكريم، أو هكذا قيل، رغم أنني أشك.

درس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالأحساء. تعرف في الجامعة على صديقي حمدان.

حفظ حمدان القرآن الكريم على يديه. وطَّدت الجامية العلاقة بينهما أكثر فأكثر.

في بدايات تديني كان حمدان كثيراً ما يزورني، وقد كان أيمن حاضراً في حواراتنا وضحكنا ونكاتنا وجاميتنا الخاصة بنا.

كان يلبي دعوات صاحبي الذي أسمعني الشريط الأبيض الأول فيأتي إلى مدينتنا لزيارة الشباب الجامي والالتقاء بهم. كان بعضهم يجدها فرصة لطلب الرقية الشرعية من فم هذا الحافظ والتبرك بنفثه. أنت حافظ للقرآن الكريم إذاً أنت مشروع راق شرعي، أنت المسيح.

تكررت زياراته، وأصبحت سيارته تعج بأنواع من العسل والماء. كان يطلب مَبالِغَ كبيرة للعسل والماء. من يستطيع الشك في حافظٍ للقرآن، وراقٍ، وجاميٍّ سلفي. تطور الأمر في ما بعد، وبدأ يُكثر الحديث عن التجار والأغنياء والأمراء الذين كان يرقيهم.

منذ اللحظة التي بدأ فيها يتحدث عن الأمراء والتجار والأغنياء، فقدت ثقتي به وبرقيته وبدأت أشعر بنفور شديد منه.

بعد فترة، مرت بحمدان فترة انتكاس حرجة. كنتُ بقربه طوال تلك الفترة. كنت أُحب حمدان، وأجد فيه أملي وحلمي ومشروعي الخاص في طلب العلم. شيء مشابه لعمر، أملي وحلمي ومشروعي الجهادي الخاص.

كان حمدان يشك أن عيناً شيطانية أصابته، وهو الحافظ للقرآن الكريم. ذهبنا إلى أكثر من شيخ راقٍ.

كنت أسأل حمدان: لمَ لا تدعو أيمن ليرقيك؟

كان حمدان يتحجج بأن أيمن مشغول جداً.

في أحد الأيام، وبينما أنا عند حمدان، وكان مريضاً، وتحت إلحاحي الشديد اتصل بأيمن وطلب منه القدوم إليه على نحو عاجل.

وصل أيمن، وبعد دقائق رقى حمدان بالرقية الشرعية، ثم بعد أن فرغ، جالسنا لبضعة دقائق، ثم همَّ بالذهاب لارتباطه، لكنه سأل حمدان قبل أن يخرج: هل تريد أن تعرف من الذي أصابك بالعين؟!

قال حمدان: وكيف ذلك؟

- لا عليك. هل تريد أن تعرفه؟

- أولاً قل لي كيف سأعرفه، ثم أجيبك.

- سأعطيك دعاءً مأثوراً عن أحد السلف تقرأه قبل أن تنام، ثم سترى في منامك الشخص الذي أصابتك عينه.

- لا أريد أن أعرفه. أريد فقط أن أتعافى.

خرج أيمن. التفتُّ إلى حمدان، ثم قلت: ما الذي يقوله هذا؟! هل ما يقوله صحيح؟

- لا أدري والله. أنت تعرف أيمن و«طلعاته» الغريبة!

زاد نفوري منه. شعرت بأنه متغطرس يظن أنه يملك سلطة معرفة الغيب.

بعد شهور من زيارات بعض الرقاة الشرعيين «المأمونين»، تعافى حمدان وعاد إلى تدينه العميق. انضم إلى هيئة التحقيق والادعاء، ونُقِل إلى مكة المكرمة، حيث واصل طلبه للعلم على يد علماء الحرم المكي. هو بخير حال الآن.

داهمت فرقة مكونة من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإمارة والشرطة مقر الدجال، وقُبِض عليه بالجرم المشهود وهو يبيع خواتم الحفظ التي يزعم أنها تحفظ صاحبها من الشرور، وخواتم السعادة التي تفتح لصاحبها أبواب النجاح والسعادة والفلاح.

حكم القاضي على الساحر أيمن بالسجن سنتين. شفع له إنكاره، وإلا لقُتِل حداً بقطع الرأس!

خرج بعد سنتين، وانتقل للعيش في جدة بعيداً عن الذين يعرفونه.

كان مريحاً أن أعرف أنه بعيدٌ جداً. غير مريح أن أعرف أنَه في جدة قريباً من حمدان...

بندر، فشل أول

بندر وصاحبه في أشد حالاتهما قلقاً وتوتراً. أيديهما دبقة بالعرق.

القائد الشاب لا يبدو عليه التوتر والقلق. باقي المجموعة، الأكثر خبرةً منهما يقبضون بأيديهم على أسلحتهم.

الشاحنة تسير بهدوء. الدجاج يكاكي بصوت عالٍ. لا أحد يشك في هذه الشاحنة، فلقد رُصَّت أقفاص الدجاج في الواجهة الخلفية، وبينها وبين كابينة السائق قبعت المجموعة. كان هناك غطاء أخضر ثقيل من القماش يغطي الجزء الخلفي من الشاحنة بالكامل.

كان القائد الشاب قد أصدر أوامره للسائق، بالحذر الشديد، والهدوء، وعدم إثارة الريبة لأي سبب كان. كما نبَّهه بأن يصرخ بهم إذا وجد أن الأمر سينكشف لأن ذلك الغطاء الأخضر سيمنعهم عن رؤية ما ينوي أفراد نقاط التفتيش فعله. كما دعا أفراد المجموعة إلى إبقاء أسلحتهم مذخَّرة.

مروا بنقطة التفتيش الأولى. كانت القيادة قد أخبرت القائد الشاب الذي أخبر بدوره المجموعة بأنه سيجري رشوة أفراد نقطة التفتيش هذه.

أوقفهم رجل الجيش. تحدث قليلاً مع السائق ثم سمح لهم

بالمرور. مرقوا من تلك النقطة. قال السائق من دون أن يلتفت إلى الخلف: كان شيعياً. همس بندر للقائد: كيف يسمح لنا بذلك؟ أشار القائد لبندر بأصبعه أن ابق صامتاً.

نقطة تفتيش ثانية، للتو جرى وضعها! لم تكن في الحسبان. لم يجرِ رشوة أفرادها بطبيعة الحال. القائد يشير إلى الأفراد بالاستعداد. دقَّات قلب بندر وصاحبه تزداد. قلباهما كادا ينخلعان. يشعران بخوف شديد، شديد جداً.

زاوية النظر تضيق جداً، حتى شعر بندر أن الحياة الدنيا كلها اختُزِلت في صوت الدجاج، وفي الهلع، وفي الصورة التي أمامه. كل شيء آخر بهُت. يشعر برغبة في التقيؤ. تتلاقى عيناه بعيني صاحبه، الهلع نفسه، الرغبة نفسها، الهواجس نفسها. لا يستطيع أن يفكر، لا يريد أن يفكر، يُسلم قيادته لهذا القائد الشاب حتى يكفيه مؤونة أي شيء آخر.

يتذكر والدته ووالده وإخوته وابن عمته الشهيد. يتذكر بطولة «البلاي ستيشن» التي فاز بها قبل سنوات! ما الذي جاء بهذه الفكرة الشيطانية الآن؟!

يقبض على سلاحه بقوة. يشعر أن مقبض سلاحه سينزلق من جراء العرق. يخشى أن ينزلق عندما يحتاجه.

ينظر باتجاه القائد الشاب الذي ينظر في عينيه بحدَّة لم يتعودها بندر. يشعر بندر بخطورة ما يجري. السائق ينزل من السيارة. يهمس أحد أفراد المجموعة. هل نخرج ونطلق النار؟

يشير القائد الشاب إليه بأن يصمت. يفكر القائد بسلاح السائق المختفي داخل عباءة قماشية أسفل المقعد. تسمع المجموعة خطو أقدام حول السيارة.

الجميع يكتم أنفاسه، رغم أنه ليس في حاجة لذلك مع صوت الدجاج المرتفع. يسمعون من مكانهم أصوات ثلاثة أو أربعة أشخاص. لم يستطيعوا سوى تمييز صوت السائق.

بندر يفكر: ماذا لو خاننا هذا السائق؟ ماذا لو قِبل الرشوة؟ من يضمن أن لا يشي بنا؟

تحت الضغط، لا شيء يسير بسلاسة. حتى التفكير ذاته يفقد معناه.

تسمع المجموعة صوت تفتيش داخل كابينة السائق. المجموعة تضطرب. القائد الشاب يشير بيده طالباً من الجميع البقاء في أماكنهم.

بندر يشعر أن من الجنون البقاء. حتماً سيتم اكتشاف سلاح السائق، وبالتالي ستجري عملية تفتيش دقيقة للسيارة، وسيتم اكتشافهم وقتلهم في الحال!

عينا القائد تومضان بالغضب تجاه أفراد المجموعة المضطربة والذين كانوا يهمون بالخروج!

غضب كبير. تحولت عينا القائد إلى عيني صقر.

صوت خطو أقدام تبتعد. يهمس القائد: لا أحد يتحرك من مكانه، سوى بأمري، أو بصرخة السائق. سوى ذلك لا أحد يصدر صوتاً. مَنْ سيقوم بعمل شيء من تلقاء نفسه سيجد رصاصتي في رأسه قبل رصاصهم، بدلاً من أن نفقد مجنوناً واحداً سنفقد مجنوناً ومجموعة من الشهداء، وهذا ما لن أسمح به.

ثم سكت. كان حازماً جداً. عاد الأوكسجين والأدرينالين إلى وضعه الطبيعي.

صوت خطو الأقدام يعود مرة أخرى. القائد يشير مؤكداً ضرورة عدم الإتيان بأي حركة.

السائق يركب الشاحنة. يلقي السلام على أفراد نقطة التفتيش، ثم يمضي.

الجميع يتنفسون الصعداء.

القائد: «أحسنت»، موجهاً كلامه للسائق، قبل أن يعرف التفاصيل.

بندر هامساً: لمَ أخذ السائق كل هذا الوقت معهم؟!

رد أحد أفراد المجموعة: تستطيع أن تسأله حين نعود! قالها بغضب.

قال بندر: علينا أن نكون حذرين جداً، ثم إنني لا أظنها فكرة جيدة أن نختبئ هنا بينما السائق هو الشخص الوحيد الذي يرى ما يجري.

- وما المشكلة في هذا؟!

- لا أدري. أنا لا أخوِّنهُ، لكنني أدعو للحذر.

القائد لا يُعلِّق على ما قيل.

يوجه كلامه للسائق من خلال الفتحة الصغيرة المصنوعة في الزجاج: إذا وصلت إلى مكان آمن، فتوقف، أريد أن أتبول!

التفت السائق جهة القائد - رغم أنه لا يراه بسبب الزجاج المغطى بورق صمغي أزرق اللون - متعجباً، ثم دمدم: أوكي.

بندر يفكر: أي قائد هذا الذي يضطر إلى التوقف في ما يشبه حقل الألغام من أجل التبول؟

بعد نصف ساعة، توقف السائق ثم قال: نحن الآن خارج المدينة، في منطقة برية، تستطيع أن تخرج للتبول الآن.

رفع القائد الغطاء السميك، فهبَّت على المجموعة نسائم من

الهواء البارد. شعر القائد بأن هذا الهواء البارد سيصيب المجموعة بالمرض فأعاده إلى مكانه، ونزل من الشاحنة. دخل بين أحراش صغيرة. مكان ملائم جداً لقضاء الحاجة.

بعد دقائق، سُمِع صوت القائد ينادي على بندر طالباً منه الحضور. نزل بندر من الشاحنة، وتوجه إلى القائد الذي قال: هنا، هنا.

وصل بندر إلى مكان الصوت. تفاجأ بأن هذه الأحراش تستر أرضاً رملية 3 أمتار في 3 أمتار.

ما إن وصل إلى مكان القائد، حتى تلقى من القائد صفعة على وجهه بكعب السلاح أسقطته أرضاً. ثم بدأ القائد يركله بقدمه في بطنه. مرة بعد مرة بعد مرة وهو يدور حوله. حتى تقيأ بندر. بعدها توقف القائد عن ركله، ثم قال له: أتمنى أن تكون قد تقيأت تخوينك للآخرين.

واسمع مني أيها الطفل: في الحروب لا مكان لبحث إمكانيات التخوين لدى الجنود. يجب أن تتفرغ للقتال، وليس للعمل كمخبر سري. يجب أن يتوقف الجندي عن حساب هذه الاحتمالات، لأن ذلك يعني أن كل شيء مهدد بالانهيار، مهدد بفقدان الأمان، مهدد بالطعنة في الظهر. والذين يخشون على ظهورهم لا يحمون صدورهم بشكل جيد، ثم إن صدق حدسك وكان هناك خائن، وتم قتلك، أليست تلك شهادة في سبيل الله، أليس هذا ما تبحث عنه؟ أم أنك تريد ميتة على طريقتك، على مقاسك؟

اسمعني زين: هؤلاء الذين تشكك فيهم هم درعك، وحسامك، ورصاصك. لا تنتصر بعد الله سوى بهم، ولا تخسر سوى بفقدانهم.

الواحد منهم على استعداد لبذل روحه في سبيل أن تبقى روحك لم تُخدش بشوكة!

قد لا يحسنون قول هذا، لكن صدقني أن قلوبهم أبلغ، وأن المجاهد في سبيل الله، المجاهد الحق، هو أكثر الناس بلادة في اللغة، واسأل بهم خبيراً.

كان بندر ينزف من أنفه، وكان يظهر له أن ضلعاً أو اثنين قد كُسِرا في حجابه، لكنه لم يدرِ أن القائد كان يعلم جيداً إلى أين كانت تذهب ركلاته.

ركب القائد الشاحنة وعلى وجهه علامات الغضب والحنق. أطبق الجميع، بعد دقائق جاء بندر يجر رجله. ويضع يده على أنفه.

قال القائد للسائق: عُد بنا إلى مقرنا. انتهت مهمتنا الاستكشافية.

ما فعل الله بالصراع؟

في خضم الصراع الصحوي الجامي خرجت فتوى المفتي الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله بجواز الصلح مع اليهود، وهي الفتوى التي أثارت سخطاً كبيراً في الداخل والخارج ضد الشيخ. تلك الفتوى التي تلقفها الكثيرون من دون الغوص في تفاصيلها!

يذكرني هذا بالطريقة نفسها التي جرى التعامل فيها مع فتوى الشيخ الألباني بخصوص جواز كشف الوجه للمرأة.

دفعت فتوى الصلح مع اليهود مشايخ الصحوة إلى زيارة المفتي العام ومناقشة حيثياتها معه.

قابل مشايخ الصحوة المفتي العام في جلسة مغلقة، وجرى حوار مؤدب وموضوعي. تسرب في ما بعد شريط صوتي ينقل تفاصيل ما جرى.

كان للمفتي رأيه الخاص بخصوص جواز وجود هدنة مؤقتة يستطيع أثناءها الفلسطينيون أن يأمنوا على أنفسهم وأعراضهم، ومن ثم يخططون بشكل جيد لنهضة وطنية شاملة على جميع المستويات تعيد لهم حقهم المسلوب. واستدل الشيخ بصلح النبي ﷺ مع مشركي مكة في صلح الحديبية. لم تقل الفتوى بوجوب الهدنة، ولم تقل إنها هدنة دائمة!

الأكيد أيضاً أنه قد جرى توظيف الفتوى توظيفاً سياسياً يرسل إشارة ما إلى مكان ما بأنَّ السلام وارد.

ما زلت أذكر أن رئيس الوزراء الصهيوني أشاد بهذه الفتوى، وطالب العرب باحتذاء هذه الفتوى. الأمر الذي دفع مخالفي الفتوى للقول بأنها تأتي على المزاج الصهيوني والأمريكي.

كان مشايخ الصحوة يحاولون إقناع المفتي بالتراجع عنها، ذاكرين له بأن هناك بديلاً للحكومة الفلسطينية العلمانية الخائنة القائمة وهو حركة حماس الإسلامية التي بمكنتها قتال اليهود حتى يجنحوا للسلم. وأن صلح الحديبية يختلف كثيراً في ظروفه عن هذا الصلح، ولا يمكن قياس هذا على هذا!

هل كان رأي المفتي صحيحاً؟ لا أدري. لكن الأكيد أن لا أحد سوى بعض السياسيين البراغماتيين وجدها كذلك. أمَّا من سواهم فأرادوها وبكل حزم وجدية: خاطئة!

ظُلِم الشيخ ابن باز في ظني كما لم يُظلم شيخ آخر، فقط لمجرد أنَّه سعودي وهابيٌّ، كما هي الشتيمة المعتادة. لم يستطع أحد أن يقارع حجج الشيخ ومنطقه الذي كان أثرياً ينطلق من الكتَّاب والسُنَّة، ومن فقه للواقع.

لطالما أُلصِقت بالشيخ ابن باز التهم والأباطيل التي لم يكن له من رد على أصحابها سوى بالدعاء لهم بالمغفرة.

لفَّق عليه الشيعة بأنه كان يقول بعدم كروية الأرض، ولفَّق عليه الصوفية بأنَّه يكره النبي ﷺ! وهي التهمة السخيفة التي ردَّها الشيخ باكياً في الإذاعة. كانت المرة الأولى التي يسمع فيها الناس ابن باز يبكي على الهواء. أذكر أنَّه قال: «هذا كذب وزور. والله إن نبي

الهدى ﷺ أحب إلينا من أنفسنا وأبنائنا ووالدينا والناس أجمعين، لكن المحبة الحقيقية له هي في اتباع سُنَّته ومنهجه والسير على طريقته فذاك هو الاقتداء الحقيقي، لا في إقامة الاحتفالات في يوم مولده، تلك الاحتفالات التي لم يأمر بها، بل ونهى عنها حيث قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم»، تلك الاحتفالات التي يرتكب فيها ما الله به عليم من صنوف المخالفات الشرعية العقدية والأخلاقية كالشرك بالله ودعاء الأولياء والاستغاثة بهم والتطبير وشق الجيوب والرقص والغناء وشرب الخمر كما في بعض البلاد».

ظُلِم ابن باز من فئات من الناس والجمعيات والجماعات والأحزاب كانوا يأتون إليه من شتى الأصقاع يستجدون دعمه الخيري الخاص، ثم حين يُعطيهم ويُبرق إلى الحكومة بوجوب دعمهم - رغم علمه بأنَّ بعضهم ليسوا من أهل السُنَّة - ويصلون إلى بلدانهم يلعنونه ويلعنون الوهابية ويلعنون الحكومة السعودية الكافرة العميلة للشيطان الأكبر!

رغم كل هذا لم يكن الشيخ ابن باز يهاجم المذهب الشيعي أو الصوفي.

كان الشيخ رفيقاً بالناس، لطيف المعشر، نقي اللسان، لا يُحسن السباب والشتم.

لم تستوعب الصحوة أن يكون للشيخ ابن باز الحق في طرح رأي يكون مخالفاً لرأي مشايخها في قضية سياسية شرعية تقبل الاجتهاد.

انتفضت الجامية لمجرد أن مشايخ الصحوة ناقشوا المفتي العام في فتواه. كان ذلك بالنسبة إليهم بمثابة استعراض قوة شربه المفتي العام بطيب نية، فأي حق للصحوة في أن تناقش في قضايا الأمة المصيرية؟!

لم يكن للصحوة من غرض حقيقي واضح لذلك الحوار الذي جرى مع المفتي. كان يبدو لي من بعيد أنّ لدى مشايخ الصحوة قناعة بضعف فقه المفتي للواقع السياسي المعقد جداً، ولذلك كان من الواجب عليهم شرعاً تفكيكه أمام ناظري المفتي من أجل فقهه بطريقة دقيقة وسليمة وواقعية.

قال بعض الجامية إن ذلك اللقاء والحوار كان خطوة في طريق الانقلاب على الشرعية الدينية ستتبعها خطوات تنتهي بالانقلابين السياسي والعسكري!

لم يصدُق من قال إن مشايخ الصحوة كانوا انقلابيين، وكان لزاماً الخروج عليهم والتغدي بهم قبل أن يتعشون بالدولة، فأدبياتهم لم تكن أدبيات ثورية انقلابية. أعترف أنها لم تكن أدبيات مسالمة بالمرة، وهو أمرٌ طبيعي لأنَّ الدين لا يُعلِّم المسالمة، بل هو ينطوي في مدماكه الأساس على «التغيير» كقيمة فكرية عليا. والدين جاء للتغيير، تغيير الوضع السائد مما علق فيه من منكر ونجاسة إلى وضع جديد أساسه الصلاح والطهارة. لا يهم بعد ذلك إذا اعتُبِر تأييد هذا النوع من التغيير عملاً ثورياً انقلابياً من لدن من يرون في كل حجر يُرمى في المياه الراكدة خطراً.

الصدام الحكومي الصحوي كان آتياً لا محالة. الجامية لم تكن سوى عامل الحث (catalyst) الذي سرَّع عملية الصدام.

لم أشك للحظة واحدة في نوايا الجامية، أو على الأقل في نوايا بعضهم. كانت نواياهم طيبة وأهدافهم خيّرة. كانوا يخشون فقدان الأمن، وفشو البدع، وعودة الشرك والخرافة الصوفية والشيعية للظهور في حال حصل الاحتراب الداخلي. هذا لا ينفي أن يكون من بين أفرادها بل ومشايخها من هم من مطاريد الحكومة وعيونها... لكنني

أتكلم على أولئك الذين كانت مبرراتهم مقبولة من حيث شرعيتها وعلميتها.

كانت الحكومة، رغم اعترافهم بأخطائها التي يندر أن يُصرَّح بها، تمثل لهم صمام الأمان العام. للدولة في العقل الجامي رائحة التاريخ، رائحة التوحيد، رائحة محمد بن عبدالوهاب، رائحة «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»، رائحة «العقيدة السلفية العزيزة العالية» على كل المذاهب الهدامة والخرافية الضالة.

كانت الحكومة كل هذا وأكثر بالنسبة إلى العقل الجامي...

لكن الجامية في سبيل حماية وصيانة هذا كله، كانت في أحيان كثيرة ملكية أكثر من الملك.

في سبيل ضمانة كهذه تفرغت محاكم التفتيش الجامية بالكامل للهجوم على مشايخ الصحوة دون غيرهم من مشايخ الطوائف التي تراها الجامية ضالة كالشيعة والصوفية. وقد وجدت لدى مشايخها ما تبرر به موقفهم هذا؛ فالمشايخ يقولون إن الخطر الصحوي المتمثل في مشايخ الصحوة وأفكارهم أكبر تأثيراً وخطورة على الساحة الوطنية من أصحاب المذاهب الضالة والتي كان أتباعها لا يمثلون أكثر من أقليات صغيرة ذليلة ومقموعة...

الجامية لم تحارب الصحوة كتيار وكظاهرة، لكنها حاربت أفكاراً معينة وَجدتْ فيها بذوراً لتأسيس فكرٍ خارجيٍّ قد يهدد كيان دولة التوحيد. المشكلة هي أن هذه الأفكار كانت هي جوهر الصحوة! خطرٌ كهذا رأت الجامية أنه لا ينبغي التعامل معه «كاحتمال». لهذا راحت تؤسس لضربات استباقية على الطريقة الأمريكية لم يكن لها أي داع، ولم تستند إلى معلومات دقيقة وصحيحة (كما يحصل مع الأمريكان في العادة)!

لم يكن للجامية رموزها الذين يملكون نظراً سياسياً ثاقباً أو رؤيةً شاملةً للوضع. كان رمزها الأكبر هو الشيخ ربيع المدخلي المعروف بسلاطة لسانه وحدته وانفعالاته غير المنضبطة.

لقد كانت الجامية تفترض في معترك حربها على مشايخ الصحوة أن كل شباب الصحوة مغسولي الأدمغة، وأن كل خطباء الجمعة الذين لا يختمون خطبهم بالدعاء لولي الأمر هم من المنتسبين للجماعات الإسلامية الحركية السرية، وأن كل من يرتبط بعلاقات ودية مع مشايخ الصحوة من المشايخ الآخرين هم بالضرورة منتمون لها أو سُذَّجاً وأغبياء.

لقد ذهبت الجامية تحاكم المشايخ على مقاساتها الخاصة. فمن لم يكن معها فهو حتماً ضدها. هو ضدها حتى إن وقف على الحياد، فلا حياد في حرب الدفاع عن التوحيد والأمن!

في ظروف مثل هذه لم يكن غريباً أن يوظف اكتشاف خطأ فقهي صغير إلى الطعن في نوايا وموثوقية ومصداقية المخطئ.

حدث هذا مع الشيخ سلمان العودة في قضية ثانوية، صنعت منها الجامية فرقعة كبيرة، حيث وظَّفت رد الشيخ ابن باز على فتوى الشيخ سلمان توظيفاً سيئاً، فالشيخ ابن باز صرَّح بخطأ الشيخ سلمان بعد أن نُقِل له أن الشيخ سلمان العودة يدَّعي موافقة الشيخ له. رد الشيخ ابن باز بالقول: هذا كذب!

كانت المسألة هي مسألة فقهية بحتة، ألا وهي مسألة التفريق بين الطائفة الناجية والمنصورة. وفي الحديث قال النبي ﷺ: «ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة...، وهي التي على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»، وللحديث روايات أخرى توصف فيها هذه الطائفة بالناجية وبالمنصورة.

غالب علماء الحديث هم على أن الناجية والمنصورة طائفة واحدة. من شذَّ عن هذا الرأي مجموعة قليلة أخذت بالقول بالتفريق. كان رأي الشيخ سلمان العودة هو التفريق. وذكر الشيخ سلمان أن كتابه الذي ذكر فيه هذا التفريق قد قُرئ على الشيخ ابن باز وأيده في التفريق.

قد يكون أحد الشيخين قد وهِم، أو أن الشيخ سلمان افترض أمراً لم يكن ينبغي له أن يفترضه. وقد يكون الشيخ ابن باز قد حكم بكذب النقل عنه لا كذب الشيخ سلمان... وإلا فأي مصلحة للشيخ سلمان أن يكذب بخصوص قضية فقهية ثانوية كهذه؟

هذا الموقف يذكرني بموقف آخر حصل للشيخ سفر الحوالي، لكنه كان أكثر حدة وأثار صخباً شديداً، حيث قال الشيخ سفر الحوالي في أحد أشرطته الصوتية في خضم أزمة الخليج ما معناه: «علينا أن لا نعوِّل دائماً على هيئة كبار العلماء، فهم تحت ضغوطات كثيرة تجبرهم أحياناً على المداهنة...».

طارت الجامية التي اعتادت على تلقف أمثال هذه العبارات الموهمة أو الخاطئة، فشرَّقت وغرَّبت، تستدل بهذه المقولة على خبث نوايا مشايخ الصحوة في التقليل من قدر العلماء، ومحاولة صنع شرعية جديدة يختطفون من خلالها الخطاب الديني.

في حينها أثار هذا غضبي وحنقي، وثبت لي - أنا الجامي - بما لا يدع مجالاً للشك أن لمشايخ الصحوة نواياهم في الاستيلاء على الخطاب الديني من خلال التقليل من شأن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، والذين حين يُسقطون يتخذ الناس بدلاً عنهم رؤوساً «إخوانيين أو سروريين» جهالاً يفتون بغير علم فيَضلون ويُضلون.

أخطأ الشيخ سفر الحوالي التعبير، لكنني أفهم أنه قال هذه العبارة في خضم أزمة سياسية واجتماعية ودينية كبرى هي أزمة الخليج.

هذا لا يعني بالطبع أن العلماء أو بعضهم مبرأون من المداهنات، فهم في نهاية الأمر بشر يصدق عليهم ما يصدق على غيرهم، ولولا هذا لما وصل بنا الحال إلى ما نحن عليه وفيه!

لطالما شعرت أننا نرتقي بعلمائنا مكانةً قدسية لا ينبغي لهم الرقي إليها. أنا مارست هذا كثيراً. كان ينبغي أن يتوقف احترامي لهم عند كونه إجلالاً لا أن يتمدد ليكون تقديساً غير واعٍ. لا أعني ذلك النوع من التقديس الديني الذي ينتهي بالاتِّباع عن عمًى للشيخ، بل ذلك النوع من «التصديق» الذي ينتهي بتبرير كل موقف أو فتوى أو رأي خاطئ للشيخ. وحين تكون طالب علم صغير، فأنت بالضرورة لا تملك الحصيلة العلمية والفقهية التي يملكها الشيخ، هذه «الحقيقة» تجعلك أسير فتوى الشيخ «العالِم». لا تبدأ هذه التقديسية في التضعضع سوى حين ينبري أحد العلماء أو المشايخ للرد على شيخك علمياً وبالدليل من الكتاب والسنة. حينها فقط تبدأ بإدراك أن في العالم الخارجي أكثر من رأي. هذا رغم أنَّك تقرأ طوال سنوات في التراث الفقهي الملي بالاختلافات والأقوال المتعارضة، لكنها قراءة متحفية نظرية خالصة. زد على ذلك أن التراث بات اليوم بعد تنقيحه غير ذي فاعلية، بسبب أننا بتنا نعلم أكثر من أي وقت مضى مَنْ المصيب ومَنْ المخطئ في المسائل مدار البحث، بعد أن امتلكنا القدرة على الوصول إلى الكثير من المصادر، بسبب حركة النشر والتحقيق للسنة النبوية التي أخذها الشيخ الإمام ناصر الدين الألباني على عاتقه.

نتيجة لهذا لم يكن هناك احترام حقيقي للاختلاف سوى لدى بعض كبار العلماء.

حتى اليوم أذكر أن الشيخ الألباني، المعروف بحدته السلفية ومنطقه القوي المتماسك، كان يُسمي وضع المُصلي يديه على صدره بعد الرفع من الركوع بالبدعة البازية، نسبة إلى إفتاء الشيخ ابن باز بها بناءً على حديث نبوي يرى الشيخ ابن باز حسنه في حين يرى الألباني ضعفه. رغم هذه الحدة الألبانية، ما زلت أذكر ذلك اليوم الذي استمعت فيه إلى برنامج «نور على الدرب»، حين سئل الشيخ ابن باز عن رأيه في فتوى أحد علماء الأردن، وكان السائل يقصد الشيخ الألباني الذي يفتي بجواز كشف الوجه وفق ضوابط معينة، فرد الشيخ ابن باز، بأن السائل إن كان يقصد الشيخ الألباني، فمن وجهة نظر الشيخ ابن باز أن الألباني قد أخطأ في فتواه تلك، ولكن... ثم ذكر الشيخ ابن باز حديثَ أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها، أي ما اندرس منه ونُسي، وأنه يظن أن مجدد هذا العصر هو الشيخ الألباني حفظه الله!

في تلك الفترة بدأت علاقتي مع الشيخ ناصر الدين الألباني الذي سأملك لاحقاً مكتبة صوتية خاصة به تحوي مئات الأشرطة.

أتذكر أنني سرحت بفكري في أحد الأيام، وقلتُ لنفسي: تدارك نفسك أيها الكسول واذهب اطلب العلم على يديَّ الشيخ الألباني قبل أن يرحل عن هذه الدنيا، فتقول يا حسرتاه ليتني فعلتها.

ها أنا ذا أقولها، وكلي ألم وحسرة،

يا حسرتاه

ليتني فعلتها.

النصر على الطريقة الجامية

حاولتْ الكثير من الشخصيات الدينية الفاعلة احتواء الخلاف، وإيقاف حمى التصنيفات الجامية - الصحوية التي استشرت بوتيرة سريعة جداً حتى أنَّها طالت الكثير من العلماء والمشايخ الذين آثروا الحياد وكف اللسان.

كتب عضو هيئة كبار العلماء الشيخ الدكتور بكر أبو زيد رحمه الله كتابه الشهير **تصنيف الناس بين الظن واليقين**، ولقي صدى طيباً في أوساط الشباب المتدين، رغم أن كلا الطرفين جيَّره لصالحه. أذكر أنني سألت صاحبي الجامي إيَّاه: «هل تقول لي إن الشيخ يقصد بدعوته هذه أن يتوقف مشايخ الصحوة عن تصنيف مشايخ المدينة ونقدهم؟ ما أعرفه أن مشايخ الصحوة لم يكونوا يصنفون مشايخ المدينة، بل العكس؟»

أجاب بالقول: «أوَليسوا يصنفونهم بأنهم مباحث؟ هذا ما قصده الشيخ». لم يعجبني الرد لأن كتاب التصنيف يتحدث عن تصنيفات دينية ووصم بالبدعة والفسق!

أرسل الشيخ ربيع المدخلي كتاب **أضواء إسلامية** إلى الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله ليحصل منه على تقديم أو تقريظ، وكي يقرأ مغالطات سيد قطب العقدية الكبيرة فربما جعله ذلك ينحاز إلى الجامية

ومبرراتها. كان هذا التقديم أو التقريظ، لو حصل، بمثابة صك طهارة وبراءة واعتراف بأنه - أي ربيع المدخلي - وتياره غير المقصودين بكتاب **تصنيف الناس**...

حصل ربيع المدخلي بدلاً من ذلك على حمَّامٍ ساخن جداً كان بمثابة القنبلة في الوسط الجامي.

رد الشيخ بكر على الشيخ ربيع رداً قوياً في مذكرة ورقية انتشرت انتشار النار في الهشيم. عنَّفه ووبخه على التفرغ لنقد شخصية لم تعرف سوى بالدفاع عن الإسلام وشريعته وثلمها حتى قدَّمت النفس دليلاً على الصدق والإخلاص. ودعاه إلى أن يتقي الله في ما يكتب، وأن لا يجنح عن صراط العدل والأمانة في النقل والحكم.

كانت تلك الصفعة الأولى التي أطارت صواب العقل الجامي، والمسمار الأول في نعش الجامية.

شنَّ الجاميون بعد ذلك هجمة ارتدادية شرسة على الشيخ بكر أبو زيد فوصموه بالإخواني والقطبي المتستر. وكتب الشيخ ربيع المدخلي مذكرةً في الرد على الشيخ بكر الذي آثر عدم الرد موقناً بأنه قد قال ما لديه وأنه يجب أن لا ينجر إلى هذا المستنقع.

إنْ بحثت عن مذكرة الشيخ بكر أبو زيد في التسجيلات الجامية فلن تجدها. ستجد فقط مذكرة الشيخ ربيع في الرد عليه! ولا أدري كيف سيستطيع القارئ أن يدرك أو يحكم وهو يقرأ الرد من دون أن يكون الأصل بين يديه؟

إقصاءات الجامية ومنعها لنشر ما يكتبه المخالفون أو بيعه تكون في العادة غبية، حيث تتوسل «التلقينية الدينية» والتوجيه المباشر. ودائماً هناك الحجة ماثلة أمام أي استنكار؛ «وجود أمثال هذه الكتب أو المذكرات المخالفة هو تمرير لما فيها من باطل». إنَّه شيء يشبه

التحذير السلفي التاريخي من محاورة ومناظرة دعاة البدعة والخشية من الوقوع في براثن شبههم.

الحجج ذاتها، رغم اختلاف الخصوم اختلافاً بيناً. حين لا يوجد مبتدعة فلا ضير. المخالفون السلفيون أو الإخوانيون أو السروريون يسدون المكان الذي أخلاه المعتزلة والأشاعرة والقدرية والمرجئة والصوفية. دائماً كان يجب أن يوجد من يملأ هذا الفراغ. حتمية تاريخية ومادية في العقل الجامي.

فجأة وفي خضم هذا كله، يقرر اللاعب الرئيس أن يهمد كل شيء.

ضربت الحكومة بقوَّة.

صدر قرار إجهاض الصحوة. أُلقيَ برموز الصحوة في السجون بعد احتقان كبير في الشارع كاد أن يؤدي إلى مظاهرات ومصادمات وخصوصاً في منطقة القصيم.

عملت الصحافة الرسمية وشبه الرسمية بكامل طاقتها الاستيعابية من أجل تبرير الموقف الرسمي. جرى تسريب خطاب قبل شهور من تاريخ تلك الفترة مرسل من المفتي العام الشيخ عبدالعزيز ابن باز إلى وزير الداخلية رداً على خطاب سابق للوزير يبحث فيه عن تبرير شرعي ديني لإيقاف مشايخ الصحوة بسبب ما ذكر أنَّه تجييش وتحريض على ولاة الأمر. وجد المتربصون بالصحوة والدعاة ضالتهم في رد المفتي العام الذي كان يرى في وزير الداخلية ممثلاً لولي الأمر يجب طاعته بالمعروف. كان ابن باز رحمه الله يعلم أن علماء السلف ودعاة التوحيد بدءاً من الإمام أحمد ابن حنبل وحتى شيخ الإسلام ابن تيمية مبتلون دائماً بالإيقاف والمنع وتكميم الأفواه، وأنَّهم رغم قناعاتهم بصدق مواقفهم كانوا يستجيبون لأحكام ولي الأمر.

شنَّ التيار العلماني بمعونة الجامية حرباً لا هوادة فيها على مشايخ الصحوة تقودها **جريدة الشرق الأوسط** كالعادة. فشككوا في انتماءات مشايخ الصحوة، وفي وجود تنظيم سري عنقودي، وفي وجود مخطط يستهدف الاستيلاء على الحكم. لم يكن لهذا الخطاب التحريضي ما يسنده. كان خطاباً موجهاً للخارج لتبرير موقف الحكومة العنيف من دعاة الصحوة في السعودية، ولم يكن لهذا الخارج من وسيلة للتأكد من صحة اتهامات إعلام الدولة بسبب الحظر الإعلامي الشديد. زّج بمشايخ الصحوة في السجون، واستندت الداخلية إلى خطاب المفتي الذي أجاز للدولة هذا الفعل درءاً للفتنة ومنعاً للمصادمات.

هدأت العاصفة بعد شهور قليلة.

بعد هذه الأحداث الدراماتيكية والهدوء الذي أعقبها بدا يظهر جلياً أن الصحوة كانت كمن فقد رئتيه، وأن العملاق الكبير يترنح!

حاولت الصحوة بعث رموز جدد، لكن النتائج لم تكن باعثه على التفاؤل. فقد شباب الصحوة الثقة في إمكانية استمرار حلم جميل مرتبط بداعية أو مُخلِّص جديد لعدم وجود ضمانات تمنع رمي هذا الداعية أو المُخلِّص الجديد في السجن بعد أن يبنون عليه آمالهم وأحلامهم!

كنتُ جامياً وقتها. قلقتُ من المجهول. كان شيئاً يشبه انتهاء الحرب الباردة، بل أشد. كان أشبه ما يكون بإدخال حيوان مفترس مكان حيوان مفترس آخر. شيء شبيه بما قاله الملك عبدالله بن عبدالعزيز حين كان ولياً للعهد لوزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت حين قصَّ عليها قصة الراعي الذي كان الذئب يهجم على غنمه فيختطف في كل ليلة واحدة. وكيف أن الناس أشاروا عليه باقتناء كلاب للحماية. فلما فعل وجد أن عليه أن يقوم بذبح شاتين في

كل ليلة من أجل إطعام هذه الكلاب، في قصة لا تخلو من إشارة سياسية شديدة الوضوح.

لقد باتت الحكومة مطلقة اليد لفعل ما تريد من دون رادع جماهيري، بل وبدعم ديني من أكبر هيئة شرعية في البلاد. على الجهة الأخرى كنتُ أثق بهذه الهيئة الشرعية وبحكمة القائمين عليها. اخترت الموقف الأكثر راحة لي، اللامبالاة.

بعد اختفاء مشايخ الصحوة في السجون، وجدت الجامية نفسها بلا عمل!

لكن ليس لوقت طويل، فالحروب التي يعطي إشارتها القادة يقوم الأتباع بدورهم المعتاد في إخراجها عن السيطرة!

لقد جاء دور روبسبيير ليوضع على المقصلة ذاتها التي وضع عليها خصومه.

استشرت حمَّى الفضح والرغبة في العلنية والتمايز في الوسط الجامي نفسه وبشكل مخيف.

بدا أن مارد الجامية الذي خرج من قمقمه يستعصي على أسياده. اكتسح التصنيف بالتبديع والتفسيق بل والتكفير العقلَ الجامي نفسه!

الثورة تأكل أبناءها.

بدأ التخبط من فريد المالكي، فقد كان يصف كل من ألَمَّ بأشعرية مثل تأويل بعض صفات الله المثلى بأنَّه مبتدع واستدل بقول شيخ الإسلام ابن تيمية بأن صفات الله المثلى وأسمائه الحسنى من المعلوم من الدين بالضرورة، ومما لا يُتسامح في الجهل به! ثم تخبط فريد المالكي بين الحكم على صاحبه بالبدعة أو بالكفر كما في بعض أقواله عن سيد قطب...

تحوَّل التخبط إلى تصنيف، وبدأت نار التصنيف التي أشعلها مشايخ الجامية تحرق ثيابهم. فهذا هو أبو عبدالله الحداد، أحد تلامذة الشيخ ربيع المدخلي، يخرج من عباءة شيخه ليصف العالمين الجليلين النووي صاحب **شرح صحيح مسلم**، وابن حجر صاحب **فتح الباري في شرح البخاري**، بالمبتدعة بسبب وقوعهما في بعض التأويل لبعض الصفات. هذه الفتوى كانت استعمالاً أميناً لما نقله فريد المالكي عن شيخ الإسلام بخصوص التأويل. لم يكن هناك رد للأصول بل للمتشابه. في المتشابه تجد الجامية بغيتها الجدلية. بهذه الطريقة المالكية الحدادية وتحت ذات التناسل الحكمي يُصبح من لم يُبدِّع الشيخين الأثريين النووي وابن حجر مبتدع هو الآخر. ولهذا كان ربيع المدخلي في رأي الحداد مبتدعاً!

وهكذا بدأت دائرة «الغرباء» تضيق شيئاً فشيئاً.

وجد أبو عبدالله الحداد أتباعاً له، لم يكونوا كثراً، لم يكن من السهل اختراق الصف الجامي العريض، فلقد كانت الجامية في أصولها العامة تلتزم برأي هيئة كبار العلماء الممثل الرسمي للمنهج السلفي في العالم... لقد ساعد هذا الالتزام الجامية على البقاء متماسكة لبعض الوقت.

كان رأي العلماء بخصوص قضية تبديع ابن حجر والنووي واضحاً جداً. إنهما عالمان قدما الكثير لسُنَّة النبي ﷺ، بل قدما ما لم يقدمه أحدٌ قبلهما أو بعدهما، ألا وهو شرح أحاديث النبي ﷺ شرحاً وافياً أثرياً من خلال ما جاء في القرآن والسُنَّة. أما بخصوص أخطائهما في تأويل بعض صفات الله وأسمائه الحسنى فهي أخطاء تغتفر لهم في بحر حسناتهما الكثيرة. زد على ذلك أن الصفات التي قام الشيخان بتأوليها هي صفات قليلة معدودة، لا تشي بالتزام كامل للعقيدة

الأشعرية، بل إن ما عُرِف عن الشيخين هو التزامهما بالدفاع عن السُنَّة وعن العقيدة السلفية، فكيف يوصف أمثالهما بالأشعرية والابتداع؟ وكيف يقول قائل، والمقصود هنا الحداد والمالكي، أنه يجب حرق كتبهما؟

كان لدى الحدادية بعض المنطق. لقد ذكروا أن على من يُبدِّع سيد قطب بسبب أشعريته أو تأويله لبعض الأسماء والصفات أن يفعل الشيء نفسه مع ابن حجر والنووي!

لكن الجامية ردت بالرد الذي جاء على لسان أعضاء هيئة كبار العلماء من وجوب التفريق بين الداعية للأشعرية والملتزم بها، والمخطئ الذي لم يُعرف بالدعوة للأشعرية لكنه وقع في بعض ما لدى الأشعرية من تأويل وتحريف.

لم تستطع الجامية أن تسحب هذا التفصيل على سيد قطب، رغم أنه لم يكن داعية للأشعرية أو ملتزماً بها!

شيئاً فشيئاً بدأت الجامية تتضعضع.

لم يهتم قادة الجامية كثيراً لهذا الأمر! كان هدفهم واضحاً منذ البداية: إيقاف الاستيلاء الإخواني على ولاية الأمر...

ولتذهب بعد ذلك الجامية ذاتها إلى الجحيم!

أما أحدهما فيعصر خمراً
وأما الآخر فتأكل الطير من رأسه!

لم أدرك سوى في مرحلة متأخرة أنني وبخيت نتشابه كثيراً. الفرق الوحيد الذي بيننا هو أنه يعرف جيداً من هو، على عكسي أنا الذي لم أكن أنا، بل كنت أنا وشخصيات أخرى كثيرة أظل أراوح بينها طوال الوقت، منها طالب العلم والجهادي والحقوقي بل وأن أكون بخيتاً نفسه!

اكتشفت أنني أحاول مع بخيت لأنني في الحقيقة أريد أن أحاول مع نفسي، وكان بخيت مجرد غطاء!

كنت أبحث لبخيت، في الحقيقة لنفسي، عن أسباب: الظروف الاجتماعية التي عاشها، تطويبه الذي تم على أيدي الآخرين، المواعظ العالية، الخشية من المباحث، تجفيف المنابع، التجربة، الحرية، مشايخ الذل والجهل والتفاهة...

رغم وجود إمكانية كبيرة، واحتمالات كثيرة، لم يكن لما حصل سبب واضح!

بل لعل عدم وضوح السبب مُراد في ذاته للهروب إلى الأمام من استحقاقات اكتشاف ذلك السبب الخطير.

كان بخيت مصيباً. كنت سخيفاً جداً وأنا أؤدي دور المتماسك. كان الثوب يغطيني، لكن رجلاي كانتا تهتزان!

لم أكن أريد أن أصدِّق أن التدين سيسم الباقي من حياتي.

كنت أريد أن أبقى متديناً من دون أن أكون كذلك بالفعل. فقط كي أتصالح مع هذه الحقيقة.

أعتقد أن بخيتاً لا يشكو من هذه الإشكالية التي تجعلني أبدو أمام نفسي كما لو أنني عميل مزدوج!

بخيت بطل حقيقي. اختار، وتصالح مع اختياره، رغم أنَّه يعرف جيداً أنه اختار الخيار الأغبى، الأكثر كلفة والأقل راحة.

فضَّل أن لا يموت مع الجماعة، ولا أن يموت خائناً، أن يموت لوحده، صادقاً.

لم يستطع بخيت أن يستمر في أداء دور الرجل الصالح. رغم السنوات الطويلة التي قضاها. لم يقضِ تلك السنوات الطوال في التدين بسبب تكسبه من ورائها، فأي شيء سيكسبه رجلٌ أسود من تدينه وسط مجتمع تتفوق عنصريته على وهابيته بمراحل، بل كان مؤمناً جداً بخياره، بالطريقة ذاتها التي يؤمن فيها الآن بخياره؟!

اختار أن يتوقف في منتصف الطريق وأن يغير مساره.

لا أدري متى بالضبط، قرر بخيت. ولا أدري ما هي أسبابه على وجه الدقة. كل ما أعرفه أن بخيت تخفّف من حمل ثقيل، تستطيع أن تلحظ ذلك من طريقته في العيش وفي الكلام!

اختار بخيت الوحدة، لعله اختيار تكتيكي، أو لعله هروب من استحقاقات المرحلة، أو لعله لا يعبأ. أُرجِّح الأخيرة.

استمرَّ في أداء وظيفته الرسمية على وتيرة أبطأ، وبشكل أقل. على السطح لا شيء تغير سوى حلق اللحية. في العمق لا شيء بقي على حاله.

ترك موقع التأثير، وتحوَّل إلى حزب النظَّارة. وبعد أن كان يهتم كيف يراه الآخرون، بدأ يصبح من الآخرين، ويهتم كيف يراهم.

وكي يُثبت لنفسه أنَّه بات شخصاً آخر، بدأ يسافر إلى البحرين ويرتاد مراقصها.

بحث بخيت في البحرين عن الدواء السحري، الطريقة السريعة للانتقال من الضفة السابقة إلى اللاحقة بهدوء.

كان الأمر يحتاج إلى مادة كيميائية ما توازن كيمياء المخ كي يجري التحول من دون وعي! شيء يشبه الخمر، أو مشروب الشخصية المزدوجة جيكل وهايد!

خالط بخيت الشباب اليافعين، لأنَّه كان يبحث عن مدينة أخرى، شابة، لا تعرفه، يبدأ معها منذ الصفر.

لكنه يعلم جيداً أنَّه «يعلم»، وأنَّه يعي بما يجري له. وكما لا يمكن قشر اللون الأسود عن الجلد بكريمات البشرة، فلا يمكن محو سؤال «الأنا» بشراب رخيص الثمن!

لن يكون سهلاً على بخيت الاستمرار بلعبة الذاكرة والنسيان، الوعي والتجاهل. سيكون مجبراً على العودة من حين إلى آخر إلى المنطقة المريحة التي ألفها طوال سنين!

لا تقوم الشهوات في العادة بدور ما للقضاء على الشبهات. إنهما من ذات الطبيعة، بل الشبهات أكثر قوة وأعظم تأثيراً. فعلماء الدين يذكرون أن خطر الشبهات أعظم بكثير من خطر الشهوات التي تنقضي

بانقضاء لذتها! ها أنا ذا أعود إلى المنطقة المريحة ذاتها، مع فرق وحيد أنني على عكس بخيت غير كاره لذلك!

أفكر كثيراً أين سينتهي الحال ببخيت؟

لا أعرف كثيرين مروا بما مرَّ به بخيت، لذا أقف عاجزاً عن تصور مآله.

كيف سيكون مآلي أنا؟!

لا أدري، ولا أريد أن أفكر في هذا الأمر، لأنني حين أفعل تنتابني كوابيس كبيرة.

أنا وبخيت أخوان، تدينا بقناعتنا، وتركنا التدين بقناعتنا. لا يهم كثيراً أسباب هذه القناعات ومدى موضوعيتها، فقد تكون سخيفة وتافهة ومعيبة، لكنها تظل قناعاتنا التي نطمح بأن يتم احترامها، أو على الأقل تجاهلها.

كلانا يعلم أننا بانسحابنا من المشهد لن نضر الله شيئاً، فدينه سبحانه وتعالى قائم وينتشر انتشار النار في الهشيم، ويعجبنا ذلك، لكننا أردنا فقط إعلان رفضنا وشجبنا واستنكارنا لاختطاف هذا الدين وإعمال المقص فيه كي يبدو شيئاً مشابهاً لقيمة قبائلية تافهة لكن شديدة الخطورة.

أردنا إسلاماً أقوى، أكثر إنسانيةً وأعظم نبلاً، إسلاماً لا يُعلِّم الجبن والخضوع والذلة لأيٍّ كان. لكن هذا لم يكن متاحاً أو مقبولاً في عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر!

كان المطروح إسلاماً ضعيفاً هشاً لا يستطيع التنافس في عالم الاستقلال والإرادة والهوية، لكنه كان يغدو قوياً جداً وعنيفاً حين ينافس في عالم النفعية والتأطير والاستخدام غير الأمين!

فضّلنا الترجل، واخترنا الجبن، وهو الشيء الوحيد الذي اخترناه من هذا الإسلام الهش. لم نرد أن يتم الكلام باسمنا على منصة شنق الإسلام الحقيقي في حضور ضحايا الحادي عشر من سبتمبر، وفي وجود علمائنا الكبار الذين لم أنسَ ترداده لجملة «السماحة السماحة» وتربة ابن باز وابن عثيمين لمّا تجف!

لم نستطع أن نتخلى عن التدين من دون أن نلِغ في شهواتنا، لو لم يحصل ذلك لكان بمثابة عودة إلى الماضي، توبة رديئة.

اخترنا الخيار نفسه، لكن بطرق مختلفة. وسلك كل واحد منا طريقه غير عارف إذا ما كان الآخر يسير عكسه أو بزاوية منفرجة عنه، ثم وجدنا أنفسنا فجأة نرتطم ببعضنا هرباً من أنفسنا وبحثاً عن مصائرنا!

نركب صدفة الطائرة ذاتها، ونحط بها في المطارات ذاتها، وندخل المدن ذاتها، ونتمنى لو أننا اختفينا، أو تبخرنا، أو تحولنا إلى لا شيء، لكن يصدف أن نتواجه في المشرب ذاته، لكن أحدنا يشرب خمراً والآخر عصيراً، فيبدأ يروي لي حكايته للمرة الألف بعد أن يكرع كأسه الأولى.

لم نتوقف لنفكر في هذه الصدفة العجيبة التي تجعلنا نتقابل في كل مرة نهرب فيها!

لم نلحظ أننا نسخ عن بعض نريد الأشياء ذاتها: نهرب إلى مكان بعيد لا نجد فيه من يعرفنا، ونغوص في عالم آخر لا يطرح علينا أسئلته المعدنية الفارغة، ونريد مع ذلك شخصاً ما يعرفنا ويعرف كيف يستمع إلينا ويفهم ما نقوله!

لذا كُنّا كلما تقابلنا أنا وبخيت شعرنا أننا في بلد آخر. مغتربون

يبحثون عن مراتع صباهم في وجوه من يعرف كيف يستمع إليهم ويفهم ما يقولونه.

كنَّا غرباء، كما هي النشيدة: غربااااااءُ، وارتضيناها طريقاً للحياة!

التبيان في كشف مخبوء الإنسان

بدا لي أن المحقق يمارس نوعاً من التتويه والتمويه المتعمدين حول الهدف الذي جيء بي من أجله، وهذه طريقة تقليدية حين يُراد الوصول إلى أكبر عدد ممكن من المعلومات والخيوط التي قد تقود بالصدفة المحضة إلى شبكات أو إرهابيين مفترضين.

- ما طبيعة الأشياء التي تقرأها؟

- أقرأ في كل شيء، في الأدب، وفي السياسة، وفي الدين، وفي الفن وغيرها.

- ماذا تقرأ في السياسة؟

- المقالات والأخبار والتعليقات التي تُكتب.

- لمن تقرأ في السياسة؟

- ليس شخصاً بعينه.

- طيب، هل تكتب؟

- نعم. وقد كتبت في موقع قناة العربية على النت.

- وعن ماذا كنت تكتب في العربية؟

- كتبت عن الخطر الإيراني وذراعه المتمثل في حزب الله، وعن كذب النظام العلوي في سوريا ونفاقه، وغيرها...

- جميل. لكن هذه الطريقة ما عادت تمشي عزيزي!

- عفواً أي طريقة تقصد؟

- أقصد أن تكتب مرة في العلن في الدفاع عن الدولة، ومرات في السر ضدها. هذه لم تعد تمر علينا!

- هل من الممكن أن تدلني على كتاباتي السرية التي كتبتها ضد الدولة؟

- لست ملزماً بأن أدلك على شيء. لدينا كل شيء، مسجل وموثق ومدون.

- طيب، إن كان الأمر مثلما تقول ولديكم كتابتي السرية التي ضد الدولة فلماذا لا تقبضون عليَّ!

- الأسئلة ليست من شأنك. أنت هنا تجيب فقط. بدا واضحاً أنَّه لا يملك إجابة. طرد موقفه الضعيف بسؤال جديد:

- نعود إلى كتاب **التبيان**، من أي موقع عملت له «دان لود»، يريد أن يقول «داون لود (تحميل رابط)».

- قلت لك إنني لم أنزل هذا الكتاب لا من جهاز صالح ولا من أي جهاز آخر.

- يعني تعرف هذا الكتاب وتعرف صاحبه.

- نعم. هذا كتاب تكفيري، وصاحبه هو الشيخ ناصر الفهد الذي ظهر معترفاً بخطئه في التلفاز ومعلناً توبته على الملأ.

- تسميه الشيخ! جميل جداً.

- لا تهم التسمية كثيراً. وجدت نفسي وقعت في ورطة!

شعر هو بالزهو أن كفة الميزان بدأت ترجح لصالحه.

- هل قرأت الكتاب؟

- لا .

- هل قرأت كتباً تكفيرية أخرى؟

- لا . رغم أنني لا أرى في القراءة في فكر هذه الجماعات وأطروحاتها تهمة .

- يعني قرأت؟

- قرأت حجج بعضهم وتحاورت معهم وتناقشنا .

- وما رأيك فيهم؟

- أناس أرادوا الحق لكنهم أضاعوا طريقه .

- فقط هذا . فماذا عن عشرات الضحايا الذين سقطوا على أيدي هذه الجماعات، وماذا عن الخسائر المادية المهولة التي خسرتها الدولة؟ كل هذا تختصره في أناس أرادوا الحق فأضاعوا طريقه؟!

- ما قلته هو ما قيل في الخوارج من قبل .

- طيب ما هو هذا الحق الذي أرادوه لكنهم أضاعوا طريقه؟

أوقعني سؤاله في ورطة، لأن أي إجابة سأقولها لن تكون مناسبة . لكنني استعنت بالله

- أرادوا بناء دولة الخلافة، وهو حلم كل مسلم .

- أنا مسلم وليس هذا حلمي! ثم هل يبرر لهم هذا الحلم فعلهم؟

- حين أقول هذا حلم كل مسلم، أنا أتكلم على الأغلبية .

- ما أدراك أن هذا حلم الأغلبية؟ ومن أعطاك الحق في التكلم باسم الأغلبية؟ بدا أنني قللت من قدرات خصمي، وفاجأتني أسئلته الأخيرة!

- على الأقل هذا ما يُكتب وينشر وأسمعه! وبالمناسبة حلم

الخلافة لا يعني بالضرورة تقويض البناء القائم بل استكماله وتمتينه!

- أي بناء؟

- البلدان القائمة!

- أي بلدان تقصد؟ السعودية؟

- أقصد البلدان العربية عموماً!

- كيف تكون خلافة من دون إسقاط الحكومات القائمة؟

- بالتكامل والبناء على الحاضر، ولهذا قلت الحلم بالخلافة لا يعني بالضرورة تقويض البناء القائم.

قلَّب في أوراقه، وأخرج من بين كومة الأوراق واحدة، ثم نظر إليَّ وطرح سؤالاً مختلفاً:

- كم ساعة تجلس على النت؟

- من 4 إلى 5 ساعات في اليوم.

- ما شاء الله! وأين تبحر؟

- في أماكن كثيرة.

- دعنا من الشات، ومن المسنجر، ومن البريد، ومن المواقع التعليمية والترفيهية. أعطنا غير هذه.

- المواقع الدينية.

- أي مواقع دينية؟

- الإسلامية. مثل موقع الشيخ ابن باز، وموقع الشيخ ابن عثيمين، وبعض المواقع الأخرى.

- الأخرى مثل إيش؟

- موقع إسلام أون لاين والإسلام اليوم.

- ماذا عن المواقع الحوارية؟

- الساحة العربية، والإقلاع، وجسد الثقافة، وغيرها.

- أي ساحة في الساحة العربية؟

- كل الساحات، السياسية، والمفتوحة، والأصدقاء، والإسلامية، والإنترنت.

- هل تشارك بالكتابة في هذا الموقع؟

- نعم.

- ما هو اسمك الذي تكتب به؟

- لدي أكثر من اسم، لكنني أكتب في الغالب باسم «مفعول به».

- وما هي الأسماء الأخرى التي كتبت بها؟

- اللازوردي والرنتيسي ويحيى عيَّاش!

- لماذا هذه الأسماء المتنوعة؟

- حين سُمِحَ بالتسجيل كنت اختار الأسماء بناءً على أول ما يخطر على بالي.

- طيب، وفيما تحتاج كل هذه الأسماء؟

- المسألة ليست حاجة. حين فُتِح التسجيل في المنتدى أحببت أن أحتفظ لنفسي ببعض الأسماء حتى أقدمها كهدايا لأصدقائي، أو للذين أتوسم فيهم حسن الكتابة والدفاع عن الدين وأهله.

- تقول إنك تستخدم هذا الاسم «مفعول به» في الغالب، ما الذي يفرق بين ما تكتبه بهذا الاسم عما تكتبه بالأسماء الأخرى؟

- لا شيء. لكنك أحياناً تريد إيصال رفضك وشجبك لما يكتبه بعضهم وتخشى إن كتبت باسمك الذي عُرِفت به أن تفقد ذلك البعض، ويقطع ما بينك وبينه من أواصر الود والصداقة.

- وهل هناك استخدامات أخرى لهذه الأسماء؟ قالها وهو ينظر إلى الأوراق أمامه، كمن سيخدعني بعاديَّة السؤال!

- نعم. قد أرد على أحد مواضيعي بأحد هذه الأسماء حتى يبقى موضوعي في أعلى الصفحة أكبر فترة ممكنة.

- كيف تفعل هذا وأنت شخص متدين من المفروض أن يحذر الكذب والخداع؟

- ماذا تقصد بقولك متدين، وأين هو هذا الكذب والخداع؟

- لا يهم. ما هي المنتديات الحوارية الأخرى التي تشارك فيها؟

- قلت لك: الإقلاع، وجسد الثقافة.

- فقط؟

- نعم.

- ماذا عن منتدى الإصلاح المعارض؟

- أنا أدخله وأقرأ ما فيه، ولا أشارك بالكتابة فيه.

- الدخول والقراءة، أليست مشاركة؟

- لا. لا أعتبرها كذلك. وفي ظني أن الأمر يعتمد على تفسيرنا الخاص لمعنى المشاركة.

- صحيح. طيب ما رأيك فيه؟

- مثله مثل أي منتدى آخر.

- كيف يعني؟

- فيه الزين وفيه الشين.

- الزين مثل إيش يعني؟ ممكن تعطيني مثال؟

فكرت للحظات، ثُم قلت: أذكر أنني قرأت مقالة للشيخ محسن العواجي بعنوان «الجهاد، ضد من، ومع من».

- والشين، مثل إيش؟

- كثير. مثل بعض المقالات التي يكثر فيها السب والشتم والكذب والتلفيق على ولاة الأمر.

- ألا يمكن أن يكون ما يُقال صحيحاً؟ ما أدراك أنه كذبٌ وتلفيقٌ؟

- لا أعتقد أن ولاة أمرنا بهذا السوء. وعلى افتراض وجود أخطاء ومعاصٍ، وهي حتماً موجودة، فولاة الأمر ليسوا معصومين، فليست هذه هي الطريقة الشرعية لحل ومحاصرة هذه الأخطاء والمعاصي.

- ما هي الطريقة الشرعية من وجهة نظرك؟ ولا تقل لي المناصحة في السر.

- طيب. السر في المناصحة.

لاحظت معالم ابتسامة كادت تند على ثغر المحقق لولا أنه أوقف كل شيء، بقوله:

- سنتوقف هنا، وسنكمل في الغد. تستطيع الذهاب وموعدنا في الغد في الوقت نفسه. لا أحتاج إلى بيان أن تأخرك ولو لخمس دقائق كفيل بإثارة الشكوك حولك!

قمت من مكاني غير مُصدِّقٍ أنني سأخرج! لم أدرِ هل أصافحه أم لا؟ لكنه أراحني بإشارة من يده إلى الباب.

في الغد حضرت بعد يوم طويل من الهواجس والهموم، وقليل من الراحة والنوم.

وحين وصلت إلى مكتب المحقق كانت المفاجأة الكبرى في انتظاري!

غزوة بندر

اشتد عود بندر ومجموعته مع العمليات الصغيرة التي خاضتها. وثبت للقائد للشاب بعد أربعة شهور من العمليات الصغيرة أن الوقت قد حان لانضمام أفراد المجموعة مع المجاميع الكبيرة الأخرى. وهذه كانت استراتيجية قادة الجهاد؛ توزيع المتطوعين إلى مجموعات وتدريبهم بقيادة مجاهدين سابقين أشداء حتى يصلب عودهم، ثم ضمهم إلى المجاميع الكبرى. كانت القيادة تحرص على خلط بعض أفراد المجموعات المبتدئة مع مجاهدين محترفين لتحفيزهم وبث الشجاعة والجرأة في قلوبهم.

كانت في المجاميع الكبرى أعداد كبيرة من المقاتلين من شتى أنحاء العالم. كانت الجدية والصرامة تصبغان كامل المشهد. لا وقت يضيع على الإطلاق.

لم يرَ بندر قائده الشاب منذ أن انضمت مجموعته الصغيرة إلى المجموعة الكبيرة، سلوى بندر الوحيدة كانت في وجود صديقه.

تلك السلوى التي لم تستمر طويلاً.

في إحدى الغزوات اختير بندر وصديقه مع مجموعة من المجاهدين للتوجه لحراسة مستشفى مدينة ديالى الذي يشكو من هجمات جيش المهدي الذي قتل أفراده الكثير من الأطباء والممرضين

والإداريين السنَّة بتهمة دعمهم للجماعات الإرهابية السنيِّة، وهو ما دعا أهالي المدينة وأعيانها ورؤوساء عشائرها إلى دعوة قادة جيش المجاهدين لحمايتها.

ركب بندر في الناقلة يحمل سلاحه. جلس بجانبه شخصٌ مقنعٌ لا يظهر من وجهه سوى فمه وعيناه يحمل سلاحاً هو الآخر. بدت على فمه ابتسامة حين رأى بندر وصاحبه.

همس في أذن بندر: مرت شهور يا بندر، أصبحنا رفقاء سلاح الآن.

اتسعت عينا بندر، لقد كان صوت القائد الشاب. بدون شعور منه وضع بندر قبلةً على خد القائد الشاب الذي ضحك.

همس بندر في أذنه: من يدري من يعش منا بعد هذه المعركة القادمة، ثم إنني لم أعد أراك، وأخشى أن نفترق فلا نتقابل بعدها سوى في الجنة، ألن تخبرني باسمك؟

- لما لا أخبرك في الجنة؟ وابتسم.

- الدنيا جنة المجاهد.

- طيب.

- ماذا تعني بطيب.

- ما رأيك لو نتفق؟

- على ماذا؟

- شوف: إذا عدنا من هذه المعركة أحياءً أخبرتك باسمي؟ وإذا متُّ فسمني عمر! لأنني أحب هذا الاسم جداً.

- أفهم أن هذا ليس هو اسمك الحقيقي؟

- لك أن تفهم الذي تريده. أعدني إلى المعسكر حياً فأخبرك بالحقيقة. قالها وابتسم مرة أخرى.

وصلت الناقلة إلى محيط المستشفى. نزل المجاهدون بسرعة. أعطى القائد العراقي أوامره لرؤوساء المجموعات الذين مضوا وخلفهم جنودهم.

دخلت المجموعات إلى أروقة المستشفى من أبوابه المختلفة، فمشطوا المستشفى حتى ضمنوا خلوه من أفراد جيش المهدي من دون أن يعلموا أن بعضاً من أفراد جيش المهدي قد اختبأوا في ثلاجات الموتى حين فوجئوا بقوات المجاهدين.

بعد ساعة من وجود المجاهدين ومن سيطرتهم على الوضع الأمني في محيط المستشفى سُمع دوي إطلاق الرصاص داخل المستشفى. لقد خرج أفراد جيش المهدي من الثلاجات وبدأوا يطلقون النار بشكل عشوائيٍ بغية إحداث فوضى تمكنهم من التسلل خارج المستشفى.

كانوا مُقنَّعين. كان بندر يراهم من مكانه، فلقد كان ماراً بأحد الردهات القريبة حين سمع صوت دوي الرصاص فدخل في أحد الغرف منتظراً أن يتوقف إطلاق الرصاص.

كمن بندر في مكانه يتحين فرصة مواتية لقتل أكبر عدد ممكن منهم. شعر بالسعادة لأنه لم يعد يخاف الموت، ولأنَّه بات رجلاً يواجه الأهوال التي يواجهها الرجال الأشداء.

كان عددهم يزيد على العشرة بقليل.

من الجهة المقابلة يخرج أحد المجاهدين الذي يُسمع تكبيره فيصليهم برشاشه حتى يستشهد بعد أن يقتل اثنين ويصيب مثلهم.

ينظر بندر إلى تلك الجهة ليرى من هو هذا المجاهد الشجاع. يراه أحدهم فيصرخ بالمجموعة التي ما إن التفتت جهته حتى خرج جنديٌّ مقنَّعٌ يصليهم برشاشه ثم يرمي عليهم قنبلة يدوية كانت في يده. تنفجر القنبلة مخلفةً دائرة كبيرة لم يسلم منها فردٌ من أفراد جيش المهدي.

نظر الجندي المُقنَّع - الذي لم يكن سوى عمر - جهة بندر: اخرج يا بندر. أنت في مأمن الآن.

جاء أفراد المجموعة ليجدوا أن كل شيء قد انتهى. نظر بندر جهة المجاهد الذي قُتِل، وإذا هو صديقه.

انهمرت الدموع من عيني بندر وهو يرى صاحبه مسجّى. لم يصدق نفسه. وكأنه في واقعٍ سينمائي جداً. جرَّ رجليه كما لو أنَّه حصان عربة هرم، لكن رجليه خانتاه في منتصف الطريق.

قال له عمر: ليس عيباً أن تبكيه، أو أن تذهب فتُقبِّله. إنه بطل. قال هذا وجلس على كرسي خشبي في الردهة.

بالكاد وصل بندر إلى صديقه الذي كان منكفئاً على وجهه وسط دائرة من الدماء خرجت من رأسه وأنفه.

أحتضن بندر الذي كان كل ما فيه يرتعد صديق عمره وشده إليه بقوة وظل يؤرجح جسده فينحني بجسده إلى الأمام ثم إلى الخلف ودموعه تتواتر.

ها هو يفقد صديقه بعد أن فقد ابن عمته على أيدٍ عراقية. كاد أحد المجاهدين أن يأخذ بيده، لكن القائد الشاب أشار إليه بأن يتركه قائلاً: دعه، فلصاحب الشهيد مقالة، اذهبوا وسأنتظره حتى يفرغ.

حين رحل الجميع ولم يبق إلا بندر وعمر، جلس عمر القرفصاء

مستنداً إلى أحد الجدران. كان منظر بندر، الشاب الصغير، درامياً جداً. بكى عمر هذه الأمة التي دفعت شباباً في عمر الزهور إلى الدفاع نيابة عن جيوشها المتكلسة!

رأى بندر عمر يبكي معه. كان منظره مهيباً وهو ينشج، ودموعه تنهمر كالمطر.

حمل بندر جثة صديقه على كتفه وخرج.

بقيت مجموعة من المجاهدين تحمي المستشفى.

لم يكن عمر يضع قناعاً هذه المرة.

نظر إلى بندر، ثم قال: اسمي الحقيقي هو الذي ذكرته لك. عمر. وأنا سعوديٌّ ولستُ كويتياً.

أنا مصاب بالفيروس الصغير

أتلقى ردود فعل إيجابية على ما أكتبه في الجريدة. أعلم جيداً سقف الخطوط الحمراء التي جمُدت عليه إدارة التحرير. أتعارك مع مدير التحرير مرة واثنتين. أوضح له أن سقف الحرية قد ارتفع وأن الجريدة كي تنافس في حاجة إلى مواكبة هذا السقف.

ثلاثة أشهر، وبدأت أتفلسف عليهم. هكذا رأوا الأمر، أو هكذا هو بالفعل!

أكتب تقريراً عن وضع الجريدة في المنطقة وعن أخطائها الاستراتيجية الكبرى، وأرسله إلى مدير التحرير. لا أظن أنَّه راق له.

الجريدة تقوم بإعادة هيكلة، هكذا قال لي مدير التحرير، فتوقفتْ عن النشر. طالبت مدير التحرير بتحديد فترة زمنية لنشرها، فرفض، عندها أيقنت أن قرارهم قد اتُخِذ. عُرِض علي الكتابة في جريدة إسلامية. وافقت. أعطوني ربع مساحة الصفحة الأخيرة.

كانت هذه الجريدة محسوبة في السابق على تيار العصرانية الذي سيطر عليها في فترة من الفترات التي شهدت طفرة في المبيعات جراء المواضيع الساخنة المطروحة. وجدت الجريدة بتيارها العصراني معارضة كبيرة في الساحة الإسلامية، الأمر الذي دفع الإدارة في نهاية

المطاف إلى الاستقالة، وبالجريدة إلى العودة إلى خطها الأصلي السلفي الحركي الصرف.

بدأت الجريدة تتحول إلى أسبوعية بعد أن كانت شهرية. تلقيت ردود فعل مشجعة من لدن القراء. تزامن انضمامي إلى الجريدة مع انضمام رئيس تحرير جديد. من سوء حظه وحظ الجريدة أنه كان أخاً لأحد أسرى غوانتانامو، وأخاً كذلك لأحد المطاردين بتهمة الإرهاب في الداخل.

تحسنت أوضاع الجريدة جرَّاء إدارة رئيس التحرير هذا الذي كان يملك تصوراً جيداً عن كيفية تطوير الجريدة ورفع مبيعاتها.

لكنه فشل في وضع تصوره موضع التطبيق، والسبب خذلان الوسط الإسلامي له، حيث لم يجد الدعم الذي توقعه من لدن تيَّار ظنَّه منضبطاً يبحث عن مؤسسة أو مطبوعة تعبر عن رأيه وتُزاحم الباطل وترغمه!

زد على ذلك أن الرقيب الإعلامي بدأ يعمل على نار هادئة لإيقاف إصدار الجريدة من خلال تمزيق صفحة أو صفحتين مرة، ومن خلال تأخير السماح بالنشر مرة، ومن خلال المنع بعد الطباعة مرات. ففي السعودية أنت مجبر على طباعة أعداد جريدتك كاملة ومن ثم إرسال نسخة عنها إلى الرقيب، ولا يحق لك بعكس كل بلاد العالم أن ترسل نسختك للرقيب قبل أن تطبع كل نسخك!

يجب أن تخسر حين نُقرر أن تخسر، وتربح حين نُقرر ذلك.

الجرائد الوحيدة التي تُصدر وتوزع من دون رقابة قبلية هي الجرائد التي يقف على رأسها رؤوساء التحرير الحكوميون.

جرى اعتقال رئيس التحرير أكثر من مرة على خلفية تحركاته من أجل أسرى غوانتانامو. الأخيرة منها كانت قاصمة الظهر بالنسبة

للجريدة. وذلك على خلفية تصريح أدلى به لأحد القنوات الفضائية وجدت فيه الداخلية افتئاتاً عليها. عُرِض علي في فترة غياب رئيس التحرير رئاسة تحرير الجريدة لكنني رفضتها بسبب ظروف عملي، ولأنني كنتُ جباناً.

قضى رئيس التحرير في السجن أكثر من ستة أشهر، خرج منها وقد أغلقت الجريدة حتى إشعار آخر.

كانت صدمة بالنسبة إلي، حتى وهي متوقعة. كانت صدمتي في التيار الإسلامي أكبر، حيث لم يدعم ويناصر ويشجع هذه التجربة ويحوطها برعايته.

كنتُ دائماً ما أزعم أن هناك متربصون يريدون شراً، وهي حقيقة، لكن الذي يُفشل الأعمال ليس هم المتربصون بها، بل أهلوها. هناك دائماً مخرج آمن، وكوَّة للنجاح ربانيَّة لا يستطيع أي أحد إغلاقها، كمثل كوَّة السجن!

الذكاء والنجاح يكونانِ في البحث عن كوَّة السجن هذه.

الإسلاميون كُسالى في ما يخص الجانب الإعلامي. وليست هذه الصفة حكراً عليهم وحدهم، لكنهم يتقاعسون منهارين تحت ضغط الحكومات التي تدفعهم لأن يتقاعسوا. ومن عساه يلوم الحكومات على فعل شيء تستجيب له الرعية بسلاسة؟

أتوقف عن الكتابة مُرغماً وللمرة الثانية.

هنا يبدأ التحول الحقيقي، الهادئ.

أتفرغ للقراءة.

أعيد اكتشاف الأشياء بعيداً عن ضوضائها وعن تماسي بها.

أجد أنني فوَّت علي الكثير حين تَزبَّبْتُ قبل أن أتَحصْرَم كما يُقال.

أعود لأقرأ بنهم. خصوصاً في نتاج الغرب. أقرأ في فكره وفلسفته وأدبه وسياسته. أدقق في إنسانوية ما يُطرح. أقارن بين فكرتي عنه، وفكرتي منه. أتذكر أن أول ما قرأته كان رواية بعنوان «ثلاثية نيويورك»، وهي من روايات تيار الوعي.

أقرأ لكولن ولسن - «نبي التمرد»، فيسحرني باللامنتمي والمنتمي وكلامه الطويل والغريب حول الظواهر غير المحسوسة وغير المفسرة علمياً.

أغوص حتى أذنيَّ في قراءة الأدب والفلسفة الألمانية الساحرة، غوتيه ونيتشه وكافكا وتوماس مان وبريخت وهابرمارس وهسَّه وإيزايا برلين وغونترغراس واليهودي إمره كيرتس...

أطَّلع على الأدب الروسي فأقرأ لدستويفسكي وتولستوي وغوغول وبوشكين وتشيخوف...

أقرأ لزولا وآلان بو وفرجينيا وولف وت. إس. إليوت وجورج أورويل وتشارلز ديكنز وأندريه جيد وهوغو وكامو وسارتر...

أتعرف إلى ماركيز وكالفينو وأمبرتو إيكو وبورخيس وباولو كويليو وإدواردو ميندوزا وماريو بارغاس يوسا...

أشتري كتباً كثيرة عن الفلسفة. أريد أن أفهم كل شيء.

أعود لأقرأ فلاسفة التنوير من جديد.

كنت قد بدأت قراءاتي لهم ولم أتعافَ من دوغمائيتي وتحيزي، حيث كنت أبحث في طيات ما أقرأ عما يسند ظهري ويضيف إلى أدلتي أدلة جديدة، وإلى حججي حجة جديدة، وإلى شهاداتي شهادة جديدة.

حين خرجت من عنق الزجاجة الكتابية المهنيَّة وابتعدت عن

صخب السجالات والاستقطابات، وجدتُ الفرصة مواتية لاستئناف ما كنت قد عزمت عليه من الاطلاع والتبحر في عالم فلاسفة التنوير بتحيز أقل وانفتاح أكبر . . .

هذه الرغبة لم تكن بمعزل عن خبيئتي الدفينة وقناعتي الشخصية بأن ما يوجد اليوم مما يسميه بعض الناس علمانية ليس أكثر من طبقة رقيقة مشعة تخفي تحتها أدواء لا تختلف كثيراً عن أدواء جميع الفرقاء الآخرين.

هالني أن أجد أدباً أخلاقياً رفيعاً، وكتَّاباً لم يكتبوا وقد خلعوا عن كواهلهم أغلال الدين وآصاره، وفلاسفة عظاماً يُصرِّحون بوضوح وبجلاء أن الدين يجب أن لا يدخل المختبر، وأن ما يصدق على غيره من الفنون والعلوم لا يصدق عليه لـ «حقيقته» المختلفة.

صدمني أن دعاة العلمنة والفلسفة والمعرفة العرب ما زالوا يعيشون ويتلمظون بتقديس رخيص فكراً بشرياً لم يدَّعِ أصحابه الأصلاء أنه الحق المطلق الذي لا يقبل التعديل أو التغيير أو التبييء.

«يخون الإنسان الفكرة حين يُقدِّسها». كانت جملة قرأتها في مكان ما. هي صحيحة جداً ومعبرة.

محبط جداً أن تدرك أن مفكراً سعودياً لا زال يجتر أفكار وآراء فلاسفة التنوير التي طوى بعضها الفكر الغربي خلف ظهره، وغربل بعضها الآخر لتتواءم مع حداثة العصر. لا ملام عليه، لقد أتانا من هناك يملك الحق المطلق، ولم يسعفه وقته الضيق الذي ازدحم بالكتابة والتنظير لقراءة ما يُكتب حديثاً في الفلسفة والفكر والأدب الغربي في ما يتعلق بعصر التنوير. إنه كمن أمسك بخطاب للخليفة هارون الرشيد رحمه الله والتزمه حتى يومنا هذا ظاناً أنَّه يُمسك بخطابِ سلطانيٍّ لا يملك أحدٌ نقضه!

مؤسف أيضاً أن تدرك أن الإسلاميين يرتكبون جرماً كبيراً حين يفاصلون الفكر الغربي، وكأنَّه كله قطعة قماش واحدة مغزولةٍ على نول الصهيونية والإمبريالية، وأن لا همَّ لمفكري الغرب وفلاسفته وأدبائه سوى غزو مقدسات المسلمين وتهميشها.

القطيعة تعطي الوسطاء الفرصة للعب. واللعب بين الحضارات هو لعب بالنار. يجب أن لا نسمح لطيف واحد بأن يملك حق ترجمة ما لدى الآخرين من غير الناطقين بالضاد. ليس لأن هذا الطيف لا يُحسن الترجمة، بل لأن احتكار الترجمة عمل خطير ومعقد للغاية!

كلما توغلت أكثر في المتن، تقلَّص الهامش.

القراءة في فكر الآخر خطيرة جداً. تغدو أخطر حين لا تملك معرفة عميقة بما لدى بني قومك. بدون الوعي في ما أنت فيه قد تسقط تحت ضربات الانبهار بما لدى هذا الآخر. ليس هذا فقط، هناك ما هو أكثر من مجرد الإرث والوعي، لعلي أسميه «الرويَّة»، والتي تسمح لك بتمحيص وفلترة - دون تشنج - ما يطوف بك من أفكار ورؤى غير معارضة لثوابتك بشكل مباشر.

قال لي بخيت مرة: مصيبتنا أننا نقرأ الكتب قراءة مُصدِّقة. كنت أجد لفظة «مُصدِّقة» مضحكة حينها، لأنني على يقين أن بخيت لم يستخدمها سوى لأنه لم يجد غيرها. كان يستطيع أن يقول «مُسلِّمة» أو «طيِّعة». اليوم أُصدِّق بخيت، «مُصدِّقة» هي الأقرب بما تتضمنه من تسليم طوعي وثقة متناهية. لا يزال الرجل يُصدِّق ويتحرى «التصديق» حتى يُكتب عند الله «مُصدِّقاً».

في السابق كنت أقرأ باحثاً عما يناسبني. وأما اليوم فأقرأ بشكل أكبر عما لا يناسبني، لأفهم منه ما يناسبني، ولأدرك ميكانيزمات كل الأشياء، ميكانزيم الحركة الغربية سياسياً وثقافياً واقتصادياً، ميكانيزم

العنصرية الغربية، ميكانيزم «النفعية» الغربية، وكذلك ميكانيزمات «التطور» و«الحرية» و«التعددية».

أقرأ عن تاريخهم وآدابهم وتجاربهم وآمالهم وأحلامهم وأقارنها بما لدى بني قومي، ليس هذا فقط، بل وبما لدى بني قومي عنهم!

أحاول قدر الإمكان أن ألحظ ماهية الأشياء التي يمكن نقلها من دون حماقة كحماقات طه حسين الذي يدعونا للسير سيرتهم، وأخذ كل ما لديهم من خير أو شر، لأن ذلك ضريبة التطور. أعي جيداً أن طه حسين قال ما قال تحت ضربات الانبهار بالحضارة الغربية وآدابها. ذلك الانبهار والتمزق والإحباط الذي جعله يسيء لتراث هذه الأمة، حين أصدر كتابه **في الشعر الجاهلي** والذي أسقط من خلاله على النص المقدَّس نظرية الشك واليقين، لكن لا شيء يعفيه مما اقترف، فهو من رموز تلك الحقبة التي كان ينتظر منها غرس نبتة «الحقيقة» والأصالة للمكنون الثقافي العربي. لهذا كان ما فعله حماقة، وحماقات الرموز تأتي «قاتلة» في العادة.

أن تكون متديناً وتقرأ لمفكري الغرب يعطيك شعوراً بأنك مختلف عن بني قومك المتدينين. أنت تعلوهم درجة وتفهم أكثر منهم وتستطيع أن ترد حجج العلمانيين وتفندها وتكشف زيفها. ولذا فأنت تعلو العلمانيين أيضاً، أنت تعلو الجميع، أنت بطل، تقوم بما قام به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

لكن يبقى هناك هذا الشعور بأنك تمارس عملية غير أمينة، حيث تدخل إلى أمريكا مثلاً فتطوف بأحياء الفقراء والمعدمين ومدمني المخدرات، فتعود لتقسم بالله - قسماً لا يرقى إليه الشك - بأن أمريكا كاذبة ففيها الطبقية والفساد والانحلال، وأنها عما قريب منهارة كما انهار الاتحاد السوفياتي، وأن النصرة للإسلام!

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾. لا أدري لـمَ أحس أن في الإسلام عِبَرٌ خطيرة جداً وعميقة ورغم ذلك من السهل جداً أن نرميها خلف ظهورنا، كمثل هذه الآية الكريمة وغيرها!

هذا بالذات إضافة إلى جميع الظروف التي مررت بها، دفعتني إلى تغيير نمط القراءة الذي سرت عليه. بت أكثر هدوءاً وأقل تحيزاً، بُتُّ أقرأ مع أقل قدر من الانطباعات «الصحوية» المسبقة.

أصبحت حين أقرأ للغرب تتلبسني حالة شعورية غير مسبوقة. أزعم أن مكمن هذه الحالة التي أشعر بها هو الإثارة والديناميكية التي تميز الفكر الغربي، فهناك تسارع كبير وحراك مهول للأفكار، لا يعوقه الخوف ولا يحتاج إلى المراوغة. هناك أبطال يُنتَجون، وفُرص سانحة للبروز، واحترام للجدية والرصانة.

هكذا بدأت أقرأهم، وهكذا بدأت أكره ما نحن عليه وفيه، لكن من دون أن أخرج عليه.

سحرني الأدب الغربي مذ قرأت الرواية الأولى **البؤساء**. ما زلت أذكر أنني بكيت بحرقة حين مات الشيخ العجوز. لقد بكيت بالطريقة نفسها التي أبكاني فيها الشيخ الحمَّاد في شريطه عن آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة **القبر**.

ما زلت أشعر حتى اليوم بسحر هوغو الكتابي وتقنياته، وبالطريقة التي جدَّل بها الأحداث. كان شيئاً جديداً علي. كنت ما أزال تحت تأثير القص المدرسي. لا أذكر أنني قرأت قصة غربية في المدرسة!

كانت **البؤساء** الفيروس الأول الصغير لتحول كبير. ومن دون الشعور بالبؤس لا يمكن لشيء أن يتغير.

المندس

فوجئت به أمام باب منزلي. لم يكن يحب أن يأتي لأيٍّ ممن تربطهم علاقة بأخيه. يشعر أنه مراقب وأن مجيئه سيثير قلقاً وإزعاجاً لمن يجيء إليهم. كانت المرة الأولى التي يفعلها.

علمتُ أن هناك أمراً خطيراً.

- ما الذي حصل يا عابد؟

- والدتي مريضة جداً. عمر على لسانها دائماً. «تكفى اعمل شيء».

- ما هي أخبار عمر؟

- هو في البحرين، وقد أمرني بسرعة زيارتك، ودعوتك لرؤيته في البحرين. إنه حذر جداً هذه المرة، ويبدو أنه بات مراقباً في البحرين أيضاً!

- هل أخبرك بالمكان الذي يجدر بي لقاؤه فيه؟

- لا، لكنه قال لي: قل لمتعب يقابلني في المكان الذي شاهد فيه بخيت أول مرة. سينتظرك في يوم الخميس القادم!

- طيب يا عابد. لا تخبر أحداً.

يوم الإثنين ذهبت واشتريت سيارة كابرس طراز 2000. كنت أعلم أن ساعة الصفر قد أزفت.

وقفت أمام كابينة الجمارك. في العادة يخضعك موظف الجمارك لنظرة واحدة فقط. إن وجدك واثقاً من نفسك لن يطلب رؤية جواز سفرك، وإن لم يجدك كذلك طلب رؤية جواز سفرك للتأكد من أنك صاحب السيارة.

في نصف مرات مروري من هناك، كان يُطلب مني جواز سفري. كنتُ أشعر بها كإهانة، وكأنني مشروع ممثل فاشل!

طلب جواز سفري، رغم ابتسامتي التي نفحته بها. لعله فهمني على نحو جيد، واكتشف ما تخفيه هذه الابتسامة. بعد أن تنتهي هذه التجربة، سأدوِّن كل الأخطاء التي وقعت فيها. سلَّمني ورقة خروج السيارة. مرقت من نظرة ذلك الموظف إلى كابينة الجوازات. سأتخيل أنني أخفي عمر الآن في مؤخرة السيارة، حيث يستطيع الدخول والخروج من مؤخرة السيارة إلى المقعد الخلفي من خلال رفع «التكَّاية»- في منتصف المقعد - وإخفاضها الميزة الخاصة لسيارات الكابرس موديل 2000.

عمر معي الآن، محشور في مؤخرة السيارة. موظف الجوازات يدمغ ختم الخروج على جواز سفري. يطلب مني ورقة الجمارك ليختم عليها ويكتب عدد الأشخاص.

سأمر بعد ذلك على كابينة صغيرة. تُفتح فيها نافذة صغيرة. ينظر فيها موظف الكابينة إلى ختم الخروج على مبعدة منك، لستَ مضطراً للتوقف الكامل، ترفع فقط جواز سفرك وورقة الجمارك جهة الختم والتوقيع.

لا أدري كيف يستطيع الموظف رؤية شيء مما ترفعه من مكانه. أظنه يعتمد على حدسه. عمر معي، وما زال مختبئاً في المؤخرة، وحتى الآن لم أؤمر بفتح شنطة السيارة.

أمر بسلام.

أُعتبر الآن خارج الحدود السعودية.

أصل إلى كابينة الجوازات البحرينية. وعمر لا يزال قابعاً في مكانه. يختم الموظف بختم الدخول.

يخرج عمر من مكانه قبل أن أصل إلى الجمارك البحرينية، حيث سأكون مضطراً للنزول من السيارة، من المفترض أن يقوم موظف الجمارك بتفتيش السيارة. يمسك موظف الجمارك عادة بالجوازات التي أمد يدي بها مع ورقة الجمارك السعودية بروتينية. لم يجرِ ولو لمرة واحدة أن نظر في الجوازات أو في ما هو مكتوب في ورقة الجمارك السعودية. في العادة يسألك إن كان معك شيء! تجيبه: لا، فيمزق ورقة الجمارك السعودية إلى نصفين مقسومين يأخذ أحدهما الذي تظهر فيه بيانات السيارة ويُبقي الآخر معك.

لو أتينا بجواز عمر أو بأي جواز آخر، لما كان هناك أي فرق، فموظف الجمارك ليس من مسؤوليته مطابقة الجوازات.

الجزء الصعب انتهى. ندلف إلى التأمين، نعطيه النصف الآخر من الورقة و15 ريال ثمن التأمين، ونكون داخل البحرين. لو كان عمر معي في الحقيقة لما سارت الأمور هذا السير الحسن. أدرك هذا جيداً، كنت سأثير الريبة بارتباكي.

نقطة واحدة فقط قد تثير المشاكل في ما لو صدف وتعامل معنا فيها موظف الجمارك البحرينية بطريقة غير تقليدية:

قد يبحث موظف الجمارك البحرينية الذي نسلمه جوازاتنا عن أختام الخروج والدخول، ساعتها نكون في ورطة، لأن جواز عمر لن يكون مختوماً بختم الخروج السعودي أو الدخول البحريني! كما أننا

قد نقع في مشكلة أخرى لو نظر في ورقة الجمارك السعودية المكتوب عليها عدد الأشخاص، ووجد أن المكتوب شخص واحد! سيفهم كل شيء في دقيقة.

ما الحل؟

إما التنسيق مع موظف في الجوازات يختم ويكتب عبارة «شخصان» أو التنسيق مع موظف في الجمارك البحرينية لتمريرنا. كلتا الطريقتين كانتا محفوفتين بالخطر، تماماً كصعوبة خروج عمر بجواز سفر مزور أو يتبع لبلد آخر.

لم أكن خائفاً من السجن أو القتل أو الاتهام بالانتماء للقاعدة. كنتُ خائفاً على أمي!

لا أريد أن يكسب عمر رؤية أمه في الوقت الذي أخسر فيه أنا رؤية أمي.

أمي هي كل ما بقي لي من أبي. نصفه الآخر الذي يبقيني على شفا الحياة.

ماذا يبقى لنا إن رحل والدينا؟ ماذا ننتظر غير الحزن والأسى؟

كنت أمني النفس بأن يقف الحظ ولو لمرة واحدة معي، فأنجو في هذه المرة ويمر كل شيء بسلام.

لا أريد أن أخرق القانون، لكن ما حيلتي وهم يخرقونه بالقانون!

ألا يفقد القانون هيبته حين يحصل ذلك؟

أي جريمة ارتكبها عمر في حق بلده، وهو الذي أخذ بفتوى ابن باز رحمه الله وغيره في وجوب نصرة الشيشان بالمال والنفس؟ أي ضرر يحدثه عمر على بلده الذي خرجت منه هذه الفتوى؟

لماذا يُلاحق وهو الذي لم يحمل سلاحاً ضد حكومة بلده، ولم

يُكفِّرها، ولم يُحرِّض عليها؟ ألم يترك علي بن أبي طالب الخوارج ولم يبدأهم بقتال؟

من يفترض أن كل جهادي هو مشروع إرهابي مثله مثل من يفترض أن كل حكومة هي مشروع كفر؟

ثم لماذا يصدُق على الحكومات التفريق الشرعي في الحكم بغير ما أنزل الله بين الكفر والفسق والظلم، ولا يصدُق على الجهاديين التفريق بين التكفيري والباغي والمسالم؟!

ألا تستطيع الحكومات أن ترى أنها تدفع باستفزازاتها هذه بأعداد كبيرة في سوق العمل المعادي لها والمُحرِّض عليها؟

من عساه يعجب من غضب الشاب المتدين الذي يرى حكومته التي دفعته للذهاب إلى أفغانستان وسهلت له طريق الوصول إلى هناك تطارده وتقبض عليه وتتهمه بالإرهاب؟!

عمر الذي أعرف لم يكن يوماً تكفيرياً، لكن لا ضمانة بأن لا يصبح كذلك، فالخوف كما الحب يصنع المستحيل!

في التاسعة مساءً كنت أول الزبائن الداخلين إلى المرقص. فضلت أن أُبكِّر حتى أختار زاوية آمنة وهادئة بعض الشيء. الركن الأيسر الخلفي الذي يقبع أمامه بأمتار المشرب الرئيس كان مكاناً مثالياً. فاجأني وجود باب للطوارئ خلفي يقود إلى درَج. لم أدرِ بوجوده من قبل.

جلست، كانت الفرقة إياها، جاءت الفتيات ليسلمن عليَّ، لم يكن لي من مفر، صافحتهنَّ يداً بيد، حتى وصل الدور إلى تلك التي كانت ترسل لحظها إليَّ في المرة السابقة. مدَّت يدها، وخدَّها، ففعلتُ ما كنتُ أنكرهُ على بخيت.

انتابني شعور بالخيانة كريه جداً.

ما الذي يسمح لي ولا يسمح لبخيت بفعل كهذا؟

لا أدري. أدري فقط أنني شعرت بزلزال يمور في داخلي لم أستطع تجاوزه سوى بالتفكير في عمر.

ما الذي دفع عمر لدعوتي للقائه في هذا المكان؟ كيف عرف بهذا المكان؟ هل سأل بخيت عنه؟ ألم يكن ذلك ليثير شكوك بخيت؟ ماذا لو جاء بخيت اليوم؟

قطع حبل أفكاري دخول عمر إلى المرقص. أشرت إليه بيدي. أشعر أنني في خضم فيلم بوليسي عن المافيا.

جاء وعانقني. خلع جاكيته ثم جلس. جاءت الفتيات ليسلمن عليه. صافحهن واحدة واحدة، وهو يبتسم، كمن اعتاد على فعل ذلك.

نظر إليَّ، ثم قال: أنت تفهم، أليس كذلك؟

- أنا لا أفهم شيئاً. أصبح عاجزاً عن الفهم في أماكن مثل هذه!

- دعنا الآن من هذا الموضوع.

- نعم دعنا من هذا الموضوع، وأخبرني لِمَ اخترت هذا المكان بالذات؟

- توقعت أن تسألني هذا السؤال، فأنت حقنة حقيقية. شوف يا سيدي: اخترت هذا المكان لأنني مراقب هذه الأيام، ولأنني خشيت لو سميت لعابد مكاناً أن يتحصلوا عليه منه بالتهديد أو بغيره. وعابد لا يعرف المكان الذي شاهدت فيه بخيت أول مرة.

- طيب وما أدراك أنت بهذا المكان؟

- بخيت.

- بالله أخبرني كيف تم ذلك، لأنني لا أستطيع التفكير بطريقة مناسبة تسأله بها عن هذا المكان من دون أن تثير شكوكه أو حساسيته؟

- وهل ما زال بخيت حساساً كما كان؟ أنت لا ترى الأشياء كما هي الآن. أنت تراها من خلال زاوية يسيرها حدسك في الماضي. أنت مشوش يا متعب.

لا أدري لِمَ تذكرت في تلك اللحظة ما قاله بخيت بخصوص الفتنة.

- طيب يا عمر. ماذا ستفعل الآن؟

- لا أدري. أخشى على والدتي. أعرف عابد جيداً. ليس من ذلك النوع الذي يحسن إخفاء قلقه.

- حسناً علينا أن نعمل بسرعة يا عمر. يجب أن تحدد الطريقة التي ستدخل بها، لأنني سأجهز في اليومين القادمين طريقة خروجك. لا تقلق كثيراً في ما يخص الكيفية التي ستخرج بها. طريقة الدخول هي ما يجب أن يقلقك.

كانت الموسيقى تصدح بأغنية «البرتقالة» وكانت الفتيات يضربن بأرجلهن على الأرض بالطريقة الغجرية العراقية المثيرة.

نظر إليَّ عمر ثم قال وهو يقترب من أذني: لدي خطة للدخول. خطة آمنة وموثوقة.

- ما هي؟

- إذا قلتها لك سأكون مضطراً لقتلك. قالها مبتسماً، ثم أردف: أخبرك في الغد إن شاء الله، لأن الموضوع طويل وفيه تفاصيل كثيرة.

- ولِمَ لا يكون الآن؟

- لأنني لا أستطيع البقاء في مكان واحد مدة طويلة.

- لكنك لم تجلس معي سوى ربع ساعة.

- كل ما استغرقه ضرب البرجين لم يزد على دقائق، قالها باسماً وهو يهم بالخروج.

- انظر من أتى يا عمر؟

كان بخيت وثلاثة من أصحابه يدخلون إلى المرقص. صرخ الطبَّال: أهلاً بالشيخ بخيت وبمن معه. أهلاً بأهل السعودية. تحية للشيخ بخيت.

قال عمر باسماً: وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

لبس جاكيته ثم قال: لنتقابل غداً الساعة العاشرة مساءً في السيف. في محل «التوب تن» للأشرطة الغنائية الغربية. إن لم آتِ لا تقلق. اذهب للسعودية مباشرة. وتأكد أنني سأرتب للقائك خلال يومين.

وخرج من الباب الخلفي للطوارئ.

بعد دقائق خرجت خلفه.

في اليوم التالي وفي التاسعة والنصف كنت في المكان. غريبة هي الأماكن التي يختارها عمر، وكأنَّه يتعمد وضعي أمام نفسي، أمام خياراتي، أمام مرغوباتي. إنه يعلقني برجلي. أنا في قبضته مثل طفل.

يجعلني أشعر وكأنني أعيش حياتين، هويتين، شخصيتين، قناعين، قناعتين. مع عمر تشعر أنك في خضم بطولة حقيقية. عمر يجعلك تشعر أن الأمر جد، وأنك ومن دون أن يقول لك ذلك: بطل حقيقي، تضحي من أجل قضية إنسانية حقيقية وكبيرة.

هي المرة الأولى التي أشعر فيها أن حياتَي وهويتَي وشخصيتَي

وقناعيَّ وقناعتَي يتفقون جميعاً لعمل شيء جيد، شيء لا أندم عليه طوال عمري.

قد تكون سلوى، أو محاولة للتعويض عن فشلي في أن أكون مجاهداً شهيداً في سبيل الله، لكنني لن أعدم أجر صلاة الله على من جهز غازياً ومن حمى مجاهداً ومن ساعد بطلاً شريفاً.

اشتريت بعض الأسطوانات المدمجة لبعض السيمفونيات العالمية لتشايكوفسكي وفيفالدي وباخ وتشوبان. إضافةً إلى بعض الأسطوانات الأخرى للبيتلز وسيلين ديون وبول ماكرتني وألتون جون، وأخفيتهم وطويت عليهم الكيس، احتراماً لمشاعر عمر الذي يُحرِّم الغناء!

بلغت الساعة العاشرة والثلث. بدأت أقلق لم يكن عمر يصل متأخراً لهذا الحد في المرات السابقة. تذكرت ما قاله حول وجوب أن لا أقلق إذا لم يأتِ. قررت العودة إلى السعودية كما نصحني، وانتظار لقائه خلال يومين كما وعد.

في كل مرة أسلك فيها طريق جسر العودة، يمر بي طيف عمر.

لقد بتُّ مرتبطاً به أكثر مما كان حين كان في مدينتي. لقد أصبح الآن بمثابة مشروع، ممثل حقيقي لأحلامي وآمالي، ضحية مؤجلة. كنت كمن يحاول أن يمنع جريمة من الوقوع. الجريمة كانت في وئد حلمي وأملي، في القبض على عمر الذي أعرف، والذي لم يكن مجرماً في يوم.

لم أكن لأسمح لهم بالقبض على عمر، حتى لو أدى ذلك لأن أدفع حياتي ثمناً. سأشفع لوالدتي وستنسى ألمها حين يُسمعنها العجائز أحاديث الشهداء. لم أكن لأقول هذا لعمر مباشرة وذلك حتى يستمر في أخذ حيطته وحذره، وحتى لا يتخذ أي إجراءات من أي نوع لافتدائي بأي طريقة كانت.

وصلت إلى كابينة الجمارك البحرينية، وعزمتُ على التدقيق في كل الإجراءات، بالطريقة ذاتها التي فعلتها في الخروج من السعودية والدخول إلى البحرين في ذلك اليوم، لأنني سأكون مضطراً إلى مناقشة جميع هذه التفاصيل مع عمر في حال قرر الدخول بطريقة رسمية من خلال هذا المنفذ.

سلمني رجل الجمارك ورقة الخروج. لم يكتب عليها عدد المسافرين، ففي حال كان عمر معي لن يختلف الأمر كثيراً.

وصلت إلى الجوازات البحرينية، الشيء نفسه حصل؛ خُتِم على جواز سفري بختم الخروج.

في الطريق إلى الجوازات السعودية كنت أفكر بأن طريقة الدخول التي أمر بها الآن مشابهة جداً في إجراءاتها الرسمية بطريقة الخروج التي اختبرتها سابقاً. فلمَ لم تخطر على بالي وأنا أتناقش مع عمر! لمَ اخترت مسألة الخروج وليس الدخول؟!

لم يكن السبب حينها أن الجمارك السعودية أشد ضبطاً وأمناً من البحرينية.

لعل السبب هو أنني اكتفيت باكتشافي لتلك الثغرة عن رؤية ما سواها. كانت غائبة عن ذهني تماماً.

وقفتُ بسيارتي أمام كابينة الجوازات السعودية، وبدأت اختبر مرة أخرى. لم تُطلب مني ورقة الجمارك ليُختم عليها ويُكتب عدد المسافرين، بل اكتُفيَ بختم جوازي. هذا يعني أن مسألة الدخول أسهل كثيراً من الخروج التي يختم فيها موظف الجوازات على ورقة الجمارك ويكتب عليها عدد المسافرين!

مررتُ من عنده.

وما هي سوى ثوانٍ قليلة حتى كنت أمام أكبر تحديات حياتي.

خرج عمر من الجزء للخلفي لسيارتي، رفع التكَّاية، وزحف على المقعد الخلفي، واستقر بجانبي قبل أن نصل إلى الجمارك السعودية!

عبدالرحيم منصور، الوطني!

كانت مفاجأة كبيرة!

اختفى المحقق السابق، وحلّ بدلاً عنه عبدالرحيم منصور!

بشحمه ولحمه!

لا أدري ما الذي جرى له، وما الذي أتى به هنا. هل انتقل إلى قسم المباحث؟ وكيف يتحول عسكريٌّ ذو منصب كبير إلى مجرد محقق؟ هذا إذا كان موجوداً هنا بالفعل من أجل التحقيق معي؟

عرَّفني إلى نفسه بالقول:

- أنا من سيقود التحقيقات معك بدءاً من الآن، فلقد انتهت مهمة المحقق السابق معك.

- أنت عبدالرحيم منصور. كنت سأذكره بجملته التي قالها في أزمة الخليج والتي ظلَّت ترن في رأسي لسنوات: «لو دخل العراقيون إلى المنطقة الشرقية، لهربت بعائلتي إلى الجنوب...»، لكنني خشيت أن أكسب عداوته، فلا أعرف ماذا صنع منه جهاز المباحث!

- ماذا؟

- أنت اسمك عبدالرحيم منصور، وكنت صديق شقيقي الأكبر.

قلتها ولم يرف له جفن أو يبدو عليه الارتباك. أربكني ذلك وأظهرني في صورة المتملق الذي قد يكون يخفي شيئاً!

ابتسم ثم قال: لا يا عزيزي أنت مخطئ. لكن لا يهم كثيراً من أكون، بل من تكون أنت!

ثم أكمل وهو يقلب عينيه في الأوراق التي أمامه:

- أنت غريب بعض الشيء. فأنت مثقف جداً، وصاحب كتابات جميلة، تحب الدين وأهله، والجهاد وأهله، والديموقراطية وأهلها! ومع هذا فأنت عنيف جداً تجاه إيران وسوريا وحزب الله وعملاؤهم. تدندن كثيراً حول دولة الحقوق والمؤسسات، وتدخل مواقع المعارضة وتشارك فيها!

- لم أشارك فيها، هذا غير صحيح.

- لا يهم. سنعرف إن كنت شاركت أم لا.

أكاد أقسم أنَّه عبدالرحيم منصور، لكنه يبدو مختلفاً.

قال: دعنا نبدأ من حيث انتهيتم بالأمس، فلا داعي لإعادة طرح ما تم طرحه. وأنصحك يا عزيزي أن تقول كل ما لديك، فلا أحد قبلك خرج من عندي وهو يخفي شيئاً. قالها بثقة وبجدية وتحدٍّ ظاهر. ثم أردف بسؤاله الأول:

- ما الذي دفعك لدخول منتدى الإصلاح، ألا تظن أن هناك إصلاحاً حقيقياً يجري على قدم وساق؟ منذ سؤاله الأول هذا أدركت أنني أمام يوم طويل من الحوار الفكري الخطير، والذي يتطلب دقةً وحرصاً وذكاءً.

- أنا متعوِّد على قراءة كل الاتجاهات ودراسة كل الأفكار وبحثها وبحث مدى علميتها وصدقيتها. أما من ناحية الإصلاح، فنعم، أعتقد أن هناك نيَّة حقيقية للإصلاح، لكن لا يوجد منهج واضح لهذا الإصلاح. وبناء المنهج هو دور الأجهزة التشريعية والتنفيذية.

- هل تقصد أن الحكومة لا تملك منهجاً حقيقياً للإصلاح، وأن ما تقوله مجرد دعاوى وشعارات لا رصيد لها على الأرض؟

- أنا لم أقل هذا. ولا أدري لِمَ تحبون أيها المحققون أن تثبتوا أن من أمسكتم به مجرماً مهماً ومؤثراً، وتحاولون بشتى الوسائل إلصاق التهم به، وجره إلى المربعات اللغوية المبهمة والفضفاضة!

صفَّق بيديه، ثم قال: الله الله. إيش البلاغة هذي؟ جاوب وبلاش لف ودوران، وإلا أقسم بالله أعلقك في سقف الغرفة مقلوباً! قالها بصوت عالٍ ويده اليمنى تصنع قبضة!

- أجب عن سؤالي؟ قالها والزبد يظهر في زوايا فمه.

- كل بلاد العالم لا تحكم فقط بالقيادة السياسية. هناك قيادات اجتماعية وثقافية ودينية قد لا تسمح بهذا الإصلاح.

- وهل تعتقد أن الحكومة غافلة عن هذا؟

- لِمَ تريد مني أن أزدري الحكومة؟! قلتها وأنا أظن أن نوبة أخرى من الغضب ستجتاحه، لكنه فاجأني باستراتيجية جديدة هي الهدوء التام. وكأن وظيفة المحقق هي عدم تحقيق ظنون المتهم فيه!

- أنا لا أريدك أن تفعل ذلك، ولن أسمح لك بذلك. لكنني أريد أن أفهم، فنحن في تحقيق، وأنت في حاجة ماسة إلى أن تصوغ أفكارك بوضوح، وبأكبر قدر من المنطق، وإلا فسأظن أن هناك ما تخفيه!

بدأت أشك أن الذي أمامي هو عبدالرحيم منصور! لم يكن عبدالرحيم مثقفاً أو جيداً في ترتيب أفكاره وقولها بهذه الطريقة. أطرد الشك بالقلق، فلا يهم كثيراً إن كان هو عبدالرحيم أم لا، المهم أن أخرج من هنا سالماً.

- وهل تعتقد أن الناس يؤمنون أو يتخذون مواقفهم بناءً على المنطق؟ وأنهم حين لا يفعلون ذلك فهم قطعاً يخفون شيئاً؟ ماذا لو سألتك هذا السؤال: هل من المنطق أن يُجرَّ شخصٌ إلى التحقيق لمجرد دخوله إلى موقع في الإنترنت؟ لا أدري كيف أتتني الجرأة لقول هذا!

ومرة أخرى لم يثر أو يغضب، بل تجاهلها!

- طيب. دعنا من هذه المماحكات. وأجب عن سؤالي.

- الحكومة ليست الله العالم ببواطن الأمور وخفاياها وشُعَبها المجتمعية. وهي تعلم قبل أي أحد آخر أن الإصلاح لا يتم بسهولة بل يريد عملاً طويلاً وجهوداً متضافرة وصبراً جميلاً. والرسول ﷺ لا يعلم كل شيء، وحادثة تأبير النخل في المدينة مشهورة، وبئر بدر، وآراء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مقابل آراء النبي ﷺ الاجتهادية البشرية، كل هذا يثبت أن لا أحد يستطيع أن يدرك كل ما يجري حوله. وليس في هذا ازدراء للحكومة فمسؤوليها بشر يصيبون ويخطؤون.

- إذاً أنت تظن أن الإصلاح الذي تنادي به الحكومة هو أمر غير ممكن؟

كان هذا سؤالاً جيداً من لدن عبدالرحيم، لكنني كنت قد عزمت على الصراحة.

- لم أقل هذا. أنا قلت أنه أمر صعب جداً وأن الإصلاح يحتاج إلى مجتمع مدني ومؤسسات أهلية وفعاليات ثقافية وفكرية وسياسية مهمة. ولهذا صرَّح خادم الحرمين الشريفين أكثر من مرة أن «التغيير يحتاج إلى صبر».

- وصلنا خير! مجتمع مدني ومؤسسات أهلية، إذاً أنت تدعو للديموقراطية.

بدأ الوطيس يحمى، وما زلتُ أعوِّل على صراحتي التي لا أدري أين سُتلقي بي.

- وماذا تسمي ما قامت به الحكومة في ما يخص انتخابات المجلس البلدي؟ أليس ذلك أحد مظاهر الديموقراطية؟

- لا، فذلك أمر تسيير للشؤون المجتمعية غير السياسية.

- وهل الديموقراطية هي الديموقراطية السياسية فقط؟!

- هل تريد أن تقول إنك مع مظاهر ومجالات الديموقراطية المتنوعة سوى مظهرها السياسي؟

- لا. أنا مع مظاهرها كلها بما فيها السياسية، لكن من دون منازعة في الحكم، فأمر الحكم مفروغ منه. أنا فقط مع توسيع انتخابات المجلس البلدي لتشمل مجلس الشورى.

- إذاً أنت ترفض النظام السياسي الحاكم؟!

- هل لي أن أقبل أو أن أرفض؟! يا سيدي هذا واقع موجود شئنا أم أبينا. أنا أطالب بخطوة جديدة إلى الأمام. وخطوة إنشاء مجلس للشورى كانت خطوة جيدة في وقتها، لكننا اليوم أمام تحديات جديدة وكبيرة ليست ضد الحكومة فقط بل والشعب!

- أفهم أن هذا تهديد.

- ليس تهديداً يا سيدي، لكنه حقيقة. فما أعنيه هو التهديد الخارجي، وليس الداخلي، فأنا أعتقد أنه لا وجود لتهديد داخلي حقيقي مهما كتب الكاتبون أو تمنطق المتمنطقون!

- وما هو هذا التهديد الخارجي؟

- إنه التهديد الأمريكي والفارسي. الجميع يعلم أن أمريكا تجد بغيتها وفرصتها في التدخل في شؤون الدول من خلال الحديث حول عدم شرعية حكومات هذه الدول ما دام نظامها السياسي غير ديموقراطي، وأما الفرس فمطامعهم الدينية والتوسعية لا تخفى.

- هل يجب أن نسمي مجلس الشورى مجلس الأمة أو البرلمان حتى يرضى الأمريكان؟

- لا يا سيدي. الأمريكان لن يرضوا حتى تتبع ملتهم كما في القرآن الكريم، لكن الأمريكان أيضاً ليسوا سذجاً، فهم يعلمون أن مجلس الشورى هذا هو مجلس مُعيَّن وليس منتخباً، وبالتالي سيستمرون في الضغط والابتزاز.

- لم أفهم. لكن دعني أسألك سؤالاً خارجاً عن هذا الموضوع.

- تفضل.

- ما قرأته في ملفك أنك كاتب إنترنتي منحاز إلى قضايا الأمة في المجمل ومدافع عن الدين وأهله، وناقم شديد على أعداء الأمة من صليبيين ورافضة وعلمانيين. لم أدرِ أنك تملك فهماً سياسياً أو رأياً من هذا النوع. أين تشكل هذا الوعي السياسي؟

- هل هذا سؤال شخصيٌّ؟

- نعم.

بدأت أشعر أنَّه عبدالرحيم. بدا واضحاً أنَّه يتعاطف معي وأنَّ غضبه في البداية كان مسرحياً لجعل التحقيق يمضي بشكل رسمي.

- لم يتشكل في مكان آخر سوى في الإنترنت، فأنا قارئ نهِمٌ جداً.

- ما رأيك في الجهاد في سبيل الله؟ لم أدرِ هل كان سؤاله امتداداً للسؤال الشخصي السابق أم استكمالاً للتحقيق!

- الجهاد في سبيل الله فرض مذكور في الكتاب والسنَّة، وهو دفاع عن المستضعفين والشيوخ والولدان.

- أليس هذا ما يدِّعيه التكفيريون والخوارج اليوم؟

- هذا هو الجهاد يا عزيزي، ولسوء الحظ يستطيع كائناً من كان من الفرق والجماعات أن يحشر نفسه في زمرة الجهاد وأهله، لكنني أزعم أن الخوارج والتكفيريين ليسوا سوى قلة.

- قلة وفعلت هذا كله. ألا يعني ذلك أننا في حاجة لمراقبة منابع التدين خصوصاً وأنها مرشحة للتحول إلى محاضن للتكفيريين والخوارج؟

- لا أملك إجابة عن هذا السؤال، لكنني أظن أن الخوارج والتكفيريين لا يستطيعون العيش في محاضن التدين، بل في الزوايا المظلمة التي يُدفعون إليها.

- لماذا أشعر أنكم أيها المتدينون لا تثقون بما نقوله لكم أو يقوله لكم الإعلام؟

- لماذا تصفني بالمتدين؟

- لأنك متدين! كل شيء يدل على ذلك. دع عنك اللحية، والثوب القصير، فشباب الحادي عشر من سبتمبر لم يكن بينهم ملتحٍ أو ذو ثوبٍ قصير!

- هل تقصد أنني أُخادع وأتستر؟

- كثيرون يخادعون، لكنني لا أظن أنَّك تخادع. هل تجبني عن سؤالي الآن؟

شعرتُ بالسلامةُ. وكنتُ فرِحاً في داخلي. أحسستُ بأن قلبي ورئتاي بدآ يعودان إلى عملهما الطبيعي!

- هذا صحيح. أنا لا أثق بإعلامنا. وأعتقد أن من صالح الجميع في عالمنا العربي أن يُفك هذا الارتباط بين الحكومة والإعلام. إعلامنا يشبهكم يا رجال الأمن والمباحث!

- ألا تشعر أن هذا حكم جائر، وأنه لا يجوز لك أن تتكلم بهذه القطعية وكأنك المتحدث الرسمي باسم الشعب. من أعطاك هذا الحق؟

- طيب من له الحق في التكلم باسم الشعب؟

- الحكومة.

- ومن أعطاها هذا الحق؟

- بوجودها على سدة الحكم وبالشرعية التاريخية، ولأنها ملكت قائداً عبقرياً استطاع توحيد هذه المملكة المترامية.

لا أكاد أُصدِّق أنه عبدالرحيم. لقد نضج كثيراً. ليس هذا فقط بل بات محاوراً جلداً.

- يا عزيزي أنا أتكلم على الحكومة لا على الدولة. الحكومة شيء والدولة شيء آخر. لكن دعني من هذا الفرق الذي ليس هذا مجال نقاشه، أنت بردك هذا تقول إن الحكم موجود يعني بفرض الأمر الواقع أو بشرعية «التغلب» كما هي في الفقه الإسلامي. وهل تعتقد أن هذه شرعية قادرة على أن تؤسس لإصلاح حقيقي؟ وأما حديثك عن موحد الجزيرة فلا ريب أنه عبقري ملهم، وقد حقق إنجازاً تاريخياً غير مسبوق، وستظل هذه البلاد تدين له. لكن ما كان جائزاً بل وواجباً في السابق لم يعد كذلك اليوم. العالم اليوم لا يقبل سوى الشرعيات الديموقراطية «الحقيقية».

- هل تقصد أن الشورى ليست ديموقراطية حقيقية؟

- لا يهم ما أقصد، أو ما أظنه، المهم ما يظنه هذا العالم.

- ألم تكن تقول إن النصارى لن يرضوا عنَّا ما لم نتبع ملتهم؟! وهل يخفى عليك أن هذا العالم بقيادة أمريكا لا يهمها الديموقراطية بقدر ما تجد فيها منفذاً للعبث في شؤون الدول؟

- لا يخفى هذا عليَّ، لكن لِمَ نعطيها المبرر لأن تفعل ذلك؟ لنؤسس ديموقراطية حقيقية فلا يصبح أمام أمريكا سوى غلق هذا الملف الذي تهدد به وتبتز دولنا العربية بين حين وآخر. ثم لا تنسى أن هناك مكاسب داخلية كبيرة للدولة، فإشراك الشعب يعد بمثابة نقلة نوعية لها مردود إيجابي على هذا الشعب وعلى ولائه للحكومة.

- وهل تعتقد أن أمريكا في حال أسست الحكومة ديموقراطية حقيقية كما تقول ستتركنا وشأننا؟

- لا لن تتركنا وشأننا، لكنها لن تجد مبرراً قوياً لهجومها علينا كما تجده الآن في ظل غياب الديموقراطية.

- طيب، دعنا نتقدم خطوة: ما الذي يجعلك تظن أن الشعب يريد الديموقراطية؟

- وما الذي يجعلك تظن أنه لا يريدها؟

- عدم وجود مطالبات حقيقية.

- وهل تسمح الحكومة بهذه المطالبات؟ وكلنا رأينا الذي جرى في حق أصحاب البيانات والعرائض.

- وهل توقيع فرد أو اثنين أو عشرة أو ألف يعني أن الشعب يريد ذلك؟

- دعنا نقلب السؤال: هل وجود فرد أو اثنين أو عشرة أو ألف يرفضون ذلك يعني أن الشعب لا يريد ذلك؟ بالله عليك، أي شعب

يرفض أن يشارك حكومته في تسيير شؤونه، وفي المراقبة على الفساد، وفي تنمية موارده، وفي كفالة فقرائه، وفي دعم تعليمه ووووو...

- من يدريك، فشعبنا ذو خصوصية.

ضحكتُ بلا وعي، ثم قلت بصوت ممطوط: الخصوصية. هذا بلا أبوك يا عقاب.

ليس ثمة بوصلة للبراءة

بندر ينزلق أكثر في العمل الجهادي. يكبر عقله بسرعة شديدة. سنَة واحدة في الجهاد تعادل عشر سنوات خارجه. تفارقه الشكوك عن نفسه، تتمدد شكوكه أكثر بخصوص العلاقة بين السنَّة والشيعة وموقفه كسني على أرض يشكل الشيعة غالبية سكانها. موقف جيش المهدي وفيلق بدر يربكه. يحاول قدر استطاعته عدم الانجرار إلى المستنقع الطائفي.

ينسى بندر أن الأمر في العراق «قاتل عدواً وتحصل على آخر مجاناً».

اضطرت المقاومة في خضم حربها مع المحتل الصليبي إلى الدفاع عن نفسها ضد الميليشيات الشيعية، والتي وجدت مبررها في بيان الزرقاوي الذي دعا لقتل الشيعة بصفتهم خونة وعملاء!

ينظر بندر إلى عموم الشيعة نظرة سلبية لقبولهم ما يقوله ملاليهم حول كف اليد عن قتال المحتل! يتساءل: هل يحتاج المسلم لفتوى تقول له إن مِن الواجب عليه إخراج المحتل من أرضه. المسلمون جميعاً يعلمون ذلك، بل والكفار يعلمونه! الفيتناميون علموه، الفرنسيون الذين احتلت ألمانيا بلادهم علموه، العرب الذين احتلت بلدانهم علموه، الهنود علموه، الأفارقة علموه...

قد يكون مبررهم أن هذا الاحتلال بالنسبة إليهم ليس أكثر من شركة تنظيف تخلصهم وتطهر لهم الأرض العراقية من الوجود السني الديكتاتوري ممثلاً في الطاغية صدَّام حسين. أليس هذا مبرر كل العملاء والخونة؟

لماذا يقفون بيننا وبين المحتل، يحاربونه في لبنان، ويُسالمونه في العراق وأفغانستان؟

لماذا يريدون فك الضغط عن المحتل من خلال جرنا إلى حروب طائفية.

في عرض العالم وطوله، عقلاً وشرعاً، كان المتعاونون مع المحتل خونة يجب قتلهم وسحلهم في الشوارع، حتى يعلم كل أحد أن هذا جزاء من يخون وطنه!

يشعر بندر أنه «فهم» ما يجري وأن السياسة ليست أكثر من أداة لتعسير فهم ما يجري. كان العراق بالنسبة إلى بندر نجاحاً مريحاً ومطمئناً للتفسير والتحليل الديني في مقابل التفسير والتحليل السياسي.

نجح التفسير والتحليل الديني مع الصهاينة، وفشلت السياسة في تفسير التعنت الصهيوني الغريب، وفي التأييد الصليبي له!

نجح التفسير والتحليل الدينيَّين مع الفرانكفونيين الجزائريين، وفشلت السياسة في تفسير الكفر والتبعية.

الشيء نفسه في تركيا، وقبل ذلك في البوسنة والهرسك حين قتل الصليبيون المسلمين، ومثله في الشيشان وداغستان وطاجكستان وكشمير.

من نُصدِّق؟ آللهُ نُصدِّق أم البشر الأذكياء؟

كيف يُصدِّق الناس هؤلاء الأغبياء؟

ألا يؤمن الناس بقول الله تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾، ألا يؤمن الناس بقول الله تعالى ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾، ألا يؤمن الناس بقول الله تعالى ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾؟ هل يجب أن يُصرِّحوا لنا برغبتهم في تنصيرنا كي ندرك عدم رضاهم؟ أليس فرض طرائقهم في نمط الحياة والعلاقة بين الجنسين والتفكير هو فرض لتبعية ملتهم؟

ما الذي أصاب الناس؟ هل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون؟

أم أنهم تبايعوا بالعينة وأخذوا أذناب البقر ورضوا بالزرع؟

بندر مثله مثل أي شاب متدين، يؤمن بوجه «وحيد» لتلك العملة الغريبة التي لا يتم تداولها سوى في مدينة الله!

- هيه يا بندر.

- نعم، ورفع بندر رأسه ليجد عمر واقفاً أمامه!

- هلا والله. قام واحتضنه.

- هلا بك. كيفك بندر؟

- الحمدلله. كيفك أنت؟

- الحمدلله.

- ما هذه الزيارة المفاجئة؟

- لا، أبداً. أحببتُ فقط السلام عليك وأن أتبادل معك أطراف الحديث في موضوع ما.

- الله يسلمك، تفضل. قالها بندر والقلق يتسلل إليه.

جلس عمرُ وانهمك بندر في عمل الشاي.

- ما رأيك في هذه التنظيمات الجهادية يا بندر؟

- ما فهمت السؤال! ما رأيي فيها من ناحية ماذا بالضبط؟

- من ناحية كونها متنوعة ومختلفة ومتفرقة.

- أنا لسه صغير ولا أفهم سر هذا التفرق والاختلاف إذا كان الهدف واحد؟ ممكن يكون وراء هٰذا أهداف تخفى عني، فهذه أول مرة أخرج فيها للجهاد. أنت ما رأيك؟

- رأيي أنَّها شر!

- هل تقصد اختلافها وتنوعها أو فكرة التنظيم؟

- كلاهما!

وقعت الإجابة على بندر كالصاعقة! فقائده الذي ينتمي إلى جيش المجاهدين يقول له إن تنظيم جيش المجاهدين شر؟! وللتأكد مما فهمه، قال بندر:

- باستثناء جيش المجاهدين، أليس كذلك؟

- لا، ليس كذلك.

- لكن، كيف عساها تسير عجلة الجهاد من دون تنظيم؟

- أنت تفهمني خطأً، أنا مع الترتيب والتنسيق والتحشيد لكن ليس وفق تنظيم تكون لديه قيادة سرية تلزم المجاهد بالسمع والطاعة.

- وهل يمكن عمل ذلك، أعني وجود تنظيم تكون القيادة فيه استشارية علنية مثلاً؟ هذا مستحيل. من يقود هذا الترتيب والتنسيق والتحشيد؟

- أنت ما زلت لم تفهمني. أنا لا أقول بعدم وجود قيادة، بل بكونها سرية وتلزم المجاهد بالسمع والطاعة وكأنها ولاية أمر شرعية.

- وأين هي ولاية الأمر الشرعية في بلداننا؟

- لا تتحول تكفيرياً يا بندر. انتبه، لا تجعل إحباطك وغضبك ينحرف بك.

- أنا لستُ تكفيرياً، لكن من يلوم الذين يتحولون تكفيريين وهم يرون كل هذا الضعف والبؤس والذل الذي لا أحد يتحرك لردع المتسببين فيه؟

- حسناً جداً يا بندر. باختصار شديد، ما أردت قوله هو: لا ترتبط بتنظيمات من أي نوع، ولا تلج منزلق التكفير.

- شكراً جزيلاً على نصيحتك. كان يبدو على بندر الإحباط الشديد. فقدت صورة عمر هيبتها عنده!

التفت عمر ليتأكد أن لا أحد يسمعهم، ثم قال: هذا ليس للنشر، ستقوم القيادة قريباً بتفكيك بعض المجاميع، ومنها مجموعتكم. سيطالبونكم بالرحيل لفترة.

وقع الخبر على بندر كالفاجعة، فقال: ماذا؟! كيف يطالبوننا بترك الجهاد، بعد أن فعلنا المستحيل من أجل الوصول إلى هنا؟

- هذا أمر القيادة. وما علينا سوى السمع والطاعة.

- ألم تقل لي قبل قليل أن لا سمع ولا طاعة؟

- بلى، لكننا جئنا يا بندر وكل شيء قد استوى على بنيانه.

- لكن لنا الحق في فهم ما يجري.

- أنا معك. لكن فهم بعض الأمور يستغرق زمناً يا بندر قلت لك هذا مراراً. ستتضح الأشياء، اصبر فقط.

- وأين عساي أن أصبر، هنا أم في الكويت؟ وكم سأصبر؟ يوم، شهر، سنة، عقد؟

- لا أدري. ثم أضاف: لا يضيق صدرك. الجهاد باق إلى يوم

القيامة. وما دمت تحدث نفسك به فقد وقع أجرك على الله. لا تلتفت إلى الناس يا بندر، ثم دعني أقول لك شيئاً مهماً: الجهاد ليس فقط على أرض المعركة. أتذكر كيف استشهد رامي اللبناني؟ بعد أن مرَّض الجرحى، ولم يكن معه سلاحه.

- وماذا سأفعل الآن؟

- تصبر، وتنتظر. سكت قليلاً ثم أردف: صعبٌ أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- لكنه ليس أصعب من فقدان صديق، وترك الأهل، وتحمل نتائج كل ذلك. أنت شجاع يا بندر، شجاع جداً. حين تعود إلى الكويت لن تكون كالآخرين. بعض الذين عادوا فقدوا إيمانهم بالمعنى بالهدف بالمغزى من وراء كل ما فعلوه. كانوا كمن عادت إليهم عقولهم بعد أن عادوا وركنوا إلى الدنيا. اثبت بندر، فوراء هذا العالم الرمادي رماد، ووراء القيامة التي ستقوم عليك هناك قيامة، ووراء الكلام المعسول الذي ستسمعه مكلومون كُثُر. أنت يا بندر مبعوثنا إلى هذا العالم الذي لا يثق بجهادنا، نحن المستقلين، ولا بتضحياتنا، ولا بشهدائنا.

- أنت يا عمر تتكلم وكأننا لن نتقابل بعد اليوم، بل وكأن رحيلي غداً!

- دعني أكمل ثم قل ما بدا لك.

- تفضل.

- كلما تكالبوا عليك وألانوا لك الكلام، وأنا هنا لا أقصد عائلتك، فالعائلة غالباً غير ملومة في حرصها على بقاء ابنها بين ظهرانيها لكنني أقصد من سواهم، فتذكر إنْ ألانوا لك الكلام أنك لو

بقيت أنت وبقيت أنا وبقي صديقك وبقي الجميع عند عوائلهم فمن سيدافع عن المستضعفين من الولدان والنساء والشيوخ الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً والذين يذبحون على أيدي الكفرة والمنافقين ذبح الشياه؟ من سيُخرج المحتلين والغزاة وأعداء الأمة إن لم نفعل نحن؟ الصبر يا بندر على ظلم ذوي القربى جهادٌ هو الآخر. تذكر هذا حين تسمع أو تقرأ ما يشوه صورتنا، أو يحذر من إرهابنا، أو يلمزنا ويسخر بنا. تذكر أن هذا هو ديدن القاعدين دائماً.

التحدي الحقيقي يا بندر أن تظل كما أنت صلباً قوياً مؤمناً. وصدقني لن يكون هذا سهلاً حين تعود إلى بلدك.

دعني أخبرك يا بندر بقصة قصيرة عن شاب أعرفه، وهو من أهل مدينتي: كان هذا الشاب ذكياً جداً، ولم يكن متديناً. كان يتأتئ في بعض كلامه. لكن ذلك الجزء الذي لم يكن يتأتئ فيه كان يأتي ساحراً، ساحراً جداً، آتاه الله محبة في القلوب، بعد فترة من الزمن تدين هذا الشاب، وانطلق لسانه من عقاله، ليس لسانه فحسب بل وقلمه، وترقى وبسرعة كبيرة في طبقات الصحوة حتى كان الجميع يتنبأون لهذا الشاب بشأن كبيرٍ واستثنائي. قابلته قبل فترة، ودُهشت بأنَّه قد ترك تدينه وحلق لحيته. كان بالنسبة إلي كمن ترك حياته. يخبرونني أن بلاغته أصبحت بليدة. فصاحته متكسرة، يتأتئ كثيراً، لقد فقد شيئاً، تشعر بذلك من النظر في عينيه، مثله لا يستطيع العيش بعيداً عن التدين. حياته صراعه مقاومته، في التدين ومن خلاله وفي أعماقه، لكن لأنه فقد تدينه، فقدَ إيمانه بالمغزى من وجوده.

هذه الدنيا فتنة يا بندر، وأشد مظاهر فتنتها أنك قد تتلبط في الفتنة من دون أن تعي أنك مفتون. كل ما هنالك أنك تشعر أنك قد تغيرت، نضجت ربما أو تحررت أو انغمست كلياً في الكفر أو

الرذيلة، فكما أن حياتك بعد التدين ليست كما كانت قبله، فكذلك حياتك بعد ترك التدين. هناك هذا الفرق الذي يجعلك «تدرك» و«تفهم» و«تعي» معنى وجودك. هذا المعنى الذي لا تستطيع الانفكاك عنه مهما حاولت. التدين بالنسبة إلينا شيء يشبه أن نكبر كفاية لنتحمل مسؤولية سر خطير فعل الجميع المستحيل لنبقى غير عارفين به.

سكت عمر ولم يعلق بندر. قام من دون أن يشرب الشاي، وهمَّ بالخروح، لكنه حين وصل إلى المخرج التفت إلى بندر كمن سيقول شيئاً أخيراً ثم نظر إلى بندر نظرة طويلة. كان يعلم أنها قد تكون الأخيرة، ثم أشار بيده مسلِّماً، ومضى.

كانت القيادة تريد تجنيب المجاهدين العرب الصراع الذي بدأ ينشب بين القيادات سراً بسبب اختلاف وجهات النظر تجاه قضايا مختلفة منها الشيعة والتفاوض مع المحتل والتعامل مع القيادات السنية في الحكومة وغيرها، فاتفقت القيادات في ما بينها على إخراج المجاهدين العرب من حلبة الصراع، حتى تهدأ الأجواء، وتتفق القيادات على خطة عمل موحدة.

كان عمر يعلم بخفايا ما يجري، وكان يخشى على المجاهدين العرب، وعلى بندر بالذات الذي يشعر عمر تجاهه بمسؤولية غير مفهومة أو مبررة. كان يردها إلى أن بندر يشبه أبناء مدينته، لهجته، تدينه بالطريقة نفسها، مزاحه، طريقة تفكيره، فطرته السليمة، حبه للدين والتدين، وقبل هذا وبعده، براءته.

سيد الشهداء

- طيب يا عزيزي: أليس حكم الشعب للشعب كفر بشريعة الله؟

- بلى. هو كفر وإلحاد وزندقة. قلتها ساخراً وجازماً بأنَّ الذي أمامي هو عبدالرحيم منصور الذي لن يعارض سخريتي، وأردفت: وكل هالعالم كفرة وملاعين وشياطين ما داموا يشاركون في حكم أنفسهم. وكان من المفترض بنا أن ننتظر نزول عيسى ليحكم بشريعة محمد ﷺ!

ضحك عبدالرحيم بصوت عالٍ وقد بدا أن قولي أدهشه.

أكملتُ: الديموقراطية ليست عقيدة، وليست غاية، بل هي وسيلة مجردة. ولو كان هذا المصطلح عربياً لكان قُبِل وعُدَّ دليلاً على مواكبة الشريعة واحترامها لحقوق الإنسان! الشريعة هي دستورنا كما يقول حكَّام هذا البلاد منذ توحيدها، ولا أعتقد أن أحداً يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة، فهي أحد حقائق الحكم «المقدسة»، وأعتقد أن المعتدلين من العلمانيين لا ينكرون دستورية الكتاب والسنة عندنا. الدستور هو الأساس الذي لا يمكن تعديله أو تغييره، وأما الديموقراطية فهي وسيلة وآلة للمشاركة الشعبية التي تؤكد دعم الشعب للعملية السياسية الموجودة.

- طيب. هب أننا وافقناك على ما تقول، أي نوع من

الديموقراطية نطبق؟ البريطانية أو الفرنسية أو الأمريكية أو اليابانية؟

- كل هذا متروك للمداولة والنقاش والحراك الذي سيتحقق بعد إقرار الديموقراطية.

- طيب أنا عندي سؤال آخر دائماً ما أفكر فيه، لكن دعني أبتداءً أسألك: ماذا تشرب؟

- قهوة بالحليب. قلتها وأنا أبتسم بعد أن تيقنت أنَّه عبدالرحيم، وإلا فأي محقق قد يطلب لمتهم قهوة بالحليب؟!

بعد أن أخبر الخادم بالمطلوب، قال: ما الذي يجعل الإسلاميين أو المتدينين يظنون أن الديموقراطية ستكون في صالحهم؟

- أنا لا أرى الأمر بهذه الطريقة: في صالحنا أو في صالحهم. ثم دعني أؤكد لك أنني أتكلم بلساني ولا أمثل إلا نفسي، بل قد يدهشك أن تعلم أن ما أقوله لك هنا مرفوض لدى الكثير من المتدينين!

- هذا هو ما كنت أقصده أنكم لا تمثلون أحداً.

- بالفعل أنا لا أمثل أحداً! لكنني أعتقد أن هناك من يرون الذي أراه ومهام عملكم أن تعلموا إن كانوا يمثلون أقلية أو أكثرية. لن أتدخل في هذا، لكن اسمح لي ببيان وتوضيح ما قصدت:

- تفضل.

- كما أنني ذكرت أن من واجبنا عدم إعطاء الأمريكان المبرر للهجوم علينا بسبب عدم وجود ديموقراطية حقيقية، فيجب أن نُعطي الحكومة كل الضمانات لحفظ حقها وشرعيتها وكينونتها. الحكومة مطلقة الحرية تتغول، وكذلك الحكومة التي تتوجس من شعبها.

- لم تجبني عن سؤالي.

- أنا جايك في الكلام: الديموقراطية ضمانة للدولة. تسقط بها جميع أوراق المزايدين عليها من الداخل أو الخارج. لا يهم من يفوز في لعبة الديموقراطية. المهم أن يشعر الناس بقيمتهم وبأهمية أصواتهم.

- ما تقوله مثالي.

- لأننا لم نتعود عليه نراه كذلك، لكن هب أنَّه مثالي، هل الحياة إلا محاولة الوصول إلى المثال والنموذج!

- هل تريد أن تقول لي: أنكم لا تعارضون وصول العلمانيين لسدة التأثير؟

- أرجوك أن لا تكلمني بصيغة الجمع، وكأنني ممثلٌ عن أحد. على فرض وصول العلماني لسدة الحكم والتأثير فما أعتقده هو أن هذا الشعب الذي أوصل علمانياً هو شعب يحتاج للكثير من التوجيه والإرشاد، لكنني لا أملك إلا أن أحترم خياره، وهو خياره الذي سيُحاسب عليه أمام الله. وصول العلماني هو دليل على فشل الإسلامي الذي عليه أن يعيد ترتيب أوراقه. كما أن فشل العلماني يعني أن عليه أن يعيد ترتيب أوراقه ويقترب أكثر من الناس باحترام دينهم وأخلاقهم.

- طيب، ماذا لو وصل العلمانيون وأرادوا تغيير الدستور؟

- تصدق حلو جداً ما نفعله أنا وأنت سيدي، ها نحن نصنع ديموقراطية ودستور ونتناقش حولهما، وشرايك نطلّع أمريكا من العراق بعد شوي؟

ضحك مرة أخرى ثم قال: أكمل، أريد أن أعرف رأيك؟

بدأت أشعر أنني أتكلم إلى صديق مثقف:

- لا أعتقد أن الخشية من تغيير الدستور مبررة، خصوصاً لو وضعنا في الدستور بنداً يمنع إجراء أي تعديل أو تغيير في المادة الأولى التي ستكون بطبيعة الحال عن دين الدولة.

- حسناً، في ظنك ورأيك الشخصي من الذين سيصلون إلى قبة البرلمان في حال إقرار الديموقراطية؟

- أزعم أنه لن يصل علماني واحد!

- ألا ترى أن هذا حكم مبالغ فيه؟

- ليس كذلك، والسبب أن العلمانية لا تملك وجوداً حقيقياً لها في السعودية، فأول الكذبات التي ستسقط من حين إقرار الديموقراطية هو كذبة وجود علمانية سعودية.

- طيب وماذا تسمي هؤلاء العلمانيين الموجودين؟

- العلمانية صنيعة الحكومات في عالمنا العربي. وُجِدت لضرب تغوُّل التيار الإسلامي والسيطرة على امتداداته. ولعلي أقول شيئاً غريباً: أعتقد أن وجود العلمانية كان أمراً مفيداً جداً في فترة من الفترات!

- هل تعني بقولك هذا أنك مع وجود العلمانية أو أن وجودها في صالح الحكومة في العالم العربي؟

- لا هذا ولا هذا. قلت إن وجودها كان أمراً مفيداً في وقت مضى. كان لا بد من كبح جماح الامتداد الصحوي الفارط، وهذا الكبح صب في مصلحة الجميع، بما فيهم التيار الإسلامي نفسه. العلمانية العربية هي علمانية حكومية، والدول في حاجة إلى تيار آخر يقف معها ضد التيار الإسلامي العريض، ولهذا فالعلمانية ليست أكثر من قفاز حكومي. إنهم يدورون حول الكعبة التي خلقتهم وصنعت

منهم ردود أفعال من أجل الضبط السياسي لا غير. السعودية أيها المحقق محصنة ضد العلمانية. والموجودون منهم اليوم قلة قليلة تعيش على المعونات والدعم المادي والمعنوي من جهات كثيرة. هذه هي الحقيقة مع الأسف. المهم الآن أن ترفع الحكومة غطاءها عن هذه العلمانية وتفك ارتباطها بها، فلئن صحَّ في وقت ما هذا الارتباط، فإنه لا يصح الآن، خصوصاً والعدو هذه المرة هو عدو خارجي صائل، قد يدفع للعلمانيين أضعاف ما تدفع لهم الحكومات.

- لنعُد إلى ما كنا فيه، رغم أنه يهمني أن تعلم أنني أظنك تحمل فكراً مثيراً للدهشة، على الأقل بالنسبة إلي. سؤالي: كيف تضمن أن الديموقراطية لن تصل بأشخاص لا يستحقون، أو دعني أسألك بطريقة أخرى أكثر وضوحاً ما دامت الحكومة تمثل بُعبعاً، ما الذي سيمنع الحكومة عن إيصال من تريدهم من أبواقها أو أذنابها - حسب وصفكم - وبهذه الطريقة نعود إلى المربع الأول؟

- تراني أحب قلب الأسئلة: هل يوجد نظام آخر أفضل من الديموقراطية حالياً حتى نأخذ به؟

- نظام المستبد العادل.

- هذا بالضبط ما سيُعيدنا إلى المربع الأول. من يقول إن نظام المستبد العادل هو النظام الأفضل اليوم؟

- دعني أفعل مثلك وأقلب السؤال: من يقول إنه ليس كذلك؟ خصوصاً ونحن نرى الديموقراطيات العربية تشكو من الثورات والفوضى والاحتراب الذي يأكل كل شيء.

- هل يوجد نظام مثالي؟ هل يوجد أناس مثاليون؟ هل توجد دول مثالية؟ المثاليةُ لا توجد سوى في الجنَّة، لكننا نقارب النموذج.

- وما المشكلة في نظام المستبد العادل؟

- هي ذاتها التي تكلمنا حولها من أن العالم لم يعد يقبل الاستبداد والديكتاتوريات والانفراد بالرأي. السلطة المطلقة مفسدة مطلقة.

- عودة على موضوع العلمانية: أنت تقول إن أول الكذبات سقوطاً هي كذبة العلمانية السعودية، لكنك تنسى أن هناك اليوم أجهزة وأدوات ووسائل علمانية تشغِّل نفسها بعيداً عن العرَّاب الحكومي، فهل ستسقط هذه بمجرد وجود الديموقراطية؟

- تصدق بدأت أحس كأني زعيم معارضة على طاولة مفاوضات مع زعيم الحكومة.

ابسط يا عم عيناك زعيم للدولة.

ضحكنا سوية هذه المرة. ثم أكملت: شوف يا عزيزي، الحاصل اليوم هو أن الحكومة خصصت قطاع الإعلام للعلمانية، بحيث لم يعد أحد يسمع صوتاً سوى صوتها، ودع عنك برنامج أو برنامجين إسلاميين هنا أو هناك. حين يؤسس لديموقراطية حقيقية يكون الجميع على قدر واحد من المساواة، فيحق للإسلامي كما للعلماني كما لكل أحد أن يكون له الجهاز الإعلامي الذي يُعبِّر عنه. الناس ذوو ذواكر لا ترحم. يعرفون أن جرائدنا حكومية أكثر من الحكومة، فخيرها من لحم أكتاف الحكومة، ولهذا فلا وجود لمصداقية أو شرعية لها في وجود ديموقراطية حقيقية. هذا بالمناسبة ما يجعل بعض العلمانيين السعوديين ضد الديموقراطية! أتذكر رفض تركي الحمد التوقيع على بيان الملكية الدستورية؟ الجميع يعلم أن تركي الحمد كان حكومياً لفترة من الزمن، وكان يرفض رفضاً قاطعاً أن يكون دستور هذه البلاد الكتاب والسنَّة، ولهذا فهو يقاتل على هذه الجبهة بضراوة. خذ عندك عبدالرحمن الراشد الذي يُصرِّح أن الوقت

غير مناسب لإعمال الديموقراطية لأنها ستأتي بأناس ظلاميين، لهذا فهو ينتظر حتى تُغسل أدمغة الناس بصابونه الخاص «الراشد» كي يكونوا مهيئين للديموقراطية التي يفصلها على مزاجه! العلمانيون المعتدلون، وهم مع كل أسف يُعدون على أصابع اليد الواحدة، يعلمون جيداً من هو العلماني الحكومي الذي يحاول قدر استطاعته تجسير الهوّة بين العلمانية الوطنية والعلمانية الحكومية بدعوى حرب الخصم المشترك. المثير للدهشة لي هو أن هؤلاء العلمانيين المعتدلين لا يجدون أي غضاضة في التعاون مع الإسلاميين وفي الجهر بمرجعية الكتاب والسنة.

- هل تعني أن تركي الحمد علمانيٌّ متشدد. هل هو كافر؟

- ليس لدي هواية التخوين أو التكفير. أفضل أن أستبدل هاتين الكلمتين بكلمة «خطأ» حين الإشارة إلى المخالفة، لكن أرجو أن تسمح لي بإكمال نقطتي حول الإعلام.

- تفضل. بالله تلقى محقق مثلي يعطيك على مزاجك؟

- لا يهم ما تفعله الآن. الأعمال بخواتيمها.

ضحك، فاستمريتُ في خطبتي العصماء:

- من دون إصلاح حقيقي للنظام الإعلامي، وإتاحة الفرص للجميع على قدر متساوٍ لإيصال آرائهم ووجهات نظرهم وحيازتهم أجهزتهم الإعلامية الخاصة فلا وجود للديموقراطية. الديموقراطية حزمة كاملة (Full package).

- لكنك تعلم أن الديموقراطية أن تأخذ ثم تطالب بالمزيد.

- المزيد هو تمظهرات هذه الديموقراطية وتنوعاتها لا أُسسها الحقيقية التي تقوم عليها كالحرية السياسية والإعلامية والشخصية التي

منها حرية إبداء الرأي وإنشاء الأجهزة الممثلة والمعبرة عنه. هذه الحريات يجب أن تقر مع إقرار الديموقراطية. أن تقر فعلياً لا أن تقر على الورق ثم يجري الالتفاف عليها، كما تفعل بعض الحكومات من التفافها على بند: أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد للتشريع!

- يا عزيزي أي حكومة غبية تفعل مثل هذا الإصلاح الثوري؟

- يا عزيزي هذا ليس إصلاحاً ثورياً، هذا إصلاح سلمي. إننا نخشى على وطننا وعلى حكومتنا وعلى حكم الأسرة التي نحب، فالديموقراطية ضمانة حقيقية، وحائط صد قوي ضد التوغلات الأمريكية والفارسية التي تأخذ أشكالاً فكريةً متعددةً اليوم...

صمتنا لثوان. وجلسنا ننظر في وجوه بعضنا. ثم وقف ومدَّ يده مصافحاً وقائلاً: تستطيع الذهاب الآن.

فاجأني جداً، لكنني لم أتردد في مصافحته، وقبل أن أهم بالانصراف سألته:

- وهل سيتم استدعائي مرة أخرى، لأنني بصدق في منتصف الطريق الآن بين وظيفتين، وأخشى أن يتم استدعائي بعد أن يتم إقرار استقالتي من وظيفتي الأولى، وقبل إقرار انضمامي للوظيفة الثانية.

- لا تخشى شيئاً، فإن تم استدعاؤك فسيكون ليوم أو اثنين فقط. وبالمناسبة، أبلغ تحياتي لشقيقك الأكبر الذي تقول إنَّه يعرفني!

خرجت وأنا لا أعرف إن كان هو عبدالرحيم منصور أو لا، فجملته الأخيرة أعادتني إلى الحيرة. خرجتُ وأنا غير مُصدِّقٍ أنني قلتُ ما قلتُه هنا في مبنى المباحث وفي حضرة أحد محققيهم!

لا بد أنَّه عبدالرحيم منصور ليقبل ما قلته، وليتسامح معي بهذا الشكل...

مغامرتي الأولى

- ماذا تفعل أيها المجنون؟

- لا شيء. أسافر معك؟ ألا تريد رفيقاً؟ أهكذا تُقابل أصدقاءك؟ ثم يا أخي ذبحني الحر في «شنطة» السيارة وأنا في المواقف! خذ، ضع جوازي تحت جوازك وأنت تقدمهما لموظف الجمارك الذي سيقوم بالتفتيش.

مدَّ لي جواز سفره. كنت في أشد حالاتي رعباً. لقد فاجأني. تلفتُّ خشية أن يكون قد رآنا أحد. خفَّفتُ من سرعة السيارة حتى ألتقط أنفاسي، وحتى تعود الدماء إلى وجهي الذي شحب من هول المفاجأة.

- اصمد. كلها دقائق ونخرج. حافظ على رباطة جأشك.

لم أستطع أن أرد عليه. كان عقلي يفكر بسرعة تفوق سرعة دوران قرص مدمج.

كنت أدرك تماماً أن رجال الجمارك يعتمدون أولاً على حدسهم حول المسافرين، ثم على ارتباك المسافر وتوتره وانفلات أعصابه وحركة عينيه. حركةً واحدة غريبة تصدر عنك تعني أن وراءك «بلاء».

تقف السيارات عادة أمام ما يشبه البوابة. يقوم أحد رجال

الجمارك الواقفين أمام هذه البوابة بتوزيع السيارات على المسارب التي تتناثر على اليمين واليسار والتي يقف على رأس كل واحد منها رجل جمارك هو المعني بالتفتيش:

- 13.

- 13! لا أؤمن بالتشاؤم. قلتها على مضض، وأنا أبلع ريقي محاولاً الظهور بمظهر اعتيادي.

أخذتُ نَفَساً عميقاً قبل أن أوقف السيارة في المسرب. نزلت وأنا أحمل ورقة الجمارك البحرينية، وتحتها جواز سفري وجواز سفر عمر.

أدركت أنني لم أتصفح جواز عمر، لأرى إن كان قد سافر بجواز سفره العادي أم بجواز سفر آخر، بالاسم نفسه أم باسمٍ آخر. كنت في فوضى حقيقية، لكنني لم أنجرّ إلى هذه التساؤلاتٍ، حتى لا أبدو مشوشاً، لأن الكثيرين يقولون إنني لا أحسن إخفاء تشوشي!

مددت له الورقة وجوازَي السفر، فاتحاً كل سدودي الداخلية لسيل جارف من الثقة والطمأنينة. أخذها بشكل روتيني، ثم ذهب يفتش السيارة. همس عمر الذي وقف بجانبي بثقة شديدة وعلى محياه بسمة غير مصطنعة: لا تحزن إنَّ الله معنا.

عاد الموظف إلى مكاننا عند مؤخرة السيارة. وسألنا: عندكم شيء؟

- لا. كنا رايحين للسينما.

- لكنني ألمح كتباً جامعية.

- إيه نعم احنا ندرس في الجامعة، وإذا جينا راجعين مرينا سينما السيف.

- في أي جامعة؟

قالها وهو ينظر إلى عمر الذي أجاب بكل ثقة:

- جامعة دلمون.

- ما شاء الله. بالتوفيق إن شاء الله. قالها وهو يهم بدمغ ورقة الجمارك بختم الخروج، لكنه قبل أن يفعل ذلك، قلب الجوازات فأصبح جواز عمر في الأعلى، فتحه وقلبي يكاد ينخلع، وقال: عمر هاه؟

- نعم.

- بالتوفيق. وسلَّمنا الجوازين والورقة.

سلَّمنا ورقتنا إلى الجندي على بوابة الخروج، ودخلنا الأراضي السعودية.

- عمار يالسعودية! قالها عمر بفرح شديد.

- لم ننته يا عمر. ولا أظنه يخفاك أن هذا التسهيل في إجراءات الدخول قد يكون مقصوداً. ما زلنا في خطر، ثم إنني لن أسامحك أبداً على ما فعلته فيَّ اليوم!

- يا رجال اذكر الله. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

- وهل نذهب إلى المصيبة والكارثة ثم نقول إن هذا ما كتبه الله؟!

ضحك حتى دمعت عيناه، ولأول مرة أرى عمر يضحك هكذا! أحسست أن ردي كان بائخاً جداً. كيف لا وأنا ألقيه على مسامع جهادي لا يوجد من هو أقدر منه على فهم معاني المصيبة والكارثة والقضاء والقدر.

- خفتْ؟

- ما هي مسألة خفت أو ما خفت؟

- طيب مسألة ماذا؟

- كان يجب أن تنسق معي قبل الرحلة، ماذا لو أنني ارتبكت أمام رجال الجمارك، فافتُضِح أمرنا وانكشف كل شيء؟

- أنا أعرفك جيداً.

- أنت لا تعرفني جيداً يا عمر.

- وهل تظن أنني لو لم أكن أعرفك بشكل جيد، كنت غامرت بالمجيء معك؟! أنت لا تعرف نفسك بشكل جيد. أنت كما أعرفك دائماً تقلل من قدر نفسك.

كان في حقيقة الأمر لا يعرف مني بشكل جيد إلا ما عرفه في السابق.

- ماذا لو قُبِض علينا؟ هل كنت لتسلم من تأنيب ضميرك على ما زججتني فيه؟!

- لا مشكلة معي في ذلك.

وضحك مرة أخرى، أحببت ضحكته، مصادفة غريبة أن أرى ضحكات عمر العريضة النادرة في وضع مأزوم ومتوتر مثل هذا.

أُدرك أنه يكذب، وأنه سيعيش أبد الدهر بين حفر تأنيب الضمير والألم والحزن على ما أصابني لو تم اكتشاف ملعوبنا.

قال: ثم إنني قد دعوت بالدعاء المأثور: وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون.

- يبدو أن دعاءك لم يستجب، وإلا لما قلَّب الجوازات ففتح جوازك!

- ما يهم هو المحصلة.

- هذا بالضبط ما عنيته حين قلت إن الأمر لم ينته. لا نستطيع

أن نقول إن المحصلة هي نجاتنا، لأننا قد نكون مراقبين الآن، من يدري؟ ثم هل هم جنٌّ، حتى تستخدم هذه الآية معهم؟

ضحك ثم قال: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

- همممممم. أنت جاي وأنت حافظ درسك، لكن صدقني إن أمسكوا بك أنسوك دروسك، بل أنسوك طعم حليب أمك!

رنَّت كلمة «أمك» في أجواء السيارة الصغيرة. لا أفهم حتى الآن لَمَ لم يوفر بكاءه حتى يلقاها. بكى أمامي بحرقة شديدة. أزعم أنها خليط من كل شيء. فرح بالعودة، فرح بالنجاة من شرَك الجمارك، توقٌ إلى رؤية أمه، توقٌ إلى رؤية مدينته، مرابع طفولته وصباه التي غاب عنها لأكثر من عقد.

لم أستطع التفوه بكلمة حتى دهمتنا نقطة التفتيش الأولى.

- والآن ماذا نفعل؟ هل عندك إثبات؟

- جواز سفري. قالها وهو يكفكف دمعه.

- سيشكّون في الأمر، وسيطلبون البطاقة الشخصية. فمن غير الطبيعي أن يُقدِّم سعوديٌّ جوازه كإثبات في نقطة تفتيش!

- لا عليك. سأتدبر الأمر. لا تخف.

توقفنا أمام رجل الشرطة الذي طلب إثباتاتنا.

قدَّمت له بطاقتي الشخصية. نظر إلى داخل السيارة ثم قال: إثبات صاحبك؟

قدَّم عمر بطاقة عملي التي أضعها دائماً في جيب صغير بقرب منفضة السجائر، أو هكذا ظننت!

أصابني الهلع. ماذا لو طابق الصورة فلم يجدها تتطابق مع وجه عمر؟

قال الشرطي ممازحاً: تغيَّر شكلك يا عمر. صدمتني مناداته لعمر باسمه!

قال عمر ممازحاً: إيش الأحسن الصورة أو الحقيقة؟

أصابني الهلع مرة أخرى، ما هذا الجنون؟!

قال الشرطي: كلاهما في خير. الله يوفقكم. وسلَّمنا الإثباتين.

أمتار قليلة مشيناها، قبل أن أصرخ في عمر: هل أنت مجنون؟! كيف تسلمه بطاقتي يا مخبول، وكيف استطعت تغيير اسمي. هل فعلت كل هذا بينما أنا في مجمع السيف؟

رد ضاحكاً: أنا وأنت واحد!

- عمر أرجوك بطِّل هذا المزاح الثقيل.

- يا أخي أنت وشفيك زعلان؟

- كيف ما تبغاني أزعل، وأنت تزور بطاقتي!

- ومن قال إني زورت بطاقتك؟!

- يا سلام، تعطيه إثباتي، وتقول من قال إني زورت بطاقتك؟!

- يا أخي من قال إنه إثباتك. أنا أعطيته إثباتي!

- أنا أقصد بطاقة المؤسسة. وينها، ونظرت باتجاه الجيب الصغير القريب من منفضة السجائر، وإذا بطاقتي قابعة في مكانها لم تُمس.

تقصد هذي. ومدَّ لي بطاقة تحمل صورته. بطاقة مشابهة تماماً لبطاقتي التي تقبع في الجيب الصغير!

بين الإدغام والنفير

تفككت المجموعات الجهادية العربية. وعاد الكثير من شباب تلك المجموعات إلى ديارهم على أمل اللقاء في ما بعد. لم يدرِ بندر أن ذلك اللقاء القصير الذي جمعه بعمر هو اللقاء الأخير.

دخل بندر إلى سوريا في طريق عودته، وهناك تمَّ القبض عليه بواسطةِ المخابرات السورية. تدخلت الحكومة الكويتية وجرى تسليمه إليها. قضى في السجن قرابة الستة أشهر، ثم أطلق سراحه بعد وساطات من لدن نواب في البرلمان الكويتي.

خرج إلى البرزخ الجديد. كان كمن مات وقُبِر فرأى الذي كان يهرب منه.

عالمٌ آخرٌ جديد. الأماكن هي هي، الشخوص هم هم، الأشياء كما تركها، الخيارات المفتوحة إياها. ما هو أكثر كان إحساسه الشديد بالعبثية والتفاهة والرخص الذي يسكن الحياة.

التلفاز يثبت أقدامه في حياة الناس أكثر فأكثر، أحلام فضائية بالملايين. اتصل الآن. لحم أبيض وجميل يتلوى على الشاشة.

مقالات «خرائية» يكتبها كُتَّاب هُبل. اتصل الآن. كُتب كبيرة مصقولة بعناية حول ما هو «حديث» و«ساحر» و«فاتن». اتصل الآن غفر الله لك.

أحاديث حول التخلف، حول الاختلاط، حول العلمانية، حول الليبرالية، حول «كيف نتسامح»، حول «الحياة كلمة»، حول «الرسالة»، حول فتاوى مشايخ الحكومات، حول المباريات، الرّيال في مواجهة البرشا، ألمان في مواجهة تشيلسي، فريق السامبا في مواجهة التانغو الأرجنتيني.

برامج ملكات الجمال، وستار أكاديمي، ونجم الخليج، وشاعر المليون.

برامج الدجالين والمشعوذين والأبراج والشاذين والبويات.

لا شيء ذا معنى. التروس تسير متناغمة، المصائب لا تأتي فرادى، والعبث هو سيد الموقف.

عالم «عمر» الذي حذَّر منه يطوف حوله كهندي أحمر يريد اقتلاع فروة رأسه.

هو لوحده يعتمد على حدسه، وحذره.

يلمس الأشياء قبل أن يقبضها. يتفرس في الوجوه قبل أن يحادثها.

ينام كل ليلة قبل أن ينام. تخرج روحه فتهاجر إلى العراق، ثم لا تعود إلا على صوت نحيبه.

كل ليلة يتذكر حادثة المستشفى.

كل ليلة يتذكر «عمر» وركلاته في معدته. كل ليلة يكشف رداءَه لينظر إلى معدته.

يتساءل طوال الوقت:

أي معنى لحياتي هنا؟

كيف أبيع الشهادة في سبيل الله؟

يشفع الشهيد لسبعين من أهله، ويُغفر له جميع ما قدم مع أول قطرة دم تراق، ويزوَّج سبعين حورية. ويأتي يوم القيامة وجرحه يثعب دماً، اللون لون الدم والرائحة رائحة المسك.

لا شك في أن هذه الجوائز لم توضع إلا من أجل مدافعة خطر عظيم على الأمة. ولم توضع إلا من أجل عمل جليل ومقدس جداً.

يشعر أنَّه من «القلة» التي تعي ذلك. حتماً هو من القلة، وإلا فمن يعي ذلك ثم يتركه يهرب من بين يديه؟! يتألم: هل تركته يفلت من بين يديَّ؟

يتساءل أكثر فأكثر...

بل حتى من لم يعِ هذه الجوائز، ألا يستطيع أن يرى بعقله المجرد ضرورة المقاومة والممانعة لمشاريع تكسير الإرادة التي تمارس ضد الأمة من قِبل أمريكا و«إسرائيل» والمتحالفين معهما؟

هل يجب أن نكون أذل أهل الأرض وأكثرها مهانة لنبدو متحضرين وإنسانيين وعولميين؟

هل تختلف هذه المشاريع الاستعمارية عن مشاريع الإمبراطوريات السابقة كالفرس والروم في شيء؟

لِمَ لا نعلن رفض الهيمنة؟ لِمَ تجبن حكوماتنا وأجهزتنا الإعلامية والسياسية والثقافية والفكرية عن ذلك؟

حسناً، إذا قلنا إن الحكومات لا تستطيع فعل ذلك، لِمَ لا يفعل الناس ذلك؟ لِمَ لا تُسحب من أيدي أدعياء الابتزاز الديموقراطي ومنافقيه في الداخل والخارج أوراق اللعبة، وذلك بجعل الناس تعبر عن إرادتها التي تستطيع الحكومة الاحتجاج بها في وجه ضغوط الخارج!

فكَّر بندر: حسناً حكومات تجبن وتقمع شعبها وترفض خيارات الشعوب وهي خيارات إسلامية في العموم، وتحكم من خلال الرضى الأمريكي، ووفق المصلحة الأمريكية العليا بالدرجة الأولى، ألا يجعلها هذا حكومات عميلة؟!

ما دامت المصلحة الوطنية والأمنية تأتي بعد مصلحة العرش فتلك هي العمالة.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

هل يجب أن يحكمنا رجل أشقر يلبس البزة العسكرية الأمريكية حتى ندرك أننا محتلون ومستعمرون؟!

أليست الشعوب المُستعمَرة هي التي لا تستطيع أن تقول رأيها في ما يجري على أرضها؟

أليسوا واقعين تحت الاحتلال أولئك الذين لا يستطيعون أن يتحكموا بثروات بلدهم؟

أليسوا تحت الاحتلال والوصاية أولئك الذين لا يستطيعون تأسيس منظومة عسكرية رادعة تحميهم من دون أخذ الأذن من الدول الأخرى؟

ألا تعتبر مطاردة المقاومين والمجاهدين في سبيل الله وملاحقتهم وقتلهم أهم وظائف الدول الاستعمارية على مر التاريخ؟

يشعر بندر أن العالم فقد عقله وحكمته وأن الحل هو في «النفير» وأن الأمة لا تستطيع أن تحل مشكلاتها الداخلية ما دام المحتل الخارجي يجثم على صدرها.

يفكر في الشهداء الذين قُتلوا في أفغانستان إبان الجهاد الأفغاني ضد السوفييت. يفكر في شهداء طالبان والمجاهدين العرب الذين سقطوا في الحرب ضد الغزو الأمريكي.

يفكر كثيراً في خطّاب وأبي الوليد الغامدي، ودوداييف وباسل باسييف ومسخادوف، وفي أبطال الشيشان وشهدائها الآخرين الذين سقطوا في الحرب ضد الروس.

يفكر في أبطال فلسطين الذين سقطوا في سبيل الله. يفكر كثيراً في أحمد ياسين، والرنتيسي، ويحيى عياش.

يفكر في الذين يقبعون في السجون العربية ممنوعين من الذهاب إلى الجهاد في سبيل الله.

يفكر في أسرى غوانتانامو.

يفكر في الملاحقين والمطاردين.

يفكر في الخائفين الذين يجبنون عن قول الحق من علماء وكُتَّاب ومثقفين وأدباء وساسة.

يفكر أن لا بد من مغزى وراء سقوط كل هؤلاء وسجن كل هؤلاء ومطاردة كل هؤلاء.

وجُبن كل هؤلاء.

يفكر أن الخوف ولا شيء غيره هو ما يصنع المستحيلات في هذا العالم.

يطوِّف عقله فلا يجد أي لذة أو معنى للحياة في ظل الجمود والخنوع والرتابة الغريبة.

ويتذكر وهو ينتظر «النفير» الذي وعده عمر والذي لا يدري متى يجيء ولا كيف سيجيء،

أن طوبى ليست لأحد سوى للغرباء.

يدندن بصوته الشجي بأنشودة من شريط «أمجاد الدمام»:

غربااااااااااءُ ولغير الله لا نحني الجباه

غربااااااااااااااااااااااءُ وارتضيناها طريقاً للحياة

النشيد لا يفيد هنا شيئاً. قد يفيد كثيراً في العراق، لأن الأذن هناك سمَّيعة.

هنا أرض السواد الحقيقي التي تطفو على سطحها الحقائق كما يطفو على سطح العراق الرماد.

السواد يلف بعباءته الداكنة كل شيء.

لم يدرِ بندر بما ينتظره من خفاء وسم مدسوس في أعطاف هذه الحياة. ذاك بالذات ما حذَّره منه عمر.

كان عليه أن يبحث عن وظيفة. لم يكن لديه خيارٌ آخر. كان يريد أن يثبت للجميع أن المجاهدين ليسوا دراويش لا يُحسنون عمل شيء سوى الهروب.

لا يدري بندر أنَّ الهروب في أحيان كثيرة هو الحل، وأن الهروب بذاته ليس سُبَّة، بل الطريقة التي يتم بها!

عُرِضت عليه أكثر من وظيفة، لكنه رفضها. أسبابه كانت أنه لا يريد أن يرتبط بوظيفة يتضرر أصحابها حين يتركها فجأة بسبب «النفير» الآتي لا محالة. يريد وظيفة على مقاس «جهادي».

يعتذر بندر أيضاً بأن بعض هذه الوظائف مهينة كالبيع في المحلات أو العمل كسائق تاكسي أو متدرب ميكانيكي. يُقارن مهانة هذه الوظائف بمهانة الوظائف الربانية المأجور عليها المجاهد كالسقاية كصنبور ماء والحراسة ككلب!

بعد أن مرَّت الشهور. قبِل إحدى الوظائف التي عُرِضت عليه والتي ظن أنَّ تركه لها فجأة لن يصيب أحداً بضرر.

أصبح يعمل ككاتب بسيط في مجمع السفارات.

ليس هذا فقط، بل اضطر أن يعمل في مكتب يوجد فيه نساء

سافرات متبرجات! واحدة فقط كانت محجبة. لا يدري بندر كيف قبل أن يعمل في مكتب مختلط يضم سافرات متبرجات؟! لكنه ذلك الحلم الذي سبق قرار قبوله للعمل حيث جاءه عمر في المنام وقال له: لا تتردد، واقتحم الباطل في عقر داره، فإنّه الجهاد الذي أخبرتك عنه!

لا شيء يبقى سراً في الكويت، مؤكد أن لا شيء يبقى سراً لدى النساء. قطعاً لا شيء يبقى سراً في مجمع السفارات.

عرف الجميع أن هذا هو «بندر» الذي تكلمت عنه الجرائد لأسابيع. «الكويتي الاستثنائي» الذي ذهب يدافع عن العراقيين الذين احتلوا بلده في السابق!

كان هناك ما يشبه «النفير» العام ضده. لم يلقِ له بالاً، بل وجد في هذا الصد والنفور ما يُثبت صحة ما فعله. السافرات والتاركون للصلاة والشيعة لا يمكن أن ينظروا بعين الاحترام إلى المجاهد «الحق» في سبيل الله، لذا لم يهتم كثيراً.

ركز جهده على نقل صورة حسنة عن الشاب المتدين.

في مجتمع مُسيَّس كالمجتمع الكويتي كل عمل حسنٍ تقوم به هو عمل سياسي حزبي بالدرجة الأولى. أول ما تجابه به من لدن الآخرين هو التساؤلات المبطنة حول نواياك المضمرة من وراء هذا العمل. ليس فقط العمل الذي تتقاطع فيه مع الآخرين، بل حتى عملك الخاص بك. صورتك التي تريد نقلها إلى الآخرين.

لا طريق لك إلى الآخرين، فلقد ارتكبت كذا جريمة.

تدينت، جاهدت في سبيل الله، ثم قاتلت جنباً إلى جنب مع أعداء الكويت ضد الكويت وأصدقائها.

الأولى: تضعك في خانة الإسلاميين الحزبيين، إما إخوانجية

منافقين وإما سلفية دجالين، يتهكم عليهم الإعلام الرسمي ليل نهار، ويُسخِّر من أجل تشويههم جميع طاقاته وأقلامه وأبواقه.

الثانية: تضعك في خانة أعداء السلام والديموقراطية والعدالة والحرية، وتُصَنِّفُكَ جنباً إلى جنب مع أسامة بن لادن والظواهري وسليمان بو غيث. الكويت بلد ديموقراطي يدعو للسلام والعدالة والحرية، وإن طفت على سطحه قضايا البِدُون والعنصرية وغيرها.

الثالثة: تضعك في خانة الخونة. من يجرؤ على الدفاع عن العراق اليوم سوى البعثي الصرف! الكافر الملحد الذي يقول: آمنت بالبعث رباً!

أنت خائن، ولولا بقيَّة من نفوذ لوالدك العميد المتقاعد لكان مكانك الذي يليق بك أعواد المشنقة، أو في أحسن أحوالك سجن أمن الدولة.

أنت مهدد على طول الخط. تحتاج لسنوات طويلة تثبت بها حسن نواياك. كيف يستطيع كاتب صغير في مجمع السفارات أن يثبت حسن نواياه في ما يخص هذه القضايا الكبيرة؟ هذا على اعتبار أنَّه ينوي عمل ذلك فعلاً!

رغم قناعته بوجوب تغطية الوجه، إلا أنَّه لم يجد مفراً من التعامل مع هؤلاء النسوة السافرات المتبرجات.

تحرَّش به بعضهن من خلال حواراتهنَّ وغمزهن ولمزهن للمتدينين أحياناً وللجهاديين أحياناً أخرى، لكنه لم يكن يلقي لتحرشهن بالاً، ولم يكن يستجيب لاستفزازاتهن المتكررة.

كان بعض الرجال يسألونه عما يجري في العراق، فيجيب بإجابات مقتضبة...

لم يكن بندر يحب الجدال والمراء. كان يسمع بعض التعليقات

خصوصاً من النسوة السافرات من قبيل الاستفزاز، مثل: الله يحلل الإيراني عند البعثي الكلب... الحمدلله اللي الله بلاهم مثل ما بلانا، جعلهم من كذا وزود... الله يخلي لنا الأمريكان، عساهم ياخذون نصف ميزانيتنا عشان مصالحهم، ما داموا لا يحتلون أرضنا، وكلب ينبح لك ولا كلب ينبح عليك... جزاهم الله خير الأمريكان اللي ورونا في البعثي هذا اليوم الأسود... بلا جهاد بلا بطيخ. الجهاد كان يوم المسلمين مسلمين مش اليوم كلهم منافقين وكذابين ودجالين... إن كانوا صادقين يروحون يحاربون إسرائيل...

ليس هذا ملعب بندر الذي يحسن اللعب فيه.

لم يكن يجد في حواراته اليومية مع هذا النسيج الغريب من فائدة سوى تمتين للعلاقة معهم، وإثبات نقاء وصراحة وصدق ووطنية الجهاديين. لم يكن يروق له ما يفعله، لكنه تعامل مع الأشياء باعتبارها مؤقتة، في انتظار «النفير».

في أحد الأيام وزعت عليهم المحجبة بطاقات دعوة لزيارة جمعية خيرية تعمل فيها متطوعة. كانت الجمعية تقيم حفلاً ترويجياً لافتتاح فرعها الثقافي.

لم يستطع بندر أن ينم تلك الليلة. يفكر في عمر، يفكر في المرأة التي مسح عمر على خدها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. لا يدري ما السبب الذي جاء بها تلك الليلة.

اعتذر بندر لزميلته المحجبة عن الحضور.

لطالما شعر بدون أي مبرر منطقي بأن «التنظيم» أو «التجميع» لا يغدو مشروعاً سوى في الحرب، في الجهاد في سبيل الله.

لا يستطيع أن يدغم نفسه في شرعية أخرى غير التي رآها وعالجها وانخرط فيها.

لقد ظنَّ أنَّه إنْ استجاب لشرعية ما خارج هذا كله انتهى حلمه وفقد مشعله وجاس في ظلام مدلهم من الحيرة والتردد الذي ينتهي عادة بـ«الافتتان». اجعل بينك وبين الحرام حزاماً شائكاً من الحلال الممنوع.

اليد القابضة المعروقة خير وأحب إلى الله من اليد السفلى، تطوعية كانت أم مثقفة. متى حررت جمعيات خيرية أو مؤسسات ثقافية الأمة من أعدائها؟ هل سنحارب جحافل الأعداء بالثقافة؟ هل سنردهم بالعمل الخيري؟

يحتج بأن مثل هذه الجمعيات ذات التأثير الهامشي لها من يقوم بها، ومن يسد ثغرها، ومن يحافظ عليها وأن الجهاد في سبيل الله له الشيء نفسه.

كره بندر خوفه هذا، لكنه أحب فيه أنه ما زال بندر الذي يعيش ويؤمن بنبوءة عمر حول مجتمع «الفتنة».

يخشى الأيام القادمة وما تحمله في رحمها.

ويخشى أن ينزوي أكثر في محارته مع نبوءة عمر، حتى الدروشة.

وينتظر الحل.

ينتظر «النفير».

في المصيدة

ما الذي يجري؟

كيف استطاع عمر أن يربط مصيري بمصيره، وأمني بأمنه؟

اختبأ في سيارتي، ثم دفعني لتهريبه عبر الحدود، ثم هو يزوِّر فيستخرج بطاقة مشابهة لبطاقة المؤسسة التي أعمل بها. إضافةً إلى أن كل من مررنا بهم في الجمارك ونقطة التفتيش ورأونا معاً لن يُؤيدوا دعوى الإجبار تحت تهديد السلاح؟

ثم ماذا عن هذه البطاقة اللعينة؟! سيسألون ويبحثون حتى يجدوا موظفاً في تلك المؤسسة تربطه بعمر علاقة صداقة أو قربى فيمسكون بي، ولا شك.

لا يحتاج أي محقق بسيط سوى لربط هذه الوقائع معاً ليجعل مني عضواً في تنظيم القاعدة، إن لم أصبح قائد الجماعة في المملكة!

أين ذهب حرصي؟

وأين اختفى شكي؟

هل بهذه الطريقة يسقط الأبرياء في الأفخاخ، ويفر المجرمون الرئيسيون؟

هل أنا بريء فعلاً؟

هل يهم الجهات الأمنية هذا؟!

وعلى اعتبار أنهم صدقوا حسن نواياي، هل يعفيني ذلك من مسؤولية ما فعلت؟ ألا تكتظ السجون بأصحاب النوايا الطيبة، «المغفلين»؟

لكنه لم يترك لي خياراً. هل كنت لأستطيع العودة وأنا أمام بوابة الجمارك؟ كان ذلك سيثير الشكوك قطعاً.

وماذا كان ينبغي علي أن أفعل، وأنا أراه يُقدِّم بطاقة المؤسسة للعسكري؟ هل كان ينبغي علي أن أوقفه عن فعل ذلك؟ إنه لا يترك لي خياراً. وبدلاً من أن تنفرج الخيارات، إذا بالخناق يضيق علي أكثر!

لقد بدأ دوري بإبداء رأيي الخاص في الطريقة المناسبة للخروج، وإذا بسقف مساعداتي يرتفع شيئاً فشيئاً. حتى بتُّ وكأنني عضوٌ في التنظيم. فما فعلته حتى الآن لا يفعله سوى عضو أصيل قادر على التضحية رهن الإشارة!

هكذا أنا دائماً. ارمِ في طريقي مسكيناً تجدني قد تورطت إلى الآخر في المسألة! كيف والمسكين عمر، والقضية رؤية والدته؟

أفكر في والدتي، وفي خشيتي الدائمة عليها لو قُبِض عليَّ، وفي الفوضى التي تتملكني تجاهها، فمرة أقول لن أفعل ذلك الفعل من أجلها، ومرة أقول بل سأفعله من أجلها!

لقد ربط عمر معصمي بمعصمه بقيد حديدي واحد، ووضع مفتاحه على الحدود.

هل كان عمر واعياً بالمأزق الذي يدفعني بين قرنيه؟

هل خطط لهذا كله؟ وإن كان فعل فلمَ لمْ يشاورني على الأقل؟

ما هو مريح في هذا كله، أنني ما عدتُ في حاجة لاختبار درجة ثقة عمر فيَّ.

لكن من يدري، لعلي كنت الخيار الوحيد أمامه؟

لا شيء مريح في هذه العملية، لا شيء.

- أين ستنزل يا عمر؟

- اذهب إلى بيت بخيت.

- ماذا؟ أجننت؟

- لا. لم أجن. لمَ تستغرب؟

- أخشى عليك يا عمر؟

- أتخشى علي أم على نفسك؟

- لو كنت أخشى على نفسي، لما قمت بكل ما قمت به.

- لعلي لم أجعل لك خياراً.

- كانت الخيارات كثيرة.

- متأكد؟

- لا. لست متأكداً، لكنني أزعم أنك غير متأكد أنت الآخر.

- شوف: أنا أثق ببخيت أكثر مما أثق بك، بل أكثر مما أثق بأخي عابد، إن كان ذلك يمثل سلوى لك.

- وما سبب هذه الثقة الكبيرة؟

- أسباب كثيرة.

- منها؟!

- كرهه الشديد للدولة. إخلاصه لأصدقائه القدماء. بخيت قد لا

يكون شخصاً جيداً، قد يوصف بأشياء سيئة كثيرة، لكن ليس منها الخيانة أو الوشاية.

- هل تتكلم على بخيت المتدين أم بخيت الذي لم تلقه سوى مرة واحدة؟

- أتكلم على بخيت.

- هممممم.

- ثم لا تنسى أمراً، إن بخيت يسكن مع أخيه في بيت على أطراف المدينة. وليس أمامه جيران يرون الداخلين والخارجين، وجيرانه المجاورون عن اليمين واليسار هم عوائل هندية وباكستانية، الأمر مأمون هناك.

- طيب هل تكلمت معه على هذا الموضوع؟

- نعم.

- وماذا قال؟

- وافق وذكر أنَّه سيكون في انتظاري.

- لكننا في حاجة إلى التريث يا عمر، وسنراقب البيت عن بُعد لنرى إن وُجِدت هناك أي تحركات غريبة.

- لا داعي لذلك.

- ليس الأمر أمرك هذه المرة. على الأقل هذه المرة لدي خيار.

- يا أخي لا داعي، لقد جرت مراقبة البيت لأيام من بعض الشباب، لا تخشى شيئاً.

لكنني لم أعبأ بما قال، وأوقفت السيارة غير بعيد.

لم يكن هناك ما يدعو للشك.

- تصدّق تصلح تشتغل في تنظيم القاعدة؟

- ولِمَ تتكلم عليه يا عمر وكأنك لست عضواً فيه؟

- أنا لستُ عضواً فيه.

- كثِّر منها.

- والله جَد. أنا غير منتمٍ لأي جماعة. أنا أرفض منطق الجماعة، اللهم باستثناء حالة الحربِ.

- لكنكم لا تستطيعون التنقل والتجمع والتحريض والحصول على المال سوى من خلال التنظيم، ثم إنكم تعتبرون أنفسكم في حالة حرب!

- هذا صحيح جزئياً. قد يكون هناك تقاطع بين المتطوعين والجماعات، لكن هذا لا يجعل المتطوع تنظيمياً أو قاعدياً. نحن أناس نبحث عن قتال الكفار وإخراج المحتل، وسنعمل ما بوسعنا لتحقيق هذه الأهداف. هناك من ندب نفسه للتنسيق والتنظيم والترتيب لتمرير دخول الشباب المجاهد إلى بؤر الصراع التي يُقتل فيها المسلمون تحت سمع وبصر العالم المتحضر. وهؤلاء مجاهدون حقيقيون وإن لم يحملوا السلاح.

- دعنا نكمل حوارنا في ما بعد، ها هو بخيت يصل، جيد أننا انتظرنا.

بخيت يوقف سيارته. ننتظر حتى يدخل.

نتوقف على بعد منزلين وننزل. نمشي على الأقدام باتجاه المنزل. أضغط على جرس البيت. يجيبنا على الهاتف الداخلي. أرد عليه، وأطلب قدومه. لا أخبره من أكون. أخشى أن يتهرب مني، فلم يسبق لي أن التقيْته في بيته بعد تركه للتدين.

يخرج بخيت، فيُصاب بالدهشة الشديدة من رؤيته لعمر. تلك

الدهشة التي استنتجتُ منها أن عمر كذب بخصوص ترتيبه المسبق للقاء!

يبدو أن عمر يحب دفع الآخرين دفعاً إلى خياراته الخاصة. طريقة ذكية جداً. إنه يجعلك تدعمه بطريقة ما لا يكون لك فيها الخيار، فتصبح بعدها شريكاً «تجارياً»، تربح معه، وتخسر معه.

دخلنا إلى البيت. اتفقنا على الذهاب إلى بيت والدته فجر الغد. وضعنا خططنا البديلة في حال تمت مداهمة البيت.

صلَّيت العشاء بجانب عابد ذلك المساء، ودفعت في يده بورقة أذكر فيها تفاصيل كل شيء.

قبل صلاة الفجر بساعة، كُنَّا أنا وبخيت وعمر ندخل من الباب الخلفي لبيت والدته.

احتضنه أخوه الأكبر وهو يبكي بحرارة من دون أن تسقط دمعة من عيني عمر. دلفنا أنا وبخيت بمساعدة عابد إلى المجلس الخارجي الذي تطل نوافذه على الشارع. كان لزاماً علينا أن نراقب الشارع بدقة.

سارت الأمور كما كان مخططٌ لها، باستثناء أن عمر وبعد أن قضى قرابة الساعة مع والدته اختفى فجأة، فلقد استغل ظن عابد أنه سيدخل إلى المجلس الذي نقبع فيه أنا وبخيت، لكنه انحرف ليخرج من الباب الرئيس من دون أن نراه.

وقع اختفاؤه كطامة كبرى عليَّ وعلى بخيت المسكين. لم يفهم أيٌّ منا سبب هروبه.

خرجنا من الباب الخلفي، بعد أن شرحنا لعابد - كذباً - بأن هذه هي الخطة التي اتفقنا عليها مع عمر.

من وجهة نظري كان عمر يطمح - في حال تم القبض عليه أو

علينا - إلى إثبات أننا لم نكن ضلعاً تنظيمياً معه في هذه العملية، وكان يحتاج إلى شهادة عابد وإخوته الذين سيشهدون بأنه هرب منا!

لكننا أفشلنا هذا المخطط حين ادعينا أمام عمر أن خطة الهروب هذه قد جرى الاتفاق عليها.

لقد كنا في ورطة حقيقية.

- لماذا هرب؟

- لا أدري يا بخيت.

- ألا يمكن أن يكون قد خطط لعملية في الداخل؟

- لا. عمر ليس من هذا الصنف.

- وما أدراك؟

- ما الذي يحوج عمر لي ولك لو كان من هذا الصنف؟ كان التنظيم سيقوم بكل ما قمنا به حتى الآن.

- ما الذي يمنع أن تكون خطة التنظيم هذه المرة «استخدام الأبرياء»؟

- التنظيمات لا تستخدم الهواة. ولا تغامر بحياة شخص مثل عمر. ظني أن كل ما تم هو باختياره الفردي.

- لا أظن. وانظر كيف هرب منا. إنه يحضر لشيء ما. الله يستر.

- عمر ليس تنظيمياً، ولا علاقة له بتنظيم القاعدة.

- وما يدريك؟ ألا تعلم كيف تتحرك التنظيمات السرية؟

- وما يدريك أنت؟ هل كنت في تنظيم سري يوماً؟

- لا، لكنني قرأت الكثير حول تشكيل هذه التنظيمات وحركتها وسريتها.

- طيب، قل لي ما الذي يجعلك تظن أن عمر ينتمي إلى تنظيم سري؟

- أنا لا أظن، بل أنا على يقين. هذا لا يعني أنني أضمر له شراً.

- لا تبرر يا بخيت. أنا أعرف أنَّك لا تضمر شراً لعمر.

- طيب. ويهمني أن تعلم أن رأيي هذا لا يعني أنني لن أتعاون مع عمر.

- يا أخي درينا. هات ما عندك.

- أولاً: دخول عمر المتكرر للبحرين لم يكن ليتم من دون دعم لوجستي، فالبحرين في حال لم تكن تدري ترصد بحذر شديد بالتنسيق مع الاستخبارات السعودية حركة الجماعات الإسلامية وأفرادها، شيعية كانت أو سنيَّة. البحرين كما تعلم منفذ خطير إلى المنطقة الشرقية، ومن الطبيعي أن تكون حركة رجال الاستخبارات فيها دؤوبة.

ثانياً: في ظني أن كل ما أخبرتني به حول ما جرى لكما في خط سيركما ودخولكما على الحدود كان مرتباً له وبدقة. ثم هل تظن أن عمر أو تنظيمه سيغامران بدخوله بتلك الطريقة من دون تنسيق أو ترتيب؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن عمر أو تنظيمه رتَّبوا لهذا كله. فالتنظيمات لا تسير من دون تخطيط مسبق. هذه بدهية بسيطة.

- هل تقصد أن رجل الجمارك والعسكري اللذين طلبا إثباتاتنا هما من أتباع التنظيم أو من مؤيديه؟

- لا أدري. لكن دعنا نقول إنهما في حال لم يكونا كذلك، هل تظن أن عمر لم ينسق مع جماعته لحماية ظهره؟ ما يدريك أن السيارة التي كانت خلفكما في نقطة التفتيش لم تكن لتتدخل في حال لم تجرِ الأشياء كما هو مخطط لها؟!

- طيب هذا في ما يخص العسكري رغم أن عمر لم يجرِ اتصالاً هاتفياً واحداً فمـ.....

- ما أدراك أنَّه لم يجرِ اتصالاته قبل أن يختبئ في شنطة سيارتك؟

- طيب. وماذا عن رجل الجمارك؟

- هناك خيارات وحلول كثيرة منها: أن جواز سفر عمر قد يكون جوازاً شرعياً مصدَّر من أحد السفارات المخترقة، أو أن يكون رجل الجمارك ذاك مؤيداً للتنظيم.

- لكننا لم نأتِ إلى رجل الجمارك ذاك بمحض إرادتنا، بل بعثنا إليه المسؤول عن تنسيق السيارات وتوزيعها على المسارب.

- طيب. وما يدريك أن رجل الجمارك ذاك قد وقَّت دخولكما فسرَّح السيارة التي كانت قبلكما في ذلك المسرب. ما أدراك إذا كان لم يرسل إشارة إلى صاحبه بأن المسرب فارغ؟! بل ما أدراك أن موزع السيارات لم يكن على إطلاع وعلم بكل ما يجري؟

- خيالك خصب يا بخيت.

- المال يا عزيزي يصنع المستحيلات.

- هل تقصد أن المال يشتري كل هؤلاء؟

- وأكثر. هذا طبعاً إذا لم يكونوا مؤيدين أو داعمين أو منتمين للتنظيم.

- طيب. ممكن سؤال يا ذا الخيال الخصب؟

- تفضل.

- ما الذي يدفع عمر لطلب المساعدة مني ومنك لو كان ينتمي إلى تنظيم كان يراقب أمنه من حين دخوله؟

- لا أدري.

- هل غيض خيالك الآن؟ قلتها بسخرية.

شعرت أنني بائخ، لكن ما ذكره بخيت كان يجب أن يستفزني. إنه يعني أنني أبله، وأنني أسير وراء عمر مغمض العينين، وأنني وضعت نفسي في مأزق لا فكاك منه.

ملاحظات بخيت كانت مدهشة ومثيرة وتستوجب مني وقفة أمامها. خصوصاً وأنا أشعر في أعماقي بأن عمر قد ربط مصيري بمصيره وأمني بأمنه وسلامتي بسلامته. ليس أنا فقط بل وبخيت الذي ينطبق عليه ما ينطبق عليَّ وإنْ بدرجة أقل!

لا شيء مريح على الإطلاق.

أبحث عنه وكأنني أبحث عن طفلي التائه...

أين ذهب هذا المجنون؟

لا أدري ماذا أفعل. أجوب الأزقة والشوارع بالسيارة.

ما الذي يفعله بي؟

كيف سمحت له بقلب حياتي رأساً على عقب؟

هل عرفت الآن أيها الأحمق ضرر «البطولات المبكرة»؟

هل أدركت الآن خطورة «الشهامة» البدوية الجامحة؟

أتراك تفهم شناعة ما زججت نفسك فيه؟

كان ينبغي عليك أن تمتنع عن فعل هذا كله.

كنت تستطيع أن تجد ألف مبرر ومبرر للرفض، ولم يكن

ليلومك أحد. رغم درجتك العلمية العالية ووعيك المبكر ما زلت تختار مواقفك بعاطفة بلهاء. أنت في عالم غير عاطفي، وفي بيئة مستبدة جداً حين يتعلق الأمر بالإرهاب. تركن إلى حظك الذي يخرج بك من أكثر المآزق خطراً. تظن أنك ما زلت ذلك المتأتئ الذي يستطيع الهروب من نطق اسمه أو من درس القراءة!

أنت متهور، لا أقولها بشكل يجعلك تفهم منها: أنت جريء، بل أنت متهور أحمق، لا تحسب حساب الأشياء بدقة، الجرأة شيء آخر، إنها تحقق ما يريده «التهور» من دون دفع تكاليفه.

هل تجد نفسك في هذا النوع من التهور؟

هل يوفر لك الخوف الذي تريد؟

خوفك من القبض عليك الذي يشبه الخوف اللذيذ الذي يشعر به من يرمون أنفسهم في طريق الثور الهائج في ميادين إسبانيا!

لماذا أفعل ما أفعله؟

أتراني أرمي نفسي في طريق عمر أم في طريق السلطات؟ أيهما الهائج ذو القرنين؟

أجد نفسي أمام المغسلة السريعة. أترجل من السيارة، لأقف في المكان نفسه الذي قابلت فيه عمر في المرة الأخيرة قبل ذهابه إلى الجهاد.

أفكر في ما لو استطعت إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، هل سأفعل وأتخلى عن كل ما اكتسبته في سبيل كل ما فقدته؟

هل كنت لأخلق الأشياء بطريقة أخرى؟

أنا حتى اليوم لم أقم بعملية جرد واحدة لحياتي. لا أدري هل أنا رابح أو خاسر؟ هل أنا معافى أو مخدوش؟ هل أنا عاقل أو مجنون؟

أنا إلى الآن لم أعثر على معيار واحد أستطيع محاكمة نفسي بإزائه!

من مكاني ألحظ خيال المؤذن النجدي في مواجهة دكَّان اسطوانات الغاز، ألمحه يرفع يديه بالدعاء، يقشعر جسدي، أشعر بأنني عارٍ. لوهلة أشعر بأن صورة هذا النجدي جاءت إلى مخيلتي من الله رداً على حجتي بعدم وجود معيار. المعيار يقف ها هناك رافعاً يديه. أراوح بصري بين خيال عمر وخيال المؤذن النجدي.

أركب سيارتي وأمضي بها إلى حارتنا القديمة. أمر بالبيوت بيتاً بيتاً. أركن السيارة أمام منزلنا العتيق الذي حوَّله أخي ليكون مستودعاً للسوبرماركت الذي يملكه.

أمشط الشارع بعيني. أتفاجأ أن الذكريات تهجم عليَّ بتفاصيلها. لم يحدث هذا لي في السابق رغم كثرة المرَّات التي عبرت بها بسيارتي هذا الشارع! هناك كان يجلس فلان. وهنا صدمت السيارة فلان. هنا زُفَّت فلانة إلى زوجها فلان الآتي من الجنوب. من تلك النافذة كنت أطلُّ على أختها التي تصغرها. خلف هذا الجدار كانت توجد دكان صغيرة تبيع الببسي والآيسكريم المثلج في «باقات» بلاستيكية. هناك كنت أجد صاحب هذه الدكان الشاب الحايلي واقفاً كالتمثال. لا أدري ما الذي كان يبحث عنه. كان يُقال لنا دائماً إنه يشكو من مشاكل نفسيَّة. رغم أننا ننسى هذا كله حين يلعب الكرة معنا ولا نشك لوهلة في كونه معافى.

من هنا أستطيع أن أرى صديقنا مشاري واقفاً على سطح منزلهم يتحدى أخي صديقه المقرب الواقف بجانبي أمام عتبة منزلنا والذي يمسك ببندقية الصيد «الساكتون» ويوجهها باتجاهه. كانت المسافة تقريباً 50 متراً. أطلق أخي رصاصته فأصاب مشاري في كفه الأيسر.

ما زلت أذكر أنه نزف ليوم كامل بسبب تلك الرصاصة، وأن الأمر كان ليكبر حين طلب المستشفى استدعاء الشرطة لولا تدخل والدي واتصالاته. ما زال الجرح ظاهراً في كف مشاري حتى اليوم.

في طرف الشارع من جهة الشرق، كان يسكن البحريني، لا أدري لمَ أطلقت عليه هذا الاسم، ربما بسبب لهجته القريبة للهجة أهل البحرين، كان سكيراً منطوياً على نفسه، بعيداً عن صخب الحارة وأهلها القبائليين. بعده ببيتين يقطن الفلسطيني الذي جاء إلى بلدتنا بعد النكبة. والذي ما زال أبناؤه إلى اليوم يحلمون بالحصول على الجنسية السعودية، ويتمنون لو كنَّ فتيات حتى يتحصلون عليها كما تحصلت عليها أختهم التي تزوجت من شاب سعودي متدين.

في الطرف الغربي من الشارع قريباً من السوق يسكن جارٌ من أهل الشمال، هادئ جداً، كلما رأيته تذكرت الحمامة التي تحوط صغارها. قد يكون السبب أنفه المعقوف كما أنف الحمامة! أو هدوءه وحرصه على صغاره. لا أدري، لكن هذا ما كنتُ أشعر به كلما رأيته.

دُهشت كثيراً حين علمت أن والد بخيت صاحب محل الأدوات الكهربائية الذي على ناصية الشارع لطم هذا الرجل مرة، مما استدعى تدخل رجال الحارة. طالب هذا الرجل بحقه الشرعي في المحكمة. تدخل الرجال وانتهت المشكلة باعتذار علني في المسجد. كنتُ صغيراً، فلا أذكر الآن سبب اللطمة، لكنني ما زلت أذكر أن هذا الرجل انتقل بعد الذي حصل إلى العيش في حارة أخرى بعيدة عن حارتنا.

ما الذي جاء بيِ إلى هنا أبحث عني لا عن عمر؟

أجنح في أوقات كثيرة إلى التظاهر بأن لا شيء مما حصل في

الماضي قد حصل بالفعل، لأنَّه يحفرني في العمق. ليتني أستطيع فعل الشيء نفسه مع عمر. كنت سأشعر بفرح غامر. هذا لا يعني أنني لن أشعر بفقدان للإثارة والتشويق والمتعة، لكنني أقولها الآن وبحزم: لا ضير من فقدان هذا كله في مقابل السلامة.

أنا لا أُقدِّر السلامة. هذا صحيح بالقطع، ليس لأن أمي قالته، بل لأنه حقيقة، فيكفي ما أنا فيه الآن من قلق بسبب ما فعله عمر. والسبب في عدم تقديري للسلامة أنني لم أدخل السجن مرة كي أكوِّن فكرة عما يعنيه «التقييد» و«المنع» والاضطهاد و«التعذيب»! أقسى ما حدث لي كان التأتأة وتحقيقات شفوية مع المباحث...

أترك ليدي قيادة السيارة لتذهب بي حيث تريد. أتصل ببخيت لعلي أحفل بخبر عن عمر. لا شيء.

أين عساه يكون؟

أحاول التركيز؛ لن يذهب إلى أصدقائه بالطبع وخصوصاً الشيخ بدر، ولن يعود إلى بيت أهله، ولم يذهب إلى بخيت. أين عساه يكون هذا الشيطان الصغير؟

اتصل بأخيه عابد، لا شيء.

جوالي يدق.

- السلام عليكم؟

- يا أخي وش سويت فينا؟ اتق الله فينا. أصبتنا بالهلع.

- يا أخي رد السلام أول.

- وعليكم السلام ورحمة الله بس ق.

- قابلني عند آخر مكان جمعنا قبل رحيلي منذ سنوات!

كيف لو عرف أنني للتو آتٍ من هناك؟!

أكاد أجن من هذا الشاب. وكأنَّه يراقب كل تحركاتي، ويعرف جيداً ما أفكر فيه، وما أشعر به. وحين يغلبني اليأس يخرج من تحت الذاكرة يضحك ملء شدقيه.

- اذهب إلى البر. قالها وهو يرمي بجسده على المقعد، ويلتفت يمنة ويسرة وهو يلتقط أنفاسه. لأول مرة في حياتي أرى عمر خائفاً!

- ما بك؟

- لقد اكتشفوا وجودي.

- ماذا؟ قلتها هلعاً.

- هو ما سمعت. بالكاد استطعت الفرار.

- وكيف جرى ذلك؟

- لقد عدتُ والدتي اليوم كي أودعها. ورآني أحد رجال المباحث. لا شك في أنهم سمعوا شيئاً.

- وماذا ستفعل الآن؟

- سأسافر. دعنا نكمل حديثنا في البر. على فكرة: جواز سفرك معك؟

- لا.

- إذاً أنزلني في البر وعُد إليَّ بجواز سفرك.

- عمر، ماذا أصابك؟

- ماذا، ألم تكن خطتك أنَّ تكون جزءاً من عملية خروجي؟ هل تراجعت؟

- لم أتراجع، لكنني تعبت يا عمر تعبت، فأنت تقحمني في أشياء خطيرة جداً من دون أن يرف لك جفن! هل من عادتك فعل هذا بالآخرين؟ ألا تدري أنك تعلقني على نيشان الرمي؟ ألا تدري

أنك تورطني في قضية خاسرة بالنسبة إلي؟ أي مكسب سأخرج به من كل هذا الذي يجري؟ أمَّا أنت فستنجو بفعلتك، وتعود للركض والهيعات وتلعب في ملعبك المفضل، وأما أنا فستنتهي حياتي هنا. سيلاحقونني ككلاب الصيد، ويقطعون رزقي كيهود، ويميتون والدتي بحسرتها!

هل فكرت فيَّ. قل لي يا عمر إنك فكرت في الذي سيجري عليَّ. قل لي إنك مهتم فعلاً بنجاتي، وإن الذي يهمك ليس هو فقط مصلحتك. ألا ترى أن لي أماً أخشى عليها الذي تخشاه على أمك؟

لماذا تضع الآخرين في زواياك الضيقة؟ لماذا تضع أوراق اللعبة وعقدها في يدك وحدك؟ أتظن أنك في أرض المعركة؟ هل تفعلون هذا هناك في العراق؟ هل تتخذ قرارك وحدك؟ ألا تعطي الآخرين الفرصة لإبداء رفضهم؟ هل تظن أنك الوحيد العالم ببواطن الأشياء، والمدرك لخطورتها، والمهيمن على حلولها؟

منذ اليوم الأول الذي قابلتك فيه في البحرين وأنت تتعامل مع المخاطر المحدقة بك بحذر شديد، وأما تلك المحدقة بالآخرين فبلامبالاة غريبة!

أنا أتوقف هنا. لن أكمل معك يا عمر، فلا أريد أن أتورط في قضايا لا أملك عنها معلومات كافية. اعلم يا عمر وخذها نصيحة قد تفيدك لاحقاً: أنت مدين دائماً لشركائك بتفسيرات، لا تفسر لي شيئاً الآن، لا أريد أن أفهم ولا أن أدرك، أريد أن أنسحب من كل هذا، وليس لأنني لا أثق بك، بل لأنني لا أريد أن أكون مثل الأطرش في الزفَّة.

- وهل تظن أنني أملك قبول ذلك أو رفضه؟

- من يملكه إذاً؟

- أنت. فأنت صاحب الخيار.

- أتخيرني الآن، بعد فوات الأوان يا عمر. كان لي الحق ولبخيت الحق في أن نختار وأن نفهم وأن ندرك الذي يجري. هل تعلم بأن الفزع دهمنا حين فررت من بيت والدتك، وأننا خشينا أن تقوم بالتنسيق من أجل عملية للتنظيم؟

ألا تشعر بأنه من المهم أن لا نجعل الآخرين يصابون بالهلع والخوف؟ هل فقدت هذا الشعور في مكان ما في أرض الجهاد؟ أما نحن فما زلنا نشعر أنه من الجريمة إصابة الآخرين بالهلع والخوف والرعب.

يا عمر إننا نعرف عمر الذي خبرناه في الماضي، وأما أنت فنرجو أن تعذرنا، فلا ندري أي شيء غيِّرته فيك سنوات الجهاد.

لا ندري هل أصبحت تكفيرياً تستحل دماء أفراد الشعب «الكافر» الذي يرضى بحكم الطواغيت؟ لعلك لم تصبح تكفيرياً لكنك تستبيح لنفسك استخدام الأبرياء السذج من أجل مطامع التنظيم؟

ومن يدري فلعلك لا ترى ضيراً في عمليات القاعدة ضد الأجانب المعاهدين والمستأمنين والتي قد يموت فيها أخي أو أخيك من المسلمين الأبرياء!

الحقيقة يا عمر أنك لا تقول شيئاً يجعلنا نثق بك، وحين تفعل فأنت لا تفعل سوى ما يثير شكنا وريبتنا.

- أفهم من هذا أنك لن تحضر جواز سفرك؟

- نعم. أنا منسحب كما قلت لك.

- إذاً أنت تتخلى عني.

- ليس الأمْر على هذه الصورة. ما رأيك لو قلت لك أنك تخليت عنِّي في أكثر من مرة؟ وذلك حين زججت بي في مغامرات

غبية مرعبة ومخيفة من دون أن تجعل لي خياراً واحداً. أليس هذا نوع تخلٍّ أيضاً؟ أنت تعلم جيداً أنني لو أردت أن أتخلى عنك لكنت تخليت عنك منذ كنّا في البحرين، لكن الأمر ليس كذلك. الأمر هو أنني أرفض أن أكون كالأطرش في الزفة كما قلت لك. وأرفض مهما بلغ إحسان ظني بالآخرين أن أبقى في معمعة أمر ما من دون أن أحظى بتفسيرات مقبولة. أنت لست في العراق أو الشيشان يا عمر، أنت لست في أرض المعركة، أنت في مدينتك. جئت لزيارة والدتك المريضة. لست في حاجة إلى الشك بكل أحد، وخصوصاً أولئك الذين وثقت فيهم وأسلمتهم قيادك في لحظات خطيرة.

- لِمَ لا تقول إن السبب ربما يكون عدم الثقة في أهلية الآخرين وقدرتهم على الاختيار والتماسك.

- كما تريد. لكن هذا يظل رأيك، وما دمت دخلت في مربع السرية والعلاقة مع داعميك، فأنت في حاجة للثقة بهم.

- أنتم لا تدركون ماذا فعلت الثقة المفرطة بآخرين مثلي. لقد انتهوا في السجون والمعتقلات ومصحات الأمراض العقلية. إنكم تقولون لا ندري من أنت الآن، وإننا إنما عرفنا عمر الماضي، بالطريقة نفسها لي الخيار أن أسألكم سؤال الثقة: من أنتم، فأنا لم أعرفكم سوى في الماضي. كنتم طلبة علم ودعاة وشباب ملتحين ونشطاء ومخلصين. وأنتم اليوم حليقين، تستمعون إلى الأغاني، وتدلفون إلى المراقص والمقاهي.

لا أدري لعلكم تركتم التدين وتعلمنتم أو ألحدتم. قولوا لي ما الذي يجعلني غبياً لأسلم رقبتي لملحد؟

لعلكم تحولتم إلى صائدي جوائز تتحينون فرص الكسب السريع من رقاب السذج أمثالي.

ومن يدري لعلكم تحولتم كما تحوَّل غيركم إلى أبواق يشنون غزواتهم وحروبهم بالوكالة عن الطواغيت.

ولا أعرف ماذا عساه يردعكم عن تسليمي في صحوة ضمير غير متدين مفاجئة؟

- لكنك جئت معي يا عمر، في سيارتي، ودخلنا معاً إلى بيت بخيت، ورتبنا مع بخيت زيارتك لبيت والدتك، ألا يشفع لنا كل هذا؟ ألا يجعلك هذا تطمئن؟

- أنا أثق فيكم. عكسكم تماماً. ولم أفكر لوهلة واحدة في الإضرار بكم. لكن الجهاد يعلِّم الإنسان الحذر. «ولا تغفلوا عن أسلحتكم، فيميلون عليكم. خذوا حذركم».

- لكنك لست في أرض المعركة!

- معارك الجهاديين لا تنتهي. لا تستطيع أن تجاهد وتعود إلى بلدك. في بلدك ستُلاحق، ستدير معركتك الشخصية الوطنية. إن حفلوا بك عذبوك كما يعذبك العدو الصليبي والصهيوني بل أشد. أنت بالنسبة إليهم كنز معلومات وقنبلة موقوتة، سيأخذون ما في خزائنك، ثم يتركونك تنفجر في زنزانتك.

- حتى متى ستظل تحذر؟ وحتى متى ستظل عابر جهاد؟! متى سيتوقف هذا كله؟ إذا بلغت الخمسين أو الستين أو السبعين؟ لا شك في أنك تظن أنك لن تبلغها حياً، لكن هب أن ذلك حصل، كيف سيكون حال عمر الشجاع الذي عاش ناصراً لا منصوراً، وحامياً لا محمياً، ونافعاً لا عاجزاً؟

ماذا لو قُطِعت رجليك أو يديك؟ كيف ستعيش؟ لا تقل لي إنهما سيسبقانك إلى الجنة. لا ريب أن هذا صحيح، لكن هل فكرت أن

عجزك - إن فقدتهما - قد يودي بك إلى النار حين تستبدل اليقين باليأس؟!

هل تخيلت كيف سيكون حالك مُقعداً؟ هل فكرت كيف سيكون شعورك تجاه نفسك؟ هل ستظل متمسكاً بحبال التقوى والقضاء والقدر والطمأنينة وأنت على كرسي لا تستطيع في أحسن أحوالك قضاء حاجتك من دون مساعدة؟!

- ماذا لو اقتنع كل شباب المسلمين بما قلته، هل كانت لتقوم للجهاد قائمة؟

- جهاد الأفراد لا يخرج الغزاة.

- نحن نقاتل جماعات ووحداناً، وسيخرجون.

- لا ريب سيخرجون لكن كم سنكون قد فقدنا وقتها؟

- طيب. كما تشاء، لكنني أحببت أن أقول لك ما لدي قبل أن نفترق.

ابتسم وهو ينظر إلى الفراغ، وقال: إنَّك تذكرني بشاب كويتي اسمه بندر تركته خلفي في العراق، تتشابهان كثيراً في درجة الإصرار والشك. أنتما مجاهدان صلبان، ويبدو أنني سأعيد التفكير في حقيقة وجود أنواع جهاد أخرى سوى الجهاد العسكري.

أمسك بيدي ثم احتضنني. وقال هامساً في أذني: لم أشك فيك ولا في بخيت ولو للحظة، لكنني أحذر. هكذا أنا، فلا تلمني على شيء ليس في يدي.

همست في أذنه: تكفى يا عمر، يا حبيبي، احذر أن تلقى الله وقد تلطخت يداك بدمِ مسلم.

قال: أعوذ بالله. أعوذ بالله. لن يحدث هذا إن شاء الله.

قال: اذهب الآن. وسأتدبر أمري، فلا تخشى علي لأن لدي خططي البديلة.

عُدتُ إلى مدينتي بائساً كسيراً أمشط شوارعها التي تتشابه في عيني بيوتها وأزقتها.

ما الذي فعله فيَّ هذا الـ عمر؟

جدران البيوت باهتة والدهانات التي عليها بدت مُقلَّدة ورقيقة. أملأ رئتي بالهواء كمن سيُجبر على النفاذ من شقوق هذه الجدران!

البيوت كئيبة كما لو أنها تشعر بتأنيب الضمير جراء اقترافها لخطأ الخيانة.

التاريخ والذكرى والأحلام الصغيرة والعلاقات الكبيرة تُطمر تحت طبقة سميكة من الإسفلت.

الناس ينظرون إليَّ باستغراب، الأطفال بريبة، النساء بخوف.

ليست هذه مدينتي التي أعرف، والتي تركتها قبل ساعة!

كيف استطاعوا فعل هذا كله في ساعة واحدة، وكأن الأشياء كلها بُدِّلت على عجل؟ كاميرا خفيِّة سخيفة، لكنها جارحة، ينفذ نصلها إلى العمق، العمق السحيق.

أدس وجهي بين كفيَّ وأبكي. أبكي بحرقة غير عابئ بكل الذين كانوا ينظرون. دموع المتأتئ لا تُتأتئ!

دموعي تنهمر كما لو أنَّها لم تفعل منذ الأزل. أبكي أنني خنت عمر، تخليت عنه، أسلمته إلى أعدائه!

أنا الذي لطالما تباهيت بأنني لا أخاف، خفت كجرذ. أنا الذي لطالما تباهيت بأنني قادر على التضحية، فررت كخروف العيد. أنا الذي لطالما تباهيت بأنني من أجل عمر سأفعل المستحيل، هربت ولم أفعل الممكن.

هي القصة ذاتها، الجبن ذاته، الانتكاس نفسه، التحلل من ثقل الفروسية والشجاعة في اللحظة الحاسمة.

قُبِض على عمر في لبنان قادماً من البحرين بينما كان يحاول الدخول إلى سوريا حيث كان ينوي المشاركة في تأمين عودة المجموعات العربية إلى العراق. تمَّت محاكمته وصدر عليه حكماً بالسجن لعشر سنوات.

كل ما بقي لي من عمر محض كآبة.

كآبة كبيرة، . . . ككآبة بندر الذي ينتظر «النفير».

نهاية حكاية وبداية أخرى

منذ الحلم المتدين الوليد الأول لي بالجهاد أو بطلب العلم، عاش في داخلي كلا الدورين. انقسمتُ نصفين كحبة برتقال، نصف جهادي ونصفٌ طالب علم. ليس طالب العلم التقليدي، مشلح ولحية كثة ومسواك وقال الله وقال رسوله ﷺ، بل طالب علم صعلوك، إذا جاز التعبير. نصفي الجهادي يستدعي طالب العلم، ونصفي العلمي يستدعي الروح الجهادية الثورية. طالب علمٍ صعلوكٍ بنكهة عصرية يرد عن الإسلام أفكار العلمنة والإلحاد، وجهادي عملاً بقوله تعالى ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾. كنت غافلاً عن أنَّ هناك دور ثالث يباركه هيغل.

لا أريد الآن أن أنتمي لأحد، ولا أن انفصل عن أحد. أريد أن أعيش حياتي من دون أن أخضع سوى لمعطيات أكتشفها لوحدي وأسباب أؤمن بها لوحدي وقناعات أبنيها لوحدي.

هو أمر صعبٌ جداً وشائك، ولا يمكن تحقيقه بسهولة، لكنني أنوي أن أستمر فيه على الرغم من ذلك.

لا أريد أن أكون أيديولوجياً ليس لأنها سُبَّة، بل لأنني لا أريد أن أكون إنساناً غير متوازن، إنساناً يجرمني شنآن القوم على ألا أعدل،

ولأني أؤمن أن من الخطأ التشنج والانفعال والعاطفية، وأن ما أحتاجه كي أكون مطمئناً هو أن أهدأ وأتعلم وأقرأ أكثر فأكثر.

ومن يدري فبعد أن أعمل هذا كله قد أعود لأختار الخيارات ذاتها والمربعات ذاتها، لكن بعاطفة أقل، وبعقلانية أكبر، وباتزان أعظم.

عمر وبخيت وبندر موجودون ويتوالدون ويتصعلكون بطريقتهم، يعيشون رغم كل شيء، ورغم أنف كل أحد، يختبرون الحياة من زاويتهم، ويدرسون خياراتهم، قد لا يكون بعناية شديدة، لكنهم يدرسونها، ويفضلون أشياء على أشياء ومواقف على مواقف، يرفضون الهيمنة والطغيان والذبح ويريدون للشمس أن تتمدد حتى يتسع نورها لبني قومهم، وللظلام أن ينحسر وينحني.

قد يتغيرون حين يبلغون الخمسين. قد يصبح بندر ضابطاً كبيراً في الشرطة، وبخيت مؤرخاً مهماً، وعمر شهيداً كبيراً.

قد يقرأ كل واحد منهم الآخر يوماً ما، أو يقرأ روايتي هذه، رأيي الخاص، فيدرك أن للجهاد في سبيل الله مسارب أكثر مما يتوقع أو يتخيل، وأن الأمر ليس جهاداً أو طلب علم فقط، بل حياة كبيرة ممتدة وغنية.

توقفت لسنوات عن قول ما أريد وأحجمت عن كتابة ما أرغب وانحنيت للعاصفة، لكنني حين انحنيت رفعت رأسي بزاوية لأرى ما كان داخل هذه العاصفة، رأيته بدقة، بدقة شديدة.

لم أدر لسنوات بأن هناك معكسراً ثالثاً، يتعلم فيه الإنسان أن يحمل على ظهره اسطوانة الهواء الخاصة به والتي لا تجعله على عجلة من أمره. ولا تجعل منه «مفعولاً به» على طول الخط، ولا فاعلاً على طول الخط.

تعلمت أن أنقل الحياة كما هي، أحاول أن أجعل الفرقاء يجتمعون - ولو لمرة - حول ما أكتب. أعلم أن هذا محالاً وتجديفاً على الواقع لكنها مجرد أمنية صغيرة لا يمنع شيء من حصولها، لأنني أستند إلى أن «الحقيقي» و«الإنساني» قادر على توحيد الآخرين، ولا يهم بعد ذلك إرجاف المرجفين أو تأويلات المبطلين الجاهلين.

لم أكن أنوي الكتابة عن عمر وبخيت وبندر والآخرين، لكنني في يوم ما، أحسست أن حياتي بلا ثمن، وأن ما أعرفه يساوي الكثير، وأن من حق هؤلاء الشخصيات، ومن حق الناس الذين يقرأون، أن يتعرفوا إلى بعض عن قرب، من خلال لغة غير إعلامية، لغة أكثر إنسانية، وأقل ثمناً.

عمر وبخيت وبندر وغيرهم كثير «هم المشبعون بالغضب الحانق من العوائق والمصاعب عداوة الأشياء والكون؛ ومن دونهم كنا ما زلنا في عصر الحجارة المنحوتة»، كما يصف جورج أرنو.

حين بدأت أكتب، لم يدر في خلدي الكتابة عن هذه الشخصيات. كنت أكتب عن حياتي، وكيف أنني كنت أتقيأ يومياً لستة أشهر متتالية، وكيف كنت أتشظى بفعل القهر والألم والكمد، وكيف أنني كنت أنتكس وأغوص أكثر وأكثر في ما كنت أرفضه يوماً ما، وكيف أنني أستبدل تديني بشيء قبيح ومرعب لا أعرف كنهه، وكيف أنني أنافق وأكذب وأتصنع وأناور، وكيف أن الذؤابة تفضحني، وكيف أن المظلة العريضة لا تسترني، وكيف أن خفتي تلك لم تكن تُحتمل.

اختاروني أنا!

أنا الذي لو تتبعت محطات حياته المختلفة بقلم على ورقة لخرجت برسمٍ من ذلك النوع الذي ترى فيه صورة وجهين متناقضين!

لقد جاءوا رغماً عني. دقَّ كل واحد منهم بابي في يوم عاصف.

أدخلته في فترة استراحتي من التقيؤ. وفي الصباح رحل بعد أن قال لي كل شيء، ثم أتى صاحبه الآخر في ليلة عاصفة أخرى، وفعل الشيء نفسه، ثم الثالث. أنا أقلهم شأناً، وأضعفهم تقوى وإيماناً، فلا أدري كيف استأمنوني على حيواتهم!

من يدري قد يكونوا فعلوا هذا بالذات لأنهم يدركون أنني أقلهم شأناً؟!

أنا المتأتئ بنصف لسان وهابي!

عجيبون هم هؤلاء الوهابيون الصغار.

يأتونني بحكاياهم في تلك الأيام العاصفة، وينسون أنني أنا الذي اعتدت الانحناء للعواصف. لكن مع فرق أنني وُهبت الجرأة، جرأة صغيرة غير مدفوعة الثمن، على أن أرفع رأسي كلما انحنيت حتى أنظر في ما داخل هذه العاصفة من ضحايا ومنتصرين ومهزومين وحيوات بسيطة وصغيرة وقصيرة. وهناك شاهدتهم، كأشجار السنديان لا ينحنون!

لعلهم عرفوا ذلك، ولذا جاءوا...

حيوات بريئة، ترفض الموت والظلم والإقصاء والتهميش والإذلال...

حيوات تناضل ضد العاديَّة والرتابة والسكون والصمت...

وهابية أقل أو أكثر. إنسانية أقل أو أكثر. حقيقية أقل أو أكثر. لا يهم.

ما يهم هو أنها تستحق أن تُحكى.

النهاية في 31-5-2009م

كانت هذه حكايتهم التي أرسلها إليَّ متعب مرفقةً مع إيميل يقول فيه:

عزيزي عبدالله: كما استودعتك إيَّاها المرة الأولى، ها أنا ذا أستودعك إيَّاها مرة أخرى فلقد أخبرني محقق صديق لشقيقي الأكبر في المباحث أن حادثة تهريبي لعمر (وستعرف تفاصيل هذه الحادثة في ثنايا الرواية) قد تم اكتشافها، وأن أمر القبض عليَّ بات مسألة وقت. وأقول لك ما قلته في المرة الأولى: احتفظ بها حتى خروجي من السجن ولو بعد عشر سنوات!

. . . .

بكل أسف لن أستطيع تنفيذ طلب متعب لأنه توفى في السجن بعد ثلاث سنوات. . .

كانت هذه رواية متعب التي استأمنني عليها، وأنا أنشرها كما وصلتني منه رحمه الله، فليعتقلوا روحه من عليائها إن استطاعوا!

عبد الله المفلح

حكاية وهابية

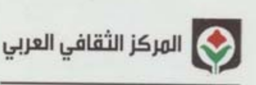
«تستطيع أن تتخيل حياتك من دون التدين. أن تنتكس يعني أن تعيش ذلك عملياً. هناك بون شاسع جداً، خصوصاً في السعودية، حيث تعيش وسط مجتمع لا تعرفه بدقة. مجتمع قادر على أن يخترع لك حياة أخرى في ثانية واحدة.

حين تنتكس فأنت تفهم معنى أن تكون متديناً بأثر رجعي. لا شيء يوفر لك هذا الفهم سوى الانتكاس، لا التدين ولا العلمنة ولا الإلحاد ولا الذكاء ولا الفكر ولا الحشيش، فقط الانتكاس، بشرط أن تعي معنى أن تنتكس. الانتكاس الحقيقي الذي يقوم على وعي الذات والخارج هو وحده ما يعطي صاحبه حقاً حصرياً في فهم ذلك الماضي. الانتكاس الذي لا يستطيع صاحبه - رغم محاولاته الكثيرة - أن يترك كل شيء وراءه».

***

رواية **حكاية وهابية**، مشهدية صادقة تنفذ إلى أعماق المشهد الديني بأطيافه المتنوعة التي تغلب الأيديولوجيا «النقية» على أكثرها. هي حكاية يسرد بطلها في ثنايا حكايته الخاصة حكايات مختلفة عن شخصيات بريئة من عالم ما قبل الصحوة، وعالم الصحوة، وعالم ما بعد الصحوة. شخصيات عاشت الصراع الأزلي بين الدين الحقيقي والتدين المصطنع، بين الحقيقة العارية والمجاز الفخم، بين التفسير الإنساني العريض من جهة والضيق من جهة أخرى، بين الجهاد كقيمة عليا والجهاد كتعبير عن الرفض.

لا يحاول الكاتب في هذه الرواية التبشير بالحقيقة المطلقة بل البحث «المطلق» عنها من خلال طرح أسئلة الأنا والآخر، ووضع العلاقة بين المسكوت عنه والمعلن في إطارها الصحيح، رغم الخطورة الشديدة التي ينطوي عليها فعل ذلك. إنها مقطع عرضي معبر عن سوء الفهم المتبادل الذي يمارسه الفرقاء، كلٌ بحسب منفعته الأيديولوجية التي يظن أن بها وحدها خلاص الفرد من وسواس الشك والحيرة.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com

